

موت أرنيميوكروث

رواية



تأليف : كارلوس فوينتس
ترجمة : أحمد حسان

المشروع القومي للترجمة

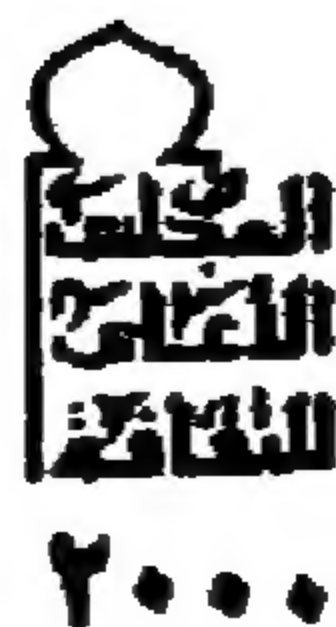
كارلوس فوينتس

موت أرتيميو كروث

رواية

ترجمة

أحمد حسان



هذه ترجمة كاملة عن الإسبانية لرواية:

LA MUERTE DE ARTEMIO CRUZ
تأليف: CARLOS FUENTES

نشر:

FONDO DE CULTURA ECONÓMICA
OCTAVA réimpresión, 1978.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠٠٠/١٥٥٩

تقديم

كارلوس فوينتس واحدٌ من أهم الأقطاب البارزين والمحركين النشطين لموجة التجديد السردي الأمريكى اللاتينى فى الستينات التى أطلق عليها اسم "الرواج" boom، والتى كان من بين فرسانها جارئيا ماركث، وبارجاس يوسا، وخوليو كورتاثار، وخوسيه دونوسو، وكثيرون غيرهم.

وهو من أغزر كتاب هذه الكوكبة إنتاجاً رغم أنه أقلهم حظاً من الترجمة إلى العربية. وقد أصبح عدد كبير من كتبه علامات بارزة فى مسيرة هذه الكتابة الجديدة.

كتب نحواً من عشرين رواية وعدداً من المجموعات القصصية أدرجها فى سجل أعطاه عنوان "عمر الزمن"، فى طموح ملحمى لإعادة الخلق الشعرية لمختلف مراحل الزمن المكسيكى واللاتينى. من بين رواياته "الإقليم الأشد شفافية" و"موت أرتيميو كروث" و"منطقة مقدسة" و"تغيير الجلد" و"أرضنا" و"الجرينجو العجوز" و"كريستوبال نوناتو" علاوة على رائعته القصيرة "أورا". ومن مجموعاته القصصية "الأيام المقنعة" و"نشيد العميان" و"شجرة البرتقال".

كتب النقد الأدبى وساهم فى التنظير للكتابة الجديدة، كما كتب الدراما وسيناريوهات عدد من الأفلام التجريبية بالإضافة إلى نشاطه الصحفى الضخم فى المكسيك والولايات المتحدة وأوروبا.

نال العديد من الجوائز توجتها جائزة ثريانتس - نوبل الآداب المكتوبة بالإسبانية - عام ١٩٨٧.

ولد فوينتس عام ١٩٢٨، نفس عام ميلاد جارئيا ماركث. كان والده دبلوماسياً. ولذا قضى شطراً من طفولته فى الأرجنتين

وتشيلي، وتعلم الإنجليزية فى إحدى مدارس واشنطن، ودرس القانون فى سانتياجو دى تشيلي وفى جنيف حيث نال درجة الدكتوراه.

أكسبته فترات إقامته الطويلة خارج بلاده وجولاته التالية فى عواصم العالم إتساع أفق نادر ومعرفة واسعة باللغات الأوروبية الحديثة وإنشغالا يقارب الهوس بتاريخ المكسيك والقارة اللاتينية. أما ولعه بالسينما فبارز بحيث يجبر النقاد على البحث عن منابع المؤثرات التى تركت طابعها عليه ليس فقط لدى الكتاب السابقين عليه (بلزاك، كافكا، فوكتر، بورخس، أستورياس، رولفو، كاربنتييه... بين عديدين غيرهم) بل كذلك لدى فناني السينما الكبار من أمثال بونيويل وأورسون ويلز. وأعماله لا تقتصر الاستفادة من السينما بل هى سينمائية فى بنيتها على نحو عميق كما يظهر بوضوح فى الرواية الحالية.

وبمثابة تقديم للرواية الحالية التى حققت لمؤلفها شهرة عالمية فور صدورها، سأحاول إلقاء الضوء على الإطار الفكرى الذى نتجت عنه الرواية وذلك بالتركيز على إيراد مقتطفات على لسان فوينتس ذاته.

يرى فوينتس أن كل ثقافة وأدب القارة اللاتينية قد مرّ بثلاث مراحل. هذه الحلقات الثلاث، هذه الدوائر الثلاث، المتماصة أحياناً، هى اليوتوبيا، والملحمة، والأسطورة.

فقد تم اكتشاف القارة والتفكير فيها على أنها يوتوبيا. لكن هذه اليوتوبيا سرعان ما تم نفيها ودمّرتها الممارسة العملية للاكتشاف والاستعمار. وجه كورتيس ضربة قاصمة لتوماس مور وجعلت الضرورة التاريخية اليوتوبيا تدرج فى الملحمة.

"وقد عشنا تحت علامة الملحمة طوال حياتنا تقريباً، كانت رواياتنا ملحمة وفتنا ملحماً. لكن في اللحظة التي تنضب فيها هذه الطاقة الملحمة، يبدو أنه لا يتبقى لنا سوى إمكانية أسطورية".
والمحمة تعنى أن يكون للقارة تاريخ مقدس، أى أن تحيا خارج التاريخ. بينما تتيح الأسطورة إمكانية إعادة التقاط ذلك الماضى، "الخروج من ذلك الماضى، الذى هو تاريخ خالص، تاريخ ليس ملكاً لأحد، كى ندخل فى الديالكتيك. الخروج من كتابة التاريخ (...)
للدخول فى الديالكتيك، الذى هو صنع التاريخ وصنعه بالأساطير التى تمنحنا خيوط (...). كل ذلك الماضى الطويلى والملحمى من أجل تحويله إلى شيء آخر. فمن طريق الأسطورة نعيد تفعيل الماضى".
طوال ذلك الماضى، كان الكاتب الأمريكى اللاتينى يعمل إنطلاقاً من امتياز مجموعة نخبة تقدمية قرأت، منذ زمن حروب الاستقلال، مونتسكيو وروسو، وأرادت نقل العالم المتحضر الذى تمثله الدساتير الفرنسية والأمريكية والبريطانية إلى القارة الهمجية. وحين تم فرض تراكم العالم الرأسمالى الأمريكى الشمالى فوق البنيات الإقطاعية وشبه الإقطاعية للقارة، فقد الكاتب موقعه ضمن النخبة وسقط فى غمرة البورجوازية الصغيرة. تحول إلى موضوع، لكل تناقضات، وكل استلابات، وكذلك كل أحداث ذلك المجتمع الاستهلاكى المتراكم فوق عالم القرن السادس عشر. تحول الكاتب من واعظ إلى كاتب حقيقى يشارك فى الخطيئة والذنب وينغمس فى وضع مشترك مع البشر الآخرين.

"واعتقد أن الرواية الأمريكية اللاتينية الجديدة قد ولدت، إلى حد كبير، من هذا الوضع الجديد للكاتب فى أمريكا اللاتينية ومن وعى جديد، بمعاصرتة، إذا عدنا دوماً إلى هذه الفكرة لأوكتابيو پاث، وإلى وعى بأن الواقع ليس هو تلك الثائية البسيطة، المانوية، التى

يقدمها لنا ثيرو أليجرًا، وخورخي إيكاثا، ورومولو جاييجوس، بل إنه واقعٌ ملتفٌ إلى ما لا نهاية يوجد فيه مصير تراجيدى معين، لأننا ننتبه إلى أن العادلين والظالمين مذبذبون، ومن هنا ينشأ التوتر التراجيدى".
"أعتقد، كذلك، أن المشكلة اليوم، هذه المشكلة التى تضى ثراءً على الرواية الراهنة فى أمريكا اللاتينية، هى أننا نحيا فى بلدان مازال علينا فيها أن نقول كلَّ شيء، لكن مازال يجب فيها إكتشاف كيف يقال هذا الكل شيء".
المشهد هو نفسه؛ وما تغيّر هو القدرة التخيلية التى تضيؤه.

المشهد هو نفسه، لكنه، بعد كل هذا التاريخ الشديد الاضطراب، يثير الخوف "من كل القاع الكامن للبلد، من ذلك القاع التعبيري، العنيف، والباروكى الذى هو، أكرر، رابطتنا الحقيقية مع عالم أصبح عنيفاً، وتعبيرياً، وباروكياً وتناظراته حالياً هى البوب آرت والكامب؛ هم جونترجراس ونورمان ميلر، وأندى وار هول وسوزان سونتاج، وچوان بايز وبوب ديلان".

الواقع، خصوصاً الواقع الحضرى، فى المكسيك ينطوى، فى رأى فوينتس، على اليوب، والكامب، والبيت Beat. ويتذكر أن بريتون سمى المكسيك باسم الأرض المختارة للسوريالية، و"إذا كان مؤكداً أن السوريالية هى دوماً هذا التوتر بين الرغبة والشئ المرغوب، فإن التوتر فى المكسيك أقوى بكثير، لأن الفجوة بين الرغبة وموضوعها ضخمة. إنها هاوية حقيقية: وكل إلتقاء للرغبة بالواقع فى المكسيك عليه أن يكون فوق - واقعى بالضرورة".

كما أن فى الواقع المكسيكى وجودية قبل التسمية. فالمكسيك هو بلد اللحظة الراهنة. فالغد غير محتمل تماماً، وخطر.

و"ثمة عالم كامل من الإدراكات المتجاوزة - للحواس مضى آرتو وميشوه وهكسلى بغية إكتشافها فى المكسيك".

وإضاءة هذا الواقع لا يمكن أن تكون بالتسجيل النصى الممل، ولا بالوصف الفوتوغرافى، ولا بالرسالة المنقولة بالصراخ.

فمع نهاية الملحمة ماتت الثائيات التبسيطية السهلة: الحضارة ضد الهمجية؛ الإنسان فى مواجهة الطبيعة؛ الطيب فى مواجهة الشرير؛ الفنى فى مواجهة الفقير... إلخ. وأصبح الواقع ملتبساً وظنئياً. لم يعد ما هو موجودٌ خارج الوعى، بل كذلك إنطباعه فى الوعى واللاوعى. أصبح وقائماً منعكسة فى مرآة خيالات وأحلام وكوايبس وشكوك وهلاوس الكاتب. وأصبح الأمر المهم فى الروايات الجديدة هو ذلك الجوهر التخيلى. ذلك الخيال الخاص بالأدب. مما دفع النقاد للحديث عن "واقعية سحرية" بعد أن كان أليخو كاربنتييه قد تحدث عن "واقع عجائبي". والتسميتان كلتاهما لا تحيلان إلى عالم فوق - واقعى، مثل الصور السورالية، ولا إلى عالم خارج الواقع، مثل عالم الأدب الفانتازى، بل تشيران إلى البحث عن ما هو عجائبي فى الواقع اليومى وفى وعى الكاتب به.

ويرى الكاتب والناقد ماريو بنيديتى أن روايات فوينتس نموذجية فى أكثر من جانب لأنها قدّمت رواية اجتماعية بأفضل المعانى الأدبية للكلمة. "فقبل أن توجد بوصفها نقداً اجتماعياً، بوصفها نزاعاً لأقنعة النفاق، توجد هذه الروايات بوصفها أدباً. وكلها ذات بنية قصصية وصلبة. ومثلما لدى العديد من الوحوش المقدسة للفن الروائى المعاصر (فى ذهنى جويس، وفوكرز، ودوس باسوس)، ليس ثمة ذرة من الفوضى

لا تعتمد على تنظيم مليمترى".

يقول فوينتس: "فجأة" ننتبه إلى أن اللغة هي أحد العوامل الموضوعية للواقع وإلى أن الكاتب الذى يتحكم فى اللغة يصبح هو الإجابة الوحيدة الممكنة على النزاع اللفظى للسلطة. إنها إمكانية الوحيدة لإعطاء الواقع معنى آخر، بإفتراض أن الواقع فى أيامنا هو كلمة".

"إذ نشهد صراعاً محتدماً بين لغتين: لغة السلطة الكاذبة ولغة الفنان الأصيلة".

"والاستخدام الحقيقى للغة يُخضعنا لنزعة ثورية يومية، دائمة، تتمثل (...) فى وضع كل شىء موضع التساؤل، حالة بحالة ولحظة بلحظة؛ وهذه هى الطريقة الوحيدة للمشاركة فى التاريخ".

فَاللغة "إما أن تكون حرة أو لا تكون؛ والحرية بالنسبة لى هى الإبقاء على هامش الهرطقة، الإبقاء على الحد الأدنى من الانشقاق حتى لا تغلق تماماً أبداً أبواب الطموحات العينية للبشر العيينين".

"بالنسبة لى هناك حقيقة جوهرية: فى كل الروايات الجديدة لأمريكا اللاتينية ثمة، بداهة، بحث لغوى. ثمة رجوع إلى منابع اللغة. وإذا لم تكن هناك إرادة لغوية فى رواية من أمريكا اللاتينية، فهذه الرواية بالنسبة لى غير موجودة".

وعند جارشيا ماركث، وعند بارجاس يوسا، وعند دونوسو، وعند بيشتى لينبيرو، هناك، بداهة، إرادة للعثور على لغة هى، فى نهاية المطاف، إجابة الكاتب على متطلبات فنه وكذلك على متطلبات مجتمعه. وأعتقد أن إمكانية المعاصرة تكمن هنا.

هذه الإجابة المزدوجة على متطلبات الفن ومتطلبات المجتمع تتضمن مُركباً، نوعاً من الأخلاق اللعبية أو من تسييس اللعب مهماً بشكل استثنائى.

"... وبعبارة سوزان سونتاج، هناك توترٌ نمطى فى الثقافة والفرن المعاصرين بين القطب الأخلاقى المُستمد من العبرانية، ومن الأناجيل، ومن ماركس وما شابه ذلك، وبين القطب اللعبى لذى الجنسية المثلية، ولعناصر التزيين، ولرؤية الأشياء بوصفها ليست ما هى عليه، لنزع طبيعتها: أى إرادة الأسلوب. وعند بونيويل هناك مركبٌ عبقرى من اللعب ومن الجدية، يكون المرء فيه جاداً وهو طائش، وطائشاً وهو جاد. جدلٌ أصيل من أجل قول أشياء تضىء واقعنا بطريقة رائعة"... "الرقعة فى العنف والبحث بإعتباره تحققاً للتعارضات المتنافرة، شذوذ البراعة". وهذا المركب ينطبق تماماً على الأعمال الروائية لفوينتس ذاته.

ضمن هذا الإطار يمكننا فهم طموح رواية "موت أرتيميو كروث" التى يصفها فوينتس بأنها "حوار مرايا" بين جوانب شخصية كروث المحتضر. إذ يقول فى حديث لإيمانويل كارياتو: "ثمة عنصر ثالث، هو الوعى الباطن، وهو نوعٌ من هيرجيل يقوده عبر الدوائر الاثنتى عشرة لجحيمه، وهو الوجه الآخر لمرآته، النصف الآخر من أرتيميو كروث: هو الـ أنت الذى يتحدث بصيغة المستقبل. إنه الوعى الباطن الذى يتشبَّث بمستقبل لن يبلغ الـ أنا - العجوز المحتضر - درجة معرفته. والـ أنا العجوز هو الحاضر، بينما يتقد الـ هو ماضى أرتيميو كروث. الأمر يتعلق بحوار مرايا بين الضمائر الثلاثة، بين الأزمنة الثلاثة التى تُشكِّل حياة هذه الشخصية الفظة والمستلبّة. فى إحتضاره، يحاول أرتيميو، من خلال الذاكرة، إعادة الإستيلاء على أيامه الإثنى عشر الحاسمة، الأيام التى هى، فى الحقيقة، إثنى عشر خياراً"، ويضيف:

"فى الزمن الحاضر للرواية، فإن أرتيميو هو رجلٌ بلا حرية: فقد إستفدها بقوة إختياره. وعلى القارئ أن يحدّد إن كان هذا الاختيار حسناً أم سيئاً".

ويعلق بنيديتى قائلاً أن فوينتس يدير حوار المرايا هذا ببراعةٍ تُثير الإعجاب. فقليلةٌ هى الروايات التى قرأها وتتمتع ببناءٍ على هذه الدرجة من الصرامة والمخاطرة. "إن كروث مزيجٌ غريب من الواقعية والفانتازيا، من الذاكرة والاختلاق. وربما كانت واقعية فى درجة صوتية أعلى، كافية لإكتساب دافع غنائى، صوتٌ مثير للمشاعر أحياناً. وقرب نهاية الرواية، يُعدّد الوعى الباطن كل الأشياء التى كان يمكن أن يكونها أرتيميو كروث، لو كان بساطةٍ قد إختار، فى كل خيار، طرقاً مختلفة عن تلك التى إنتهجها فى الواقع. وكريشيندو التعداد مؤثراً حقاً؛ والنتيجة الحتمية هى أن يراجع كلُّ قارئٍ قائمته الخاصة والمتواضعة وأن يصل، ربما، إلى نتيجة أنه هو أيضاً، بقوة إختياره، قد استنفد حريته.. (....) إنها رواية لا يعادلها فى إصرارها إلا قلة من الروايات، وتصلُ إلى حيث تريد الوصول؛ وهذا لا شك فيه".

بالطبع، يمكن الحديث طويلاً عن الرواية التى كُتب عنها الكثير منذ ظهورها عام ١٩٦٢، لكن الصعوبة البارزة فيها بالنسبة للقارئ تظل هى بنيتها غير المألوفة، وترتيب أجزائها ومغزى هذا الترتيب. ولتفسير هذا الجانب الذى يمكن أن يريك القارئ أرفق فيما يلى جزءاً من مقال ممتاز للناقد نلسون أوسوريو يفسر فيه هذا الجانب من بنية الرواية.

جزء من مقال:
أحد جوانب البنية في
"موت أرتيميو كروث"

II

على المستوى الشكلي الخالص، وللهولة الأولى، ليست موت أرتيميو كروث مقسمة على الطريقة التقليدية، إلى فصول، أو أجزاء أو حلقات. ولا تظهر إلا كسيفسَاء من ٢٨ شذرة متفاوتة الطول. ورغم ذلك، فإن قراءة أولى تكشف لنا أن البنية الشكلية والداخلية لهذه الشذرات تتيح ترتيبها في ١٢ جزءاً يضم كل واحد منها ثلاث شذرات، يُضاف إليها شذرتان أخيرتان، على سبيل المقطع الختامي أو الخاتمة. وتشكل هذه الأجزاء الإثني عشر فصلاً حقيقية ذات تنظيم شكلي متواز، يتكون كل واحد منها من ثلاثة مواضع تتمايز بالتحديد الثلاثي لـ الزمن (مضارع، ومستقبل، وماضي)، والفاعل (أنا، وأنت، وهو)، وحامل المنظور (الوعي، والوعي الباطن، والذاكرة). والشذرات التي تحتل المرتبة الأولى في كل واحد من هذه الأجزاء، والتي تُستهل جميعها بالضمير الشخصي أنا، تتقل حاضري وعي أرتيميو كروث في احتضاره. وتمتزج فيها أصوات الحاضرين لديه، وأفكاره الخاصة، وتدايعات معينة متواترة، تعكس، عن طريق إزاحة سياقية متزايدة، تحلل هذا الوعي أمام تقدم الموت. والثانية، التي يتصدرها الضمير الشخصي أنت، تكشف صوتاً لا زمنياً يقوم، عن طريق التقاطه لبعض عناصر الوعي، برسم تخطيط في المستقبل، لإمكانية إنتقاء، إمكانية إختيار، مستمدة من لحظات محورية معينة وفاصلة في وجود الشخصية. وأخيراً، فإن الشذرات التي تأتي في المرتبة الثالثة، والتي

يتصدرها الضمير الشخصى هو، تستقذ من الماضى، عن طريق الذاكرة، ١٢ حلقة من حياة أرتميو كروث، ١٢ لحظة مثلت احتمالات إختيار أخرى شكلت عند حلها الكينونة النهائية لتلك الشخصية التى تحتضر الآن. وهذه الشذرات، التى تكون ثلثى الرواية، تحدد التاريخ الدقيق لليوم، والشهر، والسنة التى جرت فيها الأحداث التى تروىها. وأخيراً، فى المقطعين الختاميين (٢٧ و ٢٨)، فإن أنا الوعى والحاضر هما بالكاد شهقة حياة أخيرة تتحلل فى حلم المخدر والموت، وبعدها يتمكن الوعى الباطن بشكل ضبابى من تسجيل اللحظة الأخيرة للتحلل النهائى. ولا توجد هنا شذرة الماضى التى كانت ستكمل التوازى من وجهة النظر الشكلية، لأن هذا التوازى يقيمه على نحو ما العملُ برمته، ذلك اليوم الأخير لأرتميو كروث، الذى يفلق الدُورة الكلية للميلاد والموت، الآن حيث "حياته ومصيره هما نفس الشيء". (ص ٢٠٩).

ويمكننا أن نرى بوضوح أكبر كل هذا النسق فى شكل تخطيطى بالغ البساطة:

أنا أنت هو

			١
			٢
		هـ	٣
هـ	هـ	هـ	٤
هـ	هـ	هـ	٥
هـ	هـ	هـ	٦
هـ	هـ	هـ	٧
هـ	هـ	هـ	٨
هـ	هـ	هـ	٩
هـ	هـ	هـ	١٠
هـ	هـ	هـ	١١
هـ	هـ	هـ	١٢
هـ	هـ	هـ	*
هـ	هـ	هـ	

هذه اللوحة وما قلناه سلفاً يبين لنا أن الرواية فى شكلها الأكثر خارجية تتمتع بتماسك بنية وظيفية وواعية. إن عمل هذا المؤلف - كما يشير بنيديتى - له "بنية قصدية وصلبة. ومثلما لدى العديد من الوحوش المقدسة للفن الروائى المعاصر (فى ذهنى جويس، وفوكر، ودوس باسوس)، ليس ثمة ذرة من الفوضى لا تعتمد على تنظيم ملليمترى" (٦) فى كل لحظة من لحظات إحتضار أرتيميو كروث، نجد أن كلمة، أو إحالة جرى تخطيطها بالكاد مرّات عديدة، أو تداعياً لا واعياً، يحفز أداء الوعى الباطن الذى يُحلق بتلك الذكرى إلى بُعد متسام، ثم تستنقذه الذاكرة وترويه إنطلاقاً من الماضى. وهذه الحلقات الإثنتى عشرة للماضى هى إثنتى عشر يوماً و ١٢ خياراً حدّد إستخدامها البعد الراهن والعينى لأرتيميو كروث المحتضر الذى يواجه ذلك الماضى غير القابل للإستعادة إنطلاقاً من وجوده النهائى، من الـ "فى - ذاته" كما كان يمكن أن يقول سارتر، الواقف على عتبة الموت. لهذا كله، فإن الوعى الباطن، كما يشير المؤلف ذاته، هو "من قبيل فيرجيل الذى يقوده عبر الدوائر الإثنتى عشرة لجحيمه" (٧). "فى الحاضر - يضيف فوينتس ذاته - فإن أرتيميو كروث هو رجلٌ بلا حرية: فقد إستفدها بفعل إختياره".

كل واحدٍ من التتابعات الثلاثة التى أشرنا إليها هنا له إيقاعه السردى الخاص وصياغته اللغوية الخاصة، بما يتناسب وظيفياً مع مستوى الواقع الذى يسعى إلى إدراكه والتعبير عنه من المنظور الذى يتبناه. وكل موضع يكتسب على هذا النحو صياغة لفظية مختلفة، مناسبة لتشكيل المادة السردية التى تتفتح أمام القارئ.

لذا لا يمكن إلا أن تبدو غريبة ملاحظات بعض النقاد الذين يتحدثون عن لغة فوضوية ومشوشة، مشيرين بوجه خاص إلى الشذرات التى تناظر المنظورين الأول والثانى. وعلى النقيض، فإننا إذا

إنطلقنا من الشكل التنظيمي الكليّ ومن وظيفة كل شذرة داخله، نجد أن هذه اللغة مهما بدت غريبة إذا أخذناها بشكل منعزل، تتبدى داخل السياق مناسبةً ووظيفيةً تماماً. ليس ثمة، إذن مثل تلك "التقنية المتنوعة إلى درجة التعقيد المتشنج"، كما يقول الناقد التشيلي ألوني، ولا يمكن كذلك التأكيد على أن "الأشياء تحدث كما لو أن فيروساً قد تسلل إلى الكيان العضوي للروائي وأحدث فيه نوبات لها شكل صرع من أشد الأنواع جذباً وكأنها محسوبة كي تثير الفرع، وتوحى للقراء بفكرة أن المؤلف قد أصابه الجنون" (٨). والشيء الوحيد الذي يمكن استخلاصه من تأكيدات من هذا القبيل هو نزاعٌ بين لغةٍ وظيفية وبين ناقدٍ يُعلّق على أعمال لا يقرؤها (٩). وفي دروب مماثلة يمضي أيضاً الناقد مانويل بדרو جونثال، الذي يُضيف علاوةً على ذلك أن هذا كله ليس سوى "نتاج هجين... تهجين أو تطعيم تجتمع فيه نماذج جويس، ولوري، وفوكنر وتضفي عليه أصالة (١٠)".

III

رغم أننا توقفنا عند بعض الملاحظات الشديدة العمومية حول التنظيم الشكلي للسرد في العمل، فإننا لا نعتزم، في هذه المناسبة، عمل تحليل كامل له. ولا يهمنا إلا التوقف عند جانب واحد، يظهر عادةً إما عرضةً لتركيز سيءٍ وإما يتم تجنبه.

ويتعلق الأمر بالتوزيع الزمني للإثنتي عشرة حلقة التي تشكل ماضى أرتميو كروث. وهذه الشذرات الإثنتي عشرة تمثل، كما قلنا، ثلثي الرواية (١١). وهي تتطور في مساحة تواريخ تشمل منذ مولد الشخصية (٩ أبريل عام ١٨٨٩) وحتى إحتفال سان سيلفستري في كويواكان (٢١ ديسمبر عام ١٩٥٥)، بعد ذلك بستة وستين عاماً. ورغم

ذلك، فإن العرض الزمني لهذه اللحظات في الرواية لا يحكمه التتابع الزمني للأحداث:

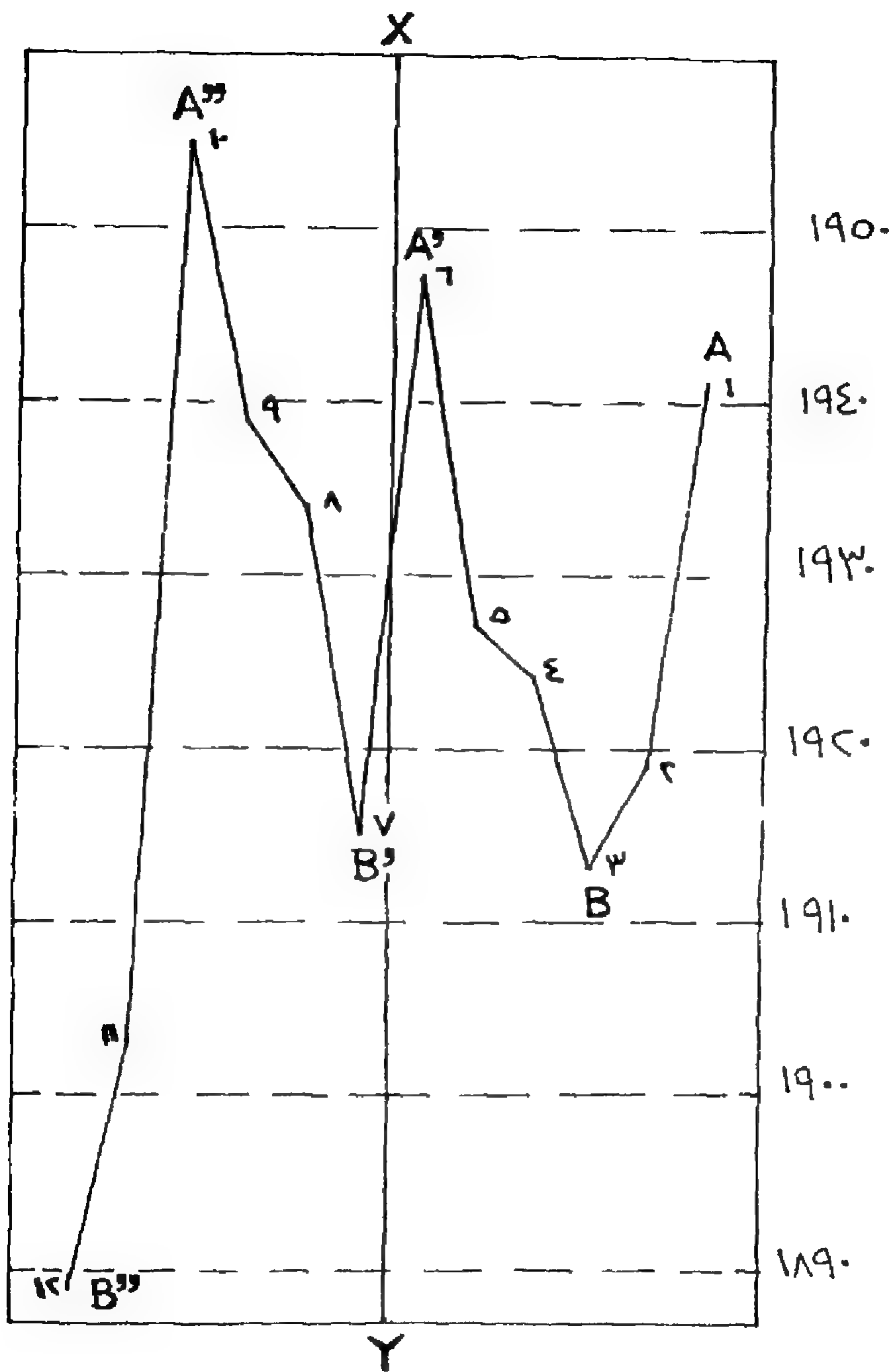
- (١) ٩ يوليو عام ١٩٤١
- (٢) ٢٠ مايو عام ١٩١٩
- (٣) ٤ ديسمبر عام ١٩١٣
- (٤) ٢ يونيو عام ١٩٢٤
- (٥) ٢٣ نوفمبر عام ١٩٢٧
- (٦) ١١ سبتمبر عام ١٩٤٧
- (٧) ٢٢ أكتوبر عام ١٩١٥
- (٨) ١٢ أغسطس عام ١٩٣٤
- (٩) ٣ فبراير عام ١٩٣٩
- (١٠) ٣١ ديسمبر عام ١٩٥٥
- (١١) ١٨ يناير عام ١٩٠٣
- (١٢) ٩ أبريل عام ١٨٨٩

للوهلة الأولى، لن يبدو أن لهذا التوزيع أى منطق سوى ذلك المنبعث من التداخليات التى يُقيمها الوعى الباطن، مرتبطةً باللحظة الراهنة للشخصية. هذا، على الأقل، هو رأى ماريو بنيديتى (١٢). أما مانويل بדרو جونثالث فإن "تصفحاً بسيطاً لهذا المخطط يكشف عن إصطناع وزيف المونتاج" (١٣). وهذا الرأى لا يدهشنا، لكن حتى بالنسبة لشخص مثل ثيدوميل جويك، الذى يتخذ موقفاً أكثر موضوعيةً بكثير، فإن هذا التوزيع يبدو له كذلك تعسفياً: "هذا السرد بالذات (المكتوب بضمير الغائب المفرد)، خاضع لتوزيع تعسفى ومضطرب" (١٤). وفى واحد من الأعمال الأكثر نفاذاً التى نعرفها على المستوى التفسيرى لهذا العمل، فإن الناقد التشيلى رينيه خارا، رغم أنه يضع مخططاً كاملاً بدرجة كبيرة لبنية الدوافع، لا يتوقف عند

مشكلة الدلالة المحتملة للتوزيع الزمني للحلقات.

إلا أننا نعتقد بإمكان إقتراح منظور يتيح فهم هذا التوزيع باعتبارها ذا دلالة وجزءاً متكاملًا ووظيفيًا من البنية الكلية، متكاملًا معها على نحو أعمق من مجرد الخضوع البسيط لدوافع تداعيات الوعي الباطن.

ولتسهيل هذه البؤرة يمكننا أن نرتب، في رسم بياني، الإحداثيات التي تمثلها الفصول التي ميّزناها والحلقات موضع البحث. وهذا ما يتضح في اللوحة رقم ٢.



فى شكل بيانى كهذا، ينظم فى نسق الحلقات الإثنى عشرة،
يمكننا أن نميز ثلاثة قطاعات. أولها (A", A', A) يشير إلى اللحظات
الأعلى فى المنزلة الاجتماعية لأرتيميو كروث؛ وثانيها (B", B', B)،
يشير إلى اللحظات الأشد حرجاً فى حياته؛ وأخيراً، منطقة وسطية
(٢، ٤، ٥، ٨، ٩، ١١). وهذه القطاعات تناظر الشرائح التى تقيمها
الشخصية ذاتها فى الحاضر فى علاقتها بالكبرياء: "إلى أسفل، من
خرجت؛ أو إلى أعلى، حيث أنا: هنالك فقط، أقول لكما، يوجد كبرياء،
وليس فى المنتصف، ليس فى الحسد، والرتابة، والطوابير. (ص ١٢٠.
التشديد لنا).

لكن اللحظات الأعلى اجتماعياً لأرتيميو كروث هى، فى الوقت
نفسه، الأدنى على المقياس الأخلاقى: ففى أولها يبيع نفسه حرفياً
باعتباره رجلاً - واجهة. للأمريكيين الشماليين، المهتمين ببعض
إمتيازات استغلال الكبريت؛ وفى الثانية، فإنه هو، بنقوده، من يشتري
امراً (ليلى)، لفترة إجازة أولاً، ثم - عند اكتشافه بغتة الإندفاع العنيف
للشيخوخة - طوال الحياة؛ وفى الثالثة يظهر فى ضيعته فى كويواكان
وهو يحتفل بعيد سان سيلفستري بجانب تلك المرأة ومحاطاً بأشخاص
يقدمون الضراعة لنقوده وسلطته. كل شئ زائف ومصطنع، بدءاً من
أسنانه وحتى الكلمات الطقسية التى يوجهها إليه المجتمع الراقى،
بينما يطلقون عليه من وراء ظهره لقب "مومياء كويواكان". موكب
أقنعة حقيقى، طقس هائل وعيشى ينظمه هو نفسه ويتلقاه كتكريم
لوضعه الاجتماعى، وسلطته، ونقوده (١٦).

وإذا فحصنا هذه اللحظات لرأينا أنها تتميز بالغياب شبه الكامل
للتردد من جانب أرتيميو كروث فى إختيار طريقه. ورغم ذلك، علينا
ألا نتخدع به. فرغم وعيه بأنه يختار الشر - وربما بسبب ذلك الوعى
ذاته - فإنه يضيفى كبرياءً معيناً لا يخلو من الكليية على أفعاله. ويشعر

المرء بالميل إلى ربط موقفه بكلمات شخصية أخرى في إحدى روايات الثورة المكسيكية، وهي شخصية الوزير إجناتيو أجيرى، في رواية ظل الزعيم، والذي عند تلقيه شيكاً من شركة أمريكية شمالية، يقاطع الوسيط الذي يحاول تمويه الطابع الحقيقي لهذه المكافأة: "بالنسبة لقياساتك المنطقية، فإنها لا يمكن أن تقنعنى؛ إنها تصلح للأشخاص لينى العريكة والخائرى الهمة، وأنا، رغم أنى عديم الحياء، لا أخط من قدر نفسى إلى هذا الحد. أنا عديم الحياء، لكننى عديم الحياء أتميز بالشجاعة والإرادة"(١٧).

والحلقات المقابلة فى المقياس الاجتماعى، بالمقابل، هى تلك التى يجد نفسه فيها أقرب إلى أصالته، هى اللحظات التى تكون حياته ذاتها فيها فى خطر ويتم تبادلها رمزياً بحيوات أخرى، هى تلك التى ستحيط به فى فراش موته كأشباح. وفى أولها تظهر علاقته بريخيئا، حبه الأشد عمقاً وتقرباً، التى إغتالتها القوات الفيدرالية فى نفس اللحظات التى كان هو فيها يهرب من معركة ويترك جندياً جريحاً ينزف حتى ينقذ حياته هو. وفى الثانية يتم إعدام جونثالو برنال والهندي من قبيلة الياكى الذى سهل له قبلها بقليل محاولة هرب فاشلة، بينما يؤجل هو إعدامه عن طريق حيلة، مما يتيح له النجاة بوصول القوات الصديقة. وفى الثالثة يظهر مولد أرتيميو. وفى نفس ذلك اليوم يتم طرد إيسابيل كروث أو كروث إيسابيل، أمه، من الضيعة حين ينهال عليها بالضرب أتاناسيو منشاك، والد أرتيميو (ص ص ٢٨٦ و ٢٠٦)، الذى تفتاله فى نفس تلك الليلة قوات الحكومة (ص ٢٩٩).

هذه اللحظات الثلاث تعرض لنا شخصاً هو أرتيميو كروث يحيا لأن آخرين قد ماتوا من أجله: "أنا نجوت. يا ريخيئا. ماذا كان اسمك؟ لا. أنت ريخيئا. ماذا كان اسمك أنت، أيها الجندي بلا إسم؟ جونثالو.

جونثالو برنال. هندی ياكى. ياكى بائس. نجوت. وأنتم متّم" (١٨). "نعم، أنا حى (....) لأننى تركت آخرين يموتون من أجلى. يمكننى أن أحدثك عن ماتوا لأننى غسلتُ يديّ وهزّزتُ كتفى" (ص ١١٤).

واللحظات الوسيطة هى، كما قلنا، تلك التى تحمل فى اللوحة أرقام ٢، ٤، ٥، ٨، ٩، ١١.

واللحظتان اللتان تناظران رقمى ٢ و ١١ تعان على أطراف هذا القطاع وتتحوّلان إلى لحظتين حاسمتين فى الحياة العامة للشخصية، لأنهما لحظتان إستهلاليّتان فى مرحلتين من مراحل وجوده. فى الحلقة رقم ١١، يحيا، ومازال طفلاً، مع الخلاسى لونيرو فى ضيعة كوكويا، ابن سيفاح للإبن البكر المقتول، أتاناسيو منشاكّا، آخر ذرية عائلة فى حالة تدهور كامل. ومن هناك يجب أن يهرب ويبدأ حياته الحقيقية: "ستكون أنت ذلك الطفل الذى يخرج إلى الأرض، ليلاقى الأرض، يخرج من أصله، ليلاقى مصيره، اليوم حيث يساوى الموت بين الأصل والمصير ويفرس بين الإثنين، رغم كل شيء، نصل الحرية". (ص ٢٧٩). وفى الحلقة رقم ٢، بعد ذلك بستة عشر عاماً، يصل إلى منزل دون جمالييل برنال، فى پوييلا، متخذاً الخطوة التى ستصل به إلى إمتلاك ضيعة هذا الأخير. باللحظة الأولى تستهل الحياة فى النضال والثورة، وباللحظة الثانية، الحياة فى الفنى والسلطة. ومن وجهة النظر الزمنية، تقع بين اللحظتين أعوام حياة الجنديّة لـ "الثورة" المكسيكية. وتتسع القيمة الرمزية لهاتين اللحظتين، فضلاً عن ذلك، عن طريق سلسلة من الظروف الأخرى. فضيعة كوكويا أسّسها إيرينيو منشاكّا، جدّ أرّيميو، بعد أن "إنضمّ إلى حياة ومصير الجنرال أنطونيو لويث دى سانتا آنا وحصل بإرادته على الأراضى الخصبة بجوار النهر، وهى أراضٍ سوداء وشاسعة، ملاصقة للجبل

والبحر" (ص ٢٩٠). أما ضيعة دون جمالييل برنال، الذى يتزوج أرتيميو بابنته كاتالينا، فقد تم الحصول عليها "هنالك حين عرض خوارث فى المزاد ممتلكات الإكليروس، وكان بمقدور أى تاجر لديه بعض المدخرات إمتلاك قطعة أرض شاسعة". وبينما يدمر حكم بورفيريو ويحطم حياة وأملاك آل منشاكّا، تنمو فى ظله ضيعة برنال. وحين يتواجه الجيلان، يتم تحليل اللحظة على النحو التالى، من منظور العجوز دون جمالييل: "أرتيميو كروث، هكذا يُدعى، إذن، العالم الجديد المنبعث من الحرب الأهلية؛ هكذا يُدعى من وصلوا ليحلوا محله. بلد تعيس - قال العجوز لنفسه (...) بلدٌ تعيس عليه فى كل جيل أن يُدمّر المالكين القدامى ويُحلّ محلهم سادةٌ جددًا، جشعين وطموحين مثل سابقهم". (ص ٥٠).

وبوضعتنا توزيع الحلقات فى رسم بيانى يمكن لنا أن نبين فى صورة بصرية الطابع المحورى داخل البنية الكلية لهاتين اللحظتين، اللتين تظهران موضوعتين فى نقطتى تناظر يكاد يكون تماثلًا. والحلقات الأربع الأخرى الوسيطة التى يشكلها هذا القطاع هى بعض اللحظات ذات الأهمية الكبرى فى الخيارات التى تواجهها الشخصية؛ وتحدد، من جهة، صعوده الإجتماعى، ومن جهة أخرى، تحلله الأخلاقى المتزايد، المتسم بـ "سوء النية" الذى يحكم قراراته. والحلقة رقم ٤ بالغة الإيحاء. ففى نفس الوقت الذى يُظهر فيه قوته وقدرته على الانتصار فى الحياة العامة وعلى فرض نفسه على أعدائه فإنه يُظهر أيضاً، فى نغمة مضادة، جنبه الأخلاقى من مواجهة مخلصه مع كاتالينا ومع ذاته.

والحلقة الأخرى (رقم ٥) تضعه فى مواجهة قرار فى المجال السياسى. كان قد أصبح نائباً وعليه أن يختار بين البقاء فى معسكر، ومع، الزعيم الذى كان يتبعه حينذاك وبين الإنتقال إلى الجماعة التى

تبدو أنها منتصرة: "تبادلا الأنخاب وقال البدين أن هذا العالم ينقسم إلى ناكحين وحمقى وأن الوقت حان للإختيار. وقال أيضاً أنها ستكون خسارة أن لا يعرف النائب - هو - كيف يختار في الوقت المناسب، (...). بينما من السهل جداً تغيير المرء لموقعه كأنه لا يرغب في ذلك ليصبح في الجانب الصحيح" (ص ١٢٩). ويقرر أرتميو كروث، مع بعض رفاق سلاحه القدامى، الذين هم الآن الجنرال خيمينث والمقدم جاييلان (١٩) أن يصيروا "ناكحين" وليس "حمقى".

والحلقة التالية من هذه السلسلة تبين لنا علاقته بـ لاورا، وهي امرأة كانت قادرة على منحه نفسها ومنحه كل ما لم يجده في زوجته وفي علاقاته الغرامية الأخرى (باستثناء ريخينا)، مقيمة على هذا النحو رابطة كان يمكن أن تفتح له أفقاً جديداً ومختلفاً. لا بد له أن يختار بين ذلك الحب وبين المواضع التي يُقيده بها وضعه الإجتماعي، والمظاهر. ومن جديد ينتصر خوفه وضعفه، وتبتعد عنه لاورا إلى الأبد.

والحلقة التي يموت فيها لورنثو، ابنه، في إسبانيا وهو يدافع عن القضية الجمهورية (رقم ٩) متضمن أيضاً بإعتباره جزءاً من ماضي أرتميو كروث. وتحمل علامة خاصة، لأنها موضوعة في نهاية سُلّم من الاختيارات "بنية سيئة" أخذت تحدّد صعوده الإجتماعي وهبوطه الأخلاقي، ومباشرة - في اللوحة وفي العمل - قبل اللحظة التي تبين تمجيده الاجتماعي: الحفلة التكريية لعيد سان سيلفستري في كويواكان. وهي تمثل نوعاً من التأصيل بالنيابة لأرتميو. فهو الذي يحمل لورنثو إلى ضيعة كوكويا، مكان خروجه إلى العالم، ومن هناك يرحل الابن ليقا تل في إسبانيا، دفاعاً عن الجمهورية، حيث يموت. وهو يحمله إلى ذلك الموضع لأنه: "تودُّ فقط أن تشرح له أنه في السنوات المنصرمة، منذ أربعين سنة، إنكسر شيء هنا، كي يبدأ شيء

أو كي لا يبدأ أبداً شيء، أكثر جدّة." (ص ٢٢٧). ولذا فإنه لدى تذكره لهذه الميتة يمكنه أن يقول في الحاضر: "آي، شكراً، على أنك علمتني ما كان يمكن أن تكونه حياتي، / آي، شكراً لأنك عشتَ ذلك اليوم بدلاً مني" (ص ٢٤٤). وهذه الشخصية الرمزية للإمكانية الشاملة التي كان يمكن أن تكونها حياة أرتميو كروث، والتي تفتتها الخيارات التي يحققها، تشفّ بإصرار: "رغبة لم أعبر عنها أبداً، هي التي أجبرتني على أن أقوده - آي، لا أدري، لا أنتبه - نعم، على أن أجبره على العثور على طرف الخيط الذي قطعته أنا، على مواصلة حياتي، على إكمال مصيري الآخر، الجزء الثاني الذي لم أستطع أنا إكماله". (ص ٢٤٢).

والتماهي مع لورنثو لا يتحقق فحسب على المستوى الرمزي المعروض هنا، بل يتم التعبير عنه أيضاً من خلال العملية اللفوية. ففي كل تلك الحلقات نجد أن الضمير الشخصي للمفرد الغائب الذي يتصدرها يحدّد هوية أرتميو كروث. والحلقة التي يتم فيها حكى موت لورنثو تبدأ بنفس الطريقة: "هو من كان فوق السقيفة، وبين يديه بندقية، وتذكر حين كان الإثنان يخرجان للصيد إلى البحيرة... إلخ". (ص ٢٢٨). والتشويش مُتعمّد ويقصد إلى أن يبعث في ذهن القارئ طوال كل المقاطع الأولى صورة أرتميو كروث. وهذا نفسه هو ما يتيح بعدها التلميح إلى التوازي بين إثنين من أزواج الشخصيات: أرتميو - ريخينا، ولورنثو - دولورس: "لن تجبره على فعل ما لم تفعله أنت، على إنقاذ حياتك الضائعة: لن تسمح، هذه المرة، بأن تموت أنت في ربّ صخري وتنجو هي". (ص ٢٤٤. التشديد لنا).

إن توزيع الحلقات، وفق تحليلنا، يتيح لنا أن نقيم بينها سلسلة من الارتباطات الدلالية التي تثرى بعمق معنى العمل وتوضّح وجود نسق واع يحكم توزيعها. ويتضح على هذا النحو أن هذا التوزيع ليس عشوائياً ولا مختلطاً، كما يمكن الظن لأول وهلة، بل إنه، كما يمكن أن

نستنتج من اللوحة ومن تحليلها، عضوي، ووظيفي، ودالّ.

ومن الضروري أن نضيف أن تنظيم الحلقات في رسم بياني لا يسمح لنا فحسب برؤية بصرية لهذه السلسلة من الارتباطات التي تتم إقامتها وتتضمن إلى أي حد يكون توزيع هذه الحلقات في العمل هو ما يتيح التسلسلات الدلالية التي ذكرناها، بل إنه يتيح أيضاً رؤية أن هذه الحلقات يتبدى فيها نوع من السيمتريّة الشكلية التي ليس من العدل أن نعزوها إلى مجرد الصدفة. وإذا رسمنا محوراً رأسياً يمر بمركز اللوحة (Y- X) لأمكننا أن ننتبه بوضوح أكبر لهذه السيمتريّة التي تنظم التوزيعات الزمنية، حيث يقطع هذا المحور الخط ٦ - ٧ إلى جزئين ويُقيم نسقين متوازيين: نسق السلسلتين ٢ - ٤ - ٥ - ٦ و ٧ - ٨ - ٩ - ١٠ ونسق السلسلتين ١ - ٢ - ٣ و ١٠ - ١١ - ١٢.

ويزودنا هذا كله ببرهان إضافي يدعم تأكيد بنيديتي المذكور آنفاً: لدى كارلوس فوينتس "مثلاً لدى العديد من الوحوش المقدسة للفن الروائي المعاصر (...) ليست ثمة ذرة من القوضى لا تعتمد على تنظيم مليمتری".

جزء من مقال:

Un aspecto de la estructura de

"La muerte de Artemio Cruz".

por Nelson Osorio.

المراجع

1 - **Carlos Fuentes**: "Situación del escritor en América Latina" (entrevista de **Emir Rodríguez Monegal**). Mundo Nuevo, número 1, París, julio 1966.

2 - **Mario Benedetti**: Carlos Fuentes: del signo barroco al espejismo.

وقد إعتمدت عليهما بشكل رئيسي.

3 - **Nelson Osorio**: Un aspecto de la estructura de "La muerte de Artemio Cruz"

وأوردت جزءاً منه.

4 - **René Jara C.**: El mito y la nueva novela hispanoamericana. A propósito de "La muerte de Artemio Cruz".

5 - **Juan Loveluck**: Intención y forma en "La muerte de Artemio Cruz".

6 - **Carlos Fuentes**: Muerte y resurrección de la novela.

موت اُرتیمیو کروت

إن تَبَصَّرَ الموتِ هو تبصَّرَ للحرية.
مونتاني، المقالات

أيها البشر الذين إلى الدنيا تخرجون
في مهدٍ من ثلج
ثم قبراُ تدخلون،
إنظروا كيف تُؤدّون...
كالديرون، مسرح العالم الكبير

أنا وحدي، أعرف ما كان باستطاعتي أن أفعله...
لكنني بالنسبة للآخرين، لست أكثر من مجرد "ربما".
ستدال، الأحمر والأسود

... عنى وعنه وعننا نحن الثلاثة،
دائماً ثلاثة!...

جوروستيثا، موت بلا نهاية

لا تساوى الحياة شيئاً: الحياة لا تساوى شيئاً.
اغنية شعبية مكسيكية

إلى
س. رايت ميللز*،
الصوت الحقيقي لأمريكا الشمالية،
الصديق والرفيق في نضال أمريكا اللاتينية.

* عالم إجتماع أمريكى من اليسار الجديد. ساهم فى حركات الشباب وفى الاحتجاج
ضد حرب فيتنام وضد سياسة الولايات المتحدة فى أمريكا اللاتينية. له كتاب بعنوان:
"الماركسيون" تحدث فيه عن كاسترو وجيفارا . م.

أنا أستيقظ... يُوقظني ملمس ذلك الشيء البارد على عضوي.
لم أكن أعرفُ أن من الممكن أحياناً أن يتبول المرء لا إرادياً. أظُلُّ
مُغمض العينين. أَقْرَبُ الأصوات إلىَّ لا أسمعها. هل سيمكنني سماعها
لو فتحتُ عيني؟... لكن جفني ثَقِيلان: قطعنا رصاص، قطع نحاس
فوق اللسان ومطارق في الأذنين، وشيء... شيء كأنه فضة صدئة في
النفس. كل هذا معدني. معدن مرةً أخرى. أتبولُ دون أن أدري. وربما -
أتذكر بفزع أنني كنت في غيبوبة - أكلتُ دون أن أدري خلال تلك
الساعات. لأن النهار كان قد إنبلج بالكاد حين مددتُ يدي وألقيتُ
التليفون - على غير إرادتي أيضاً - على الأرض وبقيتُ ممدداً على
بطني على الفراش، وذراعي مُعلقتان: وديبٌ في شرايين معصمي.
الآن أستيقظ، لكنني لا أريدُ أن أفتح عيني. ورغم أنني لا أريد، فإن
شيئاً يلمعُ بإصرار قُرب وجهي. شيءٌ يتوالد خلف جفني المغمضين في
دفق من الأضواء السوداء والدوائر الزرقاء. أَقْلُصُ عضلات وجهي،
أفتحُ عيني اليمنى وأراها منعكسةً في القشور الزجاجية لحقيبة يدٍ
نسائية. أنا هذا. أنا هذا. أنا هذا العجوز ذو التقاطيع الممزقة في
المربعات الزجاجية غير المتساوية. أنا هذه العين. أنا هذه العين. أنا
هذه العين التي تُجعدها جذورُ حنق متراكم، قديم، منسى، وحاضر
دوماً. أنا هذه العينُ الجاحظة والخُضراء بين الجفنين. الجفنان.
الجفنان. الجفنان الزيتيان. أنا هذه الأنف. هذه الأنف. هذه الأنف.
المهشمة. ذات المنخارين الواسعين. أنا هاتان الوجنتان. الوجنتان. حيث
تتبتُّ اللحيةُ الشيباء. تتبت. التقطية. التقطية. التقطية. أنا هذه
التقطية التي لا علاقة لها بالشيخوخة أو الألم. التقطية. بالأنياب
التي سودها التبغ. التبغ. تتفسي هوف هاهوف هاهوف ها
يُضَبُّ قطع الزجاج وتسحبُ يدُ الحقيبة من على الطاولة الصغيرة.
- أنظر، يا دكتور: إنه يتظاهر...

- سنيور كروث...-

- حتى فى ساعة الموت يجب أن يخدعنا!

لا أريد أن أتكلم. فمى ملئ بدراهم قديمة، بذلك الطعم. لكننى أفتح عيني قليلاً ومن بين رموشى أُمَيِّزُ المرأتين، والطبيب الذى يفوح برائحة المطهرات: من يديه اللتين تتضحان عرقاً، واللتين تتحسّسان الآن صدرى من تحت القميص، تتصاعد لفحة من الكحول الفاعم. أحاول سحب تلك اليد.

- صبراً، يا سنيور كروث، صبراً...-

لا، لا لن أفتح شفتى: أو ذلك الخط المجعد، دون شفتين، فى إنعكاس الزجاج. سأبقى ذراعى مُمدّتين فوق الملاءات. الأغطية تكسونى حتى البطن. المعدة... آه... والساقان تظللان منفرجتين، وذلك الشيء البارد بين فخذى. والصدر يبقى خاملاً، بنفس الديب الأصم الذى أحسّه... الذى... كنت أحسّه حين أقضى وقتاً طويلاً فى دار للسينما. دورة دموية سيئة، هذا هو الأمر. لا أكثر. لا أكثر. ليس شيئاً خطيراً. ليس شيئاً أكثر خطورة. يجب التفكير فى الجسد. التفكير فى الجسد يُنهك. جسد المرء. الجسد المتّحد. يتّعب. لا يفكر فى نفسه، بل يوجد. أفكر، أشهد. أنا، جسد. يبقى. يمضى... يمضى... يتحلل فى هذا الهروب للأعصاب والقشور، للخلايا وكرات الدم المتناثرة. جسدى، الذى يضع فيه هذا الطبيب أصابعه. خوف. أحسّ بالخوف من التفكير فى جسدى أنا. والوجه؟ سحبت تيريسا الحقيبة التى كانت تعكسه. أحاول تذكره فى إنعكاسه؛ كان وجهاً ممزقاً فى قطع زجاج غير متماثلة، العين قريبة جداً من الأذن وبعيدة جداً عن أختها، والتقطبية موزعة على ثلاث مرايا دوّارة. يسيل العرق على جبهتى. أغلق عيني مرة أخرى وأطلب، أطلب أن يُعادَ إلى وجهى وجسدى. أطلب، لكننى أحس تلك اليد التى تربّت على وأودّ لو تخلصت من

لمسها، لكننى لا أجد القوة.

- هل تشعر بتحسُّن؟

لا أراها. لا أرى كاتالينا. أرى ما هو أبعد. تيريسا جالسة على الكرسي. بين يديها صحيفة مفتوحة. صحيفتى. إنها تيريسا، لكن وجهها مختبئ خلف الصفحات المفتوحة.

- إفتحوا النافذة.

- لا، لا. قد تُصاب بالبرد وتُعقد الأمور.

- دعيه، يا ماما. ألا ترين أنه يتظاهر؟

آه. أشمُّ ذلك البخور. آه. الهمهمات عند الباب. يصلُ برائحة البخور تلك وبذيول ردائه السوداء، تسبقه المنضحة*، ليودِّعنى بكل حماسةٍ إنذار. ها، وقعوا فى الفخ.

- ألم يصل ياديا؟

- بلى. إنه بالخارج.

- فليدخل.

- لكن...

- فليدخل ياديا أولاً.

آه، ياديا، إقترب. هل أحضرت جهاز التسجيل؟ لو عرفت ما يجب أن تفعله، لكنت أحضرته إلى هنا كما كنت تحمله كلَّ مساء إلى منزلى فى كويواكان. لوددت اليوم، أكثر من أى وقت مضى، أن تعطينى الإنطباع بأن كل شيء يظلّ على حاله. لا تفسد الطقوس، يا ياديا. آه نعم، إنك تقترب. وهما لا تريدان.

- إقتربى يا بُنيَّتى، حتى يتعرف عليك. قولى له إسمك.

- أنا... أنا جلوريا...

* وعاء لرش الماء المقدس فى الطقوس الكنسية . م.

فقط لو أتبيّن وجهها على نحو أفضل. فقط لو أتبيّن تقطيعتها على نحو أفضل. لابد أنها تشمّ رائحة القشور الميّّنة هذه؛ لابد أنها تنظر إلى هذا الصدر الغائر، إلى هذه الذقن الرمادية المشعثّة، وهذا الرشح الأنقى الذى لا سبيل إلى إيقافه، وهذه...
يبعدونها عنى.

الطبيب يجس نبضى.

- يجب أن أستشير زملائى.

تمسح كاتالينا يدي بيدها. يا لها من تربيّة بلا جدوى. لا أراها جيداً، لكنى أحاول تثبيت نظرتى فى نظرتها. ألتقطها. أمسك يدها المثلّجة.

- إنتظرتك هذا الصباح بابتهاج. لنعبّر النهر على صهوة الجياد.

- ماذا تقول؟ لا تتكلم. لا تجهد نفسك. لا أفهمك.

- وددتُ لو أعود إلى هناك، يا كاتالينا. يا للعبث.

نعم: القس يركع بجوارى، يُتمتم بكلماته. يُدير ياديه جهاز التسجيل. أستمعُ إلى صوتى، إلى كلماتى. آهٍ تخرج بصرخة. آه، صرخة. آه، لقد نجوت. طبيبان يظهران عند الباب. لقد نجوت. ريخينا، أتألم، أتألم، يا ريخينا، أنتبه إلى أنتى أتألم. ريخينا. أيها الجندى. ضُمُونى؛ إننى أتألم. غرسوا خنجراً طويلاً وبارداً فى معدتى، هناك شخص، هناك آخر غرس قطعة صُلب فى أحشائى: أشم ذلك البخور وأحس بالتعب. أتركهم يفعلون. أتركهم يُنهضوننى بتثاقل، وأنا أئن. لا أدين بحياتى لكم. لا أستطيع، لا أستطيع، فلم أختر، الألم يطوى خصرى، ألمس قدمى المثلّجتين، لا أريد تلك الأظافر الزرقاء، أظافرى الجديدة الزرقاء، آآآه - آآآى، لقد نجوت: ماذا فعلتُ بالأمس؟ لو فكرتُ فيما فعلت بالأمس فلن أعود أفكر فيما يجرى. هذا تفكير واضح. واضح جداً. فكر فى الأمس. لست بهذا الجنون؛ لا

تتعذب إلى هذا الحد؛ إستطعت أن تفكر فى ذلك. الأمس الأمس
الأمس. بالأمس طار أرتيميو كروث من هرموسيو إلى مكسيكو. نعم.
بالأمس أرتيميو كروث... قبل أن يمرض، بالأمس أرتيميو كروث... لا،
لم يمرض. بالأمس كان أرتيميو كروث فى مكتبه وأحس بأنه مريض
جداً. بالأمس لا. هذا الصباح. أرتيميو كروث. لا ليس مريضاً. ليس
أرتيميو كروث لا. بل آخر. فى مرآة موضوعة أمام فراش المريض.
الآخر. أرتيميو كروث. توأمه. أرتيميو كروث مريض. الآخر. أرتيميو
كروث مريض: لا يحيا: لا، يحيا. أرتيميو كروث عاش. عاش لبضعة
أعوام... لم يتألم أعواماً: أعواماً لا لا. عاش لبضعة أيام. توأمه.
أرتيميو كروث. بديله. بالأمس أرتيميو كروث، الذى لم يعيش سوى
بضعة أيام قبل أن يموت بالأمس أرتيميو كروث... الذى هو أنا...
والذى هو الآخر... بالأمس.

أنت، بالأمس، فعلت ما تفعله كل يوم. لا تدرى هل يستحق الأمر
عناء تذكره. وددت فقط، مستلقياً هناك، فى عتمة مخدعك، لو تتذكر
ما سوف يحدث: لا تريد أن تتبأ بما حدث فعلاً. فى عتمتك، ترى
عيناك إلى الأمام؛ لا تعرفان كيف تحدثسان الماضى. نعم؛ بالأمس
ستطير من هرموسيو، أمس التاسع من أبريل عام ١٩٥٩، على الرحلة
العادية لشركة الطيران المكسيكية التى ستغادر عاصمة ولاية سونورا،

حيث ستكون الحرارة جهنمية، فى الساعة ٥٥ : ٩ صباحاً وستصل إلى مكسيكو، العاصمة، فى الساعة ٣٠ : ١٦ تماماً. من مقعد الطائرة ذات الأربعة محركات، سترى مدينةً مستويةً ورمادية، حزاماً من الطين النىء والأسقف الصفيح. ستقدم لك المضيضة قطعة لبان ملفوفة بالسيلوفان - ستتذكر ذلك بالذات، لأنها ستكون (لا بد أن تكون، لا تفكر فى كل شيء بصيغة المستقبل منذ الآن) فتاةً فائقة الجمال وسوف تنظر أنت إلى ذلك دائماً بعين الرضى، رغم أن سنك يحكم عليك بأن تتخيل الأشياء أكثر مما تفعلها (إنك تسيء استخدام الكلمات: بالطبع، لن تشعر أبداً أنك محكومٌ عليك بذلك، رغم أنك لا تستطيع سوى تخيله): الإعلان المضىء - No Smoking, Fasten Seat Belts - سيظهر فى اللحظة التى تهوى فيها الطائرة فجأةً، عند دخولها وادى مكسيكو، وكأنها فقدت القدرة على البقاء فى الهواء الخفيف وستميل على الفور ناحية اليمين فتتساقط لفافات، وشُنت، وحقائب يد وتتصاعد صرخة جماعية، تتخللها شهقة خافتة وستبدأ السنة اللهب فى الطقطقة حتى يتعطل المحرك الرابع، على الجناح الأيمن، ويظل الجميع يصرخون بينما ستظل أنت وحدك هادئاً، ساكناً، تمضغ قطعة لبانك وتراقب ساقى المضيضة التى ستهرع عبر الممر مهدئة الركاب. سيعمل النظام الداخلى الذى يقاومُ به المحركُ الحريق وستهبط الطائرة دون صعوبة، لكن أحداً لن يكون قد إنتبه إلى أنك أنت وحدك، المعجوز ذا الأعوام الإحدى والسبعين، قد بقيت رابط الجأش. ستشعر أنك فخورٌ بنفسك، دون أن تبدى ذلك. ستفكر فى أنك قد فعلت الكثير من الأشياء الجبانة بحيث تصبح الشجاعة سهلة عليك. ستبتسم وتقول لنفسك أن لا، لا، ليس ذلك تناقضاً: إنه الحقيقة، وربما كانت حتى حقيقةً عامة. ستكون قد قطعت الرحلة إلى سونورا بالسيارة - فولفو موديل ١٩٥٩، برقم ٧١٢ العاصمة - لأن

بعض شخصيات الحكومة ستكون قد فكرت فى أن تصبح ثقيلة الظل جداً وسيكون عليك أن تقطع كل ذلك الطريق بهدف التأكد من ولاء تلك السلسلة من الموظفين الذين إشتريتهم - إشتريتهم، نعم، لن تخدع نفسك بكلمات عيد ميلادك: سأقتنعهم، سأستميلهم: لا، بل ستشتريهم - حتى يفرضوا جبايات - كلمة قبيحة أخرى - على ناقلى الأسماك بين سونورا، وسينالوا وبين العاصمة: ستمنح أنت عشرة بالمائة للمفتشين وسيصل السمك إلى المدينة وقد إرتفع سعره بسبب تلك السلسلة من الوسطاء وستنال أنت ربحاً يفوق القيمة الأصلية للمنتج عشرين مرة. ستجتهد فى تذكر ذلك وستحقق رغبتك، رغم أن ذلك كله يبدو لك مادةً لخبر مثير فى صحيفتك وتعتقد أنك، فى الحقيقة، تُضيّع الوقت فى تذكره. لكنك ستصبر، وستمضى قدماً. ستصبر. تود لو تتذكر أشياء أخرى، لكنك قبل كل شئ، تود نسيان الحالة التى أنت فيها. ستغفر لنفسك. لا تجد نفسك. ستجد نفسك. سيحضرونك مفشياً عليك إلى منزلك؛ ستتهاوى فى مكتبك؛ سيأتى الطبيب ويقول أنه يجب الإنتظار بضع ساعات قبل أن يستطيع التشخيص. سيأتى أطباء آخرون. ولن يعرفوا شيئاً، لن يفهموا شيئاً. سيتفوهون بكلمات صعبة. وستود أن تتخيل نفسك. مثل قرية فارغة ومجعدة. سترتجف ذقنك، ستصبح رائحة فمك كريهة، ستصبح رائحة إبطيك كريهة، سيتعطن كل ما بين ساقيك. ستكون ملقى هنالك، دون إستحمام، دون حلاقة: ستكون مستودعاً للعرق والأعصاب المرهقة والوظائف الفسيولوجية اللاإرادية. لكنك ستصبر على تذكر ما سيحدث بالأمس. ستنتقل من المطار إلى مكتبك وستعبر مدينة مشبعة بغازات الخردل، لأن الشرطة ستكون قد فرغت لتوها من تفريق تلك المظاهرة فى ميدان الكاباييتو Caballito ستناقش مع رئيس تحرير صحيفتك عناوين الصفحة الأولى، والإفتتاحيات، والرسوم الكاريكاتورية وستشعر بالرضى.

ستستقبل شريكك الأمريكى الشمالى، وستجعله يرى مخاطر حركات التطهير النقابى المزعومة تلك. بعدها سيدخل إلى المكتب مدير أعمالك، پاديا، وسيخبرك بأن الهنود قد بدأوا فى الهياج وستبعث أنت، من خلال پاديا، إلى مفوض الشرطة المحلى لتبلغه بأن يُطوَّقهم، لأنك تدفع له من أجل ذلك فى نهاية المطاف. ستعمل كثيراً صباح أمس. سيأتى لرؤيتك ممثل ذلك المحسن الأمريكى اللاتينى وستجج فى جعلهم يزدون الدعم لصحيفتك. ستستدعى محررة باب المجتمع وستأمرها بأن تضع فى عمودها تشهيراً بذلك المدعو كوتو الذى يشن عليك الحرب فى أعمال سونورا. ستفعل أشياء كثيرة! وبعدها ستجلس مع پاديا لتحصى ممتلكاتك. سيُسَلِّك ذلك كثيراً. سيكون حائطٌ كاملٌ فى مكتبك مكسواً بتلك اللوحة التى تبين مدى إتساع الأعمال التى تديرها والعلاقات بينها: الصحيفة، الإستثمارات فى العقارات - فى مكسيكو، وبويبلا، وجوادالاهارا، ومونتيرى، وكولياكان، وهرموسيو، وجوايماس، وأكابولكو -، منابع الكبريت فى خالتيان، مناجم هيدالجو، إمتيازات الأخشاب فى تاراهومارا، المشاركة فى سلسلة الفنادق، شركة المواسير، تجارة الأسماك، شركات التمويل التى تمول شركات التمويل، شبكة عمليات البورصة، مكاتب التمثيل القانونية للشركات الأمريكية الشمالية، إدارة قرض السكك الحديدية، مناصب المستشار فى مؤسسات إدارة الأموال، الأسهم فى الشركات الأجنبية - الأصباغ، الصلب، المنظفات - ويند لا يظهر فى اللوحة: خمسة عشر مليوناً من الدولارات مودعة فى بنوك زيوريخ، ولندن، ونيويورك. ستشعل سيجارة رغم تحذيرات الطبيب، وتعيد على مسامع پاديا الخطوات التى كوَّنت تلك الثروة. قروضٌ قصيرة الأجل بفائدة مرتفعة لفلاحى ولاية پويبلا، عند إنتهاء الثورة؛ إمتلاك أراضٍ قريبة من مدينة پويبلا، متوقعاً نمو المدينة؛ إمتلاك أراضٍ للتقسيم فى مدينة مكسيكو، بفضل تدخل ودى

لرئيس فى ذلك الحين؛ إمتلاك الصحيفة اليومية للعاصمة؛ شراء أسهم فى صناعة التعدين وإقامة شركات مكسيكية - أمريكية شمالية مشتركة قمت فيها بدور الرجل - الواجهة تمشياً مع القانون؛ الرجل موضع الثقة بالنسبة للمستثمرين الأمريكيين الشماليين؛ القيام بدور الوسيط بين شيكاغو، ونيويورك وبين حكومة المكسيك؛ التلاعب فى بورصة الأوراق المالية لتضخيم قيمتها، وخفضها، لتبيع، وتشتري وفق هواك ومصالحتك؛ البلهنية والرسوخ الحاسمان مع قدوم الرئيس أليمان؛ إمتلاك أراضٍ مشاعية منتزعة من الفلاحين لطرح تقسيمات أراضٍ جديدة فى المدن الداخلية، إمتيازات إستغلال الأخشاب. نعم - ستتهد وتطلب من ياديا ثقاباً -، عشرون عاماً من الثقة، من السلام الإجتماعى، من تعاون الطبقات؛ عشرون عاماً من التقدم، بعد ديماجوجيا لاثارو كارديناس، عشرون عاماً من حماية مصالح الشركات، من القادة الخانعين، من الإضرابات المكسورة. عندئذ سترفع يديك إلى بطنك وستصطدم رأسك ذات الشعر الأشيب المجعد، والوجه الزيتونى، صدمة مدوية بزجاج الطاولة، ومرة أخرى سترى، الآن عن قرب شديد، ذلك الإنعكاس لتوأمك المريض، بينما تهرب كل الأصوات من رأسك، ضاحكة، ويطوقك عرق كل هؤلاء الناس، يخنقك لحم كل هؤلاء الناس، ويجعلك تفقد الوعى. سيندمج التوأم المنعكس فى الآخر، الذى هو أنت، فى العجوز ذى الإحدى وسبعين سنة الذى سيتمدد، غائباً عن الوعى، بين الكرسيّ الدوّار وطاولة الكتابة الحديدية الضخمة: ستكون هنا ولن تدري أى بيانات ستظهر فى سيرة حياتك وأيها سيتم إخراسها، وإخفاؤها. لن تدري. إنها بيانات عادية ولن تكون الأول ولا الوحيد الذى لديه ملف خدمة كهذا. لابد أن ذلك سيروك. ستكون قد تذكرت ذلك. ولكنك ستتذكر أشياء أخرى، أياماً أخرى، سيكون عليك أن تتذكرها. إنها أيام مهمما

تكن بعيدة، أو قريبة، مدفوعة نحو النسيان، أو مطبوعة في الذاكرة - لقاء ورفض، حب عابر، حرية، حنق، إخفاق، رغبة - كانت وستكون شيئاً أكثر من أية أسماء قد تسميها بها: أيام سيتعقبك فيها قدرك بتشمم كلب صيد، ويعثر عليك، ويجعلك تدفع الثمن، ويجسّدك في كلمات وأفعال، في مادة مُركبة، داكنة، كثيفة، منسوجة إلى الأبد مع الأخرى، غير المحسوسة، مادة روحك التي إمتصتها المادة: حب السفرجل الطازج، طموح الأظافر التي تنمو، سأم الصلعة المتزايدة، سوداوية الشمس والصحراء، رخاوة الأطباق القذرة، شرود الأنهار الإستوائية، خوف السيوف والبارود، ضياع الملاءات المنشورة في الهواء، فتوة الخيول السوداء، شيخوخة الشاطئ، المهجور، إلقاء المظروف وطابع البريد الأجنبي، نفور البخور، مرض النيكوتين، ألم التربة الحمراء، رقعة الفناء عند الأصيل، روح كل الأشياء، مادة كل النفوس: نصلُ ذاكرتك، الذي يفصل النصفين: لحام الحياة، الذي يعيد توحيدهما، يذيبهما، يتعقبهما، يعثر عليهما: للثمرة نصفان: اليوم سيعاودان التوحد: ستتذكر النصف الذي خلفته وراءك: سيعثر عليك القدر: ستتثاءب: لا يجب أن تتذكر: ستتثاءب: الأشياء ومشاعرها إنحلت، تساقطت مُمزقة على طول الطريق: هناك، إلى الوراء، كان ثمة حديقة: لو استطعت العودة إليها، لو استطعت العثور عليها مرة أخرى في النهاية: ستتثاءب: لم تغرّ مكانك: ستتثاءب: إنك فوق أرض الحديقة، لكن الأغصان الشاحبة تضنّ بالثمار، المجري المترب يضنّ بالمياه: ستتثاءب: ستصير الأيام متميزة، متماثلة، نائية، راهنة: إنها سرعان ما ستسى الضرورة، والإلحاح، والدهشة: ستتثاءب: ستفتح عينيك وتراهما هناك، بجوارك، بتلك الضراعة الزائفة ستتمتم باسميهما: كاتالينا، تيريسا: لن تكونا قد فرغتا من إخفاء ذلك الشعور بالخدعة والانتهاك، بالاستنكار المنزعج، الذي يجب أن يتحوّل الآن،

بالضرورة، إلى تظاهر بالقلق، والإعزاز، والألم: قناع الضراعة سيكون أول علامة على ذلك التحول الذى يفرضه عليهما مرضك، وحالتك، واللياقة، ونظرة الغريباء، والعادة الموروثة: ستتأعب: ستغمض عينيك: أنت، أرتميو كروث، هو: ستفكر فى أيامك وعيناك مغمضتان:

(١٩٤١: ٦ يوليو)

هو من مرّ فى السيارة متجهاً إلى المكتب. كان السائق يقودها بينما يقرأ هو الصحيفة، لكنه فى تلك اللحظة رفع عينيه، بالصدفة، ورآهما تدخلان المتجر. نظر إليهما وزرّ عينيه وعندئذ إنطلقت السيارة وواصل هو قراءة الأخبار الواردة من سيدى برانى والعلمين، ناظراً إلى صور روميل ومونتجومرى: كان السائق يتصبّب عرقاً فى حرارة القيظ ولا يستطيع تشغيل الراديو ليتسلى وفكر هو فى أنه أحسن صنفاً بارتباطه بمنتجى البن الكولومبيين حين بدأت الحرب فى أفريقيا ودخلتا هما إلى المتجر ورجتُهما العاملة أن تتفضلّا بالجلوس حتى تخطرِ صاحبة المحل (لأنها كانت تعرف من هما المرأتان، الأم والإبنة، وكانت صاحبة المحل قد أمرت بأن يُخطروها دائماً حين تجيئان): سارت العاملة فى صمت فوق السجاجيد حتى الغرفة الخلفية حيث كانت صاحبة المحل تُوَقّع دعواتٍ متكئة على المائدة ذات الجلد الأخضر؛ تركت العوينات المتدلية من سلسلة فضية تسقط حين

دخلت العاملة وأخبرتها بأن السيدة وإبنتها قد حضرتا وتهدت صاحبة المحل وقالت: "آه نعم، آه نعم، آه نعم، لقد إقترب الموعد" وشكرتها لإخطارها وسوت شعرها البنفسجى وزمت شفيتها وأطفأت السيجارة بطعم النعناع وفى صالة المحل كانت المرأتان قد جلستا ولم تتكلما مطلقاً مطلقاً حتى رأتا صاحبة المحل تظهر وحينئذ تظاهرت الأم، التى كانت لديها هذه الفكرة عن اللياقة، بأنها تواصل حديثاً لم تبدأ قط وقالت بصوت عال: "... لكن هذا الموديل يبدو أجمل بكثير. لا أدري ماذا تظنين، لكن لو كنت أنا لأخترت هذا الموديل؛ حقاً إنه أنيق جداً، جميل جداً جداً". وافقت الفتاة، فقد كانت معتادة على تلك المحادثات التى لا توجهها الأم إليها بل إلى المرأة التى دخلت الآن، وصافحت الابنة لكنها لم تصافح الأم، بل حيّتها بابتسامة واسعة ورأسها البنفسجية مائلة. بدأت الابنة فى الترحيح نحو يمين الأريكة، حتى يتسع المكان لصاحبة المحل، لكن الأم أوقفتها بنظرة وبإصبع يُلوح قريباً من صدرها؛ كفت الابنة عن التحرك ونظرت بتعاطف إلى المرأة ذات الشعر المصبوغ التى ظلت واقفة وسألتهما إن كانتا قد قررتا أى موديل ستختاران. قالت الأم لا، لا، لم تحزما أمرهما بعد ولذا تودان رؤية كل الموديلات مرة أخرى، فعلى ذلك أيضاً سيعتمد كل ما عداها، تعنى، تفاصيل من قبيل لون الأزهار، وفساتين الوصيفات، وكل تلك الأشياء.

- يؤلمنى كثيراً أن أثقلك بكل هذا العمل؛ كان بودى...

- من فضلك، يا سيدتى. يسعدنا إرضائك.

- نعم. نودّ أن نكون متأكدتين.

- بالطبع.

- لا نريد أن نخطئ وبعبدها، فى آخر لحظة...

- معك حق. الأفضل أن تختارا بهدوء وليس، فيما بعد...

- نعم. نودّ أن نكون متأكدتين.

- سأقول للفتيات أن يجهّزن أنفسهن.

بقيتا وحدهما ومدّت الابنة ساقها؛ نظرت إليها الأم منزعةً وحرّكت كلّ أصابعها في وقتٍ واحد، لأنها رأت أربطة جورب الفتاة كما أشارت إليها أن تضع قليلاً من اللعاب على جورب الساق اليسرى؛ بحثت الفتاة ووجدت الموضع الذي كان الحرير فيه قد تمزّق وبللت سبّابتها باللعاب ومسحت بها الموضع. وأوضحت للأم على الفور "أنا نعسانة بعض الشيء". إبتسمت السيدة وربّتت على يدها وظلت الإثنتان جالستين على المقعدين ذوى التطريز الوردى، دون كلام، حتى قال الابنة أنها جائعة وردّت الأم أنهما ستذهبان فيما بعد لتناول الإفطار عند سانبورنز Sanborn's رغم أنها سترافقها فقط لأن وزنها قد زاد أكثر مما يجب مؤخراً.

- لا داعى لأن تقلقى أنت.

- حقاً.

- إن قوامك شبابيّ جداً. لكن فيما بعد، خذى بالك من نفسك. فى أسرتى كنا جميعنا نتمتع بقوام رشيق فى شبابنا وبعد سن الأربعين فقدنا رشاقتنا.

- أنت على أفضل ما يرام.

- لم تعودى تتذكرين، هذا هو الأمر، لم تعودى تتذكرين. وفوق

ذلك...

- اليوم استيقظت جائعة. وأفطرت جيداً جداً.

- لا تقلقى الآن. فيما بعد، نعم، خذى بالك من نفسك.

- هل تزيد الولادة الوزن كثيراً؟

- لا، ليست هذه هى المشكلة؛ هذه حقاً ليست هى المشكلة.

ف عشرة أيام من الرجيم تعيدك مثلما كنت. المشكلة بعد سن الأربعين.

فى الداخلى؁ كانت صاحبة المحل تُعدُّ العارضتين؁ وهى منحنية؁ والدبابيس فى فمها؁ تُلَوِّح بيديها بعصبية وتؤنّب الفتاتين على سيقانهما البالغة القصر؛ كيف تتألق جيداً نساءً بهذه السيقان البالغة القصر؟ قالت إنهما بحاجة إلى ممارسة التدريبات؁ تنس؁ أو فروسية؁ كل ما يفيد فى تحسين النوع وقالتا هما أنهما تلاحظان أنها بالغة الإنزعاج فردت صاحبة المحل أن نعم؁ أن هاتين المرأتين تزعجانها كثيراً. قالت أن السيدة تعودت ألا تصافح أحداً أبداً؛ أن الابنة الطف؁ لكنها شاردة الذهن نوعاً ما؁ وكأنها موجودة فقط؛ أنها فى النهاية؁ لا تعرفهما جيداً ولا تستطيع أن تحكم وكما يقول الأمريكيون the cos-tumer is always right وأنهما يجب أن تخرجا إلى الصالون مبتسمتين؁ وهما تقولان تشيز؁ تشى - ييز وتشيبى - ييز. أنها مضطرة للعمل؁ رغم أنها لم تولد لتعمل؁ وأنها معتادة على نسوة هذا الزمن الثريات هؤلاء. ولحسن الحظ؁ يمكنها أيام الأحاد أن تلتقى بأصدقائها القدامى؁ الذين تربت معهم؁ وأن تشعر بأنها إنسانة مرة واحدة فى الأسبوع على الأقل. قالت للفتاتين أنهم يلعبون البريدج؁ وصفت حين رأتها جاهزتين. خسارة أن سيقانهما قصيرة. غرست بعناية الدبابيس التى تبقت فى فمها فى الوسادة المخملية الصغيرة.

- هل سيأتى إلى الـ shower*.

- من؟ خطيبك أم أبوك؟

- هو؁ بابا.

- وما أدرانى أنا!

رأى القبة البرتقالية والأعمدة البيضاء؁ الممتلئة؁ لقصر الفنون الجميلة تمرّ لكنه نظر إلى أعلى؁ حيث كانت أسلاك الكهرباء تتجمع؁

* shower: (فى اللهجة الأمريكية) حفل لتقديم الهدايا لعروس على وشك الزواج. م.

وتتفرق، وتجرى - ليست هى، بل هو ورأسه متكئةً على صوف المقعد الرمادى - متوازيةً أو تتهى إلى مُحَوَّلَات الضغط العالى: البوابة الداكنة، الإيطالية، لمبنى البريد والحليات المنحوتة على شكل أوراق الشجر، والضروع المثلثة** وقرون الوفرة** المسكوية لبنك المكسيك: رُبَّت على الشريط الحريرى لقبعة الجوخ البنية وبأخمص قدمه أدار حزام المقعد المتحرك للسيارة الليموزين، فى مواجهته: مريعات القيشانى الزرقاء لمحل سانبورنز والأحجار المشغولة والمسودة لدير سان فرنسيسكو. توقفت السيارة عند ناصية شارع الملكة إيسابل الكاثوليكية وفتح له السائق بابها وخلع القلنسوة وبالمقابل، إرتدى هو قبعة الجوخ، ممشطاً بأصابعه فوديه اللذين ظللاً خارج القبعة وأحاط به ذلك الحشد من باعة اليانصيب وماسحى الأحذية والنسوة المتلفعات والأطفال الذين يبُلُّ المخاط شفتهم العليا حتى عبر الأبواب الدوارة وسوى رباط عنقه أمام زجاج الرواق ووراءه، فى الزجاج الآخر، المؤدى إلى شارع ماديرو، أصلح رجلٌ مماثل له، لكنه بعيد، عقدة رباط عنقه كذلك، بنفس الأصابع التى يصبغها النيكوتين، وبنفس البدلة ذات الخطوط المتقاطعة، لكنها لا لون، محاطاً بالمتسولين وترك يده تسقط فى نفس الوقت الذى فعل فيه هو ذلك، ثم أدار له ظهره وسار حتى منتصف الشارع، بينما بحث هو عن المصعد، مرتبكاً للحظة.

مرة أخرى أتعستها الأيدى الممدودة فضغطت على ذراع إبنتها لتدخلها بسرعة فى هذا الدفء غير الواقعى، دفء الصوبة الزجاجية، فى رائحة الصابون والكولونيا والورق الناعم المطبوع حديثاً. توقفت برهةً لتتفقد أدوات التجميل المرتبة خلف الزجاج ونظرت إلى نفسها، وهى تضيق عينها لترى جيداً أدوات الماكياج المعروضة فوق قطعة

** أنواع من الحليات المعمارية - م.

حرير حمراء. طلبت برطماناً صغيراً من الكولد كريم ماركة -Theatrical
وإصبعى شفاه من نفس اللون، لون قطعة الحرير تلك وبحثت
دون جدوى عن أوراق البنكنوت فى حقيبة يدها المصنوعة من جلد
التمساح: "خذي، إبعثى لى عن ورقة من فئة عشرين بيسو". أخذت
اللفافة والباقي ودلفتا إلى المطعم ووجدتا مائدة لشخصين. طلبت
الفتاة عصير برتقال وكعكة بالبندق من الجرسونة المرتدية زى هندية
حمراء ولم تستطع الأم أن تقاوم فطلبت شطيرة بالزبيب مغطاة بالزبد
ونظرت الإثنتان حولهما محاولتين التعرف على وجوه أليفة حتى
إستأذنت الفتاة فى خلع سترة الرداء الأصفر المصنوع على المقاس لأن
القيظ الذى يدخل من خلال الطاقة كان شديداً.

- جوان كراوفورد Joan Crawford - قالت الإبنة - جوان
كراوفورد.

- لا، لا. لا تُتطق هكذا. هكذا لا. كرو - فور - Cro - for. كرو -
فور؛ هم ينطقونه هكذا.

- كراو - فور - Crau - for.

- لا، لا. كرو، كرو، كرو. Cro. "الألف" و"الواو" معاً تُتطقان مثل
"الواو". أظنهم ينطقونه هكذا.

- لم يعجبني الفيلم كثيراً.

- لا، ليس لطيفاً جداً. لكنها تظهر جميلة جداً.

- مللتُ جداً.

- لكنك ألححت كثيراً فى الذهاب...

- قالوا لى أنه فيلم لطيف جداً، لكن لا.

- إننا نتسلى.

- كرو - فور.

- نعم، أعتقد أنهم ينطقونه هكذا، كرو - فور. أظن أنهم لا

ينطقون "الدال".

- كرو - فور.

- أظن ذلك. إلا إذا كنت مخطئة.

نشرت الفتاة العسل على الكعكة وقطعتها إلى قطع صغيرة حين تأكدت أن كل مسامها إمتلأت بالعسل. أخذت تبتسم لأمها كلما ملأت فمها بهذا الدقيق المحمص المشبع بالعسل. لم تكن الأم تنظر إليها. كان ثمة يدٌ تداعب أخرى، تربّت بالإبهام أطراف الأصابع كأنها تودّ أن تنزع أظافرهما: نظرت إلى اليدين القريبتين منها، دون رغبةٍ في النظر إلى الوجهين: كيف كانت إحدى اليدين تعود لتتناول الأخرى وتشرع في إستكشافها، ببطء، دون أن تُفَلّت أى واحدٍ من مسام الجلد الآخر. لا، لم يكن في الأصابع أى خواتم؛ لا بد أنهما خطيبان أو ما أشبه. حاولت أن تحوّل نظرتها وتثبتها في بركة العسل التي تغمر صحن إبتها، لكنها كانت تعود رغماً عنها إلى يدي العاشقين على المائدة المجاورة وأفلحت في تجنب وجهيهما، لكنها لم تفلت اليدين المرتبتين. لعبت الإبنة بلسانها في لثتها، ملتقطة فتافيت الدقيق والبندق المتناثرة ثم نظفت شفّتيها ولطّخت الفوطة بالأحمر، لكنها قبل معاودة صبغ شفّتيها فتشت بلسانها عن بقايا الكعكة وطلبت من أمها قطعة من شطيرة الزبيب. قالت أنها لا تريد قهوةً لأنها تجعلها عصبيةً جداً، رغم أنها تحب القهوة، لكن ليس الآن، لأنها عصبية بما يكفي. ربت السيدة على يدها وقالت لها أنهما يجب أن تغادرا المكان فمازال أمامهما أن تتجزأ أشياء كثيرة. دفعت الحساب وتركت البقشيش ونهضتا كلتاها.

شرح الأمريكى الشمالى أن الماء المغلى يتم حقنه في مناجم الخام؛ يُذِيها الماء ويندفع الكبريت إلى السطح بفعل الهواء المضغوط. عاود شرح الطريقة وقال الأمريكى الشمالى الآخر أنهم راضون تماماً عن أعمال التنقيب وقطع الهواء بيده عدة مرات، ملوحاً بها قريباً جداً

من وجهه المشدود والمحمّر ومكرراً: " - دوموس، كويّس. بيريتاس، وحش. دوموس، كويّس. بيريتاس، وحش. دوموس، كويّس... " أخذ هو ينقر بأصابعه فوق زجاج الطاولة ويهز رأسه موافقاً، وقد تعود أنهم حين يتكلمون بالإسبانية، يعتقدون أنه لا يفهم، ليس لأنهم يتحدثون إسبانية سيئة، بل لأنه لا يفهم جيداً أى شيء. "بيريتاس وحش". فرد الخبير الفنى خريطة المنطقة على الطاولة فأزاح هو مرفقيه بينما يبسطان لوحة الرسم. شرح الثانى أن المنطقة من الثراء بحيث يمكن إستغلالها إلى الحد الأقصى حتى مطلع القرن الواحد والعشرين، إلى الحد الأقصى، حتى إستنفاد الإحتياطيات؛ إلى الحد الأقصى. كرر ذلك سبع مرات وسحب قبضته التى كان قد تركها تسقط، فى بداية موعظته، فوق تلك البقعة الخضراء المنقطة بمثلثات تشير إلى مكتشفات الجيولوجى. غمز الأمريكى الشمالى بعينه وقال أن غابات الصنوبر والماهوجنى بالغة الضخامة بدورها وأنه هو، الشريك المكسيكى، يفوز بمائة فى المائة من أرباحها؛ وفى هذا الأمر لا يتدخلون هم، الشركاء الأمريكيون الشماليون، رغم أنهم ينصحونه بأن يعيد تشجير الغابات باستمرار؛ فقد شاهدوا تلك الغابات مُدمرة فى كل مكان؛ ألا تدركون أن هذه الأشجار تعنى نقوداً؟ لكن هذا من شأنه هو، فالمناجم موجودة بالغابات أو بدونها. إبتسم هو ونهض واقفاً. شبك إبهاميه بين الحزام وقماش البنطلون وأرجح السيجار المطفأ بين شفتيه حتى نهض أحد الأمريكيين الشماليين وبين يديه عود ثقاب مشتعل. قرّبه من السيجار وأدار هو السيجار بين شفتيه حتى لمع طرفه مشتعلاً. طلب منهما مليونين من الدولارات نقداً فسألاه لماذا: لقد أدخلوه عن طيب خاطر شريكاً فى رأس المال بمبلغ ٣٠٠ ألف دولار، لكن أحداً لن يستطيع أن يقبض سنتيماً واحداً حتى يبدأ الاستثمار فى الإنتاج: مسح الجيولوجى عويناته بقطعة شامواه صغيرة

كانت فى جيب قميصه وبدأ الآخر يذرع المكان من المنضدة إلى النافذة ومن النافذة إلى المنضدة، حتى كرّر لهما هو أن تلك هى شروطه: فليس الأمر متعلقاً حتى بمقدّم، أو بقرض، أو بشيءٍ من هذا القبيل: إنه المبلغ الذى يدينون له به مقابل محاولة الحصول على حق الإمتياز؛ وربما، بدون هذا المبلغ المقدّم، لن يكون هناك حق إمتياز: أما هم فسوف يستعيدون مع الزمن الهدية التى سيقدمونها له الآن؛ لكن بدونها، بدون الرجل - الواجهة، بدون الـ Front - man - ورجاهما أن يغفرا له ألفاظه - لن يستطيعا الحصول على حق الإمتياز واستغلال المناجم. دقّ الجرس ونادى سكرتيه وقرأ السكرتير بسرعة قائمة من الأرقام الدقيقة فقال الأمريكان أو. كى. عدة مرات، أو. كى، أو. كى، أو. كى، وابتسم هو وقدم لهما كأسين من الويسكى وقال لهما أن بإمكانهما إستغلال الكبريت حتى مطلع القرن الواحد والعشرين، لكنهما لن يستغلانه هو ولا دقيقة واحدة من القرن العشرين وتبادلوا الأنخاب وضحك الآخران وهما يغمغان. s. o. b * مرة واحدة.

سارت الإثنتان وذراعاهما مشتبكتان. سارتا على مهل ورأساهما خفيضتان وهما تتوقفان أمام كل واجهة وتقولان ما أجمله، ما أغلاه، هناك واحدة أفضل إلى الأمام، إنظري إلى هذا، ما أجمله، حتى تعبنا فدلفتا إلى مقهى وبحثنا عن موضع جيد بعيدٍ عن المدخل حيث يُطلُّ باعة اليانصيب ويثور الغبار الجاف الكثيف، ويعيدُ كذلك عن المباحل وطلبتا زجاجتى كندا دراي بطعم البرتقال. وضعت الأم البودرة على وجهها ونظرت إلى عينيها العنبريتين فى مرآة علبة البودرة، نظرت إلى البروز الذى يصنعه الكيسان الجلديان اللذان بدءا يحيطان بهما وسارعت بإغلاق الغطاء. راقبت الإثنتان فقاقيع مُرطب الصودا

* s. o. b. ابن القعبة - م.

والأينلين وانتظرتا أن يتسرّب الغاز لتشربانه في رشفات صغيرة. خلعت الفتاة الحذاء، خلسة، وربتت على أصابع قدمها المحشورة وتذكرت السيدة، وهي جالسة أمام مشروب البرتقال، الغرفتين المنفصلتين في المنزل، منفصلتين لكنهما متجاورتان، والأصوات التي تُقلع كلّ صباح وكل مساء في إختراق الباب المغلق: التحنّج العارضة، سقوط الحذاء فوق الأرضية، إصطدام سلسلة المفاتيح برف المدفأة، مفصّلات صوان الملابس التي تُصيرُ، وأحياناً حتى إيقاع التنفس أثناء النوم. أحسّت ببرودة في ظهرها. كانت قد إقتربت هذا الصباح ذاته، سائرة على أطراف أصابعها، من الباب المغلق وأحسّت ببرودة في ظهرها. أدهشها التفكير في أن كل تلك الأصوات الخافتة والمعتادة هي أصوات سرّية. عادت إلى فراشها ولفّت نفسها بالأغطية وثبّتت بصرها في السقف، حيث تناثرت مروحة من الأضواء المستديرة، الهاربة: إلتماعات ظل أشجار القسطل. شربت بقايا شاى مُثلج ونامت حتى جاءت الفتاة لتوقظها، لتذكّرها أن أمامهما يومٌ مليءٌ بالمشاغل. والآن فقط، والكوب البارد بين أصابعها، تذكرت تلك السويكات الباكرا من النهار.

مال في كرسيه الدوار حتى صرّ الزنبرك وسأل السكرتير: "هل ثمة مصرف يريد المخاطرة؟ هل كان ثمة مكسيكى يثق في؟". تناول القلم الرصاص الأصفر وأشار به إلى وجه السكرتير: فليكن ثمة دليل على ذلك؛ فليكن ياديبا شاهداً: لم يُرد أحد المخاطرة ولم يكن هو ليترك تلك الثروة تتعفن في غابات الجنوب؛ إذا كان الجرينجو* هم الوحيدون المستعدّون لمنح النقود من أجل عمليات التنقيب فماذا كان

* gringos (هنا بالجمع): تطلق في أمريكا اللاتينية على الأمريكيين الشماليين وتحمل معنى الإحتقار أو الكراهية - م.

بإمكانه أن يفعل؟ أشار السكرتير إلى الساعة فزفر هو وقال حسناً.
دعاه إلى الغداء. يمكنهما أن يأكلا سوياً. هل تعرف مكاناً جديداً؟
أجاب السكرتير بنعم، مكان مُحَبَّب جديد وظريف جداً؛ فطائر جبن
شهية جداً، بدقيق القمح، والجبن، ولحم القنفذ؛ وهو على الناصية.
يمكنهما الذهاب سوياً. أحسنّ بالتعب؛ لم يكن يريد العودة إلى المكتب
ذلك المساء. يجب أن يحتفلاً، على نحو ما. كيف لا. وعلاوة على ذلك،
فإنهما لم يأكلا معاً أبداً. هبطا ففى صمت وسارا باتجاه طريق
الخامس من مايو.

- أنت صغير السن جداً. ما عمرك؟
- سبعة وعشرون عاماً.
- متى تخرّجت؟
- منذ ثلاث سنوات. لكن...
- لكن ماذا؟
- النظرية مختلفة تماماً عن الممارسة.
- وهذا يضحكك؟ ماذا علّموك؟
- الكثير من الماركسية. حتى أنتى قدمت أطروحتي فى موضوع
فائض القيمة.
- لا بد أنها مذهب جيد، يا ياديا.
- لكن الممارسة مختلفة جداً.
- وهل أنت ماركسى؟
- حسناً، كان كل أصدقائى ماركسيين. لا بد أنه أمر مرتبط
بالهن.

- أين هو المطعم؟
- أمامنا مباشرة، على الناصية.
- لا أحب المشى.

- إنه قريب جداً.

تقاسمتا اللفافات وسارتا بإتجاه الفنون الجميلة، حيث كان السائق فى إنتظارهما: واصلتا السير ورأساهما خفيضتان، موجهتان إلى الواجهات مثل هوائيات وفجأة أمسكت الأم بذراع الابنة وهى ترتجف وأسقطت لفافة، فأمامهما، بجوارهما، كان كلبان يزمرجان بحلق بارد، يتباعدان، يزمرجان، ويعضّان رقبتى بعضهما حتى تدميان، جريا إلى الأسفلت، وعاولدا الإلتحام ببعضعضات مستونة وزمجرات: كلبان ضالان، أجريان، مُزیدان، ذكر وأنثى. إلتقطت الفتاة اللفافة وقادت أمها إلى مكان الإنتظار. إتخذتا مكانيهما فى السيارة وسأل السائق هل تعودان إلى لاس لوماس فأجابت الابنة بنعم، قائلة أن بعض الكلاب قد أفزعت أمها. قالت السيدة أن ذلك لا شىء، وأنه قد إنقضى: كان أمراً مباغتاً وقريباً جداً منها، لكن بإمكانهما العودة إلى وسط البلد ذلك المساء، فما زالت تتقصصهما مشتروات كثيرة، من محال كثيرة. قالت الفتاة أن هناك متسعاً من الوقت؛ فما زال أمامهما أكثر من شهر. نعم، قالت الأم، لكن الزمن يطير، وأبوك لا يشغل نفسه بالعُرس، ويترك لنا كل العمل. إضافة إلى ذلك، يجب أن تتعلمى الحفاظ على مركزك؛ لا يجب أن تصافحى الجميع. إضافة إلى ذلك، أريد أن يمر العرس بسلام، لأننى أعتقد أنه سيفيد أبوك فى الإنتباه إلى أنه قد أصبح رجلاً ناضجاً. أتمنى أن يفيد. إنه لا ينتبه إلى أنه قد بلغ الثانية والخمسين. أتمنى أن تتجبنى أطفالاً بسرعة. على أية حال، سيفيد أبوك أن يكون إلى جانبى فى الزواج المدنى والدينى، أن يتلقى التهانى ويرى أن الكل يعاملونه كرجل محترم وناضج. ربما أثر فيه كل ذلك، ربما.

أنا أحسن بهذه اليد التي تُرِيت على وأود التخلص من ملمسها، لكنني خائر القوى. يا لها من تربيئة لا جدوى. يا كاتالينا. يا للعبث. ماذا ستقولين لي؟ أتظنين أنك وجدت أخيراً الكلمات التي لم تجرؤي أبداً على التفوه بها؟ اليوم؟ يا للعبث. أمسكى لسانك. لا تسمحي له بترف التفسير. كوني مخلصاً لما تظاهرت به دوماً؛ كوني مخلصاً حتى النهاية. إنظري: تعلمي من إبنتك. تيريسا. إبنتنا. يا للصعوبة. يا له من إسم بلا جدوى. إبنتنا. إنها لا تتظاهر. ليس لديها ما تقوله. إنظري إليها. جالسة ويدها مضمومتان بالرداء الأسود، تنتظر. لا تتظاهر. قبلها، بعيداً عن مسامعي، ستكون قد قالت لك: "أتمنى أن ينتهي كل شيء بسرعة. لأنه قادر على التظاهر بأنه مريض، حتى يميتنا نحن". لا بد أنها قالت لك شيئاً من هذا القبيل. سمعت شيئاً كهذا حين أفقت هذا الصباح من ذلك النوم الطويل الهانئ. أتذكر على نحو غامض النوم، مهدىء الليلة الماضية. ولا بد أنك أجبتها: "يا إلهي، عسى ألا يتعذب أكثر مما يحتمل": لا بد أنك أردت إضفاء معنى مختلف على كلمات إبنتك. ولا تدرين أي معنى تضيفين على الكلمات التي أغفمها: - إنتظرتك هذا الصباح بابتهاج. لنعبُر النهر على صهوة الجياد. ~ أم، ياديبا، إقترب. هل أحضرت جهاز التسجيل؟ لو عرفت ما يجب أن تفعله، لكنت أحضرته إلى هنا كما كنت تحمله كل مساءً إلى منزلي في كويواكان. لوددت اليوم، أكثر من أي وقت مضى، أن تعطيني

الإنطباع بأن كل شيء يظل على حاله. لا تفسد الطقوس، يا باديا. آه نعم، إنك تقترب. وهما لا تريدان.

- لا، يا أستاذ، لا يمكننا أن نسمح بذلك.

- إنها عادةٌ منذ سنواتٍ طويلة، يا سيدتى.

- ألا ترى وجهه؟

- دعيني أجرب. كل شيء جاهز. يكفى توصيل جهاز التسجيل.

- على مسئوليتك؟

- دون أرتيميو... دون أرتيميو... أحضرت لك ما سجّلناه هذا

الصباح...

أومىء بالموافقة. أحاول الإبتسام. مثل كل يوم. موضع ثقة، باديا هذا. بالطبع يستحق ثقتى. بالطبع يستحق جزءاً طيباً من ميراثى والإدارة الدائمة لكل ممتلكاتى. من سواء. إنه يعرف كل شيء. آه، يا باديا. هل تواصل جمع كل تسجيلات محادثاتى فى المكتب؟ آه، يا باديا، إنك تعرف كل شيء. يجب أن أكافئك جيداً. أوركك سمعتى.

تيريسا جالسة، بالصحيفة المفتوحة التى تخفى وجهها.

وأحسُّ به يصل، برائحة البخور تلك وبذيول ردائه السوداء والمنضّجة تسبقه ليودّعنى بحماسة إنذار! ها، وقعوا فى الفخ؛ وتيريسا تلك تتباكى هناك والآن تُخرج علبه البودرة من الحقيبة وتُصلحُ هيئة أنفها لتعاودَ النههة من جديد. أتخيّلنى فى اللحظة الأخيرة، لو سقط التابوت فى تلك الحفرة بينما جمعُ من النسوة يُنهِنُهن ويُصلحن هيئة أنوفهن فوق قبورى. حسناً: أحسُّ أنتى أفضل. وكنت سأحسُّ بأننى فى خير حال لو أن هذه الرائحة، رائحتى، لا تتصاعد من طيّات الملاءات، لو لم أنتبه لتلك البقع الكبيرة المضحكة التى لطّختها بها... هل أتفكّر أنا بهذا الشخير التشنجى؟ هل هكذا سألتقى هذا الهَلام الأسود وأواجه طقسه الدينى؟ آآآخ. آآآخ. يجب

أن أنظم شخيري... أضرم قبضتي، آآخ، وعضلات وجهي وأجد إلى جوارى ذلك الوجه من الدقيق الذى يأتى للتأكد من الصيفة التى ستظهر غداً، أو بعد غد - ولن تظهر أبداً؟، أبداً - فى كل الصحف، "مع كل بركات الكنيسة الأم المقدسة..." ويُقرب وجهه الحليق من خدّي المشتعلين بالمشيب. يرسم علامة الصليب. يتمم بصلاة "أنا الخاطيء" ولا يمكننى إلا الإشاحة بوجهي وإطلاق الأنين بينما أملأ رأسى بتلك التخيلات التى أود أن أقذفها فى وجهه: الليلة التى منح فيها ذلك النجار الفقير والقذر نفسه ترف إمتطاء العذراء الوجلة التى كانت قد صدقت حكايات وخداع عائلتها وكانت تبقى الحمامات البيضاء بين فخديها معتقدة أنها بذلك ستلد، الحمامات المخبوءة بين الساقين، فى الحديقة، تحت التتورة، والآن إمتطاها النجار تملؤه رغبة مبررة، لأنها لابد كانت مليحة جداً، مليحة جداً، وامتطاها بينما تتصاعد النهنات المهانة لتيريسا التى لا تطاق، تلك المرأة الشاحبة التى تتمنى، هائلة، تمردى النهائى، لأنه الدافع لمهانتها النهائية. يبدو لى غير معقول أن أراها هناك، جالستين، دون أن تحتدا، دون أن تكيلا الإتهامات. كم سيدوم هذا؟ لا أحس أننى الآن فى حالة بالغة السوء. ربما أتعافى. يا لها من صدمة! أليس ذلك مؤكداً؟ سأحاول أن أبدو بحالة طيبة، لأرى هل ستتتهزان الفرصة وتتسيان إيماءات الإعزاز المغتصبة تلك وتفرغان صدريكما لآخر مرة من الحجج والشتائم التى تسد حلقكما، وعيونكما، وتلك الإنسانية دون طعم التى إنقلبتما إليها. دورة دموية سيئة، هذا هو الأمر، لا شيء أكثر خطورة. أوف. يضجرنى أن أراها هناك. يجب أن يوجد شيء أشد إثارة للإهتمام فى متناول عينين شبه مغمضتين تريان الأشياء لآخر مرة. آه. أحضرونى إلى هذا المنزل وليس إلى الآخر. يا سلام. يا له من تكتم. سيكون على أو أويخ ياديبا لآخر مرة. ياديبا يعرف أيهما هو

منزلى الحقيقى. هنالك كان يمكننى أن أستمتع برؤية تلك الأشياء
التي أحبها كثيراً. كنت سأفتح عيني لأنظر إلى سقف ذى دعامات
عتيقة ودافئة؛ وتكون فى متناول يدي العباءة الذهبية التي تزين رأس
الفراش، وشمعدانات المنضدة الليلية، ومخمل مساند الظهر،
وكريستال بوهيميا الذي صنعت منه أكوابي. سيكون سيرافين بقريى
يدخن، وأشم الدخان. وستكون هي أنيقة، كما أمرت. بالغة الأناقة،
دون دموع، ودون ثياب سوداء. هنالك، لن أشعر أنني عجوز ومُنْهَك.
سيكون كل شيء معداً ليذكّرني بأننى رجل حي، رجل يحب، تماماً
تماماً تماماً مثلما كان الأمر من قبل. لماذا تجلسان هنا، أيتها
العجوزتان القبيحتان المهمّلتان الزائفتان لتذكّراننى بأننى لست نفس
الرجل الذي كنته من قبل. كل شيء معدّ. هنالك فى منزلى كل شيء
معدّ. يعرفون ما يجب أن يفعلوه فى هذه الحالات. ويمنعوننى من
التذكر. يقولون لى أنتى أوجد، الآن، ولم أكن أبداً. لا أحد يحاول
توضيح أى شيء قبل أن يكون الوقت قد فات. أوف. كيف سأتسلى
هنا؟ نعم، إنتى أرى أنهم قد أعدّوا كل شيء ليبدو أنتى آتى إلى هذا
المخدع كل ليلة وأنام هنا. أرى الصوان شبه المفتوح وأرى المنظر
الجانبى لبعض السترات التي لم أستخدمها أبداً، وبعض ربطات العنق
دون كرمشات، وبعض الأحذية الجديدة. أرى طاولة كتابة كوّموا فوقها
كتباً لم يقرأها أحد، وأوراقاً لم يوقّعها أحد. وهذا الأثاث الأنيق
المبتذل: متى نزعوا عنه الأغطية المليئة بالتراب؟ أم... ثمة نافذة. ثمة
عالم بالخارج. ثمة هذه الريح العالية، ريح الهضبة، التي تُحرّك
أشجاراً سوداء ونحيلة. يجب أن أتنفس...

- إفتحوا النافذة...

- لا، لا. قد تُصاب بالبرد وتُعقّد الأمور.

- تيريسا، أبوك لا يسمعك...

- إنه يتظاهر. يغمض عينيه ويتظاهر.

- إسكتي.

- إسكتي.

ستسكتان. ستبتعدان عن مقدمة الفراش. أبقى عيني مغمضتين. أتذكر أنني خرجت لتناول الغداء مع ياديا، ذلك الأصيل. تذكرت هذا فعلاً. لقد تغلبت عليهم في لعبتهم ذاتها. كل هذا كرية الرائحة، لكنه فاتر. جسدي يولد برودة فاترة. يولد حرارة في الملاءات. تغلبت على كثيرين. تغلبت على الجميع. نعم، دمي يتدفق جيداً في شراييني؛ سأتمالك نفسي قريباً. نعم، يتدفق فاتراً. لكنه مازال يبعث حرارة. إنتي أغفر لكم. فلم تجرحوني. حسناً، تكلموا، قولوا. لا يهمني. أغفر لكم. يا للبرودة الفاترة. قريباً سأكون بخير. آه.

أنت ستشعر بالرضا لأنك فرضت إحترامك عليهم؛ إعترف: فرضت إحترامك حتى يعترفوا بأنك نديهم: ما أقل المرات التي بلغت فيها مثل هذه السعادة، لأنك منذ بدأت تصبح ما أنت عليه، منذ تعلمت أن تُقدر ملمسَ الأقمشة الفاخرة، مذاقَ الخمور الفاخرة، رائحة أنواع اللّوسيون الفاخرة، كل ما أصبح في السنوات الأخيرة متعتك الوحيدة والفريدة، منذ ذلك الحين غرست نظرتك هناك إلى أعلى، إلى الشمال، ومنذ ذلك الحين عشت بحنين الخطأ الجغرافي الذي لم

يسمح لك بأن تكون جزءاً منهم فى كل شىء: إنك تُعجبُ بكفاءتهم،
بوسائل الراحة لديهم، بعاداتهم الصحية، بسلطتهم، بإرادتهم وتتنظر
حولك وتبدو لك أموراً لا تطلق عدم كفاءة، وبؤس، وقذارة، ورخاوة،
وعُرى هذا البلد البائس الذى لا يملك شيئاً؛ وأكثر ما يؤلمك هو معرفة
أنك مهما حاولت، لا يمكنك أن تكون مثلهم، لا يمكن أن تكون سوى
نسخة بالكربون، صورة تقريبية، ففى نهاية المطاف، قل لى: هل كانت
رؤيتك للأشياء، فى أسوأ لحظاتك أو فى أفضلها، بالغة التبسيطية مثل
رؤيتهم؟ أبداً. لم تستطع أبداً التفكير فى الأمور على أنها أبيض
وأسود، صالح واطالح، إله وشيطان: اعترف أنك دوماً، حتى عندما بدا
الأمر على عكس ذلك، قد وجدت فى الأسود جرثومة، إنعكاس ضده:
وقسوتك ذاتها، حين كنت قاسياً، ألم تكن مصطبغة برقة معينة؟ تعرف
أن كل ما هو حدّي يتضمن ضده: القسوة تتضمن الرقة، والجبن
الشجاعة، والحياة الموت: على نحو ما - لا شعورياً تقريباً، لكونك من
أنت، ومن أين أنت وما عشتة - تُعرف هذا ولذا لن يمكنك أبداً أن
تشبههم، هم الذين لا يعرفونه. هل يضايقك هذا؟ نعم، ليس مريحاً، بل
مزعجاً، ومن المريح أكثر بكثير أن تقول: هذا هو الخير وهذا هو الشر.
الشر. لن تستطيع تحديده أبداً. ربما، لأننا منبوذون أكثر، لا نود أن
تضيع هذه المنطقة الوسيطة، الملتبسة، بين الضوء والظلمة: هذه
المنطقة حيث يمكننا أن نجد الغفران. حيث يمكنك أنت أن تجده. منذا
الذى لن يكون قادراً، فى لحظة واحدة من لحظات حياته - مثلك - على
تجسيد الخير والشر فى نفس الوقت، على أن يُسلم قياده فى نفس
الوقت لخيطين غامضين، بلونين مختلفين، ينطلقان من نفس اللقافة
حتى يصعد الخيط الأبيض ويهبط الأسود ثم، رغم كل شىء، يُعاود
الإثنان الالتقاء بين أصابعك ذاتها؟ لن تود التفكير فى هذا كله.
ستحقر الأنا لتذكيرك بذلك. ستود أن تكون مثلهم والآن، وأنت عجوز،

تكاد تحقق ذلك. لكنك تكاد . تكاد فقط. فأنت نفسك ستمنع النسيان. ستكون شجاعتك توأم جبنك، ستكون كراهيتك قد وُلدت من حبك، وستكون حياتك كلها قد إحتوت ووعدت بموتك: لن تكون قد عشت خيراً ولا شريراً، كريماً ولا أنانياً، شريفاً ولا خائناً. ستترك للآخرين أن يؤكدوا مزاياك وعيوبك؛ لكنك أنت نفسك، كيف سيمكنك إنكار أن كل ما تؤكد سينتفى، أن كل ما تنفيه سيتأكد؟ ولن يدري أحد، ربما باستثنائك أنت. أن وجودك سيكون منسوجاً من كل الخيوط، مثل حياة كل البشر. أنك لن تنقصك، ولن تفيض عن حاجتك، فرصة واحدة لتجعل من حياتك ما تريدها أن تكون. وإذا كنت ستصير شيئاً، وليس آخر، فذلك لأنك، رغم كل شيء، سيكون عليك أن تختار. ولن تنفى خياراتك بقية حياتك الممكنة، كل ما ستخلفه وراءك في كل مرة تختار: بل ستجعلها هزيلة، ستجعلها هزيلة لدرجة أن إختيارك ومصيرك اليوم سيصيران شيئاً واحداً: لن يعود للميدالية وجهان: ستكون رغبتك متطابقة مع مصيرك. ستموت؟ لن تكون المرة الأولى. ستكون قد عشت حيوات كثيرة مينة، لحظات كثيرة هي مجرد إيماءات. حين تلصق كاتالينا أذنها بالباب الذي يفصل بينكما وتتسمع حركاتك؛ حين تتحرك أنت، على الجانب الآخر من الباب، دون أن تدري أن هناك من يتصتت عليك، دون أن تدري أن حياة شخص متوقفة على أصوات وسكون حياتك خلف الباب، منذا سيحيا في هذا الإنفصال؟ حين يعرف كلاكما أن كلمة واحدة تكفى ورغم ذلك تصمتان، منذا سيحيا في هذا الصمت؟ لا، هذا ما لا تود تذكره. تود تذكر شيء آخر: ذلك الاسم، ذلك الوجه الذى سيمحوه مرور الزمن. لكنك ستعرف أنك لو تذكرت ذلك لوجدت خلاصك، لوجدت خلاصك بسهولة مفرطة. ستتذكر أولاً ما يمثل عقوبتك، وحين تجد خلاصك فيه، ستعرف أن ذلك الشيء الآخر، الذى ستظنه خلاصك، سيكون هو عقوبتك الحقيقية: أن تتذكر

ما تريد . ستتذكر كاتالينا الشابة، حين عرفتھا، وستقارنها بامرأة اليوم
المغرورة. ستتذكر وستتذكر لماذا . ستجسّد ما ظنته ھى، والجميع
حينئذ . ولن تدري . سيتوجب عليك أن تجسده . لن تُصفي أبداً لكلمات
الآخرين . سيكون عليك أن تحياھا . ستغمض عينيك: ستغمضھما . لن
تشمّ ذلك البخور . لن تنصت إلى ذلك النحيب . ستتذكر أشياء أخرى،
نهارات أخرى . إنها نهارات ستصل ليلاً إلى ليل عينيك المغمضتين ولن
تستطيع التعرف عليها إلا بالصوت: وليس مطلقاً بالنظر . سيتوجب
عليك أن تقدّر الليل حق قدره وتقبله دون أن تراه، أن تؤمن به دون أن
تعرف عليه، وكأنه إله كل نهاراتك: الليل . الآن ستفكر أن إغماض
عينيك سيكفي لحلوله . ستبتسم، رغم الألم الذى يعاود التسلل، وتحاول
مدّ ساقيك قليلاً . سيلمس شخص يدك، لكنك لن تجيب على هذه - ما
ھى، تربيّة، إھتمام، معاناة، حساب؟ - لأنك ستكون قد خلقت الليل
بعينيك المغمضتين ومن أعماق محيط الحبر ذاك ستبحر نحوك سفينة
حجرية عبثاً ستحاول شمس الظھيرة، الحارة المتثابة، أن تضيء عليها
البهجة: جدران سميكة ومسوّدة، مُشيّدة لتحمى الكيسة الأم من
هجمات الهنود، وكذلك لتوحّد بين الفتح الدينى والفتح العسكرى .
ستتقدم صوب عينيك المغمضتين، بالضجيج المتصاعد للنايات
والطبول، إنها القوات الجلفة، الإسبانية، للملكة إيسابل وسوف تعبر
أنت تحت الشمس الساحة الفسيحة وفى وسطها الصليب الحجرى
وفى الزوايا المحارب المفتوحة، إمتداد عقيدة أهل البلاد، المسرحية،
فى الهواء الطلق . وأعلى الكنيسة المقامة فى عمق الساحة، ستستقر
قباب الحجر البركانى فوق سيوف المدجنين* المنسيّة، علامة على دمٍ

* mudéjares: تشير إلى المسلمين الذين بقوا فى قشتالة بعد إعادة الفتح المسيحى
والى فنونهم (من القرن ١٢ - ١٦) الفنية بالتأثيرات الإسلامية - م .

جديد مُتراكب على دم الغزاه. ستتقدمُ حتى أول بوابة من الطراز الباروكي، الذي مازال قشتالياً، لكنه صار ثرياً بالأعمدة المحلاة بنقوش الكروم الباذخة والعقود المحدثبة: بوابة الفتح، الصارمة والمرحة، ياحدى قدميها فى العالم القديم، الميت، والقدم الأخرى فى العالم الجديد الذى لم يبدأ هنا، بل على الجانب الآخر من البحر أيضاً: فالعالم الجديد جاء معهم، بجبهة من الأسوار المتقشفة لحماية القلب الحسى، المرح، الجشع. ستتقدمُ وتتفدُّ إلى صحن السفينة، التى سيكون سطحها الخارجى القشتالى قد هزمه الإمتلاء، الجنائزى والضاحك، لهذه السماء الهندية ذات القديسين، والملائكة، والآلهة الهندية. صحنٌ واحد، هائل، سيمتد صوب المذبح، الذى تزيّنه نقوشٌ متكاثفة، وفرة متجهمة لوجوه مُقنعة، صلاة كئيبة وإحتفالية، متعجلة دوماً، لهذه الحرية، الوحيدة الممنوحة، حرية تزيين معبد وملئه بالخوف الهادى، بالخضوع المنحوت، بالرعب من الفراغ، من الأزمنة الميّنة، لمن كانوا يُطيلون التباطؤ المتعمد للعمل الحر، اللحظات الإستثنائية للاستقلال الذاتى، فى اللون وفى الشكل، بعيداً عن ذلك العالم الخارجى ذى السياط، والقيود الحديدية، والجُدري. ستسير، لفتح عالمك الجديد عبر الصحن الذى ليس فيه مساحة خالية: رؤوس ملائكة، أغصانُ كروم متناثرة، أزهارٌ متعددة الألوان، فاكهة مستديرة، حمراء، مشتبكة فى أحبولة ذهبية، قديسون بيض منحوتون داخل الجدران، قديسون بنظرات مندهشة، قديسو سماءٍ اخترعها الهندي على صورته وهيئته: ملائكة وقديسون لهم وجه الشمس والقمر، بأيديهم تحمى الحصاد، لهم سبابة كلاب صيد، عيونهم قاسية، غير ضرورية، غريبة عنهم، عيون المعبود، شبيهة شبيهاً صارماً بدورات الكواكب. الوجوه الصخرية خلف الأقنعة الوردية، السمحة، الساذجة، لكنها خامدة، ميتة، أقنعة: إخلق الليل، إملأ بالريح الشراع الأسود، أغمض عينيك يا أرتيميو كروث...

(١٩١٩ : ٢٠ مايو)

هو من قصّ حكاية لحظات جونثالو برنال الأخيرة في سجن بيرالس وفتح له ذلك أبواب هذا البيت.

- كان بالغ النقاء على الدوام - قال دون جمالييل برنال الأب -؛
ظن على الدوام أن الفعل يُلَوِّثُ ويجبرنا على خيانة أنفسنا، حين لا يقوده فكرٌ واضح. أعتقد أنه انفصل عن المنزل لهذا السبب. حسناً، أعتقد ذلك جزئياً، لأن تلك العاصفة اجتاحتنا جميعاً، بما في ذلك نحن الذين لم نتحرك من مكاننا. لا، ما أودّ توضيحه هو أن الواجب بالنسبة لإبنى كان يتمثل في أن يقترب لكى يشرح، لكى يُقدِّم أفكاراً متماسكة، نعم، لكى يحول، فيما أعتقد، دون إنهيار هذه القضية في إختبار الفعل، مثل كل القضايا. لا أدري، كان تفكيره بالغ التعقيد. كان يعظ بالتسامح. يسعدنى أن أعرف أنه مات بشجاعة. ويسعدنى أن أراك هنا.

لم يكن قد أتى هكذا مباشرة لزيارة العجوز. فقبلها، تردّد على أماكن معينة في بويبلا، وتحدث مع أشخاص معينين، وتحقق مما كان ضرورياً التحقق منه. ولذا، كان يستمع الآن دون أن تختلج في وجهه عضلة واحدة إلى حجج العجوز الباهتة بينما يسندُ هذا الأخير جمجمته البيضاء إلى ظهر المقعد الجلدى اللامع، وجانب وجهه يغمره

الضوء المصفر الذى يكشف حبات الغبار الكثيف لهذه المكتبة المغلقة،
التي تتطلب رفوفها العالية أن يتحرك سلم صغير على عجلات، راسماً
خطوطاً على الأرضية المدهونة باللون الأصفر المحمر، للوصول إلى
الأسفار السميكة الضحكة المجلدة، وهى مؤلفات فرنسية وإنجليزية
فى الجغرافيا، والفنون الجميلة، والعلوم الطبيعية، تستلزم قراءتها،
عادةً، إستخدام العدسة التي كان دون جمالييل يحتفظ بها، ساكنة،
بين يديه العجوزتين الحريريتين، دون أن ينتبه إلى أن الضوء الباهت
يخترق الزجاج ويتركز، حارقاً، فى إحدى طيات البنطلون المخطط،
المكوى بعناية: لكنه هو لاحظ ذلك. فصل بينهما صمت غير مريح.

- إعذرني؛ هل أقدم لك شيئاً؟ الأفضل أن تبقى للعشاء معنا.

فتح يديه علامة على الدعوة والسرور فسقطت العدسة فى حجر
هذا الرجل النحيل، ذى الجلد المكرمش فوق العظام المتصلبة،
وخصلات الشيب الأصفر اللامعة فوق جمجمته، وفكيه، وشفتيه.

- لا تخيفنى الأزمنة التي تتقضى - كان قد قال قبلها، بصوت
محدد ومؤدب دائماً، مُنغم داخل تلك النبرات، رتيب خارجها -؛ فيم
يمكن أن يفيد تعليمي - وأوماً بالعدسة نحو الأرفف المحملة بالكتب -
إذا لم يسمح لى بإدراك حتمية التغيرات؟ الأشياء تُبدل مظهرها، شيئاً
أم أيّناً؟ فلماذا نُصرُّ على ألا نراها، على التهد على الماضى؟ بينما
الأقل إنهاكاً أن نقبل ما هو غير متوقع! أم أننا لا يجب أن نسميه
هكذا؟ أنت، يا سيدى... عفواً، إننى أنسى رتبتك... نعم، العقيد،
العقيد... أقول، إننى أجهل أصولك، ومهنتك... أقدرُك لأنك شاركت
إبنى ساعاته الأخيرة... حسناً: أنت يا من مارست الفعل، هل استطعت
أن تتوقع كل شيء؟ أنا لم أمارس الفعل ولم أستطع أنا الآخر. ربما
كانت إيجابيتنا وسلبيتنا سواءً بسواء تتماثلان فى هذا، فى أنهما
كلتيهما شديدتا العمى والعجز. رغم أنه لا بد من وجود فرقٍ ما... ألا

تظن؟ فى النهاية...

لم تغب عن بصره عينا العجوز العنبريتان، المصممتان تصميماً مفرطاً على خلق جو من المودة، الواثقتان ثقةً مفرطة خلف قناع العذوبة الأبوية. ربما كانت طبيعية حركات اليدين المتسيّدة تلك، وتلك النبالة المؤكدة لجانب الوجه وللذقن الملتحية، وذلك الميل المنتبه للرأس. لكنه فكر، رغم ذلك، فى أن الطبيعية يمكن التظاهر بها هى الأخرى؛ فأحياناً، يتصنعُ القناعُ على نحو مفرط الجودة ملامح وجه لا يوجد خارجه ولا تحته. وكان قناع دون جماليل يشبه بشدة وجهه الحقيقى، بحيث يُقلقُ التفكير فى الخط الفاصل، فى الظل غير المحسوس الذى يمكن أن يفصل بينهما: فكر فى ذلك وفكر أيضاً فى أنه ذات يوم سيمكنه أن يقول ذلك للعجوز دون مواربة.

رنت كل ساعات المنزل فى وقت واحد فتهض العجوز ليُشعل مصباح الاستيلين الموضوع فوق منضدة الكتابة ذات الحاجز المنزلق. ببطء، رفع الحاجز وقلب فى بعض الأوراق. تناول إحداها بين يديه واستدار نصف دورة نحو مقعد الزائر الحديث الوصول. إبتسم، قطب جبينه وعاد الإبتسام وهو يضع تلك الورقة فوق الأخريات. رفع، بظرف، سبابته إلى أذنه: كان كلبٌ ينبع ويخمش بأقدامه الجانب الآخر من الباب.

إنتهز هو فرصة إدارة العجوز ظهره له ليفرغ تساؤله الخفى. ولا حتى ملمح واحد من ملامح السنيور برنال كان يكسر النبالة المتأغمة للمجموع: منظوراً إليه من الخلف، كان يمشى بأناقة واعتدال: كان الشعر الأبيض، المشعث قليلاً، يتوج العجوز الذى يتجه نحو الباب. كان مقلقاً - شعر هو بالقلق حين فكر فى الأمر مرة أخرى -؛ بالفاً حدّ الكمال بدرجة مفرطة. ربما لم تكن لباافته سوى الرفيقة الطبيعية لسذاجته. ضايقه هذا الخاطر: كان العجوز يمشى بخطوات بطيئة

نحو الباب، والكلب ينبج: قد يكون الصراع بالغ السهولة، لا طعم له.
لكن ماذا لو كانت المودة، بالمقابل، تخفى دهاء العجوز؟

حين توقف التأرجح المنتصب للسُترة وربّتت اليد البيضاء على مقبض الباب النحاسي، نظر إليه دون جمالييل من فوق كتفه، بعينه الغنبريتين، وربّتت على ذقنه بيده الأخرى. بدا أن النظرة تدرك أفكار الرجل المجهول وحاكت الإبتسامة، المزمومة قليلاً، إبتسامة قارئٍ للطالع على وشك إكتشاف الحظ غير المتوقع. وإذا كان الرجل المجهول قد استطاع أن يفهم ويقبل في إيماءة العجوز دعوةً إلى التواطؤ الصامت، فإن حركة دون جمالييل كانت من الأناقة، من الخفة، بحيث لم تُتَح للمتواطئ أن يردّ النظرة ويُبرم الإتفاق الضمني.

كان الليل قد حلّ وضوء المصباح الخافت يُبرز بالكاد كُعوب الكتب المذهّبة وأحزمة النقوش الفضية في ورق الحائط الذي يكسو جدران المكتبة. وعندما فُتح الباب، تذكّر هو سلسلة القاعات المتتابعة كالأمعاء بدءاً من البهو الرئيسي للمنزل الريفي العتيق حتى المكتبة، والتي تفتتح، واحدة إثر أخرى، على الفناء المزخرف بالمينا والقيشاني. قفز كلب الحراسة الضخم مبتهجاً ولحق يد سيّده. وخلف الكلب، ظهرت الفتاة مرتدية رداءً أبيض، بياضاً يتنافر مع الضوء الليلي الذي يتباطأ خلفها.

توقفت لحظةً عند العتبة، بينما قفز الكلب نحو الرجل المجهول وتشمّم قدميه ويديه. جذبه السنيور برنال، ضاحكاً، من طوقه الجلدي الأحمر وغمغم بإعتذار. لم يفهمه هو. وواقفاً، مُزّراً سترته بالحركات الدقيقة للحياة العسكرية، ومُمسّداً لها وكأنه مازال يرتدى السترة العسكرية، ظلّ بلا حراكٍ أمام جمال تلك الشابة التي لم تتخطِ إطار الباب.

- إبنتي كاتالينا.

لم تتحرك. الشعر الناعم الكستائى الذى ينسدل على الرقبة الطويلة، الدافئة - من بعيد أمكنه أن يرى إلتماع مؤخر العنق -، والعينان الصليبتان والسائلتان فى آن واحد، بنظرة مرتجفة، فقاعة مزدوجة من الزجاج: صفراوان مثل عيني الأب، لكنهما أكثر صراحة، وأقل تعوداً على التصنع بطبيعية، تتكرران فى الشائيات الأخرى لذلك الجسد المشوق والممتلىء، فى الشفتين النديتين شبه المنفرجتين، فى الثديين الناهدين والمشدودين: عينان، وشفتان، ونهدان صلبان وناعمان، فى إتساق يتراوح بين الوحشة والحنق. أبقى يديها مشتبكتين أمام فخذها وخصرها النحيل، وحين مشى، تطاير الشريط الأبيض للفستان المزركر من الخلف، الواسع حول الإليتين المتماسكتين، والضيق قرب الكاحل النحيل. تقدمت صوبه كتلة من اللحم بلون الذهب الباهت، كشفت فى الجبهة وفى الخدين عن الإلتماع الداكن المعتد بنفسه للجسد كله، ومدت له يداً بحث هو فى ملمسها، دون أن يجد، عن النداة، عن العاطفة التى تتم عنها.

- كان مع أخيك خلال ساعاته الأخيرة؛ حدثك عنه.

- كنت محظوظاً، يا سيدى.

- حدثنى عنكم، وطلب منى أن آتى لرؤيتكم. تصرف كرجل

شجاع، حتى النهاية.

- لم يكن شجاعاً. كان يحب هذا كله... بإفراط.

لمست صدرها وفى الحال أبعدت يدها لتتظاهر بأنها ترسم قوساً

فى الهواء.

- مثالى، نعم، مثالى جداً - غمغم العجوز وتتهدد -. السيد

سيتعشى معنا.

أمسكت الفتاة بذراع والدها وتبعهما هو، والكلب إلى جواره، عبر

الغرف الضيقة والرطبة، المكتظة بأوانى الخزف والكراسى، بالساعات

والفتريبات، بالأثاث العتيق واللوحات الدينية القليلة القيمة الكبيرة الأبعاد: وكانت الأرجل المذهبة للكراسي والمناضد تستقر على نفس الأرضية من الخشب المدهون، دون أبسطة، وظلت المصابيح مطفأة. فى غرفة الطعام فقط كانت نجفة ضخمة من الزجاج المنحوت تضيء قطع الأثاث الثقيل من خشب الماهوجنى ولوحة الطبيعة الصامتة الممزقة حيث تلمع أوانى الفخار وفواكه خط الاستواء الملتهبة. بالفوطة، طرد دون جمالييل الناموس الذى يطير حول إناء الفاكهة الواقعى، الأقل إمتلاءً من ذلك المرسوم. وبإيماءة، دعاه إلى الجلوس.

فى مواجهتها، إستطاع أخيراً أن يثبّت بصره فى عيني الفتاة الساكنتين. هل تعرف الدافع لزيارته؟ هل كانت تخمّن فى عيني الرجل ذلك الشعور بالنصر، الطافح نتيجة الوجود الجسدى للمرأة؟ هل كانت تتبيّن البسمة الخفيفة للحظ والثقة؟ هل كانت تشعر بالتوكيد التملكى الذى لا يكاد يخفيه؟ لم تكن عيناها تجيبانه إلاّ بهذه الرسالة الغريبة للقدرية الخشنة، وكأنها تبين أنها على إستعداد لقبول كل شىء، ورغم ذلك، على تحويل إستكانتها إلى فرصة لإنتصارها الخاص على الرجل الذى شرع بتلك الطريقة الصامتة والمبتسمة فى جعلها ملكه.

أدهشتها صلابة إستسلامها، قوة ضعفها. رفعت بصرها لتلاحظ، دون حياء، الملامح القوية للرجل المجهول. لم تستطع تجنب الإلتقاء بالعينين الخضراوين. ليس وسيماً، ولا جميلاً. لكن جلد الوجه الزيتونى ذاك، الذى يكسو جسده بنفس القوة المشدودة، المنحنية، للشفتين الغليظتين وأعصاب الجبهة النافرة، كان يعدّ بلمس مُستَحَبٍّ رغم أنه مجهول. وتحت المائدة، مدّ هو قدمه حتى لامست طرف الحذاء النسائى. أرخت الفتاة جفניה ونظرت خلسة إلى أبيها؛ سحب هو قدمه. كان المضيف البالغ حدّ الكمال يبتسم بأريحيته الدائمة؛ ويُحرّك كأساً بين أصابعه.

كسر الصمت دخولُ الخادمة الهندية العجوز بكسرولة الأرز ولفت دون جمالييل الإنتباه إلى أن موسم الجفاف قد إنتهى متأخراً بعض الشيء هذا العام؛ ولحسن الحظ فإن كتل السحاب قد أخذت تتكاثر حول الجبال وسوف تكون المحاصيل جيدة: ليس مثل العام الماضى، لكن جيدة. ومن الغريب - قال - أن يحتفظ هذا المنزل العتيق بالرطوبة دائماً، تلك الرطوبة التى تُبْقِعُ الأركان الظليلة وتمنحُ الحياة للسرخس والنباتات الملونة فى الفناء. ربما كان ذلك رمزاً مناسباً لعائلةٍ نمت وازدهرت بفضل ثمار الأرض: تضرب بجذورها فى وادى پوييلا - أكل الأرز، إلتهطه فى المعلقة بدقة - منذ أوائل القرن التاسع عشر وهى أقوى، نعم، من كل التقلبات العبثية لبلدٍ عاجزٍ عن الهدوء، محبٍ للإضطراب.

- أحياناً، يبدو لى أن الإفتقار إلى الدم والموت يبعث فينا اليأس. كما لو أننا لا نشعر أننا أحياء إلا إذا أحاطنا الدمار والإعدامات - واصل العجوز بصوته الودى - . لكننا نحن سنستمر، سنستمر دوماً، لأننا قد تعلمنا كيف نبقى على قيد الحياة، دوماً...

تتاول كأس الضيف وملأها بنبيذ داكن.

- لكن لا بد من دفع ثمن للبقاء على قيد الحياة - قال الضيف بجفاف.

- يمكن دائماً التفاوض على أنسب ثمن...

وحين ملأ دون جمالييل كأس إبنته، ربت على يدها. - كل شيء يتوقف على التهذيب الذى يتم به ذلك. فلا ضرورة لإزعاج أحد، لجرح الحساسيات... يجب أن يظل الشرف سليماً لا يُمس.

عاود هو البحث عن قدم الفتاة. وهذه المرة، لم تسحب هى قدمها إبتعاداً عن ملامسته. رفعت كأسها ونظرت إلى الرجل المجهول دون أن تتفرج شفاتها.

- يجب أن نعرف كيف نميِّز بين الأشياء - غمغم العجوز وهو يجفّف شفّتيه بالمنشفة - الأعمال التجارية، مثلاً، شيء، والدين شيء آخر.

- أترك بهذه التقوى، تتلقى البركة المقدسة كل يوم مع إبنك الصغيرة؟ حسناً إذن، إن كل ما تراه هنا، كل ما تملك تمت سرقته من الكهنة، هنالك حين عرض خوارث* في المزاد ممتلكات الإكليروس وكان بمقدور أى تاجر لديه بعض المدخرات إمتلاك قطعة أرض شاسعة...

قضى ستة أيام فى پوييلا قبل أن يتوجه إلى منزل دون جماليل برنال. سرّح الرئيس كارانثا القوات وعندها تذكر هو محادثته مع جونثالو برنال فى بيراليس وسار على الطريق إلى پوييلا: مسألة غريزة خالصة، لكنها أيضاً مسألة يقين من أن معرفة هذا - معرفة اسم عائلة، عنوان، مدينة - تعنى معرفة الكثير فى العالم المحطّم والمختلط الذى خلفته الثورة. وبعثت فيه التسلية مفارقة كونه هو من يعود إلى پوييلا، وليس برنال الذى أعدم. كان ذلك، على نحو ما، حفلاً تذكرياً، إحلالاً، دعاية يمكن لعبها بأقصى جدية؛ لكنه كان أيضاً شهادة ميلاد، شهادة على القدرة على البقاء على قيد الحياة وتدعيم المصير الشخصى بمصائر الآخرين. وحين دخل إلى پوييلا، حين تبين منذ طريق تشولولا نباتات الفطر الحمراء والصفراء ورؤوسها متناثرة فوق

* بنيتو خوارث: سياسى ليبرالى مكسيكى من أصل هندى (١٨٠٦-١٨٧٢) تولى رئاسة عام ١٨٥٨. إنتهج سياسة مناهضة للإكليروس وأوقف الديون الخارجية مما دفع نابوليون الثالث إلى التدخل. وحين أصبح مكسميليان إمبراطوراً على المكسيك (فى ١٨٦٤)، شن خوارث حرب عصابات بقبض على مكسميليان وأعدمه وتولى الرئاسة حتى وفاته - روبر الصغير.

الوادي، شعر بأنه يدخل وهو مزدوج، بحياة جونتالو برنال مضافةً إلى حياته، بمصير الميُت مجموعاً مع مصيره: كأن برنال، عند موته، فوّض إليه إمكانات حياته غير المتحققة ليضيفها إلى حياته هو. فكّر أن ميّتات الآخرين ربما كانت هي التي تطيل حياتنا نحن، فكر. لكنه لم يأت إلى بوييلا ليفكر.

- هذا العام لم يستطع حتى شراء البذور. فقد تراكمت عليه الديون، بالإضافة إلى ما جرى العام الماضي حين أخذ الفلاحون في التمرد عليه ومضوا ليبذروا الأراضي المتروكة. وجادلوه بأنه إذا لم يمنحهم الأراضي التي لا تزرع، فلن يُعاودوا البذار في الأراضي المزروعة. ورفض هو بدافع الكبرياء الخالص وبقي دون حصاد. فيما مضى، كانت الشرطة الريفية ستعيد المتمردين إلى النظام، لكن الآن... تغيرت الأمور.

- وليس هذا فقط. فالمدينون نقضوا إلتزامهم؛ ولا يريدون الآن أن يدفعوا له أكثر من ذلك. يقولون أنه بالفوائد التي تقاضاها يكون قد إستوفى نقوده وأكثر. أترى، يا سيدى المقدم؟ الجميع يملؤهم الإيمان بأن الأمور ستتغير الآن.

- آه، لكن العجوز ماض في عناده، ولا يتركهم يلوون ذراعه. يفضل الموت على الاستسلام، كل واحدٍ وشأنه.

خسر في آخر رميةٍ للفرد وهزّ كتفيه. أشار إلى صاحب الحانة ليقدم المزيد من الكؤوس فشكر له الجميع هذه البادرة.

- من المدين لهذا الدون جمالييل؟

- حسناً... سأقول أنا، من ليس مديناً له؟

- هل له صديقٌ مُقرَّب جداً، شخص يُسرُّ له بدخيلته؟

- وكيف لا، إنه الأب بايث، هنا عند الناصية.

- ألم ينبذ الإكليروس؟

- هوهوه... الأب يمنح دون جمالييل الخلاص الأبدى، مقابل أن يمنح دون جمالييل للأب الخلاص على الأرض.
أعشت الشمس أبصارهم حين خرجوا إلى الشارع.
- ماشاء الله على أولاد الناس، شئء بالعقل!
- من هذه المرأة؟

- ومن يمكن أن تكون، يا سيدى المقدم... إنها إبنة المذكور.
سار، ناظراً إلى طرف حذائه، خلال الشوارع العتيقة، المخططة
مثل رقعة شطرنج. وحين كف عن سماع وقع قدميه على أحجار
الرصف وأخذت قدماه تثيران غباراً جافاً ورمادياً، صوّب بصره إلى
الجدران اللوزية اللون للمعبد - الحصن العتيق، عبر الساحة الواسعة
ودخل إلى صحن الكنيسة الساكن، الطويل والمذهب. ومن جديد، رن
وقع قدميه. تقدم صوب المذبح.

مكوراً، ومكسواً بجلد ميت، لم يكن جسد الأب يلمع إلا فى عيني
من الفحم، فى عمق الوجنتين المنتفختين. منذ أن رأى الغريب يتقدم
عبر صحن الكنيسة أخذ يتجسس عليه، مُختبئاً خلف فرجة مرتفعة،
كانت موضعاً لإنشاد الراهبات اللائى هرين من المكسيك خلال
الجمهورية الليبرالية، وتبين القس فى حركات الغريب الروح العسكرية
غير الواعية للرجل المتعود على حالة الإستنفار، على القيادة، وعلى
الهجوم. لم يكن الأمر راجعاً إلى مجرد التشوّه الطفيف لساقى
الفارس: بل كان قوة عصبية معينة للقبضة المتشكلة خلال الملمس
اليومى للمسدس وأعنة الخيل: وحتى حين يمشى ذلك الرجل، مثلما
يفعل الآن، بقبضة مضمومة؛ فذلك يكفى لكى يتبين فيه بايث قوة
مقلقة. عالياً فى الموضع الخفى للراهبات، فكر أن رجلاً كهذا لم يأت
لأداء طقوس الورع. رفع عبايته وهبط، ببطء، السلم الحلزونى المؤدى
إلى الدير القديم المهجور. هبط وهو يطاء بحرص: تنورته مُشْمرة،

وكتفاه مرفوعان حتى أذنيه، وجسده أسود ووجهه أبيض ليس فيه دم، وعيناه نفاذتان. كانت درجات السلم بحاجة إلى إصلاح عاجل: فقد إنزلت قدم سلفه سنة ١٠، وكانت العاقبة جنائزية. لكن ريميخيو بايث، الشبيه بخفّاش منتفخ، بدا أنه يخترق بعينه كل ظلمات بئر السلم الأسود، الرطب والدائري. وأجبرته الظلمة، والخطر على إيقاظ كل حواسه والتفكير: رجلٌ عسكري في كنيسة، بزيّ مدني، ودون صحبة ولا حراسة؟ كان الحدث من الجدة بحيث لا يمكن أن يمرّ دون أن يثير الإنتباه. لقد تبا بالأمور جيداً. ستتقضى المعارك، والعنف، وتدريس المقدسات - فكر في عصابة الجنود التي، منذ عامين بالكاد، نهبت كل أردية الكهنة وكل الأشياء المقدسة - وستعود الكنيسة الأبدية، المقامة لتبقى إلى أبد الأبد، للتفاهم مع سلطات المدينة الأرضية. رجلٌ عسكري في ثياب مدنية... دون حراسة...

هبط وهو يلمس بإحدى يديه الجدار المنبعج، حيث تتساقط قطرات خيطٍ داكن. تذكر القس أن موسم الأمطار سرعان ما سيبدأ. وقد أخذ هو على عاتقه، بكل سلطاته، التنبه إلى ذلك من فوق المنبر وفي كل إعراف من إعرافاته: إنها خطيئة، خطيئة كبرى ضد الروح القدس أن نمتنع عن تلقى عطايا السماء؛ لا يمكن لأحد أن ينتهك تصاريص العناية الإلهية، وقد نظمت العناية الإلهية الأمور كما هي وهكذا يجب قبولها جميعاً؛ يجب على الجميع أن يخرجوا لفلاحة الأراضي، وجمع المحاصيل، وتسليم ثمار الأرض إلى مالكيها الشرعي، فهو مالكٌ مسيحي يدفع إلتزامات إمتيازته مسلماً العشور، في مواعيدها، للكنيسة الأم المقدسة. فالرب يعاقب التمرّد ودائماً ما ينهزم الشيطان على يد رؤساء الملائكة - رفائيل، وجبريل، وميخائيل، وجماليل... جماليل.

- والعدالة، يا أبتاه؟

- العدالة النهائية يتم توزيعها هناك فى الأعالي، يا بنى. لا تبحث عنها فى وادى الدموع هذا.

الكلمات - غمغم الأب حين إستراح، أخيراً، على الأرض الصلبة ونفض الغبار عن عباءته -: الكلمات، مِسْبَحَات المقاطع اللعينة التى تشعل دماء وآمال من يجب أن يقنعوا بالعبور سريعاً بهذه الحياة القصيرة وبالتمتع، مقابل إختيارهم المميت، فى الحياة الأبدية. عبر الرواق وسار فى فرجة من البواكى. العدالة! من أجل من، ولأى مدى زمنى؟ بينما يمكن للحياة أن تكون مقبولة للجميع، إذا أدرك الجميع حتمية مصيرهم ولم يمضوا يتملقون، ويتراجعون عن ديونهم، ويطمحون...

- نعم، أظن؛ نعم، أظن... - كرّر الأب بصوت خفيض وفتح الباب المشغول لغرفة المقدّسات.

- عملٌ رائع، أليس كذلك؟ - قال عند إقترابه من الرجل الطويل الواقف أمام المذبح -. أطلع الآباء الرهبانُ الفنانين الهنود على تصاوير ولوحات محفورة، فأخذ هؤلاء يحولّون أذواقهم إلى أشكال مسيحية... يقولون أن هناك معبوداً مختبئاً خلف كل مذبح. ولو كان الأمر كذلك، فإنه معبود خيّر، لم يعد يطلب دمأ مثل الآلهة الوثنية... - حضرتك پايت؟

- ريميخيو پايت - قالت الإبتسامة المزمومة - وحضرتك: لواء، مقدّم، رائد...؟

- أرتيميو كروث فقط.

- آه.

حين إفترق العقيد والقس أمام بوابة الكنيسة، عقدَ پايت كفيه فوق معدته ونظر إلى الزائر الذى يبتعد. كان الصباح الأزرق الرائق يُحدّد ويُقرب خطوط البراكين: ثنائى المرأة النائمة وحارسها

المستوحد. زرّ عينيه: لم يكن يتحمل ذلك الضوء الشفاف: لاحظ
بإمّتان تقدّم السحب السوداء التى سرعان ما سترطّب الوادى
وتطفئ الشمس، كل مساء، بإعصارها الرمادى الدقيق التوقيت.

أدار ظهره إلى الوادى وعاد إلى ظلمة الدير. فرك يديه. لم يكن
ليهمه صلف ولا شتائم ذلك الأزعر. لو كانت تلك هى الطريقة لإنقاذ
الموقف والسماح لدون جمالييل بأن يقضى سنوات عمره الأخيرة
مَحْمِيّاً من كل خطر، فلن يكون ريميخيو پايت، كاهن الرب، هو من
سَيُفسد كل شىء بإستعراض للمهانة وبغيرة صليبي. على العكس: فهو
الآن يلحق شفتيه مفكراً فى حكمة مسكّته. ولو أراد هذا الرجل أن
يُنقذ كبرياءه، فإن الأب پايت سيستمع إليه اليوم وغداً ورأسه منكّسة،
تهتز أحياناً بالموافقة، وكأنه يقبل بألم الذنوب التى ينسبها ذلك الجلف
القوى للكنيسة. تناول القبعة السوداء المعلقة، ووضعها بإهمال فوق
رأسه ذات الخصلات الكستنائية ووجّه خطواته نحو منزل دون
جمالييل برنال.

- يمكنه أن يفعل ذلك، ولم لا! - أكد العجوز ذلك المساء، بعد أن
تحدث مع القس -. لكننى أتساءل، أى حيلة سيستخدمها للدخول إلى
هنا؟ لقد قال للأب أنه سيأتى لرؤيتى اليوم بالذات. لا... لا أفهم
جيداً، كاتالينا.

رفعت هى رأسها. وأراحت يدها فوق نسيج الصوف الذى كانت
ترسم فوقه، بعناية، منظر أزهار. قبلها بثلاث سنوات، أبلغوهما بالنبأ:
مات جونثالو. ومن حينها، أخذ الأب والإبنة يتقاربان حتى حولاً هذا
المرور البطيء للأصائل، وهما جالسان فوق كراسى الفناء الخيزرانية،
إلى شىء أكثر من مجرد عزاء: إلى عادة يجب، بحسب الأب، أن تمتد
حتى موته. ولم يكن يهم كثيراً أن تتمزق سلطة وثروة الأمس؛ فربما
كانت تلك هى الجزية التى يجب دفعها للزمن وللشيخوخة. وضع دون

جماليل نفسه داخل صراع سلبي. فلن يخرج لإخضاع الفلاحين، لكنه لن يقبل أبداً غزوهم غير المشروع. لن يطالب المدينين بدفع القروض والفوائد، لكن لن يعود باستطاعتهم الحصول على درهم واحد، أبداً.

ينتظر أن يعودوا ذات يوم راكعين، حين تجبرهم الحاجة إلى التخلي عن الكبرياء. لكنه سيظل راسخاً في كبريائه. والآن... يصل هذا الغريب ويعدُّ بمنح قروض للفلاحين، بفائدة أقل كثيراً من فائدة دون جماليل ويتجراً، فوق ذلك، يقترح أن تنتقل حقوق العجوز مالك الأرض إلى يديه مجاناً، مع الوعد بأن يُسدّد له ربع ما يستطيع إستعادته. إما هذا أو لا شيء.

- أنا أتصور الأمر؛ لن تنتهي طلباته عند هذا الحد.

- الأرض؟

- نعم، هناك مخططٌ ما لإنتزاع الأرض مني، لا تشكّي في ذلك. مثل كل الأمسيات، مرّت على الأقفاص الملونة في الفناء، وأخذت تغطيها بأغطية من القماش بعد أن تراقب الحركات العصبية للطيور المفردة وطيور أبي الحناء التي تنقر البرغل وتسقسق، للمرة الأخيرة، قبل أن تختفي الشمس.

لم يكن العجوز يتوقع عقبة بهذا الحجم. آخر رجل رأى جونتالو، رفيق زنزانته، حامل آخر كلمات الحب للأب، والأخت، والزوجة، والإبن.

- قال لي أنه فكّر في لويسا وفي الطفل قبل أن يموت.

- بابا. إتفقنا على أن لا ...

- لم أقل له شيئاً. لا يعرف أنها تزوّجت من جديد وأن حفيدي يحمل اسماً آخر.

- منذ ثلاث سنوات وأنت لا تتحدث عن ذلك. فلماذا الآن؟

- معك حق. لقد غفرنا له، أليس كذلك؟ فكرت أننا يجب أن نغفر

له لأنه إنتقل إلى صف العدو. فكرتُ أننا يجب أن نحاول فهمه...
- إعتقدتُ أننا أنت وأنا كنا نغفر له فى صمت، كل مساء، هنا.
- نعم، نعم، هذا هو الأمر. إنك تفهميننى دون حاجة للكلمات. يا
له من أمر مريح! أنت تفهميننى...

ولذا، فعندما وصل هذا الضيف المرهوب، المنتظر - لأن أحداً كان
يجب أن يصل، ذات يوم، ويقول: "لقد رأيته. لقد عرفته. وقد
تذكركم" - ووضع فى وجهيهما عقبتة الكأداء، دون حتى أن يذكر
المشكلات الحقيقية للتمرد الفلاحى والتوقف عن الدفع، فإن دون
جماليل، بعد أن أدخله إلى المكتبة، إعتذر وسار مسرعاً - هذا العجوز
البطىء الذى يماهى بين التمهّل والأناقة - نحو مخدع كاتالينا.
- أصلحى من شأنك. إنزعى عنك هذا الثوب الأسود؛ وإرتدى
شيئاً يجعلك تبدين مشرقة. وتعالى إلى المكتبة حين تدق الساعة
السابعة.

لم يقل أكثر من ذلك. وسوف تطيعه: سيكون هذا هو برهان كل
الأصائل السوداوية. ستفهم. بقيت هذه الورقة لإنقاذ الأمور: كان
يكفى لدون جماليل أن يشعر بحضور هذا الرجل وأن يخمن إرادته
كى يفهم - أو يقول لنفسه - أن أى تلكؤ سيكون إنتحاراً، وأن من
الصعب معارضته وأن التضحية المطلوبة ستكون ضئيلة، وليست، على
نحو معين، مُنفرةً جداً. كان الأب بايث قد حذّره: رجل طويل، مملوء
بالقوة، له عينان خضروان مغناطيسيّتان ولهجة قاطعة. أرتيميو كروث.
أرتيميو كروث. هكذا يُدعى، إذن، العالمُ الجديد المنبعث من
الحرب الأهلية؛ هكذا يُدعى من وصلوا ليحلّوا محله. بلدٌ تعيس - قال
العجوز لنفسه بينما يسير، متمهلاً مرةً أخرى، نحو المكتبة ونحو ذلك
الحضور غير المرغوب لكنه مُذهل -؛ بلدٌ تعيس عليه فى كل جيل أن
يُدمّر المالكين القدامى ويُحلّ محلّهم سادة جدداً، جشعين وطموحين

مثل سابقهم. كان العجوز يتخيل نفسه بإعتباره الناتج النهائي لحضارة كريولية* بشكل فريد: حضارة المستبدّين المستيرين. وكان يبتهج حين يفكر في نفسه بوصفه أباً، قاسياً أحياناً، لكنه في النهاية عائلٌ ومالكٌ دوماً لتقاليد الذوق السليم، واللياقة، والثقافة.

لهذا أدخله إلى المكتبة. فهناك كان أكثر بداهةً ذلك الطابع الموقر - شبه المقدس - لكل ما كانه ومثله دون جمالييل. لكن الضيف لم يتأثر. لم يغب عن حدة ذهن العجوز، بينما يُسند رأسه إلى المسند الجلدي ويكاد يغمض عينيه ليرى خصمه على نحو أفضل، أن هذا الرجل يحمل خبرةً جديدة، شكّلها المطارق، ومعتادةً على المراهنة بكل شيء لأنها لا تملك شيئاً. لم يذكر حتى الأسباب الحقيقية لزيارته. وقبل دون جمالييل فكرة أن الأمر أفضل على هذا النحو: ربما كان الرجل الحديث الوصول يدرك الأشياء بنفس الرهافة التي يدركها هو بها، رغم أن دوافعه أشد قوة: الطموح - إبتسم العجوز حين تذكر تلك العاطفة، التي ليست بالنسبة له سوى كلمة -؛ الدافع الملح لتقاضى الحقوق المكتسبة بالتضحية، والنضال، والجراح: تلك الندبة التي أحدثها سيفٌ في جبهته. ولم يكن دون جمالييل يفكر في ذلك وحده: ففي الشفاء الصامتة وفي النظرة البليغة للآخر كان مسطوراً ما عرف العجوز، الذي يلعب بالعدسة، كيف يقرأه.

لم يُحرّك الغريب إصبعاً حين إقترب دون جمالييل من منضدة الكتابة وأخرج تلك الورقة: قائمة مدينيه. هذا أفضل. عبر هذا الطريق، سيتفاهمان بشكل أفضل؛ فربما لن يكون ضرورياً ذكر تلك الأمور المحرجة وربما سيتم حل كل شيء بطرق أكثر أناقة. لقد تعلم

* criolla: الكريول: كانت تطلق على الأمريكيين اللاتين ذوى الآباء الإسبان ثم أصبحت تعنى كل ما هو محلى وخاص ببلاد العالم الجديد.

العسكري الشاب بسرعة أسلوب السلطة، كرّر دون جمالييل ذلك لنفسه، وسهل هذا الشعور بالميراث الإجراءات المُرّة التي كان الواقع يُجبره عليها.

- ألم تر كيف كان ينظر إلى؟ - صرخت الفتاة حين ألقى الضيف تحية المساء.. ألم تتبّه لرغبته... لحيوانية هاتين العينين؟
- نعم، نعم - هدأ العجوز ابنته بيديه.. هذا طبيعي. فأنت جميلة جداً، أتعرفين؟، لكنك لم تخرجي من هذا المنزل إلا قليلاً. هذا طبيعي.

- ولن أخرج أبداً!

أشعل دون جمالييل ببطء السيجار الذي كان يصبغ بالأصفر شاربته الكثيف ومنبت اللحية عند الذقن - ظننت أنك ستفهمين.
هزّ ببطء كرسي الخيزران ونظر إلى قبة السماء. كانت إحدى آخر الليالي الجافة، بسماءٍ بلغ من صفائها أنك، إذا زرّرت عينك، لاستطعت إدراك لون النجوم الحقيقي. أخفت الفتاة خديها المشتعلين بين كفيها.

- ماذا قال لك الأب؟ إنه زنديق! إنه رجل بلا ربٍّ، وبلا إحترام... وأنت تصدق الحكاية التي اخترعها؟
- إهدئي، إهدئي. فالثروات لا تُخلق دائماً في ظل الآلوهية.

- هل تصدق تلك الحكاية؟ لماذا مات جونتالو وليس هذا السيد؟ إذا كان الإثنان محكوماً عليهما في نفس الزنزانة، فلماذا لم يموتا هما الإثنان؟ أنا أعرف، أنا أعرف: ليس صحيحاً ما جاء يحكيه لنا؛ لقد اخترع هذه الحكاية لكي يُلحق بك المهانة وليجعلني...

كفّ دون جمالييل عن الإهتزاز. بدأت الأمور تجد حلاً بطريقةٍ طيبةٍ جداً، هادئةٍ جداً! والآن، من حدس المرأة، انبعثت تلك الحجج التي كان العجوز قد تخيلها، وقلّبتها، وطرحها جانباً

باعتبارها غير مُجدية.

- لديك خيال ذات العشرين عاماً. - نهض وأطفأ السيجار. - لكن لو شئت الصراحة، فسوف أكون صريحاً. هذا الرجل يمكنه أن ينقذنا. وأى إعتبار آخر سيكون زائداً عن الحاجة...
تهدد ومدّ ذراعيه ليلمس يديّ ابنته.

- فكّر في آخر سنوات أبيك. هل تظنين أننى لا أستحق قليلاً

من...؟

- نعم، يا بابا، لا أعترض...

- وفكّر في نفسك.

خفضت رأسها. - نعم، أدرك ذلك. كنت أعرف أن شيئاً كهذا سيحدث منذ أن ترك جونتالو البيت. لو كان حياً...
- لكنه ليس حياً.

- لم يفكر فيّ. من يدري فيم فكر.

خلف دائرة الضوء المنبعث من المصباح الزيتى الذى كان دون جمالييل يرفعه عالياً، وعلى طول الردهات العتيقة الباردة، أجبرت الفتاة نفسها على إستعادة ذلك الحشد من الصور القديمة والمختلطة: تذكّرت الوجوه المشدودة والمغمورة بالعرق لأصدقاء دراسة جونتالو، والمناقشات الطويلة فى غرفة آخر الردهة؛ تذكّرت النظرة الوضّاءة، العنيدة، المتلهّفة، لأخيها، ذلك الجسد العصبى الذى كان يبدو، أحياناً، كأنه موجودٌ خارج الواقع، الذى كان يحب وسائل الراحة، والعشاءات الدسمة، والنبيد، والكتب والذى كان، فى نوبات سخط دورية، يجحد ذلك الميل الحسى والإمتثالى. تذكّرت برودة لويسا، زوجة أخيها؛ والمشادات العنيفة التى كانت تتطفئ عندما تدخل الطفلة إلى القاعة؛ ذلك العويل المختق بالضحك لإمرأة جونتالو حين عرفت خبر موته؛ وخروجها الصامت، ذات فجرٍ، وهى تعتقد أن الجميع نائمون بينما

الصبية تطلُّ من خلف زجاج القاعة: واليد القوية لذلك الرجل ذى القبعة المستديرة السوداء والعصا وهى تأخذ بيد لويسا وتساعدنها على الصعود، مع الطفل، إلى العربة السوداء المحمَّلة بصناديق الأرملة. لم يعد بمقدورها الإنتقام لتلك الميتة - قبل دون جمالييل جبهتها وفتح باب المخدع - إلا بمعانقة هذا الرجل، معانقته لكن مع إنكار الرقة التى يودُّ هو أن يجدها لديها. بقتله وهو على قيد الحياة، بتقطير المرارة حتى تُسمِّمه. نظرت إلى المرأة، باحثةً عبثاً عن التقاطيع الجديدة التى لا بد أن التغيير قد طبعها فى وجهها. وهكذا أيضاً سينتقمان هى وأبوها من هجران جونثالو، من مثاليته الحمقاء: بتسليم الفتاة ذات العشرين ربيعاً - لماذا تطفر دموع الشفقة من عينيها حين تفكر فى نفسها، فى شبابها؟ - إلى الرجل الذى رافق جونثالو خلال تلك الساعات الأخيرة التى لا تستطيع هى تذكرها وقد رفضت الشفقة على نفسها، ووجهتها نحو الأخ الميت، دون شهقة سخط واحدة، دون تقلص واحدٍ فى وجهها: إذا لم يشرح لها أحدٌ الحقيقة، فسوف تتمسك بما تعتقد أنه الحقيقة. خلعت جوريتها الأسود. وعند احتكاك يديها بساقيها، أغمضت عينيها: أصبح من الواجب عليها ألا تسمح بعد الآن بذكرى القدم الخشنة والقوية التى ظلت تبحث عن قدمها خلال العشاء وأغرقت صدرها بشعور مجهول، لا يُروّض. ربما لم يكن جسدها من عمل الرب - إنحنت، ضغطت أصابعها المتشابكة على حاجبيها - بل من عمل أجسادٍ أخرى، لكن روحها من عمل الرب. لن تسمح بأن يسير هذا الجسد فى طريق لذيذ، عفوى، مُتحرِّق إلى الهدهدات، بينما تملأ عليها روحها طريقاً آخر. رفعت الملاءة وانزلت داخل الفراش وعيناها مغمضتان. مدَّت يدها لتطفىء المصباح. وضعت الوسادة فوق وجهها. لا يجب أن تفكر فى هذا. لا، لا، لا يجب أن تفكر. لم يعد ثمة ما يجب قوله. قول الإسم الآخر، حكى الأمر

لأبيها. لا. لا. ليس من الضروري أن تحطّ من شأن أبيها. فى الشهر القادم، فى أسرع وقت: فليتمتع ذلك الرجل بفوائد النقود، وبالأراضى، وبجسد كاتالينا برنال... ماذا يهمّ... رامون... لا، هذا الإسم لا، ليس بعد. نامت.

- أنت نفسك قلت ذلك، يا دون جمالييل - قال الضيف حين عاد، صباح اليوم التالى -. لا يمكن وقف مسار الأشياء. فلنسلم تلك الأراضى للفلاحين، فهى فى نهاية الأمر أراض موسمية ولن تُغلّ لهم إلا أقلّ القليل. ولنقسمها إلى قطع صغيرة حتى لا يستطيعوا أن ييذروا إلا زراعات قليلة الشأن. وسترى أنهم حين يضطرون إلى شكرنا على ذلك، سيتركون النساء تقولين أمر الأراضى السيئة ويعودون للعمل فى أراضينا الخصبة. تأمل ذلك فقط: إذ يمكنك حتى أن تصبح بمثابة بطل من أبطال الإصلاح الزراعى، دون أن يكلفك ذلك شيئاً.

راقبه العجوز، مُتسلّياً، بابتسامةٍ يخفيها شعر اللحية الكثيف:
- هل تحدثت معها؟
- تحدثتُ...

لم تستطع السيطرة على مشاعرها. إرتجفت ذقنها حين قرّب يده وحاول أن يرفع وجهها ذى العينين المغمضتين. لمس لأول مرة هذا الجلد الأملس، الذائب فى قشدةٍ، الشبيه بالفاكهة. ورافقتهما الرائحة النفاذة لنباتات الفناء، الأعشاب المختقة من الرطوبة، رائحة التربة المتعفنة. لقد أحبها. عرف، حين لمسها، أنه قد أحبها. كان يجب أن يجعلها تفهم أن حبه حقيقى، رغم أن المظاهر تنفيه. باستطاعته أن يحبها كما أحب ذات مرة، المرة الأولى: عرف أنه يمتلك تلك الرقة المُجرّبة. عاد ليلمس خدى الفتاة الساخنتين: ولم تكفِ صلابتها، حين أحسّت بتلك اليد الغريبة فوق جلدها، للسيطرة على الدموع الحبيسة التى أفلتت من بين جفניה.

- لن تشتكى؛ لن تجدى سبباً للشكوى - غمغم الرجل، مقرباً وجهه من الشفتين اللتين راغتا من الملامسة .. فأنا أعرف كيف أحبك...
- يجب أن نشكر لك... أنك تعطفنا علينا - جاوبت هي بأخفت صوت لديها ..

فتح هو يده ليريت على شعر كاتالينا . - أنت تفهمين، أليس كذلك؟ سوف تعيشين إلى جانبى؛ عليك نسيان أشياء كثيرة... أعدك أن أحترم أشياءك... وعليك أن تعدينى بالأ تعودى أبداً...
رفعت نظرتها وأرهقت عينيها بكراهية لم تشعر بها قط من قبل.
جفّ اللعاب في حلقها . من هذا الوحش؟ من هذا الرجل الذى يعرف كل شئ، ويأخذ كل شئ، ويحطم كل شئ؟
- أسكت... - قالت الفتاة وتخلصت من تربيتته.

- لقد تحدثت معه . إنه فتى ضعيف . لم يكن يحبك حقاً . فقد استسلم للرعب فى الحال .
نظفت الفتاة يديها أجزاء وجهها التى لمسها . - نعم، ليس قوياً مثلك... ليس حيواناً مثلك...

أرادت أن تصرخ حين أمسكها من ذراعها، وإبتسم وضم قبضته:
- هذا الرامونثيتو* سيفادر پوييلا . لن ترينه مرة أخرى أبداً...
أفلتها . خَطَّت نحو أقفاص الفناء الملونة: نحو شدو الطيور ذاك . وبينما يتأملها دون أن يتحرك، أخذت تفتح الأقفاص الملونة، واحداً واحداً . أطل أبو الحناء وشرع فى الطيران . لكن طائراً مفرداً إمتنع، لتعوده على الماء وعلى البرغل . وضعتته هي فوق خنصرها، وقبّلت جناحه ودفعته إلى الطيران . أغمضت عينيها حين طار آخر الطيور وتركت هذا الرجل يأخذها، ويسير بها إلى المكتبة

* تصغير رامون . م .

حيث كان دون جمالييل ينتظر، من جديد، دون تعجل.

أنا أحسُّ بيدين تجذباني من إبطي وترفعاني لأستريح أفضل على الوسائد الناعمة ويكون الكتان المنعش بلسماً لجسدي الملهب والبارد؛ أحسُّ بهذا لكتني حين أفتح عيني أرى في مواجهتي تلك الصحيفة المفتوحة التي تخفي وجه من يقرأها: أفكر في أن الحياة المكسيكية* موجودة، وستكون موجودة كل يوم، ستصدر كل يوم ولن توقفها قوة على ظهر الأرض. تفلتها تيريسا - فهي التي تقرأ الصحيفة - بإنزعاج.

- هل جرى لك شيء؟ هل تحسن بأن حالتك سيئة؟

على أن أهدئها بيدي فتناول الصحيفة من جديد. لا؛ أحس بأنني راض، مُحركٌ لخدعة ضخمة. ربما. ربما كانت ضربة معلّم أن أترك وصية خاصة لتشرها الصحيفة، أقص منها حقيقة مشروعى الشريف للحرية والإعلامية... لا، لو أخذت في الاستثارة، لعادتنى الطعنة في أحشائي. أحاول مدّ يدي صوب تيريسا، طالباً منها التخفيف عني، لكن إبنتي عاودت الاستغراق في قراءة الصحيفة. قبلها رأيتُ النهار ينطفئ خلف النوافذ واستمعت إلى الحفيف الضارع للسناثر. والآن، في غيبش المخدع ذي السقف من الخشب

* Vida Mexicana : الصحيفة التي يملكها - م.

المضغوط والـ closets * من خشب السنديان، لا يمكننى أن أميّز جيداً المجموعة الأبعد عني. المخدع بالغ الإتساع، لكنها موجودة هناك. لا بد أنها جالسة متصلة، والمنديل المنقوش بين يديها ووجهها دون مساحيق وربما لا تسمعني حين أغمغم:

- إنتظرتك هذا الصباح بابتهاج. لنعبر النهر على صهوة الجياد.
لا يسمعني إلا ذلك القريب الذي لم أره أبداً، بخديّ الحليقين وحاجبيه الأسودين، ويطلب منى التوبة بينما أفكر أنا في النجار والعذراء ويعرض على مفاتيح السماء.

- ماذا يمكن أن تقول أنت... في غيبوبة كهذه...؟
فاجأته. لكن تيريسا لا بد أن تقصد كل شيء بصرخاتها: - دعه، أيها الأب، دعه! ألا ترى أننا لا يمكننا عمل شيء! إذا كانت مشيئته أن يحكم على نفسه بالعذاب، ويموت كما عاش، بارداً وساخراً من كل شيء...؟

يُبْعدها الكاهن بذراعه ويُقَرِّب شفّتيه من أذني: يكاد يُقبِّلني. - ليس لهما أن تسمعانا.

وأتمكن أنا من الأنين: - إذن لتكن شجاعاً وتطرد كلتا هاتين الشمطاوين.

ينهض على قدميه بين صيحات إستكار المرأتين ويجرهما من ذراعيهما ويقترب يادياً، لكنهما لا تريدان.

- لا، يا أستاذ، لا يمكننا أن نسمح بذلك.

- إنها عادة منذ سنواتٍ طويلة، يا سيدتي.

- علي مسئوليتك؟

- دون أرتيميو... أحضرت لك ما سَجَلناه هذا الصباح...

♦ مرحاض أو غرفة صغيرة يخلو فيها المرء إلى نفسه - إنجليزية في النص - م.

أومئ بالموافقة. أحاول الإبتسام. مثل كل يوم. رجلٌ جدير بالثقة،
بادييا هذا.

- فيشة الكهرياء بجوار المكتب.

- شكراً.

نعم، كيف لا، إنه صوتي، صوتي بالأمس - بالأمس، هذا الصباح؟
لن أميِّز الفرق - وأنا أسأل بونس، مدير تحرير صحيفتي - آه، الشريط
يُصدرُ صريفاً حاداً، إضبطه جيداً، يا بادييا، إستمعت إلى صوتي
بالمقلوب: يُصدرُ صريفاً كأنه ييغاء -: ها أنذا:

" - كيف ترى الأمر، يا بونس؟

" - سيء، لكن سهل الحل، حتى الآن.

" - الآن نعم، إدفع الصحيفة إلى الأمام، دون عبارات مُخففة.
إضربهم بقوة. لا تدّخر شيئاً.

" - أمرك. يا أرتيميو.

" - على الأقل فإن الجمهور قد تم إعداده جيداً.

" - على مدى سنوات طويلة ونحن نكرر.

" - أريد أن أرى كل المقالات الافتتاحية والصفحة الأولى...

إبحث عني في منزلي، في أي ساعة كانت.

" - إنك تعرف، فكل شيء يمضي في نفس الخط. يتم كشف

النقاب عن المؤامرة الحمراء. تسللٌ عجيب غريب عن المبادئ الجوهرية
لثورة المكسيكية...

" - الثورة المكسيكية المباركة!

" - ... زعماء يحركهم عملاء أجنب. تامبروني يضرب بعنف

ويندفع بالانكو بعمود يُماهى فيه الزعيم بالمسيخ الدجال والرسوم
الكاريكاتورية مشتعلة... كيف حالك؟

" - آى، ليس على ما يرام. توعُك. سينتهى. كم نتمنى لو كنا كما كنا من قبل! هه؟

" - نعم، كم نتمنى...

" - قل لمستر كروكرى أن يدخل."

أسفل فى الشريط المغناطيسى. أستمع إلى مفصلات ذلك الباب وهو يفتح وينغلق. أحسُّ أن لا شيء يتحرك فى أحشائى، لا شيء، لا شيء، ولا تخرج الغازات، مهما دفعتها... لكنى أراهما. دخلتا. يفتح الباب الماهوجنى وينغلق ولا تُصدر الخطوات صوتاً فوق السجادة السميقة. لقد أغلقوا النوافذ.

- إفتحوا النافذة.

- لا، لا. قد تُصاب بالبرد وتُعقد الأمور...

- إفتحوا...

" - Are you worried, Mr. Cruz?"

" - تماماً. إجلس وسأشرح لك. هل تتناول شيئاً؟ قُرب منك

حاملة المشروبات. فأنا لا أحسُّ أنتى على ما يرام."

أستمع إلى حركة العجلات الصغيرة، واصطدام الزجاجات فيما بينها.

" - You look O. K."

أستمع إلى سقوط الثلج داخل الكوب، وإلى ضغط ماء الصودا المندفع من السيْفون.

" - إنظر: سأشرح لك اللعبة، إذا لم يكونوا قد فهموا. أبلغ المكتب

المركزى أنه إذا إنتصرت حركة التطهير النقابى المزعومة هذه. فبإمكاننا أن نقطع ذيلنا*...

* La coleta: كناية عامية عن العضو الذكرى - م.

" - ذيلنا؟

" - نعم، ننكح أنفسنا، بالمكسيك..."

- أقطعوا هذا! - تصرخ تيريسا، وتقترب من جهاز التسجيل - ما

قِلَّة الحياء هذه...؟

أتمكن من تحريك يدي، ورسم إيماءةٍ على وجهي. تضيع مني
بضع كلماتٍ من التسجيل.

" - ... ما يطالب به زعماء عمال السكك الحديد هؤلاء؟

يتمخط شخص، بعصبية. أين؟

" - إشرح ذلك للشركات، حتى لا يصدّقوا بسذاجة أن الأمر

يتعلّق بحركة ديموقراطية، أتفهمني، للتخلص من القادة الفاسدين. لا.

" - I'm all ears, Mr. Cruz - "

نعم، لا بد أن الجرينجو هو من يتمخط. آه - آخ - آخ.

- لا، لا. قد تصاب بالبرد وتُعقد الأمور.

- إفتحوا.

أنا ولست أنا وحدي، بل رجال آخرون، يمكننا أن نبحث في
النسيم عن عطر أرض أخرى، عن الشذى الذى ينتزعه الهواء من
ظهيراتٍ أخرى: أشمُّ، أشمُّ: بعيداً عنى، بعيداً عن هذا العرق البارد،
بعيداً عن هذه الغازات الملهبة: أجبرتهما على فتح النافذة: يمكننى أن
أتنفس ما يروقتنى، أن أتسلّى بانتقاء الروائح التى تجلبها الريح: سواء
كانت غابات خريفية، أو أوراق محترقة، آه أشجار برقوق ناضجة، أو
أو فاكهة مدارية متعفنة، ملاحات قاسية، أو ثمار أناناس مفتوحة
بضربة سكين، أو أوراق تبغ منشورة فى الظل، أو دخان قاطرات، أو
موجات بحر مفتوح، أو أشجار صنوبر يكسوها الجليد، آه معدن
وماشية، كم من الطعوم تحمل وتجلب تلك الحركة الأبدية: لا، لا، لن
تتركاني أعيش: تجلسان من جديد، تهضبان وتسيران ثم تعاودان

الجلوس سوياً، كأنهما ظلّ واحد، كأنهما لا تستطيعان التفكير أو التصرف منفصلتين، تجلسان من جديد، في نفس الوقت، وظهرهما للنافذة، ل تمنعا عن تيار الهواء، لتخفقاني، لتجبراني على إغماض عينيّ وتذكّر أشياء طالما لا تدعاني أرى الأشياء، ألمس الأشياء، أشمّ الأشياء: ثنائي لعين، كم ستستغرقان في إحضار قسيس، في تعجّل موتي، في إنتزاع إعتراقات مني؟ إنه يظل هناك، راکعاً، ووجهه مفسول. أحاول أن أدير ظهري له. فيمنعني ألم جنبي. آآآي. لابد أنه إنتهى الآن. سأنال المغفرة. أريد النوم. ها هي الطعنة تأتي. ها هي تأتي. آآآي - آي. والنساء. لا، ليستا هاتين. النساء. اللائي تعشقن. كيف؟ نعم. لا. لا أدري. لقد نسيتُ الوجه. بحق الرب، نسيت ذلك الوجه. لا. لا يجب أن أنساه. أين هو. آه، كان جميلاً جداً ذلك الوجه، كيف يمكن أن أنساه. آآآه - آي. لقد أحببتك، فكيف يمكن أن أنساك. كنت ملكي، فكيف يمكن أن أنساك. كيف كنت، من فضلك، كيف كنت؟ يمكنني أن أوّمن بك، أنام معك، كيف كنت؟ كيف يمكن أن أستحضركِ؟ ماذا؟ لماذا؟ الحقنة مرة أخرى؟ إيه؟ لماذا؟ لا لا لا، شيء آخر، بسرعة، أتذكر شيئاً آخر؛ هذا يؤلم؛ آآآه - آي؛ هذا يؤلم؛ هذا ينام... هذا...

أنت ستغمض عينيك، واعياً بأن جفنيك ليسا مُعتمين، بأنك

على رغم أنك تغمضهما فإن الضوء ينفذ حتى شبكيتك: ضوء الشمس الذي سيُحجب، مؤطراً بالنافذة المفتوحة، على إرتفاع عينيك المغمضتين: العينان المغمضتان اللتان تحذفان تفاصيل الرؤية، تغيّران البريق واللون لكنهما لا تحذفان الرؤية ذاتها، ذات ضوء ذاك الدرهم النحاسي الذي سينسكب صوب المغيّب. ستغمض عينيك وتعتقد أنك ترى أكثر: لن ترى إلا ما يودُّ مخُّك أن تراه: أكثر مما يقدمه العالم: ستغمض عينيك ولن يعود العالم الخارجي يتنافس مع رؤيتك التخيلية. ستغمض جفنيك وسيخلق ضوء الشمس الساكن، الثابت، المتكرّر ذاك خلف جفنيك عالماً آخر متحركاً: ضوء متحرك، ضوء يمكن أن يُرهق، أن يُرعب، أن يُريك، أن يُبهج، أن يُحزن: خلف جفنيك المغمضين، ستعرف أن كثافة ضوء ينفذ حتى أعماق تلك اللوحة المختصرة وغير المكتملة سيمكنه أن يثير فيك مشاعر غريبة على إرادتك، وعلى حالتك. ورغم ذلك، سيمكنك أن تغمض عينيك، وتخترع عمى مؤقتاً. ولن يمكنك أن تسدّ سمعك، وتتظاهر بصمم مُتخيّل؛ أن تكف عن لمس شيء، ولو كان انحاءاً، بأصابعك، أن تتخيل إنعداماً مطلقاً للحس؛ أن توقف السيل المتصل للعابك عبر اللسان والفم، أن تتجاوز مذاقك أنت ذاتك؛ أن تمن التنفس المحشرح الذي سيواصل ملء الحياة في رئتيك، ودمك، أن تختار موتاً جزئياً. إنك دوماً ستري، دوماً ستلمس، دوماً ستذوق، دوماً ستشم، دوماً ستسمع: ستكون قد صرخت وهم يخترقون جلدك بتلك الإبرة المليئة بسائل مهدى، ستصرخ قبل أن تحسّ بأى ألم. الإنذار بالألم سيسافر إلى مخك قبل أن يحسّ جلدك بالألم ذاته: سيسافر ليحذرك من الألم الذي ستحسّه، ليجعلك متأهباً حتى تنتبه، حتى تحسّ بالألم بحدّة أكثر، لأن الإنتباه يُضعف، يُحيلنا إلى ضحايا حين تنتبه إلى أننا نحن وحدنا سنتنبه للقوى التي لن تستشيرنا، لن تنتبه لنا!

والآن: فإن أجهزة الألم، الأبطأ، ستَهزم أجهزة الوقاية
الإنعكاسية، وستحسُّ بأنك مُنقسم، رجلٌ سيستقبل ورجل سيفعل،
رجل يحسُّ ورجل يُحرِّك، رجلٌ مُكوَّن من أجهزةٍ ستحسُّ، وستقل
الإحساس إلى ملايين الألياف الدقيقة التى ستمتد حتى لحائك
الحسِّ، حتى ذلك السطح فى النصف الأعلى من المخ الذى، طوال
واحدٍ وسبعين عاماً، سيتقبل، ويُراكم، ويستهلك، ويُعرِّى، ويُعيدُ ألوان
العالم، وملامس اللحم، وطعوم الحياة، وروائح الأرض، وأصوات
الهواء: مُعيداً إياها إلى المحرِّك الأمامى، إلى الأعصاب، والعضلات،
والغدد التى ستُغيِّر جسدك ذاته وذلك الجزء من العالم الخارجى الذى
سيكون من نصيبك.

لكن فيما يشبه النوم، فإن الألياف العصبية التى ستقود المثير
الضوئى لن تتصل بمنطقة الرؤية: ستنتصتُ إلى اللون، مثلما ستذوق
الملامس، ستلمس الأصوات، سترى الروائح، ستشم الطعوم: ستمدُّ
ذراعيك كى لا تسقط فى آبار الهول، كى تستعيد نظامَ حياتك كلها،
نظام المؤثر الذى يتم إستقباله، ونقله إلى العصب، وإسقاطه على
المنطقة الصحيحة من المخ، ليُعادَ إلى العصب وقد تحوَّل إلى تأثيرٍ
ومرة أخرى إلى مؤثر: ستفرد ذراعيك وسترى خلف عينيك المغمضتين
ألوان ذهنك وستحس فى النهاية، دون أن ترى، بمصدر الملمس الذى
تُنتصتُ إليه: إنها الملاءات، حفيف الملاءات بين أصابعك المكرمشة؛
ستفتح يديك وستحس بعرق راحتك وربما ستتذكر أنك ولدت دون
خطوط للحياة أو للحظ، للحياة أو للحب: ولدت، ستولد وراحتك
ملساء، لكن سيكفى أن تولد حتى يمتلئ هذا السطح الفارغ، خلال
ساعاتٍ قليلة، بالعلامات، بالخطوط، بالإنذارات: وستموت وخطوط
راحتك كثيفة، مستهلكة، لكن سيكفى أن تموت حتى يكون كل أثرٍ
للمصير قد اختفى، بعد ساعات قليلة، من يديك.

الهيولى: ليس لها جمع

نظام، نظام: سستمسك الملاءات وستكرّر فى صمت، داخلك،
الإحساسات التى يضعها مخك فى مكانها، ويوضحها: ستحدّد ذهنياً،
بجهد، المواضع التى تبتّه إلى العطش والجوع، إلى العرق والرجفة، إلى
التوازن والسقوط: ستحدّدّها فى المخ الأدنى، الكادح، الخادم الذى
ينجز المهام الفورية ويحرّر الآخر، الأرقى، للتفكير، للتخيل، للرغبة:
إنبأ للصنعة، للضرورة أو للصدفة، لن يكون العالم بسيطاً: لن تستطيع
معرفة فى سلبية، تاركاً الأشياء تحدث لك: سيتوجب عليك أن تفكر
حتى لا يهزمك تداعى الأخطار، أن تتخيّل حتى لا ينفيك التنبؤ
الخالص، أن ترغب حتى لا يلتهمك نسيج ما ليس مؤكداً: ستجوى:
ستعرف على نفسك:

ستعرف على الآخرين وستتركهم - ستتركها - يتعرفون عليك:
وستعرف أنك ستقف ضد كل فرد، لأن كل فرد سيكون عقبة أخرى
فى سبيل بلوغ أهداف رغبتك؛

سترغب: كم ستود أن تكون رغبتك والشئ المرغوب شيئاً واحداً؛
كم ستعلم بالتحقق الفورى، بالتماهى دون انفصال بين الرغبة والشئ
المرغوب:

ستتمدّد وعيناك مغمضتان، لكنك لن تكف عن الرؤية، لن تكف
عن الرغبة: ستتذكر، لأنك بذلك ستجعل الشئ المرغوب ملكاً لك:
إلى الوراء، إلى الوراء، فى الحنين، ستتمكن من جعل كل ما ترغب ملكاً
لك: ليس إلى الأمام، بل إلى الوراء:
~الذاكرة هى الرغبة المتحققة:

إبق على قيد الحياة مع الذاكرة، قبل أن يفوت الأوان،
قبل أن يمنعك الهيولى من التذكر.

(١٩١٣ : ٤ ديسمبر)

هو من أحسن بتجويف ركبة المرأة، الرطب، بجوار خصره. كانت تعرق دائماً على هذا النحو الخفيف والمنعش: حين فصل ذراعه عن خصر ريخينا، هنالك أيضاً أحسن برطوبة الزجاج السائل. مدّ يده ليربّت على الظهر كله، بتمهل، وظن أنه غرق في النوم: كان يمكنه أن يظل هكذا طوال ساعات، دون شيء يفعله سوى الترييت على ظهر ريخينا. حين أغمض عينيه، إنتبه إلى لا نهائية التوله بهذا الجسد الفتى الذى يحتضن جسده: فكر أن الحياة برمتها لن تكون كافية لإرتياده واكتشافه، لاستكشاف تلك الجغرافيا الناعمة، المتماوجة، ذات النتوءات السوداء، الوردية. كان جسد ريخينا ينتظر وتمطى هو، دون صوت ودون رؤية، فوق الفراش، لامساً القضبان الحديدية بأطراف يديه وقدميه: تمدّد نحو طرفى السرير. كانا يعيشان داخل هذا الزجاج الأسود: فالفجر كان لا يزال بعيداً. كانت الناموسية خفيفة وتعزلهما عن كل ما هو خارج الجسدين. فتح عينيه. إقترب خدّ الفتاة من خدّه؛ إحتكت اللحية الشعثاء بجلد ريخينا كأن الظلام لم يكن كافياً. فقد كانت عينا ريخينا الواسعتان تلمعان، شبه مغمضتين، مثل ندبة سوداء وبراقة. تنفّس بعمق. إشتبكت يدا ريخينا حول رقبة الرجل، وعادتا الوجنتان الإقتراب. إنصهرت حرارة الأفخاذ فى لهب واحد. تنفّس هو: مخدّع من البلوزات والتتورات المنشأة، وثمار

السفرجل المقطوعة فوق المنضدة من خشب الجوز، ولهيب البارافين المطفأ. وعلى مسافة أقرب، العبقُّ البحري للمرأة المتداة الطرية. أصدرت الأظافر صوتَ خريشةٍ قطٍ بين الملاءات؛ وعادت الساقان الارتفاع، بخفة، لتطوّقا خصر الرجل. بحثت الشفتان عن العنق. وارتجفت قمّتا الثديين بمرح حين قرّب شفّتيه، ضاحكاً، مُزيحاً الشعر الطويل المشعث. لو تكلمتُ ريخينا: أحسّ بالنفس القريب وكمّ الشفتين بيده. بلا لسان وبلا عينين: الجسد الآخر فقط، مستسلماً لمتعته. فهمت هي. والتّصقت أكثر بجسد الرجل. هبطت يدها إلى عضو الرجل وهبطت يده إلى التّلة الصلبة وشبه الجرداء لهذه الطفلة: تذكّرها عارية، واقفة، فتيةً وصلبة في سكونها، لكنها متماوجة وناعمة حين تمشي: لتفتسل سرّاً، لترخي الستائر، لتذكي الجمر. عاودا النوم، وكلّ منهما يملكه مركز الآخر. الأيدي فقط، يدٌ واحدة، هي التي تحركت في الحلم الباسم.

" - سأتبعك.

" - وأين ستعيشين؟

" - سأتسلّل إلى كل قرية قبل أن تستولوا عليها. وهناك سأنتظرك.

" - ستتخلّين عن كل شيء؟

" - سأحمل بضعة أردية. وستعطيني أنت ما أشتري به فاكهة وطعاماً وسأنتظرك. وحين تدخل القرية، سأكون هناك. يكفيني رداء واحد."

تلك الجونلة التي تسترخي الآن فوق كرسي الغرفة المستأجرة. حين يصحو، يروق له أن يلمسها وأن يلمس كذلك الأشياء الأخرى: الأمشاط، والحذاء الأسود، والقرط الصغير المتروك فوق المنضدة. كان بوذّه، في تلك اللحظات، أن يُقدّم لها شيئاً أكثر من أيام الانفصال

واللقاءات الصعبة هذه. ففي مناسبات أخرى كان أمرٌ غير متوقع، أو ضرورة مطاردة العدو، أو هزيمة ما تجعلهم يتقهقرون إلى الشمال، تفصل بينهما طوال عدة أسابيع. لكنها، مثل طائر نورس، بدا أنها تتبين، فوق التقلبات الألف للنضال وللحظ، حركة المدّ الثورى: وإذا لم تظهر فى القرية التى إتفقا عليها، فإنها ستظهر فى أخرى آجلاً أو عاجلاً. ستمضى من قرية إلى قرية، سائلةً عن الكتيبة، ومُنصتةً إلى إجابات العجائز والنساء اللائى بقين فى منازلهن:

" - مرّوا من هنا منذ خمسة عشر يوماً.

" - يُقال أنه لم يبق منهم أحدٌ حياً.

" - من يدري. قد يعودون. فقد تركوا بعض المدافع منسيّة.

" - حاذرى من الفيدراليين، فهم يمضون مطلقين الرصاص على

كل من يساعد المتمردين."

ويتقابلان من جديد فى النهاية، مثلما الآن. تكون هى قد أعدت الغرفة، بفاكهة وطعام، وتكون الجونة ملقاةً فوق كرسى. ستنتظره هكذا، مستعدةً كأنها لا تريد أن تُضَيّع دقيقةً واحدةً فى الأشياء غير الضرورية. لكن لا شئ غير ضرورى. رؤيتها تمشى، وتعدُّ الفراش، وتفك شعرها. تجريدها من آخر ثيابها وتقيل جسدها كله، بينما تظل هى واقفة ويركع هو، ماراً بشفتيه على جسدها كله، مُتذوقاً الجلد والزغب، رطوبة القوقع: ملتقطاً فى فمه إرتجافات الطفلة المنتصبة التى سينتهى بها الأمر إلى إمساك رأس الرجل بين يديها لتجبره على أن يرتاح، على أن يدع شفتيه فى موضع واحد. وتسترسل على قدميها، مُحكمة قبضتها على رأس الرجل، بشهقة مُختلجة، حتى يحس بها نظيفةً ويحملها إلى الفراش بين ذراعيه.

" - أرتيميو، هل سأراك ثانية؟

" - لا تقولى هذا أبداً. ضعى فى إعتبارك أننا نعرف بعضنا مرة فى العمر."

لم تعاود السؤال أبداً. خجلت من إنها سألته مرة، من كونها فكرت أن حبهما يمكن أن تكون له نهاية أو يُقاسَ كما يُقاسُ زمنُ الأشياء الأخرى. لم تجد مبرراً يجعلها تتذكر أين، أو لماذا، عرفت هذا الشاب ذا الأربع والعشرين عاماً. لم يكن ضرورياً حمل عبء شئ غير الحب واللقاءات خلال أيام الراحة القليلة، حين تستولى القوات على معقل وتتوقف لتستعيد عافيتها، وتؤكد وجودها فى أرض مُنتزعة من الدكتاتورية، وتتزود بالعتاد، وتخطط للهجوم التالى. هكذا قرر الإثنان، دون أن يقولوا هذا مطلقاً. لن يفكرا أبداً فى خطر الحرب ولا فى وقت الفراق. وإذا لم يظهر أحدهما فى الموعد التالى، فسوف يواصل كل واحد طريقه دون أن يقول شيئاً: هو صوب الجنوب، حتى العاصمة؛ وهى فى طريق العودة إلى الشمال، إلى شواطئ سينالوا حيث عرفته وانسأقت للحب.

" - ريخينا... ريخينا..."

" - هل تتذكر تلك الصخرة التى تنغمس فى البحر مثل زورق حجرى؟ لا بد أنها مازالت هناك.

" - هناك عرفتك. هل كنت تذهبين كثيراً إلى ذلك المكان؟

" - كل مساء. هناك تتشكل بركة بين الصخور ويمكن للمرء أن ينظر إلى نفسه فى المياه البيضاء. هناك كنت أنظر إلى نفسى وذات يوم ظهر وجهك بجوار وجهى. فى الليل، تنعكس النجوم فى البحر. وفى النهار، تبدو الشمس وهى تلتهب.

" - لم أدر ماذا أفعل ذلك المساء. كنا نقاتل وفجأة توقَّف القتال، فقد إستسلم الزُعران وكان المرء قد تعود على حياةٍ أخرى. عندئذ بدأت أتذكر الأشياء الأخرى وصادفتكِ جالسةً فوق تلك الصخرة.

وقدماك مُبتلتان.

" - أنا أيضاً أردت ذلك. ظهرت إلى جوارى، بجانبى، منعكساً فى نفس البحر. ألم تتبه إلى أنتى أردت ذلك أنا أيضاً؟"

تأخر الفجر فى القدوم، لكن غلالةً رمادية كشفت نوم الجسدين، اللذين توحد بينهما الأيدى. إستيقظ هو أولاً وتطلع إلى نوم ريخينا. بدا أنه أرق خيوط نسيج عنكبوت القرون: بدا أنه توأم الموت: النوم. الساقان مضمومتان، والذراع الحر فوق صدر الرجل، والضم رطب. كان يروق لهما ممارسة الحب فى الفجر: وكانا يعيشانه كعيد للإحتفال باليوم الجديد. كان الضوء الكامد يُظهر بالكاد المنظر الجانبى لريخينا. خلال ساعة، سينصتان إلى ضوضاء القرية. أما الآن، فليس سوى تنفس الشابة السمراء التى تنام تملؤها السكينة، والتى هى الجزء الحى من العالم الذى يستريح. شئ واحد فقط يمكن أن يكون له الحق فى إيقاظها، سعادة فقط هى التى يمكن أن يكون لها الحق فى قطع هذه السعادة للجسد المملوء بالسكينة فى نومه، المرسوم على الملاءة، ملتقاً فى نفسه بنعومة قمر مكتس بالحداد. هل له الحق؟ قفز خيال الشاب فوق فعل الحب: تأملها نائمة كأنها تستريح من فعل الحب الجديد الذى سيوقظها خلال ثوان قصيرة. متى تكون السعادة أكبر؟ ربّت نهد ريخينا. تخيل ما سيكون إتحاداً جديداً، الإتحاد ذاته؛ البهجة المتعبة للتذكر ثم الرغبة الكاملة من جديد، يُضاعفها الحب، فعل حب جديد: السعادة. قبل أذن ريخينا ورأى عن قرب إبتسامتها الأولى: قرب وجهه حتى لا تفلت منه أول إيماءة للبهجة. أحس بيدها تعاود مداعبته. أزهرت الرغبة من الداخل، مبدورة بنقاط حُبلى: عادت ساقا ريخينا تبحثان عن خصر أرتيميو: اليد المليئة تعرف كل شئ: أفلت الإنتصاب من الأصابع واستيقظ معها: تباعد الفخذان مرتجفين، ممتلئين، ووجد اللحم المنتصب اللحم المفتوح ودخل يُهدده،

يُطَوِّقُه النَبَضُ المتشَوِّقُ، وتَتَوَجَّه خَصِيَّتَانِ فتيتان، مُنَضِّغَتَانِ فِي هَذَا الكون من اللحم الطرى والعاشق: إختزلا إلى لقاء العالم، إلى بذرة العقل، إلى الصوتين اللذين يُسمَّيان فِي صمت، اللذين يُعمَّدان فِي الداخل كل الأشياء: فِي الداخل، حين يُفكر هو فِي كلِّ شَيْءٍ ما عدا هذا، يُفكر، يُعدُّ الأشياء، لا يفكر فِي شَيْءٍ، حتى لا ينتهى هذا: يحاول ملء رأسه ببهار ورمال، بريح وثمار، بدور وحيوانات، بأسماء وبذور، حتى لا ينتهى هذا: فِي الداخل، حين يرفع وجهه وعيناه مغمضتان ويتمددُ عنقه بكل قوة العروق المنتفخة، حين تضيع ريخينا وتستسلم وتجيب بزفرات مختقة، مُقَطَّبةً جبينها وشفاتها باسمتان أَنْ نعم، أَنْ نعم، أنها تُحبُّ ذلك، أَنْ نعم، أن لا يتركها، أن يستمر، أَنْ نعم، أن لا ينتهى، أَنْ نعم، حتى الإنتباه إلى أن كل شَيْءٍ قد حَدَثَ فِي نفس الوقت، دون أن يتمكن أحدٌ من تأمل الآخر لأن الإثنين كانا نفس الشئ ويقولان نفس الكلمات:

" - أنا الآن سعيدة.

" - أنا الآن سعيد.

" - أحبك، يا ريخينا.

" - أعشقتك، يا رَجُلِي.

" - هل أجعلك سعيدة؟

" - لا تنته أبداً؛ كم تدوم؛ كم تملؤنى"

بينما دَوَّى فِي الشوارع صوت دلو من الماء فوق التراب ومر البطر البرى وهو يبطن بجانب النهر وأعلن صفيراً تلك الأشياء التى لا يستطيع وقفها أحدٌ: جرجرت الأحذية العسكرية خريشة المهاميز، وعادوت الحوافر الدوى وسرت روائح الزيت والدهن بين الأبواب والبيوت. مدُّ هو يده ويبحث عن السجائر فى جيب القميص. واقتربت هى من النافذة وفتحتها. بقيت هناك، وهى تتنفس، وذراعاها

مفتوحتان، على أطراف أصابعها. إقتربت دائرة الجبال الداكنة مع الشمس صوب عيون الحبيبين. تصاعدت رائحة مخبز القرية، وعلى مسافة أبعد، مذاق نبات الآس المشتبك بأعشاب السفوح العطنة. ولم ير هو إلا الجسد العارى، ذا الذراعين المفتوحتين اللتين أرادتا، الآن، الإمساك بظهر النهار وجذبه معها إلى الفراش.

- هل تريد إفطارك؟

- الوقت مبكر. دعيني أنهي سيجارتي أولاً.

استندت رأس ريخينا على كتف الشاب. ربتت اليد الطويلة

المعروقة على مؤخرتها. ابتسم الإثنان.

- حين كنت طفلة، كانت الحياة جميلة. كانت هناك لحظات كثيرة

جميلة. الإجازات، أوقات الراحة، أيام الصيف، الألعاب. لا أدري لماذا

حين كبرت بدأت أنتظر أشياء. لم أفعل وأنا طفلة. لهذا بدأت أذهب

إلى ذلك الشاطئ. قلت لنفسى أن الإنتظار أفضل. لم أدر لماذا تغيرتُ

إلى هذا الحد خلال ذلك الصيف وكففت عن كونى طفلة.

- مازلتِ حتى الآن، أتعرفين؟

- معك؟ مع كل ما نفعله؟

ضحك وقبلها فضمت ركبتهما، فى وضع طائر مطوى الجناحين،

يتخذ عُنْشَه فى صدر الرجل. تعلقت بعنق الرجل، بين الضحكات

والنهنهات المصطنعة:

- وأنت؟

- أنا لا أتذكر. قابلتك وأحبك كثيراً.

- قل لى. لماذا عرفتُ، فور أن رأيتك، أننى لن يعود يهمنى شيءٌ

أبداً؟ أتعرف: قلت لنفسى أن على أن أحزم أمرى فى تلك اللحظة

ذاتها. أنك إذا تجاهلتنى، سأكون قد فقدت حياتى كلها. ألم يحدث لك

ذلك؟

- نعم، حدث لى أيضاً. ألم تظننى أنه جندى آخر، يبحث عن شىء يُسلِّيه؟

- لا، لا. لم أر رداءك العسكرى. لم أر سوى عينيك منعكستين فى الماء وعندها لم أعد أستطيع رؤية إنعكاسى بدون إنعكاسك إلى جوارى.

- يا حلوة؛ يا حبيبى؛ إنظرى إن كان لدينا قهوة.

حين إفترقا، ذلك الصباح المماثل لكل صباحات حب عمره سبعة شهور فتية، سألته إن كانت القوات ستعاود الخروج سريعاً. فقال أنه لا يعرف فيم يفكر الجنرال. ربما كان عليهم الخروج لتشتيت بضع جماعات من الفيدراليين المهزومين الذين مازالوا باقين فى الناحية، لكن المعسكر سيظل فى هذه القرية على كل حال. فهناك ماء وفير وماشية على مقربة. إنه موقع جيد للبقاء برهة. فقد جاءوا مُنهكين، من سينالوا، ويستحقون راحة قصيرة. فى الحادية عشرة يجب على جميع القوات الإبلاغ فى قيادة الموقع. وفى كل قرية مرَّ بها الجنرال، كان يستفسر عن ظروف العمل ويصدر مراسيم تخفض ساعات العمل اليومية إلى ثمانى ساعات وتوزع الأراضى على الفلاحين. وإذا كانت هناك ضيعة فى المكان، كان يأمر بإحراق مخازنها. وإذا كان ثمة مرابىن - وهناك منهم دائماً، إذا لم يكونوا قد فرَّوا مع الفيدراليين - كان يُعلن إلغاء جميع الديون. الأمر السيء هو أن أغلب السكان كانوا يحملون السلاح ويحاربون وجميعهم تقريباً من الفلاحين، بحيث لم يكن هناك من يتولى تطبيق مراسيم الجنرال. ومن هنا كان من الأفضل إنتزاع الأموال فوراً من الأغنياء الذين يتبقون فى كل قرية وإنتظار أن تنتصر الثورة لتقنين ما يتعلق بالأراضى وييوم العمل من

ثمانى ساعات. أما الآن فيجب الوصول إلى مكسيكو لكي يُسقطوا من الرئاسة السكير هويرتا، قاتل دون بانتشيتو ماديرو* . وماذا يتبقى! - غمغم بينما يُدخل القميص الكاكي فى البنطلون الأبيض - ماذا يتبقى! من بيراكروث، من الأرض، حتى مدينة مكسيكو ومن هناك حتى سونورا، حين طلب منه الأستاذ سباستيان أن يفعل ما لم يعد العجائز يستطيعون فعله: أن يمضى إلى الشمال، ويحمل السلاح ويُحرّر البلاد. لقد كان صبيّاً حينذاك، رغم أنه كان سيكمل الحادية والعشرين. أكيد، فلم يكن حتى قد ضاجع امرأة. وكيف كان يمكنه أن يخذل الأستاذ سباستيان، الذى علّمه الأشياء الثلاثة التى يعرفها: القراءة، والكتابة، وكراهية القساوسة.

كفّ عن الكلام حين وضعت ريخينا قدحى القهوة على المنضدة.
- إنها ملتهبة!

كان الوقت مبكراً. خرجا إلى الطريق متعانقين من خصريهما. هى بجونلتها المنشأة؛ وهو بقبّعة الجوخ والسُترة البيضاء. كان البيت الذى يعيشان فيه قريباً من جرف الجبل؛ وكانت الأزهار البرية معلقة فى الفراغ وثمة أرنبٌ مزقته أنياب الذئب المكسيكى يتعفن بين الأغصان. وفى العمق، كان ينساب جدول. حاولت ريخينا النظر فيه، كأنها تتوقع أن تجد، مرةً أخرى، الإنعكاس الذى اخترعته فى خيالها. تماسكت اليدان: كان الطريق نحو القرية يمضى مُصعّداً بجوار المنحدر ومن الجبال تردد صدى صوت طائر صدّاح. لا: إنه ضجيج حوافر خفيفة، ضائعة بين سحب التراب.

* ماديرو (فرانثيسكو إندالثيو) (١٨٧٢-١٩١٢): كان بطل الحريات الديمقراطية والاصلاحات الاجتماعية ضد ديكتاتورية بورفيريو دياث. إنتخب رئيساً عام ١٩١١ واغتيل - م

- أيها الملازم كروث! أيها الملازم كروث!
ذلك الوجه المبتسم دوماً للوريتو، مساعد الجنرال، إختفى، حين
توقف الحصان بصهلة واحدة جافة، خلف العرق والتراب الذي يكسوه.
- تعال فوراً - لهث وهو ينظف وجهه بمنديل -؛ هناك مُستجدّات:
سنخرج خلال برهة قصيرة. هل أفطرت؟ فى المعسكر يقدمون بيضاً.
- لدى ما يخصنى منه - أجاب هو بإبتسامة.
كان عناق ريخينا عناقاً من تراب. وفقط عندما إبتعد حصان
لوريتو، وارتاحت الأرض، ظهرت المرأة بكاملها، مُتعلّقةً بكتفى حبيبها
الشاب.
- إنتظرنى هنا.
- ماذا تظن الأمر؟
لابد أن هناك مجموعات مشتتة فيما حولنا. لا شيء خطير.
- هل أنتظر ك هنا؟
- نعم. لا تتحركى. سأعود الليلة أو غداً مبكراً على أقصى
تقدير.
- أرتيميو... سنعود إلى هناك يوماً ما؟
- من يدري. من يدري كم يستمر هذا. لا تفكرى فى ذلك.
أتعرفين أنتى أحبك جداً؟
- وأنا أحبك. جداً، دائماً فيما أظن.
فى الخارج، فى الفناء المركزى للمعسكر، وفى إسطبلات الخيالة،
كانت القوات قد تلقت الأمر الجديد بالتحرك وأخذت تُعدّ أشياءها
بهدوءٍ طقس. تدحرجت المدافع فى طابور، تجرها بغال بيضاء تحيط
بعيونها دوائر سوداء؛ وتبعثها عربات المدافع مُحَمَّلة بالذخيرة فوق
القضبان الحديدية التى تربط الفناء بالمحطة. وكانت قوات الفرسان
تشدُّ أعنة الخيول، وتفك أكياس العلف، وتستوثق من إحكام السروج،

وتربّت على الأعراف الخشنة لخيول الحرب تلك، البالغة الدعة والبطء فى تعاملها مع الرجال: يلطّخها البارود، ويطونها تعجُّ بقُراد السهول، كان مائتاً حصان يتحركون بتثاقل أمام المعسكر، بألوان برتقالية، ورقطاء، وسوداء بلون التراب. وكان المشاة يزيّتون البنادق ويمرون فى صفٍ أمام القزم المرح الذى يوزع الرصاص. قبّعات من الشمال: قبّعات من الجوخ الرمادى، ذات حافة مطوية. ومناديل معقودة حول العنق. وأحزمة طلقات معقودة حول الخصر. أحذية قليلة: بنطلون من القماش الخشن وحذاء من الجلد الأصفر، إن لم يكن صندلاً هندياً. قميص مخطط، دون رقبة. وهنا وهناك - فى الشوارع، والأفنية، والمحطة - قبّعات هنود الياكى مزينة بأغصان: الموسيقيون وبين أيديهم المزامير وعلى أكتافهم الآلات المعدنية. آخر رشفات من الخمر. قروانات مملوءة حتى الحافة بطبيخ الفاصوليا. أطباق من البيض المقلّى. تصاعد الصياح من المحطة: فقد وصلت إلى القرية عربية بضاعة مليئة بالهنود المايو، بقرع طبول حادٍ وتلويح بأقواس ملوّنة وسهام بدائية.

شقّ لنفسه طريقاً: فى الداخل، أمام الخريطة السيئة التعليق فوق الحائط، شرح الجنرال: - شن الفيدراليون هجوماً مضاداً خلف ظهورنا، فى أرض حرّرتها الثورة. يحاولون فصلنا عن المؤخرة. فجر اليوم، تبين أحد الحراس سحابة كثيفة من الدخان تتصاعد من الجبل فى إتجاه القرى التى يحتلها المقدّم خيمينث. نزل ليحكى الأمر، فتذكرت أن المقدّم، فى كل قرية، كان قد أمر بجمع كومة كبيرة من الأخشاب وفلنكات السكك الحديدية لإحراقها إذا هوجم حتى يندرنّا. وهذا هو الأمر. علينا أن نقسم قواتنا. نصف القوات يتراجع إلى الجانب الآخر من الجبل لمعاونة خيمينث. والنصف الآخر يخرج ليضرب بقوة المجموعات التى هزمتها أمس، ولرؤية إن كنا سنواجه

هجوماً كبيراً آخر من الجنوب. ولن يبقى في هذه القرية سوى لواء واحد. لكن يبدو أن من الصعب أن يصلوا حتى هنا. الرائد جاييلان... الملازم أباريثيو... الملازم كروث: أنت ستراجع إلى الشمال.

كانت النيران التي أشعلها خيمينث آخذة في الانطفاء حين عبر هو، نحو منتصف النهار، موقع المراقبة عند حافة الجبل. وهناك إلى أسفل، ظهر القطار الغاصُّ بالبشر: كان يجري دون صفير حاملاً مدافع الهاون والمدافع، وصناديق الذخيرة والمدافع الرشاشة. هبطت فصيلة الفرسان السفوح المنحدرة بصعوبة وبدأت المدافع، من خط السكة الحديد، في إطلاق قذائفها على القرى التي يُفترض أن الفيدراليين يحتلونها.

- فلنسرع - قال -. هذه النيران ستستمر نحو ساعتين وعلينا بعدها أن ندخل للإستكشاف.

لم يدر أبداً لماذا، حين لمست حوافر حصانه بداية الأرض المستوية، خفض رأسه وضاع منه تصوُّر المهمة المحددة التي أوكلت إليه. تبخَّر وجود رجاله، مع الشعور الحازم ببلوغ هدف وظهرت بدلتهما تلك الرقة، ذلك الأسى الداخلي على شيء مفقود، تلك الرغبة في العودة ونسيان كل شيء بين ذراعي ريخينا. كأن كرة الشمس الملتهبة قد تغلّبت على الحضور القريب للفرسان وعلى ضجيج المدفعية البعيد: بدل هذا العالم الواقعي ظهر عالم آخر، حلمي، ليس فيه سواه هو وحبيبته من لهما الحق في الحياة والمبرر لإنقاذها.

- هل تتذكر تلك الصخرة التي تنغمس في البحر مثل زورق حجري؟ -

تأملها من جديد، متمنياً أن يُقبِّلها، وخائفاً من أن يوقظها، واثقاً من أنه بتأملها قد جعلها ملكه: فكر أن رجلاً واحداً هو المالك لكل

صور ريخينا السريّة وهذا الرجل يمتلكها ولن يتخلى عنها أبداً.
وبتأملها، كان يتأمل ذاته. أفلتت يداها اللجام: كل ما يعنى وجوده، كل
حبه، مدفون فى لحم هذه المرأة التى تحتوى عليهما هما الإثنين. يودُّ
لو عاد... لو شرح لها كم يحبها... تفاصيل عاطفته... حتى تعرف
ريخينا...

سهل الجواد ورفع قائميه الأماميين؛ فسقط الفارس فوق الأرض
الصلبة، ذات الأحجار والشجيرات الشوكية. أمطرت القنابل اليدوية
للفيدراليين فوق الفرسان ولم يستطع هو أن يميّز، حين نهض، من بين
الدخان، إلا صدر حصانه المشتعل، الدرغ الذى أوقف النار. وحول
الجسد الساقط كان يتلوى دون شعور أكثر من خمسين حصاناً:
وفوقها، لم يكن ثمة ضوء: هبطت السماء درجة وكانت سماء من
البارود، بارتفاع القامة. جرى نحو إحدى الأشجار المنخفضة: كانت
موجات الدخان تخفى أكثر من تلك الأغصان العارية. على بعد ثلاثين
متراً، كانت بداية غابة قصيرة لكنها كثيفة. وصل إلى مسامعه صراخ
بلا معنى. قفز ليتعلق بلجام جوادٍ طليق ولفّ قدماً واحدة حول
مؤخرته: أخفى جسده خلف الحصان ونخسه بمهمازه: شبّ الحصان
وتشبث هو، ورأسه متدلّية وعيناه يملؤهما شعره المشعث، بالسرج
واللجام تشبثاً يائساً. إختفى أخيراً ضياء الصباح؛ ومكّنته الظلمة من
فتح عينيه، والإنفلات من لحم الحيوان، والتدحرج حتى إصطدم بجذع
شجرة.

وهناك عاوده ما كان يشعر به من قبل. كانت تحيط به كل
الضوضاء المختلطة للمعركة، لكن بين القرب والضجيج الذى يبلغ
مسامعه، إمتدّت مسافة لا يمكن عبورها: هنا، كانت تسمع بدقة
متناهية إهتزازات الغصون الخفيفة، والحركات المنفلتة للسحالى.
وحيداً، ومستنداً إلى الجذع، عاوده الشعور بتلك الحياة العذبة،

الهادئة، التى أخذت تتدفق متمهلةً فى دمه: هذه الهناءة للجسد الذى يقاومُ أى محاولة متمردة للتفكير. رجاله؟ دق قلبه رتيباً، دون إنتفاض. هل يبحثون عنه؟ أحسن الذراعان، والقدمان أنهم قريبون، نظيفون، متعبون. ماذا سيفعلون بدون أوامره؟ بحثت عيناه، بين سقف أوراق الشجر، عن التحليق الخفى لطائر. هل سيكونوا قد فقدوا الإنضباط؛ هل سيجرون، هم أيضاً، للإختفاء فى هذه الغابة الصغيرة الرائعة؟ لكن لا يمكن عبور الجبل ثانيةً على الأقدام. لابد من الإنتظار هنا. وإذا أخذوه أسيراً؟ لم يعد يستطيع التفكير: أزاح الأغصان أنيناً، قرب وجه الملازم، وتهاوى رجلٌ بين ذراعيه: رفضه ذراعه للحظة وعلى الفور عاداً للإمساك بذلك الجسد الذى تتدلى منه خرقة حمراء، الذى فقد قواه، ولحمه ممزق. أسند الجريح رأسه إلى كتف رفيقه:

- إنهم... يضربون... بقوة...

أجس بالذراع المحطمة فوق ظهره، تصبغه وتصب فوقه دماً وجلاً. حاول إبعاد الوجه الذى يُقلصه الألم: وجنتان مرتفعتان، فم مفتوح، عينان مغمضتان، شارب ولحية أشعثان، قصيران مثل شاربه ولحيته. لو كانت عيناه خضراوين، لكان توأمه...

- هل هناك مخرج؟ هل خسرنا؟ أتعرف شيئاً عن الفرسان؟ هل تراجعوا؟

- لا... لا... لقد مضوا... إلى الأمام.

حاول الجريح أن يشير، بذراعه السليمة، فالأخرى، حطمتها الرشاش، دون أن يفقد تلك التقطبية الفظيعة التى بدا أنها تصلب عوده وتمدّ فى وجوده.

- يتقدمون؟ كيف؟

- ماء، يا رفيق... حالتى سيئة جداً...

غاب الجريح عن الوعي، وهو يحتضنه بقوة غريبة، مليئة بضراعات صامته. أسند الملازم ذلك الثقل الرصاصى المصبوب فوق جسده. وعادت إلى سمعه إرتجافات المدافع. مسحت ريحٌ مترددة قمم الأشجار. مرة أخرى، السكون والهدوء اللذين يقطعهما المدفع الرشاش. تناول الذراع السليمة للجريح وتخلص من الجسد الملقى فوق جسده. أمسك رأسه وأسندها على الأرض ذات الجذور البارزة. نزع غطاء الزمزية ورشف رشفة كبيرة: قريباً من شفتى الجريح: فانساب الماء فوق الذقن المسودة. لكن القلب كان يدق: قريباً من صدر الجريح تساءل هو، على ركبتيه، إن كان سيظل يدق وقتاً طويلاً. فك المشبك الفضى الثقيل لحزام الجريح وأدار له ظهره. ماذا يجرى هناك فى الخارج؟ من سيكسب؟ نهض على قدميه وسار إلى داخل الغابة، بعيداً عن الجريح.

سار وهو يتحسس جسده، أحياناً يزيح الأغصان المنخفضة، لكنه يتحسس جسده على الدوام. لم يكن جريحاً. لم يكن بحاجة إلى العون. توقف بجوار عين ماء وملاً الزمزية. كان جدولٌ صغير، ميتٌ قبل أن يولد، ينساب من عين الماء ليضيع خارج الغابة، تحت الشمس. خلع سترته وفرك بكلتا يديه صدره، وإبطيه، والكتفين الملتهبتين، الجافتين، الخشنتين كالصنفرة، والعضلات الممدودة للذراعين، والجلد الزيتونى، الناعم، ذا الحراشف الصلبة. حال دونه الزيد: كان يودُّ النظر إلى نفسه منعكساً فى عين الماء. هذا الجسد ليس جسده: فقد منحته ريخينا ملكية أخرى: استحوذت عليه مع كل تربيته. لم يكن ملكه. كان ملكها أكثر منه. أن ينقذه من أجلها. لم يعودا يعيشان وحيدين ومعزولين؛ ها قد تحطمت جدران الإنفصال: لقد صارا إثنين وواحداً فقط، إلى الأبد. ستتقضى الثورة؛ ستتقضى القرى والحيوات، لكن هذا لن ينقضى. لقد أصبحت حياتها،

حياتهما . فرك وجهه . خرج إلى السهل من جديد .

كان موكب الثوريين قادماً من السهل صوب الغابة والجبل . كانوا يندفعون بسرعة بجواره بينما يهبط هو ، فاقداً الإتجاه ، صوب القرى المشتعلة . إستمع إلى رنين السياط فوق مؤخرات الخيول ، وإلى الدوى الجاف لبعض البنادق وبقي وحيداً فى الأرض المنبسطة . هل كانوا يهربون؟ دار حول نفسه ، رافعاً يديه إلى رأسه . لم يفهم . كان من الضروري الإنطلاق من مكان ، بمهمة واضحة ، وعدم فقدان هذا الخيط الذهبى أبداً : بهذه الطريقة وحدها يمكن فهم ما يجرى . وتكفى لحظة واحدة من الشرود حتى يتحوّل كل شطرنج الحرب إلى لعبة غير معقولة ، وغير مفهومة ، من حركات ممزقة ، فجائية ، تفتقر إلى المعنى . هذه السحابة من الغبار ... هذه الخيول النائرة التى تتقدم عدواً ... هذا الفارس الذى يصيح ويهزّ حديداً أبيض ... هذا القطار المتوقف على مبعده ... هذه السحابة الترايية التى تقترب رويداً ... هذه الشمس التى تصبح كل دقيقة أقرب إلى الرأس الذاهلة ... هذا السيف الذى يمسح جبهته ... هذا الموكب من الخيول الذى يمر بجواره ويلقيه على الأرض ...

نهض وهو يريّت على الجرح فى جبهته . لا بد أن يلوذ بالغابة من جديد : فهى المكان الوحيد الآمن . ترنّح . أسالت الشمس نظرتة وبخّرت إلى فتات الأفق ، والمرج الجاف ، وحدود الجبال . حين بلغ الأشجار ، تشبّث بجذع شجرة ؛ فك أزرار سترته ومزق كم قميصه . بصق فوقه وحمل الرطوبة إلى جبهته المقطوعة . لف قطعة القماش حول رأسه : الرأس التى شُجّت حين دوّت الأغصان الجافة إلى جانبه ، تحت ثقل حذاء عسكرى مجهول . وأطلت النظرة المعذبة من بين الساقين القريبتين : كان الجندى من القوات الثورية وكان يحمل على ظهره جسداً آخر ، جوالاً دامياً ، مُحطماً ، وذراعه مُتخثر .

- وجدته عند مدخل الغابة. كان يحتضر. نسفوا ذراعاه، يا سيدى... يا سيدى الملازم.

زرَّ الجندى الطويل الصلب عينيه حتى تبيَّن الرتبة.

- أظنه مات منى. فهو ثقيل كميّت.

أنزل الجسد وأسنده إلى الشجرة: نفس ما فعله هو منذ نصف ساعة، منذ خمس عشرة دقيقة. قرَّب الجندى وجهه من فم الجريح؛ وعاود هو التعرف على الفم المفتوح، والوجنتين البارزتين، والعينين المغمضتين.

- نعم. لقد مات. لو كنت قد وصلتُ منذ برهة، فربما كنت أنقذته.

أغلق عينى الميت بيده المربّعة. وشبك المشبك الفضى وحين حنى رأسه قال من بين أسنانه البيضاء:

- اللعنة، يا سيدى الملازم. لو لم يكن فى العالم قلةٌ من الشجعان مثل هذا، ماذا كان يمكن أن يكون حالنا نحن الباقين؟

أدار ظهره للجندى وللميت وعاود الجرى نحو السهل. كان ذلك أفضل. رغم أنه لم يكن يسمع ولا يرى شيئاً. رغم أن العالم كان يمر بجانبه مثل ظل مفتت. رغم أن كل أصوات الحرب والسلام - الطيور المفردة، الريح، الأعواء البعيد - المتواترة قد تحوّلت إلى ذلك الطبل الوحيد، الأصمّ، الذى ابتلع كل الأصوات واختزلها إلى حزن متجانس. تعثّر فى جسد ميتٍ. رجع إلى جواره، دون أن يدري لماذا يفعل ذلك، لدقائق قليلة قبل أن يشق ذلك الصوت طريقاً لنفسه بين الدوى المصمت لكل الأصوات.

- أيها الملازم... أيها الملازم كروث...

توقفت اليد فوق كتف الملازم؛ فرفع رأسه.

- أنت جريح جرحاً بليغاً، أيها الملازم. تعال معنا. هرب

الفيدراليون. واحتفظ خيمينث بمعقله. عد معنا إلى المعسكر في ريوهوندو. خاضت قوات الفرسان معركة كبرى؛ كأنهم تضاعفوا، حقاً. تعال. إنك لا تبدو بحالة جيدة.

تعلق بكتفى الضابط. وغمغم:

- إلى المعسكر. نعم، هيا بنا.

كان الخيط قد ضاع. الخيط الذي كان يتيح له أن يجوب، دون أن يتوه، متاهة الحرب. دون أن يتوه: دون أن يهرب. لم يكن يقوى على الإمساك باللجام. لكن الحصان مضى مربوطاً بسرج الرائد جابيلان، خلال ذلك السير البطئ عبر الجبل الذي يفصل سهل المعركة عن الوادي حيث تنتظره هي. خلف الخيط وراءه. وهناك إلى أسفل، لم تتغير قرية ريوهوندو: إنها نفس الدار ذات السقف القرميدي المكسور وجدران الطين النبيء، الوردية، الضاربة إلى الحمرة، البيضاء، المحاطة بنباتات الصبار، التي تركها ذلك الصباح. ظن أنه تبين، بجوار شفتي الأخدود الخضراوين، الدار، النافذة حيث لابد أن ريخينا تنتظره.

كان جابيلان يخبُّ أمامه. وألقت ظلال الغروب خيال الجبل على الجسدين المتعبين للضابطين. توقف حصان الرائد برهة، في انتظار أن يلحق به حصان الملازم. قدّم له جابيلان سيجارة. وما أن إنطلقاً اللهب، حتى عاود الحصانان الخبب. لكنه كان قد رأى، وهو يشعل السيجارة، كلَّ الألم في وجه الرائد وأحنى رأسه. هذا ما يستحقه. سيعرفون لابد حقيقة فراره خلال المعركة وسيحرمونه من رتبته. لكنهم لن يعرفوا الحقيقة بأكملها: لن يعرفوا أنه أراد إنقاذ نفسه حتى يعود إلى حب ريخينا، ولن يفهموا إذا شرح لهم. كذلك لن يعرفوا أنه تخلص عن ذلك الجندي الجريح، أنه كان يمكن أن يُنقذ هذه الحياة. سيدفع حب ريخينا ثمن ذنب الجندي المتروك. لابد أن يكون الأمر على هذا النحو. خفض رأسه وأعتقد أنه يشعر بالعار لأول مرة في

حياته. العار: لم يكن هذا ما أطلّ من عيني الرائد جابيلان الرائقتين،
المباشرتين. رثّت الضابط بيده الخالية على لحية الشعر الأشقر،
المعجونة بالتراب والشمس.

- نحن مدينون لك بحياتنا، أيها الملازم. أنت ورجالك أوقفتم
التقدم. سيستقبلك الجنرال إستقبال الأبطال... يا أرتيميو... هل
يمكن أن أدعوك أرتيميو؟

حاول الرائد الإبتسام. وضع يده الخالية فوق كتف الملازم وتابع،
بابتسامة جافة:

- مضى وقت طويل ونحن نقاتل معاً وها أنت ترى، فتحن لا ننادى
بعضنا حتى بأسمائنا الأولى.

بحث الرائد جابيلان بعينيه عن إجابة. هبط الليل بزجاجة
الهيولى وانبتق آخر وميض خلف الجبال، التي أصبحت بعيدة، مخفية
فى الظلام، منكشّة. وفى المعسكر، اشتعلت نيران لا يمكن رؤيتها من
بعيد فى الليل.

- إنهم كلاب - قال الرائد فجأة بصوت حاد -. لقد دخلوا القرية
بغته، حوالى الساعة الواحدة. بالطبع لم يستطيعوا الوصول إلى
المعسكر. لكن إنتقموا من أحياء الضواحي؛ وأرتكبوا هناك أفعالهم.
كانوا قد وعدوا بالانتقام من كل القرى التى تساعدنا. أخذوا عشر
رهائن وبعثوا يقولون أنهم سيشنقونهم إذا لم نسلم الموقع. فرد عليهم
الجنرال بقذائف الهاون.

كانت الشوارع مليئة بالجنود والناس، بالكلاب الطليقة والأطفال،
الطليقين مثل الكلاب، والذين يبكون أمام الأبواب. لم تكن بعض
الحرائق قد خمدت بعد وكانت النساء جالسات فى منتصف الطريق
فوق المراتب وكراسى الجريد التى أنقذنها.

- الملازم أرتيميو كروث - تمتم جابيلان منحنيّاً ليقترب من آذان

بعض الجنود.

- الملازم كروث - سرت مهمة الجنود إلى النساء.

أفسح الناس طريقاً للحصانين: حصان الرائد الرمادى، العصبى بين الحشد الذى يضغطه، وحصان الملازم الأسود، المنخفض الرأس، الذى يترك الآخر يقوده. إمتدت بعض الأيدي: كانوا رجال فصيل الفرسان الذى يقوده الملازم. ضغطوا على ساقه علامة التحية؛ أشاروا إلى جبهته حيث كان الدم قد صبغ القماش المربوط؛ غمغموا تهنئة صماء على النصر. عبروا القرية: فى العمق كان الأخدود ينحدر والأشجار تهتز فى نسيم الليل. رفع بصره: الدار البيضاء. بحث عن النافذة، كانت كل النوافذ مغلقة. كان وميض الشموع يضىء مداخل بعض البيوت. وكانت المجموعات السوداء، الملتفة بالعباءات، مُقْعِيَّةٌ فى بعض المداخل.

- لا تفكوهم! - صاح الملازم أباريثيو، من فوق حصانه، بينما يدفعه ليتحرك فى دوائر ويُزيح بسوطه الأيدي التى ترتفع ضارعةً.. فليظلوا محفورين فى أذهانكم جميعاً! فلتعرفوا جيداً ضد من نقاتل! إنهم يُجبرون رجالاً من القرية على قتل إخوانهم. إنظروا جيداً. هكذا قتلوا قبيلة هنود الياكى، لأنها لم تشأ أن ينتزعوا منها أراضيها. وكذلك قتلوا عمال ريوبلانكو وكانانيا، لأنهم لم يريدوا أن يموتوا جوعاً. وهكذا سيقتلوننا جميعاً إذا لم نحطم أولاد القحبة. إنظروا.

جال إصبع الملازم الشاب أباريثيو بدغل الأشجار القريبة من الأخدود: كانت حبال الجوت، السيئة الصنع، الخشنة، لا تزال تتزع الدم من الأعناق؛ لكن العيون المفتوحة، والألسنة القرمزية، والأجساد الساكنة التى لا تكاد تهزها الريح التى تهب من سلسلة الجبال، كانت ميتة. وعلى إرتفاع النظرات - وبعضها تائه، والبعض الآخر حائق، وأغلبها نظرات عذبة، غير مُدْرِكة، مليئة بألم هادئ - لم يكن ثمة سوى

صنادل هندية يكسوها الطين، والقدمان العاريتان لطفل، والحداء
الأسود لإمرأة. ترجل هو عن حصانه. إقترب. واحتضن الجونلة
المنشأة لريخينا بصرخة مشروخة، بلغمية: بأول انتحاب له كرجل.
قاده أباريثيو وجابيلان إلى غرفة الفتاة. أجبراه على الرقاد،
وأبدلا له القماش القذر بضمادة، ونظفا له الجرح. وحين خرجا،
إحتضن الوسادة وأخفى وجهه. ودّ لو ينام، لا أكثر، وقال لنفسه سرا أن
النوم ربما استطاع أن يسوّى بينهما، أن يوحدهما من جديد. إنتبه إلى
أن ذلك مستحيل؛ إلى أنه الآن، فوق هذا الفراش ذى الناموسية
المُصفرة، أمكنه أن يستشعر، بكثافة تفوق كثافة الحضور، رائحة الشعر
الندى، والجسد الأملس، والفخذين الدافئتين. كانت حاضرة هناك كما
لم تكن أبداً فى الواقع، حية أكثر من أى وقت مضى على الإطلاق فى
رأس الفتى المحمومة: إنها هى بدرجة أكبر، ملكه بدرجة أكبر، الآن
وهو يتذكرها. ربما، خلال شهور حبهما الوجيزة، لم ير أبداً جمال
عينيها بكل هذه العاطفة، ولا استطاع أن يقارنهما، مثلما الآن،
بتوائهما المتألقة: الجواهر السوداء، البحر العميق الهادئ تحت
الشمس، قاع الرمال التى تتأرجح فى الزمن، الكرزات الداكنة لشجرة
اللحم والأحشاء الساخنة. لم يقل لها ذلك أبداً. لم يتسع الوقت. لم
يتسع الوقت ليقول لها أشياء كثيرة عن الحب. لم يتسع الوقت أبداً
للكمة الأخيرة. ربما لو أغمض عينيهِ لعادت هى مكتملة لتحيا على
التريبات المتلهفة التى كانت تنبض فى أطراف أصابع الرجل. ربما كان
يكفى أن يتخيلها لينالها دوماً إلى جواره. من يدرى إن كانت الذاكرة
قادرة حقاً على إطالة أمد الأشياء، على تضيير السيقان، وفتح النوافذ
عند الفجر، وتمشيّط الشعر، وبعث الروائح، والأصوات، واللمس.
نهض. وبحث متحسّساً، فى الغرفة المظلمة، عن زجاجة المسكال*.

♦ mescal: مشروب روحى مكسيكى قوى يُستقطر من نبات الصبار . م.

فجأة لم تعد تُفيد فى النسيان، كما يقول الجميع، بل فى إخراج الذكريات بسرعة أكبر.

سيعود إلى صخور ذلك الشاطئ، بينما يشعل الكحول الأبيض ناراً فى معدته. سيعود. إلى أين؟ إلى ذلك الشاطئ الأسطوري، الذى لم يوجد أبداً؟ إلى تلك الأكذوبة للطفلة المعشوقة، إلى ذلك الاختلاق للقاء بجوار البحر، اخترعته هى حتى يشعر هو أنه نظيف، برىء، واثق من الحب؟ طوح قدح المسكال إلى الأرض. فى هذا تفيد الخمر، فى تبديد الأكاذيب. كانت أكذوبة جميلة.

" - أين تعارفنا؟

" - ألا تتذكر؟

" - قولى لى أنت؟

" - ألا تتذكر ذلك الشاطئ؟ كنت أذهب إلى هناك كل أصيل.

" - الآن أتذكر. رأيت إنعكاس وجهى بجوار وجهك.

" - تذكر هذا: ولم أعد أريد أبداً أن أرى نفسى دون إنعكاسك

بجوار إنعكاسى.

" - نعم، أتذكر."

كان يجب عليه أن يُصدق تلك الكذبة الجميلة، دوماً، حتى النهاية. لم يكن مؤكداً: لم يكن هو قد دخل تلك القرية فى سينالوا مثلاً دخل قرى كثيرة غيرها، باحثاً عن أول امرأة تمر، غير مُحاذرة، عبر الشارع. لم يكن حقيقياً أن تلك الفتاة ذات الثمانية عشر عاماً قد حُمِلت بالقوة فوق حصان واغتُصبت فى صمت فى عنبر النوم المشترك للضباط، بعيداً عن البحر، مُشيخةً بوجهها صوب سلسلة الجبال الشوكية والجافة. لم يكن مؤكداً أن إستقامة ريخينا قد غفرت له فى صمت: حين إستسلمت المقاومة للمتعة وأخذت الذراعان اللتان لم تلمسا رجلاً قط تلمسانه لأول مرة بيهجة وأخذ الفم الرطب،

المفتوح، يردد فقط، مثل ليلة أمس، أن نعم، أن نعم، أن ذلك يروقها، أن ذلك معه يروقها، أنها تريد المزيد، أنها تخاف من هذه السعادة. ريخينا ذات النظرة الحاملة والمشتعلة. كيف قبلت حقيقة متعتها واعترفت بأنها عاشقة له؛ كيف اخترعت حكاية البحر والإنعكاس في الماء الساكن من أجل نسيان ما يمكن أن يُخجله فيما بعد، عندما يحبها. امرأة الحياة، ريخينا، المهرة الزاخرة بالطعم، جنية الدهشة الطاهرة، المرأة دون أعذار، دون كلمات تبرير. لم تعرف السأم أبداً؛ لم تُثقل عليه أبداً بشكايات مؤلمة. ستكون هناك دوماً، في قرية أو في أخرى. ربما الآن على الفور سيتبدد وهم جسد خامد معلق من حبل وهي... ستكون هي في قرية أخرى. لقد تقدمته فقط. نعم: كالمعتاد. خرجت دون إزعاج ومضت صوب الجنوب. اخترقت خطوط الفيدراليين ووجدت غرفة صغيرة في القرية التالية. نعم؛ لأنها لا يمكن أن تحيا بدونه، ولا هو بدونها. نعم. الأمر كله الآن هو الخروج، أخذ الحصان، شهر المسدس، مواصلة الهجوم والعثور عليها في الراحة التالية.

بحث في الظلام عن السترة. وضع حزامي الطلقات متقاطعين حول صدره. في الخارج، كان الحصان الأسود، الهادئ، مربوطاً إلى قائم. لم ينفصل الناس عن المشنوقين، لكنه لم يعد ينظر إلى ذلك الإتجاه. إمتطى حصانه وأسرع نحو المعسكر.

- إلى أين مضى أولاد القحبة هؤلاء؟ - صاح في أحد جنود الحراسة بالمعسكر.

- إلى الجانب الآخر من الأخدود، يا قائدى. يُقال أنهم مُتخندقون بجوار الجسر، في انتظار التعزيزات. أنهم يريدون الإستيلاء على هذه القرية مرة أخرى. أدخل، كل شيئاً.

ترجّل. سار متمهلاً نحو نيران الفناء، حيث تتأرجح الأواني

الفخارية فوق العصي المتقاطعة وتتصاعد جلبةً يدي امرأة تعجن كتلة الدقيق. غمس المغرفة في حساء الكوارع الذي يغلي، إلّ تقط قضمّة من البصل، والفلفل الحار المطحون، والزعتر؛ مضغ الفطائر الشمالية، الصلبة، الطازجة؛ وأقدام الخنزير. كان حياً.

إنّزع من الحلقة الحديدية الصدئة الشعلة التي تضيء مدخل المعسكر. غرس المهمازين في بطن الحصان الأسود: من كانوا لا يزالون يمشون في الشارع جنحوا إلى جانب؛ حاول الحصان المندهش أن يجمع، لكنه هو شدّ قبضته على اللجام، وعاد غرس مهمازيه وأحس، في النهاية، أن الحصان قد فهم. لم يعد حصان الرجل الجريح، الرجل المتشكك الذي عبر الجبل ذاك المساء. كان حصاناً آخر: فهم. هزّ عرّفه حتى يفهم هو: إنه الآن مطيّة حرب، غاضبة وسريعة مثل فارسها. ورفع الفارس الشعلة وأضاء، الآن، الحقول التي تحيط بالقرية لتؤدي إلى الجسر فوق الأخدود.

نارٌ أخرى كانت تضيء مدخل الجسر. كانت قبّعات الزعران تتضوأ بشحوب ضارب إلى الحمرة، لكن حوافر الحصان الأسود كانت تستمدّ كلّ قوة الأرض، وتمضي منتزعة الأعشاب والتراب والشوك، تمضي مُخلّفة ذيلًا من الشرر المتناثر من الشعلة التي يمسكها الرجل الذي داهم موقع الجسر، وقفز فوق النار، وأطلق مسدسه على العيون المرعوبة، على الرقاب الداكنة، على الأجساد التي لم تفهم، التي أخذت تسحب المدافع إلى الوراء، التي لم تستطع في الليل تبين وحدة الفارس الذي يجب أن يصل إلى الجنوب، إلى القرية التالية، حيث ينتظرونه...
- أفسحوا طريقاً، يا زعران يا أبناء المقرّفه! - تصيح الأصوات الألف لهذا الرجل.

صوت الألم والرغبة، صوت المسدس، الذراع التي تُوجّه الشعلة إلى صناديق البارود وتجعل المدافع تتفجر وتجعل الخيول تهرب دون

فارس، وسط فوضى الصهيل والنداءات والإنفجارات التي تجدُ الآن صداها البعيد في أصوات القرية الضائعة، في الجرس الذي بدأ يدق في برج الكنيسة الضارب إلى الحُمرة، في نبض الأرض التي تدوسها حوافر الخيالة الثورية، التي تعبر الآن الجسر لتجد الدمار والفرار والنيران المطفأة، لكنها لا تجدُ لا الفيدراليين ولا الملازم، الذي يعدو بحصانه صوب الجنوب، رافعاً الشعلة، وعيون حصانه مشتتة: صوب الجنوب، والخيط في يده، صوب الجنوب.

أنا نجوتُ. يا ريخينا. ماذا كان اسمك؟ لا. أنت ريخينا. ماذا كان اسمك أنت، أيها الجندي بلا إسم؟ نجوتُ. وأنتم متم. أنا نجوتُ. آه، تركوني في سلام. يظنونني نائماً. تذكرتك، تذكرتُ إسمك. لكن أنت ليس لك اسم. وتتقدم الإثنتان نحوي، متشابكتي الأيدي، ومحاجرهما خاوية، معتقدتين أنهما ستقنعاني، ستثيران تعاطفي. آه، لا. لست أدينُ بحياتي لكم. أدينُ بها لكبريائي، أسمعوتني؟ أدينُ بها لكبريائي. تحدّيتُ. تجاسرتُ. الفضائل؟ التواضع؟ البر؟ آه، يمكن العيش دون ذلك، يمكن العيش. ولا يمكن العيش بدون كبرياء. البر؟ من كان سيفيدُ؟ التواضع؟ أنت، يا كاتالينا، ماذا كنتِ ستفعلين بتواضعي؟ به كنتِ هزمتني إحتقاراً، كنتِ هجرتني. أعرف أنك تغفرين لنفسك متخيّلة قداسة هذا العهد المقدّس. ها. لو لم يكن من أجل ثروتني، ما

كان ليهمك أن تُطَلَّقِي. وأنت، يا تيريسا، إذا كنتِ تكرهيننى، تسبِّيننى، رغم أنى أقيمُ أودَك، ماذا كنتِ ستفعلين وأنتِ تكرهيننى فى البؤس، وأنتِ تسبِّيننى فى الفقر؟ تخيلاً نفسيكماً دون كبريائى، أيتها الفريسيَّتان، تخيلاً نفسيكماً ضائعتين فى ذلك الحشد ذى الأقدام المتورَّمة، منتظرتين إلى الأبد سيارةً نقل على كل نواصى المدينة، تخيلاً نفسيكماً ضائعتين فى ذلك الحشد ذى الأقدام المتورَّمة، تخيلاً نفسيكماً عاملتين فى متجر، فى مكتب، تدقان على الآلة الكاتبة، تلفان طروداً، تخيلاً نفسيكماً تدخران لشراء سيارة بالتقسيط، تشعلان شموعاً للعدراء للإبقاء على الوهم، تدفعان أقساطاً شهرية لقطعة أرض، تتهدان من أجل ثلاجة، تخيلاً نفسيكماً جالستين فى سينما الحى كل سبت، تأكلان السوداني، وتحاولان العثور على تاكسى عند الخروج، تتناولان الطعام فى الخارج مرةً واحدةً فى الشهر، تخيلاً نفسيكماً بكل التبريرات التى جنبتُكما أنا إياها، تخيلاً نفسيكماً مضطرتين للهتاف أن المكسيك ليس لها مثل لتشعرا أنكما على قيد الحياة، تخيلاً نفسيكماً مضطرتين للشعور بالفخر بعباءات الجبل * sa-rape ويكانتينفلاس** وبموسيقى عازفى الجيتار الجوالين وباللحم الريفى المفروم المحمَّر لتشعرا أنكما على قيد الحياة، آه - آخ آى، تخيلاً نفسيكماً مضطرتين للإيمان حقاً بالندور، والحج إلى المحارب، وبفاعلية الصلاة حتى تبقياً على قيد الحياة.

- Domine, non sum dignus ... -

" - سلام. أولاً، يريدون إلغاء كل قروض البنوك الأمريكية

* دثار جبلى. نوع من البطانية، من الصوف المشغول فى الحواف بألوان زاهية، فى وسطه فتحة لإدخال الرأس - م.

** كانتينفلاس: شخصية سينمائية كوميدية يمثلها الممثل ماريو مورينو - م.

الشمالية لسكك حديد الباسيفيكي. أتعرف كم تدفع السكك الحديد
سنوياً كقوائد على القروض؟ تسعة وثلاثين مليون بيسو. ثانياً، يريدون
فصل كل مستشارى تطوير السكك الحديد. أتعرف كم نربح؟ عشرة
ملايين فى السنة. ثالثاً، يريدون فصل كل من ندير القروض الأمريكية
الشمالية للسكك الحديد. أتعرف كم ربحت أنت وكم ربحت أنا العام
الماضى...؟

" - Three million pesos each ...

" - بالضبط. ولا ينتهى الأمر عند هذا الحد. من فضلك أرسل
برقية إلى الناشيونال فروتس إكسبريس بأن هؤلاء القادة الشيوعيين
يريدون إلغاء تأجير العربات - الثلاث التى تُدرُّ على الشركة عشرين
مليون بيسو سنوياً وتُدرُّ علينا عمولة جيدة - سلام".

هئ، هئ. شرحت ذلك شرحاً جيداً. يا حمقى. ماذا لو لم أَدافع
أنا عن مصالحكم، يا حمقى. أوه، أغربوا جميعاً، دعونى أسمع. لنرى
إن كنتم ستفهمون. لنرى إن كنتم تفهمون ما تعنيه ذراع مطوية هكذا...
" - إجلسى، يا صغيرتى. الآن سأفرغ لك. دياث: إحذر تماماً

حتى لا يتسرب سطرٌ واحد حول قمع الشرطة لهؤلاء المشاغبيين.
" - لكن يبدو أن هناك قتيلاً، يا سيدى. وفضلاً عن ذلك، جرى
الأمر وسط البلد تماماً. سيكون من الصعب...

" - مطلقاً، مطلقاً. إنها أوامر عليا.

" - لكننى أعرف أن إحدى جرائد العمال ستتشتر الخبر.

" - فيم تفكر إذن؟ ألا أدفع لك لتفكر؟ ألا يدفعون لك فى

(مصدرك) لتفكر؟ أبلغ النيابة ليغلقوا هذه الصحيفة..."

ما أقلّ ما يلزمنى لكى أفكر. مجرد شرارة. شرارة تبعث الحياة
فى هذه الشبكة المعقدة، الضخمة. هناك آخرون يحتاجون إلى توليد
كهربائى يمكن أن يقتلنى. أنا بحاجة إلى الإبحار فى مياه هائجة، إلى

إجراء مكالمات على مسافات بعيدة، إلى صد الأعداء. آه نعم. أدر هذا الجزء. لا يهمنى.

" - ماريا لويسا. هذا الـ خوان فيليبى كووتو، كالعادة، يريد أن يبدو ذكياً... هذا كل شيء، يا دياث... ناولينى كوب الماء، يا أمّورة. أقول: يريد أن يبدو ذكياً. مثلما كان الأمر مع فيديريكو روبلس، أتذكرين؟ لكنه لن يستطيع معى...

" - متى، يا سيدى النقيب؟

" - حصل بمساعدتى على إمتياز إنشاء ذلك الطريق السريع فى سونورا. وساعدته أيضاً حتى يُصدّقوا له على ميزانية أكبر بثلاث مرات من التكلفة الفعلية للعمل، على أساس تفاهم بأن الطريق سيمر عبر المناطق المروية التى أشتريتها من المستفيدين بالأراضى المشاع. وقد بلغنى للتو أن الناصح أشتري هو الآخر أراضيه فى تلك النواحي ويفكر فى تغيير مسار هذا الجزء من الطريق حتى يمر بممتلكاته...
" - يا له من خنزير! مع ما يبدو عليه من أدب.

" - إذن، يا حلوة، أنت تعرفين؛ ضعى بعض الشائعات فى عمودك تتحدث عن الطلاق الوشيك لرجلنا. بنعومة شديدة، حتى لا يرتعب منا.

" - لدينا أيضاً بعض الصور لكووتو فى كاباريه مع امرأة شقراء حلوة ليست بالطبع مدام كووتو.

" - إحتفظى بها لتتفع إن لم يستجب..."

يُقال أن خلايا الإسفنجية لا يوحدّها شيء ومع ذلك فالإسفنجية موحّدة: هذا ما يقال، هذا ما أذكره لأنهم يقولون أن الإسفنجية إذا تم حكّها بعنف، فإن الإسفنجية المفتّة تعود للتوحد، لا تفقد وحدتها أبداً، تبحث عن طريقة لتجميع خلاياها المتبعثرة من جديد، لا تموت أبداً.
آه، لا تموت أبداً.

- إنتظرتك هذا الصباح بابتهاج. لنعبر النهر على صهوة الجياد.

- أنت سيطرتَ عليه وانتزعتَه منى.

ينهض على قدميه بين الأصوات المحتجة للمراتين ويأخذهما من ذراعيهما وأوصل أنا التفكير فى النجار ثم فى ابنه وفيما كنا سنوفره على أنفسنا لو تركوه طليقاً مع مندوبى علاقاته العامة الإثنى عشر، طليقاً كعنزة، يحيا على حكاية المعجزات، ويحصل على الوجبات مجاناً، وعلى الأسيرة للنوم مجاناً ويجد مداووه المقدسون من يشاركهم فيها، حتى تهزمه الشيخوخة والنسيان وتجلس كاتالينا وتيريسا وخيراردو على المقاعد فى آخر المخدع. كم سيتأخرون فى إحضار قسيس، فى إستعجال موتى، فى إنتزاع الإعترافات منى؟ آه، يودون لو يعرفوا. كم سأتسلى. كم كم. أنت، يا كاتالينا ستكونين قادرة على أن تقولى لى ما لم تقوليه أبداً لإضعاف عزيمتى ومعرفة ذلك. آه، لكننى أعرف ما تودين معرفته. والوجه المسنون لإبنتك لا يخفيه. لن يتأخر فى الظهور هنا ذلك الشيطان التعس للإستعلام، للتباكى، لمعرفة إن كان سيستطيع فى النهاية التمتع بكل هذا. آه، ما أسوأ ما يعرفوننى. يعتقدون أن ثروة كهذه يمكن أن تتبدد بين ثلاثة مُهرّجين، بين ثلاثة خفافيش لا يعرفون حتى الطيران؟ ثلاثة خفافيش دون أجنحة: ثلاثة فئران. إنهم يحطون من قدرى. نعم. فهم لا يستطيعون تجنب الكراهية التى تملك المتسولين. إنهما تحتقران الجلود الثمينة التى تكسوهم، والمنازل التى تسكنانها، والجواهر التى تلمع، لأننى منحتهما إياها. لا. لا تلمسانى الآن...

- دعونى...

- لقد جاء خيراردو... خيرارديتو... زوج إبنتك... إنظر إليه.

- آه، الشيطان التعس...

- دون أرتيميو...

- ماما، لا أحتمل، لا أحتمل لا أحتمل!
 - إنه مريض...
 - أوف، سوف أنهض، سترون...
 - قلت لك أنه كان يتظاهر.
 - دعيه يستريح.
 - أقول لك أنه يتظاهرا يختلقُ كما يفعل دائماً ليسخر منا كما يفعل دائماً كما يفعل دائماً.
 - لا لا. الطبيب يقول...
 - ماذا يعرف الطبيب. أنا أعرفه أفضل. إنها سخرية أخرى.
 - لا تقولي شيئاً!
 لا تقولي شيئاً. ذلك الزيت. يمسحون بذلك الزيت على شفتي.
 على جفني. على منخاري. لا تعرفان كم كلف ذلك. لم يكن عليهما أن
 تُقرّرا. على يدي. على الساقين الثلجيتين اللتين لم أعد أحسّ بهما. لا
 تعرفان. لم يكن عليهما أن تخاطرا بكل شيء. على العينين. يفتحون
 ساقيّ ويمسحون بذلك الزيت على فخذيّ.
 Ego te absolvo -
 لا يعرفون. لم تتكلم هي. لم تقل.

أنت ستحيا واحداً وسبعين عاماً دون أن تتبّه: لن تتوقف

للتفكير فى أن دمك يقوم بدورة، أن قلبك ينبض، أن غدتك المرارية
تُفرغ نفسها من سوائل لزجة، أن كبدك يُفرز الصفراء، أن كليتك تنتج
البول، أن بنكرياسك ينظم السكر فى دمك: فلم تستثر هذه الوظائف
بتفكيرك: ستعرف أنك تتنفس لكنك لن تفكر فى الأمر لأنه لا يتوقف
على تفكيرك: ستتجاهل وستحيا: سيكون بإمكانك السيطرة على
وظائفك، التظاهر بالموت، عبور النار، حمل فراش من نُتف الزجاج:
ببساطة، ستحيا وتترك الوظائف تتفاهم فيما بينها بنفسها. حتى
اليوم. اليوم حين ستجبرك الوظائف اللاإرادية على الإنتباه، ستسيطر
عليك وستنتهى بأن تدمر شخصيتك: ستفكر فى أنك تتنفس فى كل
مرة يمر فيها الهواء بصعوبة نحو رئتيك، ستفكر فى أن الدم يقوم
بدورة فى كل مرة تبض فيها شرايين بطنك بهذا الحضور المؤلم:
ستهزمك لأنها ستجبرك على الإنتباه للحياة بدل أن تحياها. إنتصار.
ستحاول أن تتخيل الأمر - فالوضوح يبلغ حدًا يجبرك على إدراك أنه
دبيب، كل حركات الانقباض، والانفصال، وحتى أشدها رهبة، حركة ما
لم يعد يتحرك - وفى داخلك، فى أحشائك، سيكسو ذلك الغشاء اللزج
تجويف بطنك وسينطوى حول الأمعاء، وإحدى طياتها، تلك الطية
النسيجية، الأوعية الدموية والليمفاوية التى تربط المعدة والأمعاء
بجدران البطن، تلك الطية من الخلايا البدينة، سيتوقف عن ريتها ذلك
الشريان السميكة لنهر دمك البطنى الذى يُغذى معدتك وأمعاءك
البطنية، يخترق منبت الطية ويهبط مائلاً إلى منبت الأمعاء الوسطى،
بعد أن يكون قد سار خلف البنكرياس، مُفرعاً شرياناً آخر يروى ثلث
الإثنا عشر وجانب البنكرياس؛ ويخترق عابراً إثنا عشر، وأورطاك،
ووريدك الأجوف السفلى، وحالبك الأيمن، وعصبك التناسلى -
الفخذى، وأوردة خصيتيك. هذا الشريان سيجرى، مُخضباً، سميكاً،
لحيماً، طوال واحد وسبعين عاماً، دون أن تعرف. واليوم ستعرف. لأنه

سيتوقف. المجرى سيجف. طوال واحد وسبعين عاماً سيبدل هذا الشريان جهداً مضنياً: فخلال مسار هبوطه، ثمة لحظة يكون عليه فيها، وهو مضغوط بجزء من عمودك الفقري، أن يتقدم، في نفس الآن، إلى أسفل، وإلى الأمام، وإلى الوراء بحدة مرة أخرى. طوال واحد وسبعين عاماً سيمر شريانك المساريقي بهذا الاختبار، بهذه القفزة القاتلة. واليوم لن يعود يستطيع. اليوم لن يقاوم الضغط. اليوم، في حركة المكبس السريعة إلى أسفل، وإلى الأمام، وإلى الوراء، سيتوقف، مُختلجاً، مُتَلَبِّكاً، مُستفِداً، كتلة من الدم المشلول، صخرة قرمزية ستعوق أمعاءك: ستُحسُّ هذا الدبيب للضغط المتزايد، ستحسُّه: إنه دمك الذي يتوقف لأول مرة، الذي لن يبلغ ضِفَّة حياتك هذه المرة، يتوقف ليتجمد داخل حرارة أمعائك، يتعفن، راكداً، دون أن يكون قد بلغ ضِفَّة حياتك:

وعندئذ ستقترب منك كاتالينا، ستسألك إن كانت تُقدِّم لك شيئاً، لك يا من لا تستطيع سوى الالتفات إلى ألمك المتصاعد، محاولة طرده بالرغبة في النوم، في الراحة، بينما لا تستطيع كاتالينا تجنب تلك الإيماءة، تلك اليد الممدودة التي ستسحبها على الفور، خائفة، لتضمِّمها إلى اليد الأخرى فوق ثديي العقيلة المحترمة، لتفصلها من جديد، وتقرِّبها، هذه المرة، مرتجفة، من جبهتك: ستُربُّت جبهتك ولن تتبته أنت، ضائعاً في التركيز الحاد للألم، لن تتبته إلى أن كاتالينا لأول مرة خلال عقود طويلة تُقربُ يدها من جبهتك، تربُّت جبهتك، تزيح الخصلات البيضاء، المضمخة بالعرق، التي تغطيها وتُعاودُ تربيتها، بخوف مُمتن، في النهاية، لأن الرقة قد هزمت، برقة خجلانة من نفسها، بخجل يبدو في النهاية أنه قد خففه اليقين بأنك لا تتبته إلى أنها تربُّت عليك، وربما تنقل لك بأصابعها، على جبهتك، بضع كلمات تُريدُ أن تمتزج بتلك الذكرى

التي لا تكفُّ عن التدفق داخلك، ضائعةٌ في قاع هذه الساعات، لا واعيةٌ، غريبةٌ عن إرادتك لكنها مصهورةٌ في ذاكرتك اللاإرادية، تلك التي تتساب بين ومضات ألمك وتُكرِّرُ لك، الآن، الكلمات التي لم تستمع إليها حينذاك. هي أيضاً ستفكر في كبرياتها. وهناك ستولد الشرارة. هناك ستستمع أنت إليها، في تلك المرآة المشتركة، في تلك البركة التي ستعكس وجهيكما، التي ستُفرِّقكما حين تحاولان تقبيل بعضكما، في الانعكاس السائل لوجهيكما: لماذا لا تنظر إلى جانبك؟ هناك ستكون كاتالينا بشحمها ولحمها؛ لماذا تُحاولُ تقبيلها في الإنعكاس البارد للماء؟ لماذا لا تُقَرِّبُ هي وجهها إلى وجهك، لماذا، مثلك، تُغرقه في المياه الراكدة وتُكرِّرُ لك، الآن، وأنت لا تسمعها، "تركتُ نفسي أنساق"؟ ربما تُحدثُك يدها عن حرية مفرطة تهزم الحرية. الحرية التي تُشيدُ بُرجاً لا نهاية له، لا يبلغ السماء، لكنه يُطوِّق الهاوية، يُحطِّم الأرض: ستُسمِّيها: انفصال: سترفضها: كبرياء: ستجوع، يا أرتيميو كروث: ستجوع لأنك ستُعرض نفسك للخطر: ستُعرض نفسك لخطر الحرية: ستُهزم الخطر، ودون أعداء، ستتحول إلى عدو لنفسك حتى تُواصل معركة الكبرياء: بعد أن هُزم الجميع، لن يتبقى أمامك سوى أن تهزم نفسك: سيخرجُ عدوك من المرآة ليُشنَّ المعركة الأخيرة: الحورية المعادية، الحورية ذات النفس الثقيل، ابنة الآلهة، أم التيس المغوى، أم الإله الوحيد الميت في زمن البشر: من المرآة ستخرج أم الإله الكبير بان، حورية الكبرياء، نظيرتك، ومرة أخرى نظيرتك: عدوك الأخير، في الأرض الخاوية لمن هزمهم كبرياؤك: ستجوع: ستكتشف أن الفضيلة هي مجرد شيء مرغوب، لكن الكبرياء هو مجرد شيء ضروري: ورغم ذلك، فإن تلك اليد التي تربت جبهتك في هذه اللحظة ستتمكن في النهاية، بصوتها الضئيل، من إسكات صرخة التحديات، من تذكيرك أنه في

النهاية، ولو كان ذلك فى النهاية، فإن الكبرياء زائد عن الحاجة
والتواضع ضرورى: ستلمس أصابعها الشاحبة جبهتك المحمومة،
ستودُّ تهدئةً أملك، ستودُّ أن تقول لك اليوم ما لم تقله منذ ثلاثة
وأربعين عاماً:

(١٩٢٤: ٢ يونيو)

هو من لم يستمع إليها وهى تقول، حين استيقظت من أرقها،
"تركتُ نفسى أنساق". وهى مستلقية إلى جواره. كان شعرها
الكستنائى يغطى وجهها وفى كل طيَّات جسدها أحسَّت بتلك
الرطوبة المتعبية، إرهاب الصيفِ ذاك. مرَّت بيدها على فمها وتوقعت
النهارَ الجديد ذا الشمس العمودية، وهطول المطر فى المساء،
والإنتقال الليلى من القيظ الخانق إلى البرودة المنعشة ولم تُرد تذكر
ما جرى خلال الليل. أخفت وجهها فى الوسادة وكرَّرت: - تركتُ
نفسى أنساق.

محا الفجرُ ريشَ الليل ودخل، بارداً وصافياً، من نافذة المخدع
الموارية. حدَّد من جديد التفاصيل التى كانت الظلمة قد مزَّجتها فى
عناق واحد.

"أنا شابة؛ لى الحق..."

إرتدت قميص النوم وهريت من جانب الرجل قبل أن ترتفع
الشمس إلى خط الجبال.

"لى الحق؛ لقد باركته الكنيسة."
الآن، من نافذة مخدعها، رأت الشمس تتوَّج قمة ثيتالتيبتل*
البعيدة. هدهدت الطفل بين ذراعيها وبقيت بجوار النافذة.
"آه، يا له من وهن؛ دائماً عند الاستيقاظ، هذا الوهن، هذه
الكراهية، هذا الإحتقار الذى لا أكف عن الشعور به..."
التقت نظرتها بنظرة ذلك الهنـدى المبتسم الذى كان يعبر حاجز
البستان، فخلع قبعة الخوص وأحنى رأسه...
"حين أستيقظ وأنظر إلى جسده النائم بجوارى..."
لمعت أسنانه البيضاء، خصوصاً حين إقترب هو.
"هل يحبـنى حقاً؟"
أدخل السيّد قميصه فى بنطلونه الضيق وأدار الهنـدى ظهره
لنافذة المرأة.
"ها قد مرت خمس سنوات..."
أدارت ظهرها للحقول.
- ماذا أتى بك مبكراً هكذا، يا بنتورا؟
- جئتُ تقودنى أذنـاى. هل تسمح لى بأن أملأ القرعة**؟
- هل كل شىء جاهز فى القرية؟
أوما بنتورا موافقاً؛ سار حتى البركة؛ غمس القرعة فى الماء؛
رشف جرعة؛ وعاود ملأها.
"ربما نسى هو أسباب زواجنا..."

* Citlaliépetl: قمة بركانية فى سلسلة جبال السييرامادري الشرقية. هى
الأعلى فى المكسيك (٥٧٠٠ متر) عادةً ما يغطيها الجليـد. تسمى أيضاً قمة
أوريثابا ORIZABA - م.

** guaje: قرعة جافة تستخدم كالدلو فى ملء المياة - م.

- وماذا تقول لك أذنالك؟
 - أن العجوز دون بيثارو لا يطيق رؤيتك.
 - أعرف هذا.
 - وتقول أذنأي أنه سينتهز فرصة فوضى اليوم الأحد لينتقم...
 " ... والآن يحبني حقاً... "
 - بارك الله في أذنك، يا بنتورا.
 - بارك الله في أمي التي علمتني أن أجعلهما دائماً نظيفتين دون
 إتساخ.
 - أنت تعرف ما يجب عمله.
 " ... يحبني أنا ويُعجب بجمالي... "
 ضحك الهندي دون صوت، رأت حواف قبعتها الممزقة ونظر إلى
 الشرفة المغطاة بتعريشة من القرميد، حيث كانت تلك المرأة الجميلة
 قد جلست فوق الكرسي الهزاز.
 " ... بعاطفتي... "
 تذكرها بنتورا، منذ أعوام، جالسة هناك دائماً، أحياناً تكون
 بطنها مستديرة وضحمة، وأحياناً ممشوقة وصامتة، غريبة دائماً عن
 جلبة العربات المحملة عن آخرها بالحبوب، عن خوار الثيران التي
 يجرى وسمها بالحديد، عن السقوط الجاف لثمار الزعرور خلال
 الصيف في البستان الذي زرعه السيد الجديد حول المنزل الريفي.
 " ... بما أنا عليه... "
 كانت هي تراقب الرجلين. تراقب بنظرة أرنب يقيس المسافة التي
 تفصله عن الذئاب. كان موت دون جمالييل قد عراها، بفتة، من
 دفاعاتها المتكبرة خلال الشهور الأولى: مثل الأب إستمراراً للنظام
 وللتراثيات وعلى الفور برز الحمل الأول التباعد، والحياء،
 والتحذيرات.

"يا إلهى، لماذا لا أستطيع أن أكون نفس الشخص بالليل مثلما بالنهار؟"

أما هو، فحين أدار وجهه ليتابع نظرة الهندي، وجد وجه امرأته الساكن وفكر أنه خلال هذه السنين الأولى لم يكن يعبأ ببرودتها. فهو نفسه كان يفتقر إلى الإرادة لرعاية هذا العالم، هذا العالم الثانوى لما لم يفرغ من استيعابه، من تشكيكه، من العثور على اسمه، من الإحساس به قبل أن يُسمّيه.

"... بالليل مثلما بالنهار؟..."

عالم آخر، أشد إلحاحاً، كان يشغله.

(" - السيد الحكومة لا يهتم بنا، سنيور أرتيميو، لهذا جئنا نطلب منك أن تساعدنا.

" - أنا موجودٌ لهذا، يا فتیان. ستألون طريقكم المحلى، أعدكم بذلك، لكن بشرط: ألا تعودوا تحملوا محاصيلكم إلى طاحونة دون كاستولو بيثارو. ألا ترون أن هذا العجوز يرفض أن يوزع حتى قطعة أرض. لا تحابوه. أحضروا كل المحصول إلى طاحونتي ودعوني أنا أطرح المحاصيل فى السوق.

" - عندك حق، لكن دون بيثارو سيقتلنا لو فعلنا هذا.

" - بنتورا: وزع بنادقك على الفتیان حتى يتعلموا الدفاع عن أنفسهم.")

تأرجحت هى ببطء. تذكرت، أحصت أياماً وأحياناً شهوراً لم تتفوه خلالها ببنت شفة. "لم يؤنبنى هو أبداً على البرودة التى أعامله بها أثناء النهار."

بدا أن كل شىء يتحرك دون مشاركتها والرجل القوى الذى يترجل وأصابعه متصلة وجبهته مجعدة من الغبار والعرق كان يمر متجاهلاً والسوط بين يديه ليلقى بنفسه فى الفراش كى يعاود

الاستيقاظ قبل الشمس ويقطع، فى كل الأيام، جولة الإرهاق الطويلة على طول الأراضى التى يجب أن تنتج، أن تريح: أن تكون، عن وعى، نقطة إنطلاقه.

" يبدو أنه يكتفى بهذه العاطفة التى أقبله بها أثناء الليل ".
أراضى الذرة، فى الوادى الضيق المروى الذى يطوق المنطقة المركزية للضياع: ضياع برنال، ولاباستيدا، وبيثارو؛ وعلى مسافة أبعد أراضى الصبار الأمريكى والخمر التى تُقطر من نسغه، حيث يبدأ الصخر مرة أخرى.

(" - هل هناك احتجاجات، يا بنتورا؟
" - إنهم يُخفونها، يا سيدى، لأنهم الآن برغم كل شىء أفضل مما كانوا من قبل. لكنهم يلاحظون أنك لم توزع سوى أراضٍ موسمية واحتفظت بالأراضى المروية.
" - وماذا أيضاً؟

" - أنك تواصل تحصيل فوائد على ما تقرضه، تماماً مثل دون جماليل من قبل.

" - أنظر، يا بنتورا. إذهب وأوضح لهم أن الفوائد المرتفعة حقاً أتقاضاها من اللاتيفونديين* من أمثال هذا البيثارو ومن التجار. والآن، إذا كانوا يحسون بأن قروضى تؤلمهم، فسوف أوقفها. كنت أظن أنتى أقدم لهم خدمة...
" - لا، إلا هذا...

" - إحكِ لهم أنتى خلال وقت قصير سأتقاضى الرهونات من بيثارو وعندئذ سوف أسلمهم الأراضى المروية التى أنتزعها من

* اللاتيفونديا: هى المزرعة الضخمة . م.

العجوز. قل لهم أن يصمدوا ويثقوا بى، وسوف يرون".
كان رجلاً.

"لكن ذلك الإرهاق، وذلك الإنشغال باعداد. أنا لم أطلب ذلك
الحب المتعجل الذى كان يمنحنى إياه من مساء لمساء."
أمّا دون جمالييل، عاشق المجتمع، والنزهات ووسائل الراحة فى
مدينة پويبلا، فتسى البيت الريفى وترك زوج ابنته يدير كل شىء كما
يحلو له.

"قبلت الأمر كما أراد. أبى. هو الذى طلب منى ألا أقبل شكوكاً
ولا تبريرات. كان قد تم شرائى وتوجب على أن أبقى هنا..."
لكن بينما كان أبوها حياً وكان يمكنها، كل خمسة عشر يوماً، أن
تسافر إلى پويبلا وتقضى النهار إلى جانبه، تملأ الخزانات بأنواع
الحلوى والحبب المفضلة، تؤدى معه فرائض معبد القديس سان
فرنسيسكو، تركع أمام مومياء المتّيح المبارك سياستيان دى آپاريثيو،
تذرع سوق پاريان، وتتجول فى ميدان الإستعراضات، ترسم علامة
الصليب على أجران الماء المقدّس الحجرية الضخمة للكاتدرائية المبنية
بأسلوب هيريرا* أو تنظر فقط إلى أبيها وهو يجئ ويروح فى مكتبة
الفناء...

"آه نعم، كيف لا، كان هو يحمينى، كان يساندنى".
... لم تكن أسباب حياة أفضل قد ضاعت تماماً وكان للعالم
الأليف والمحبوب، لسنوات الطفولة، واقع كافٍ يتيح لها العودة إلى
الريف، إلى الزوج، دون أسى.
"دون صوت ودون توجه، مُشتراه، شاهدة صامتة عليه".

* هيريرا (خوان دى) (١٥٢٠ - ١٥٩٧) أهم ممثل لأسلوب النهضة الإسبانية. يتميز
أسلوبه بعظمة وتقشف. كلفه الملك فيليپى الثانى بإتمام بناء الإسكوريال - م.

كان يمكنها أن تتخيل نفسها كزائرة عابرة في ذلك العالم الغريب،
الذى أقامه زوجها بدءاً من الطين.

كانت تملك عالمها الحقيقي في الفناء الظليل في پوييلا، في مُتَعِ
الكتان الغضّ المفروش على مائدة خشب الماهوجنى، في ملمس الأواني
الملونة يدوياً وفي أدوات المائدة الفضية، في الرائحة.

"... رائحة الكمثرى المقطّعة إلى شرائح، والسفرجل، ومربى
الخوخ..."

(" - أعرف أنك جلبت الخراب على دون ليون لباستيدا. فتلك
الدور الثلاثة في پوييلا تساوى ثروة.

" - أنت ترى، يا بيثارو. لباستيدا يطلب ويطلب قروضاً، دون أن
تهمه الفوائد. هو بنفسه جدل الحبل لمشنتته.

" - لا بد أنك تتمتع وأنت ترى كيف تتهاوى الكبرياءات القديمة.
لكنك لن تستطيع معي. فلست متأنقاً ريفياً مثل لباستيدا ذاك.

" - أنت تفى بالتزاماتك في موعدها فلا تستبق ما يمكن أن
يحدث.

" - أنا لا يقودنى إلى الإفلاس أحد، يا كروث، وأقسم لك على
ذلك بهذه."

شعر دون جماليل بدنوّ الموت وأعدّ بنفسه طقوس جنازته
بالتفصيل وبيذخ. ولم يستطع زوج الابنة أن يمنع عنه الألف بيسو
الرنانة التى طلبها العجوز. أخذ البرد المزمّن يشتدّ، مثل فقاعةٍ من
زجاج يغلى موضوعةٍ في الشمس وسرعان من إنسدّ صدره ولم تستطع
رئتاه الحصول على هواء سوى ذلك الخيط الرفيع، البارد، الذى يفلح
في التسرّب خلال شقوق كتلة من البلغم، والتهيج، والدم.

"آه نعم، موضوعاً للذة عابرة."

أمر العجوز بعربةٍ مطلية بالفضة، مكسوّة بطيلسانٍ من المخمل

الأسود وتجربها ثمانية خيول يجب أن تتلأ بأعنة من الفضة وغرة من الريش الأسود فوق قمة رأسها. وجعلهم يقتادونه في كرسى بعجل حتى شرفة القاعة بينما العربية والخيول بكل عدتها تمر، المرة تلو المرة، في الشارع أمام نظرتهم المحمومة.

"أم؟ يا لها من ولادة دون بهجة، ودون ألم."

قال للزوجة الشابة أن تخرج الشمعدانات الذهبية الأربعة الضخمة من القترينة وأن تلمعها: إذ يجب أن تحيط به في طقس السهر على الجثمان مثلما في قداس الجسد المسجى. ورجاها أن تحلق له بنفسها، لأن الذقن تظل تنمو خلال ساعات عديدة: العنق والوجنتين فقط، وأن تمر بالمقص قليلاً على طرف الذقن وعلى الشارب. أن تلبسه الصديري الضيق والبذلة الفراك وأن تعطى الكلب سماً.

"ساكنة وخرساء؛ بدافع الكبرياء."

أورث الابنة ممتلكاته وعيّن زوج ابنته مستفيداً ومديراً لها. لم يذكره سوى في الوصية. أما هي فعاملها، أكثر من أي وقت مضى، باعتبارها الطفلة التي كبرت إلى جواره ولم يتحدث أبداً عن موت الابن، ولا عن تلك الزيارة، الأولى. بدا أن الموت هو المناسبة لإبعاد كل تلك الأحداث بورع ولاستعادة العالم المفقود، في فعل أخير.

"هل لى الحق في تدمير حبه، إذا كان حبه حقيقياً؟"

قبل يومين من موته، ترك الكرسى المتحرك واستلقى في الفراش. ومضطجعا على كومة من الوسائد، احتفظ بوضعه الأنيق والمنتصب، وبجانب وجهه الحريري الحاد الملامح. أحياناً كان يمد يده ليتأكد من قرب ابنته. وكان الكلب يزوم تحت الفراش. وفي النهاية، انفتحت الشفتان الرفيعتان في اختلاجة فزع ولم تعد اليد تستطيع أن تمتد. فبقيت فوق الصدر الساكن. بقيت هي هناك، تتأمل تلك اليد.

كانت أول مرة تشهد فيها حضور الموت. فقد ماتت أمها وهى صغيرة جداً. ومات جونتالوا بعيداً.

"إنه، إذن، ذلك الهدوء الشديد القريب، تلك اليد التى لا تتحرك."

عائلات قليلة جداً هى التى رافقت العربى الفارهة فى مسارها نحو معبد سان فرنثيسكو أولاً ثم إلى جبانة التل بعد ذلك. ربما كانوا يخشون الإلتقاء به. وأمر زوجها بتأجير منزل بوييلا.

"يا للوحشة، هذه المرة. لم يكن الطفل كافياً. لم يكف لورنشو. أخذت أفكر فيما كان يمكن أن تكون عليه حياتى إلى جانب ذلك الآخر، الذى لم أره إلا من وراء قضبان النافذة؛ فى الحياة التى حال دونها هذا.

(" - ها هو بيثارو العجوز يظل طول اليوم جالساً أمام منزل ضيعته، وبين يديه بندقية. لم يتبق له سوى منزل الضيعة.
" - نعم، يا بنتورا. لم يتبق له سوى منزل الضيعة.
" - كذلك تبقى معه بعض الفتيان الذين يقال أنهم شجعان وهم مخلصون له حتى الموت.

" - نعم، يا بنتورا. لا تنسَ وجوههم."

ذات ليلة إنتبهت هى إلى أنها تتجسس عليه رغم إرادتها. دون أن تشعر، أخذت تنسى تلك اللامبالاه الخالية من الإعزاز لسنواتها الأولى لتبدأ فى البحث، خلال ساعات الأصيل الرمادية، عن نظرة زوجها، عن الحركات المتأنية للرجل الذى يفرد ساقيه فوق المقعد الجلدى أو ينحنى ليشعل المدفأة القديمة خلال ساعات الريف الباردة.

"آه، لابد أنها كانت نظرةً واهنة، مليئةً بالإشفاق على نفسى، تطلبُ نظرتَه؛ قلقةً، نعم، لأننى لم أستطع السيطرة على الحزن وقلة الحيلة اللذين تركنى فيهما ذلك الموت. واعتقدت أن هذا القلق كان

يخصني وحدي..."

لم تنتبه إلى أنه، في نفس الوقت، بدأ رجل جديد في مراقبتها
بعيون جديدة يملؤها الإسترخاء والثقة، كأنه يؤد أن يجعلها تدرك أن
الأوقات الصعبة قد انقضت.

(" - الآن، يقولون جميعاً متى ستوزع عليهم أراضى دون بيثارو.
" - قل لهم أن يصمدوا. ألا يرون أن بيثارو لم يستسلم تماماً؟ قل
لهم أن يصمدوا بينادقهم إن تجاسر العجوز على الشجار معي. وحين
تهدأ الأمور، سأوزع عليهم الأراضى.

" - أنا أحفظ سرّك. فأنا أعلم أنك أخذت تبيع أراضى دون
بيثارو الجيدة لبعض المستوطنين مقابل قطع أرض هناك فى پويبلا.
" - الملاك الصغار سيتيحون عملاً للفلاحين كذلك، يا بنتورا.
هيا، خذ هذا وابق هادئاً...

" - شكراً، دون أرتيميو. أنت تعرف أنتى...").

وأن رجلاً جديداً بدأ الآن، بعد أن تم إرساء أسس الرفاهية،
مستعداً لأن يبين لها أن قوته تُقيد أيضاً فى أفعال السعادة. وليلة أن
توقفت تلك النظرات، أخيراً، لتمنحها لحظة من الإهتمام الصامت،
فكرت هى لأول مرة منذ زمن طويل فى تصفيف شعرها ورفعت يداً
إلى رقبتها ذات الشعر الكستائى.

"... بينما يبتسم هو لى، وهو واقف بجوار المدفأة، بهذا، بما
يشبه البراءة... هل لى الحق فى أن أنكر على نفسى سعادة
محتملة...؟"

(" - قل لهم أن يُعيدوا إلى البنادق. يا بنتورا. فلم تعد تلزمهم.
الآن يملك كل واحد قطعة أرضه والمساحات الكبرى ملكى أو ملك من
هم تحت حمايتى. لم يعد لديهم ما يخشونه.

- كيف لا، يا سيدى. إنهم راضون وممتنون لعونك. البعض كانوا

يحلّمون بأكثر من ذلك، لكنهم الآن راضون مرة أخرى ويقولون أن هذا أفضل من لا شيء.

"- إختبر نحو عشرة أو إثني عشر من أشدهم فتوةً وأعطهم البنادق. لا نود أن يكون هناك ساخطون من جانب أو آخر." (بعدها شعرت بالحنق. تركت نفسي أنساق... وراقنت ذلك. يا للعار!)

رغب في أن يمحو ذكرى أصل الحكاية ويجعلها تحبه دون ذكريات عن الفعل الذي أجبرها على الزواج منه. ممدداً إلى جانب زوجته، كان يرجو في صمت - هذا ما عرفتته - أن تكون الأصابع المتشابكة في تلك الساعة أكثر من مجرد إستجابة لحظية. "ربما مع ذاك الآخر كنت سأشعر بما هو أكثر؛ لا أدري؛ فلم أعرف سوى فعل الحب مع زوجي؛ آه، ذلك الفعل الذي يمنحه بعاطفة مُتطلبية، كأنه لن يستطيع الحياة لحظة أخرى دون أن يعرف أنني أبادله الشعور..."

كان يوبّخ نفسه مُفكراً في أن المظاهر تقدّم برهاناً في غير صالحه. كيف يجعلها تصدّق أنه قد أحبها منذ اللحظة التي رآها فيها تعبر أحد شوارع بويبلا، قبل أن يعرف من هي؟

"لكننا حين نتفصل، حين ننام، حين نبدأ في أن نحيا يوماً جديداً، أفترى إلى ذاك، إلى الإيماءات، إلى التصرفات التي يمكن أن تطيل في الحياة النهارية حباً الليل ذاك."

كان بإمكانه أن يقول لها ذلك، لكن أي إيضاح سيجبره بالضرورة على إيضاح آخر وستؤدي كل الإيضاحات إلى يوم ومكان محددين، إلى سجن، في إحدى ليالي أكتوبر. كان يودُّ تجنب تلك العودة؛ وعرف أنه كي يحقق ذلك كان بإمكانه فقط أن يجعلها ملكه دون كلمات؛ قال لنفسه أن اللحم والرقعة سيتحدثان دون كلمات. حينئذ، ساوره شكٌ

جديد . هل ستفهم هذه الفتاة كل ما يود قوله لها حين يأخذها بين ذراعيه؟ هل ستعرف كيف تُقدّر غرض الرقّة؟ ألم تكن إستجابتها الجنسية مفرطة في المبالغة، ومُقلّدة، ومكتسبة بالتعلم؟ ألا يضيع في هذا التمثل اللاإرادي للمرأة أيُّ وعدٍ بالتفاهم الحقيقي؟

" - ربما كان خجلاً . ربما كان رغبةً في أن يكون هذا الحب في الظلام إستثنائياً، حقاً."

لكنه لم يجرؤ على السؤال، على الكلام . كان واثقاً أن الحقائق ستفرض نفسها في النهاية؛ العادة، والقدرية، والضرورة أيضاً . إلى أين يمكنها أن تنظر؟ إن مستقبلها الوحيد هو إلى جانبه . ربما ينتهي الأمر بهذه البديهيّة إلى أن تجعلها تنسى ذلك الأمر الآخر، مسألة المبتدأ . كان ينام بجوار امرأته بهذه الرغبة، التي صارت حلماً .

"وأنا أطلب الصفح لأنّني نسيت في اللذة أسباب حنقي... يا إلهي، كيف يمكن أن أستجيب لهذه القوة، لبريق هاتين العينين الخضراوين؟ ماذا يمكن أن تكون قوتي، حين يأخذني هذا الجسد المتوحش، الرقيق، بين ذراعيه ولا يطلب مني إذناً، ولا صفحاً عما يمكنني أن أواجهه به... آه، ليس لهذا إسم؛ الأشياء تحدث قبل أن يمكن إعطاؤها اسماً..."

(" - هناك الكثير من الصمت هذه الليلة، يا كاتالينا... هل تخشين أن تكسريه؟ هل يقول لك شيئاً؟

" - لا... لا تتكلم.

" - إنك لا تطلين مني شيئاً أبداً . أودّ لو أنك أحياناً...

" - أتركك تتكلم . تعرفُ - الأشياء - التي...

" - نعم . ليس من الضروري الكلام . أنت تروقيني، تروقيني...

لم أظن أبداً..."

ستترك نفسها تتساق . ستتركه يحبها؛ لكنها حين تستيقظ

ستعاود تذكر كل شيء وتعارض بحنقها الصامت قوة الرجل.

"لن أقول لك ذلك. تهزمنى بالليل. وأهزمك بالنهار. لن أقوله لك. أننى لم أصدق أبداً ما حكيته لنا. أن أبى عرف كيف يُخفى مهانتة خلف أسلوبه النبيل، ذلك الرجل المهدّب، لكننى أنا أستطيع الانتقام له سراً وطوال الحياة برمتها."

نهضت من الفراش، وهى تضفر شعرها المحلول، دون أن تنظر إلى الفراش المنكوش. أشعلت شمعة الأيقونة وصلت فى صمت، مثلما ستظهر فى صمت، خلال ساعات النهار، أنها لم تُهزَم، رغم أن الليل، والحملُ الثانى، والبطن المنتفخة، يؤكدون العكس. وفى لحظات الوحدة الحقيقية فقط، حين لا يشغل تفكيرها لا حلق الماضى ولا الخجل من اللذة، كانت تعرف كيف تقول لنفسها بأمانة أنه هو، حياته، قوته،

"... يقدمون لى هذه المغامرة الغريبة، التى تملؤنى بالخوف..."

كانت دعوة إلى المغامرة، إلى الإنطلاق برأسها إلى مستقبل مجهول، لن تكون خطواته مكرّسةً بقداسة العادة. فقد كان يخترع كل شيء ويخلقه من أسفل، وكأن شيئاً لم يحدث من قبل، آدم دون أب، موسى دون ألواح. لم تكن الحياة هكذا، لم يكن هكذا العالم الذى نظمته دون جمالييل.

"من هو؟ كيف ينبعث من ذاته؟ لا، لا أملك الشجاعة الضرورية لمرافقته. يجب أن أسيطر على نفسى. لا يجب أن أبكى حين أتذكر حياتى وأنا طفلة. يا للحنين".

قارنت أيام الطفولة السعيدة بهذا التقافز غير المفهوم لوجوه قاسية، وطموحات، وثروات مهدومة أو مخلوقة من العدم، لرهونات حان أوان تسديدها، وفوائد تم تسديدها، وكبريات تم إخضاعها. (" - لقد أوقعنا فى البؤس. لا نستطيع التعامل معك فأنت جزء

مما يفعله بنا.")

كان هذا مؤكداً. هذا الرجل.

"هذا الرجل الذى يروقتى على نحو لا شفاء منه، هذا الرجل الذى ربما كان يحببنى حقاً، هذا الرجل الذى لا أدرى ماذا أقول له، هذا الرجل الذى يُراوح بى من اللذة إلى الخجل، من الخجل الأشد كآبةً إلى اللذة الأشد، الأشد..."

هذا الرجل جاء ليدمرهم: وقد دمرهم فعلاً، ولم تتقذ هى سوى جسدها، وليس روحها، حين باعت نفسها له. ساعات طوال قضتها أمام النافذة المفتوحة على الريف، ضائعة فى تأمل الوادى الذى تظللّه شجيرات الفلفل الأحمر، وهى تهز أحياناً مهد الطفل، منتظرة الولادة الثانية، متخيّلة المستقبل الذى يمكن أن يقدمه لهم المغامر. لقد دخل العالم كما دخل جسد زوجته، هازماً الحياء، بتلك البهجة، محطماً قواعد اللياقة، بتلك المتعة. وأجلس على المائدة أولئك الرجال، ملاحظي الأراضى، الأجراء ذوى النظرات اللامعة، أناساً يجهلون آداب السلوك. ألقى كل التراتيبات التى جسدها دون جمالييل. حول ذلك البيت إلى اصطبل لفلاحين يتحدثون عن أشياء غير مفهومة، ومُضجرة، وبلا طعم. بدأ يتلقى عمولات من الجيران، ويستمع إلى عبارات الإطراء. يجب أن يذهب إلى مكسيكو، إلى البرلمان الجديد. سوف يبايعونه. من سواء يمكنه أن يمثلهم حقاً؟ إذا أراد هو والسيدة زوجته أن يتجولا فى القرى يوم الأحد، فسوف يريان كم يحبونهما وكيف أن نيابته مضمونة.

أحنى بنتورا رأسه من جديد قبل أن يرتدى قبعته. اقتاد أحد العمال العربية المكشوفة حتى الحاجز وأدار هو ظهره للهندي وسار نحو الكرسي الهزاز حيث كانت المرأة الحامل.

"أم أن واجبي أن أبقى حتى النهاية على الحق الذى أشعر به؟"
مدّ يده فتناولتها. إنفتحت ثمار الخوخ المتعفّنة تحت قدميه،
نبحت الكلاب وجرت حول العربة ونشرت أغصان البرقوق طزاجة
الندى. وحين ساعدها على الصعود إلى العربة، ضغط لا إرادياً على
ذراع زوجته وابتمسم.

- لا أدري إن كنت آذيت شعورك فى شيء. إن كنت قد فعلتُ،
فأرجوك أن تغفري لى.

انتظر بضع لحظات. إن كانت، على الأقل، ستظهر شيئاً من
الإرتباك. كان ذلك سيكفيه: إيماءة، حتى لو لم تكن إيماءة محبة، تشي
بأقل ضعف، ستكون علامة كافية على الرقة، على الرغبة فى
الحماية.

"لو كنت فقط أستطيع أن أحزم أمرى، لو كنت فقط أستطيع."
تماماً مثلما خلال لقائهما الأول، مدّ يده إلى راحتها وعاد لمس
لحم دون عاطفة. أمسك بالأعنة وجلست هى إلى جانبه وفردت
مظلتها الزرقاء، دون أن توجه بصرها نحو زوجها.
- إعتوا بالطفل.

"قسّمتُ حياتى إلى ليل ونهار، كأنما لإرضاء الجانبين. لماذا لا
أستطيع اختيار واحدٍ فقط، يا إلهى؟"

سدّد بصره نحو الشرق. على طول الطريق كانت تمر أرض الدُّرة،
المحروثة بخيوطٍ من الماء الذى يوجهه الفلاحون فى مساراته بأيديهم،
نحو الأراضى الفتية، ويحمون الأكوام الصغيرة التى تختبئ داخلها
البذور. إنزلقت الصقور على البعد: يزغت الصواري الخضراء لنباتات
الصبار الأمريكى؛ وعملت السواطير فى قطع حروز فى الجدوع: ذلك
النسغ. وحده الصقر، من الأعالي، يمكنه أن يُميّز البقعة الرطبة
والخصبة التى تطوّق حدود أراضى السيد الجديد، التى كانت هى

الأراضى القديمة لبرنال، ولا باستيدا، وبيثارو.

"نعم: إنه يحبني، لا يد أنه يحبني."

سرعان ما نضب اللعاب الفضى للجداول وأفسح الاستثناء مكانه للقاعدة: السهل الجيرى لنباتات الصبار الأمريكى. وعند مرور العربية، ترك العمّال سواطيرهم وفؤوسهم، وساط سائقو الدواب حميرهم: تصاعدت سحب الغبار فوق أرض أخرى، جافة على حين غرة. وأمام العربية، مثل سرب أسود، مضى الموكب الدينى الذى لم يتأخرا فى اللحاق به.

"لا بد أنتى منحتة كل الأسباب حتى يحبني. ألا تطرينى عاطفته تجاهى؟ ألا تطرينى كلمات حبه، وجسارته، وبراهين متعته؟ حتى وأنا على هذه الحال. حتى وأنا حامل، لا يتركنى. نعم. نعم إنها تطرينى." أوقفهما تقدّم الحجاج البطىء: أطفال يرتدون عباءات بيضاء بحواف مذهبية، وأحيانا بهالات من الورق المفضّض والسلك تتأرجح فوق رؤوسهم السوداء، يمسكون بأيدي نساء متشحات، بوجنات حمراء ونظرات زجاجية، ترسم علامة الصليب وتغمغم بالتراتيل القديمة: راكعات، وأقدامهن حافية وأيديهن متشبثة بالمسابع: البعض يوقفون الرجل ذا الساقين المشخنتين بالجراح الذى يوفى نذره، والبعض يسوطون الخاطيء الذى يتلقى باستمتاع ضربات الحبال على ظهره العارى وخصره مُحزَم بأوراق الصبار الشائكة. وتيجان الشوك تفتح جروحا فى الجبهات السمراء، ووشاحات الصبار فوق الصدور الجرداء: لم تكن الهمهمات باللغة الهندية ترتفع فوق سطح الأرض المنقطة بقطرات حمراء تسويها الأقدام البطيئة بالأرض وتخفيها على الفور: أقدام ذات حشفة صلبة، مُتكلّسة، معتادة على حمل تلك الطبقة الثانية من الجلد الطينى. لم تتقدّم العربية.

"لماذا لا أعرف كيف أقبل كل هذا دون شيء غريب فى قلبى، دون تحفظ؟ أريد أن أفهم هذا بإعتباره الدليل على أنه لا يستطيع مقاومة جاذبية جسدى لكننى أستطيع فهمه فقط على أنه برهان على أننى قد أخضعتة، على أننى أستطيع أن أنتزع منه هذا الحب كل ليلة وأحتقره فى النهار التالى ببرودتى وتباعدى. لماذا لا أحزم أمرى؟ لماذا يجب أن أحزم أمرى؟"

ربط المرضى لزقات* البصل حول أصداعهم وتركوا النساء يُمسدّنهم بالأغصان المقدسة: مئات، مئات: عويلٌ متصل هو وحده الذى كان يقطع الصمت الخفيض للهمهمات: حتى الكلاب التى يسيل من خِطمها اللعاب، ذات الجلد الأجرب، كانت تلهث بصوت خافت، وهى تجرى بين الحشد ذى الخطو البطيء الذى ينتظر أن تظهر، على البعد، أبراج الجير الوردى، وبوابة الآجر الأزرق وقباب القيشانى الأصفر. صعدت التماائم الرخيصة إلى الشفاه الرفيعة للتائبين وإنساب على الذقون البلغم الكثيف لخمير الصبّار الأمريكى. عيون بيضاء، مليئة بالدود؛ وجوه تبقّعها القوباء؛ رؤوس حلقة لأطفال مرضى؛ أنوف نخرها الجدرى؛ حواجب محاها الزهرى: مَيَسَمُ الفاتح فوق أجساد المهزومين الذين يتقدمون على ركبهم، على أربع، على أقدامهم، صوب المحراب المشيّد لتمجيد إله القوم البيض. مئات، مئات: أقدام، أيدي، إشارات، عرق، شكايات، تورّمات، قمل، طين، شفاه، أسنان: مئات.

"يجب أن أحزم أمرى؛ ليس أمامى احتمالٌ آخر فى الحياة سوى أن أكون، حتى موتى، إمراة هذا الرجل. لماذا لا أقبل ذلك؟ نعم،

* chiqueadores: شرائح من ورق مدهون بالشحم أو بمواد يُعتقد أنها شافية تلصق بالرأس كعلاج منزلى. تقابلها "اللزقة" المصرية القديمة . م.

التفكير فى ذلك سهل. وليس سهلاً نسيان دوافع حنقى. يا إلهى. يا إلهى، قل لى إن كنت أنا نفسى أدمّر سعادتى، قل لى إن كان يجب أن أفضّله على واجباتى كأخت وكابنة..."

شقت العرية طريقها بصعوبة عبر الدرب الترابى، بين الأجساد التى لا تعرف العَجَلَة، التى تتقدم على رُكبتها، على الأقدام، على أربع، صوب المحراب. كانت أفاريز الصبار الأمريكى تمنع الخروج على الطريق للإلتفاف حولهم وكانت المرأة البيضاء تحمى نفسها من الشمس بالمظلة بين أصابعها، وأرجحتها برفق أكتافُ الحجاج: عينا الفزالة، شحمتا الأذن المتورّدتان، البياض الناعم للوجه، المنديل الذى يغطى أنفها وفمها، النهدان الصليبان خلف الحرير الأزرق، البطن المنتفخة، القدمان الصغيرتان المتقاطعتان، والحداء الواطىء.

"لدينا طفل. وأبى وأخى قد ماتا. لماذا تشلنى مغناطيسية الماضى؟ يجب أن أنظر باتجاه المستقبل. ولا أستطيع أن أحزم أمرى. هل سأترك الأحداث، الحظ، شيئاً خارجاً عنى يقرّر لى؟ هذا ممكن. يا إلهى. أنتظرُ طفلاً آخر..."

إمتدت الأيدى نحوها: أولاً، الذراع المتصلّب لهندى عجوز وخطه الشيب، ثم على الفور الأذرع، العارية تحت الوشاح، للنساء؛ مهمة هادئة للإعجاب والمحبة، تحرقُ للمسها، بضع مقاطع صفيرية: "ماميتا، ماميتا" * توقفت العرية وقفز هو، ملوّحاً بالسوط فوق الرؤوس الداكنة، صائحاً أن إفتحوا طريقاً: طويلاً، مرتدياً السواد، والقبعة ذات الشريط غائصة حتى حاجبيه...

"... يا إلهى، لماذا وضعتنى فى هذا الموقف الصعب؟..."

تناولت هى الأعنة، ووجهت الحصان بعنف نحو اليمين، مُطوّحةً

* Mamita: تصغير وتدلّيل ماما. م.

الحجّاج على الأرض، حتى سهل الحصان، ورفع قائميه الأماميين، وحطم أوعية الفخار، وأقفاص الدجاجات التى أخذت تُوقوق، وتخفق بأجنحتها، وصدم رؤوس الهنود الذين سقطوا على الأرض، ودار على عقبه، عرقاناً وملتمعاً، وأعصاب رقبتة مشدودة وعيناه بارزتان: أحست هى فوق جسدها كلّ العرق والجروح، والصراخ الأصمّ، والحشرات، وفوح عطن خمر الصبّار؛ طرقعت، وهى واقفة، متوازنة بثقل بطنها، اللجام فوق صدر الحيوان. فتح الحشد طريقاً، بصرخات صغيرة تتم عن البراءة والدهشة، بأذرع مرفوعة، وأجساد مطوّحة نحو جدار الصبار وجرت هى عائدة،

"لماذا أعطيتنى هذه الحياة التى يجب فيها أن أختار؟ لم أولد لهذا..."

لاهثة، بعيداً عن أولئك الناس، نحو قمة المنزل الضائعة فى تموجات القيظ، التى يخفيها الإرتفاع السريع لأشجار الفاكهة التى زرعها هو.

"أنا امرأة ضعيفة. لم أرد سوى حياة هادئة، يختار فيها آخرون من أجلى. لا... لا أعرف كيف أحزم أمرى... لا أستطيع... لا أستطيع..."

أعدت الموائد الضخمة قرب المزار، مكشوفة للشمس؛ تطاير الذباب فى أسراب كثيفة فوق القدور الضخمة للفاصوليا وأقراص عجة الذرة الموضوعة فى أكوام فوق مفرش من ورق الصحف؛ أما دمجانات خمر الصبّار المحلى بالكريز وكيزان الذرة الخضراء المجففة وقطع حلوى اللوز المثلثة الألوان فكانت تكسر حدة قتامة الطعام والقدور. صعد رئيس البلدية إلى منصة وقدمه وامتدحه وقبل هو الترشيح لمنصب نائب فيدرالى، الذى كان قد تم ترتيبه قبل ذلك بشهور فى پوييلا وفى مكسيكو مع الحكومة التى اعترفت بمزاياه

الثورية، وبالمثل الجيّد الذى ضربه حين تقاعد من الجيش ليطبق
تعاليم الإصلاح الزراعى وبخدماته الممتازة حين عوض عن غياب
السلطة من المنطقة، مقيماً النظام على حساب جهده ومخاطرته.
أحاطت بهم الهمهمات الصمّاء والمتصلة للحجاج الذين كانوا يدخلون
ويخرجون من المعبد، سيكون بصوت عالٍ عذراءهم وإلههم، وينتحبون،
ويستمعون إلى الخطب ويشربون من الدّمجانات. صرخ شخصٌ، ودوّت
بضع طلقات. لم يفقد المرشّح رباطة جأشه، مضغ الهنود العجّة
وأعطى هو الكلمة لمحام آخر من الإقليم، بينما تحييه الطيلة الهندية
وتختفى الشمس خلف الجبال.

- حدث ما نُبّهتكَ إليه - غمغم بنتورا حين بدأت القطرات
المستديرة للمطر الدقيق التوقيت فى الطريقة فوق قبعته - كان قَتَلَة
دون پيثارو هناك، يصوّبون إليك بنادقهم فور أن صعدت إلى المنصة.
ولما كان دون قبعة، فقد وضع فوق رأسه غطاءً واقياً من أوراق
الذرة - وكيف أصبحوا؟

- باردین تماماً - إبتسم بنتورا - كنا قد طوّقناهم قبل بدء
الإحتفال.

وضع قدمه فى ركاب الحصان - ألقوهم أمام باب پيثارو مباشرة.
كرهها حين دخل القاعة العارية، المطلية بالجير، ووجدها وحيدة،
تتأرجح فى الكرسي وترتّب علي ذراعيها كأن حضور الرجل يملأها
ببرد غير محسوس، كأن تنفس الرجل، والعرق الجاف لجسده،
والنفمة المرهوبة لصوته، تحمل جميعاً ريحاً مثلّجة. إرتجفت الأنف
النحيلة والمستقيمة للمرأة: طوّح القبعة فوق المائدة وتقدمت المهاميز
راسمةً خطوطاً فى الأرضية القرميدية.

- لقد ... لقد أخافونى ...

لم يتكلم. خلع معطفه وفرده قرب المدفأة. إنساب الماء محدثاً

هسيساً بين بلاطات قرميد السقف. كانت أول مرة تحاول هي فيها تقديم تبرير.

- سألوا عن زوجتي. اليوم كان يوماً هاماً بالنسبة لى.

- نعم، أعرف...

- كيف أقول لك... إننا جميعاً... إننا جميعاً نحتاج إلى شهودٍ

على حياتنا حتى يمكننا أن نحيها...

- نعم...

- أنت...

- أنا لم اختر حياتي! - قالت بصوت عالٍ، وهى تشدد قبضتها

على ذراعى المقعد.. إذا كنت تجبر الناس على تنفيذ إرادتك، فلا تطلب من أحد إمتناناً ولا...

- ضد إرادتك؟ لماذا أروقك، إذن؟ لماذا تتصايحين فى الفراش إذا

كنت بعدها ترسمين على وجهك تقطيعاً كئيبة؟ منذا يفهمك؟

- أيها البائس!

- هيا، يا منافقة، أجيبى لماذا؟

- سيكون الأمر مُماثلاً مع أى رجل.

رفعت بصرها لتواجهه. ها قد قالت ما يجب أن يقال. فضّلت أن

تحطّ من قدر نفسها.. ما أدراك أنت؟ يمكننى أن أمنحك وجهاً آخر وإسماً آخر...

- كاتالينا... لقد أحبيتك... ليس الخطأ من جانبى.

- دعنى. أنا فى يدك إلى الأبد. لقد حصلت على ما أردت. إقتع

ولا تطلب المستحيل.

- لماذا تتصلّين؟ أعرف أننى أروقك...

- دعنى. لا تلمسنى. لا تواجهنى بضعفى. أقسم لك أننى لن

أترك نفسى تتساق ثانية... لذلك.

- أنت زوجتى.
- لا تقترب. لن تفتقدنى. هذا يخصك... إنه جزء من انتصاراتك.
- نعم، وسيكون عليك أن تحتلميه بقية حياتك.
- الآن أعرف كيف أجد العزاء. بالرب إلى جانبى، وبأبنائى، لن تتقصنى السلوى أبداً.
- لماذا يجب أن يكون الرب إلى جانبك، أيتها المهرجة؟
- لا تهمنى شتائمك. أنا الآن أعرف كيف أجد العزاء.
- عن ماذا؟
- لا تبتعد. عن معرفتى أنتى أعيش مع الرجل الذى أذل أبى وخان أخى.
- ستدفعين ثمن هذا غالياً، يا كاتالينا برنال. إنك تضعين فى رأسى فكرة أننى أذكرك بأبيك وأخيك فى كل مرة تفتحين لى ساقيك...
- لم تعد تستطيع إهانتى.
- لا تكونى متأكدة هكذا.
- إفعل ما يحلو لك. هل تؤلمك الحقيقة؟ قتلت أخى.
- لم يفسح أخوك وقتاً لخيانته. كان يريد أن يصبح شهيداً. لم يشأ إنقاذ نفسه.
- مات هو وأنت هنا، تتمتع بالحياة وبميراثه. هذا كل ما أعرفه.
- إشتعلى إذن، وفكرى فى أننى لن أتعصل منك أبداً، أبداً، حتى حين أموت، لكننى أيضاً أعرف كيف أذل. سوف يؤلمك أنك لم تنتهى...
- أظن أننى لم أتبين وجهك الحيوانى وأنت تقول أنك تحببى؟
- لم أحبك أن تكونى منفصلة، بل مفروسة فى قلب حياتى...

- لا تلمسنى. هذا ما لن تستطيع شراءه أبداً.
- إنس هذا اليوم. فكرى فى أننا سنعيش الحياة كلها معاً.
- إبتعد. نعم. فى هذا أفكر. فى سنين كثيرة قادمة.
- سامحنى، إذن. أرجوك مرة أخرى.
- وهل ستسامحنى أنت؟
- ليس لدى ما أسامحك عليه.
- هل ستسامحنى على أنتى لا أسامحك على النسيان الذى أخذ يلف الآخر، الذى كان يروقتى حقاً؟ لو كنت فقط أستطيع تذكر وجهه جيداً... لهذا أكرهك أيضاً، لأنك جعلتى أنسى وجهه... لو كنت فقط قد نلت هذا الحب الأول لأمكننى أن أقول أنتى قد عشت... حاول أن تفهمنى؟ أنا أكرهه أكثر مما أكرهك، لأنه استسلم للخوف ولم يعد أبداً... ربما أقول لك هذه الأشياء لأننى لا أستطيع قولها له... نعم، قل لى أن من الجبن التفكير على هذا النحو... لا أدرى؛ أنا... أنا ضعيفة... وأنت، إذا شئت، يمكنك أن تحب نساءً كثيرات، لكننى مقيدة إليك. لو كان هو قد أخذنى بالقوة، لما كان على اليوم أن أتذكره وأكرهه دون أن أستطيع تذكر شكل وجهه. لقد صرتُ محبطة إلى الأبد، هل تفهمنى؟... إستمع لى، لا تبتعد... ولما لم تكن لدى الشجاعة لإدانة نفسى على كل ما حدث ولما لم يكن قريباً منى لأكرهه، فإننى أحملك أنت الوزر، وأكرهك أنت، أنت القوى جداً، الذى تستطيع تحمل كل شيء... قل لى هل تسامحنى على هذا، لأننى لن يمكننى أن أسامحك طالما لا أسامح نفسى وأسامحه هو الذى كان... ضعيفاً جداً... لكننى لا أريد التفكير ولا الكلام؛ دعنى أحيا فى سلام وأطلب المغفرة من الرب، وليس منك...
- إهدئى. كنتُ أفضلُك بصمتك الماكر.
- أنت الآن تعرف. يمكنك أن تجرحنى قدر ما تشاء. فقد

أعطيتك حتى هذا السلاح. لأننى أريدك أن تكرهنى أنت أيضاً وأن
نتهى من الأوهام إلى الأبد...

- سيكون من الأسهل نسيان كل شيء والبدء من جديد.

- لم نُصنع على هذا النحو.

تذكرت المرأة الساكنة قرارها الأول، حين أبلغها دون جمالييل ما
كان يجرى. الإستسلام بقوة. أن تدع نفسها تستشهد حتى تستطيع
الانتقام.

- لا يمكن أن يوقفنى شيء، أترى؟ قل سبباً يوقفنى.

- هذا أسهل.

- أقول لك لا تلمسنى، لا تربت على!

- الكراهية أسهل، أقول لك. والحب أصعب ويتطلب أكثر...

- هذا هو الشيء الطبيعى. هذا ما يخرج منى.

- ليس من الضرورى زرعته ومحبته. يخرج وحده.

- أقول لك لا تلمسنى!

لم تعاود النظر إلى زوجها. محاً غياب الكلمات قرب ذلك الرجل
الطويل الداكن، ذى الشارب الكثيف، الذى كان يحس أن حاجبيه
وعنقه يرزحان تحت ثقل حجرى. خمّن أن هناك شيئاً آخر فى عينى
زوجته الجميلتين الغائمتين. فهذا الفم المزموم كان يلقى فى وجهه،
بلفتة إحتقار خفى، الكلمات التى لن يتفوّه بها أبداً.

"أعتقد أنك بعد أن فعلت كل ما فعلت، مازال لك الحق فى
الحب؟ أعتقد أن قواعد الحياة يمكن أن تتغير حتى تتلقى هذه
المكافأة، علاوة على كل شيء؟ لقد فقدت براءتك فى العالم الخارجى.
ولا يمكنك إستعادتها هنا فى الداخل، فى عالم المشاعر. ربما كانت
لك حديقة. أنا أيضاً كانت لى حديقتى، فردوسى الصغير. والآن
فقدناهما كلانا. حاول أن تتذكر. لا يمكنك أن تجد فى ما ضحيت به

فعلاً، ما فقدته إلى الأبد نتيجة عمل يديك. لا أعرف من أين تأتي.
ولا أعرف ماذا فعلت. كل ما أعرفه هو أنك في حياتك فقدت ما
جعلتني أفقده بعد ذلك: الحلم، البراءة. ولن نعود أبداً كما كنا."

أراد أن يقرأ هذه الكلمات في وجه زوجته الساكن. ورغم إرادته،
أحس أنه قريب من التعليل الذي لم تتطرق به. عادت الكلمة إلى رعبها
الخفى. مخاتل: هذه الكلمة الفظيعة لا يجب أن تخرج، أبداً، من
شفتي المرأة التي، رغم فقدانها الأمل في الحب، ستكون رغم ذلك
الشاهد - الصامت، المتشكك - عليه خلال الأعوام التي ستأتي. ضغط
على صدغيه. فعلٌ واحدٌ، ربما، يمكنه أن يفك هذه العقدة للإنفصال
والحنق. بضع كلمات فقط، إما أن يقال الآن أو لا يقال أبداً. إذا قبلتها
هي، أمكنهما النسيان والبدء من جديد. وإذا لم تقبلها...

"نعم، أنا حيٌ وبجوارك، هنا، لأنني تركت آخرين يموتون من أجلتي.
يمكنني أن أحدثك عمّن ماتوا لأنني غسلت يدي وهزرت كتفي. إقبليني
هكذا، بهذه الذنوب، وأنظري إليّ كما تنظرين إلى رجل محتاج... لا
تكرهيني. لتأخذك الشفقة عليّ، يا كاتالينا الحبيبة. لأنني أحبك؛ ضعي
ذنوبي في كفةٍ وحبى في الكفة الأخرى وسترين أن حبى أكبر..."

لم يجرؤ. وتساءل لماذا لم يجرؤ. لماذا لم تطلب هي منه الحقيقة -
منه هو، العاجز عن كشفها، والواعى بأن هذا الجبن يباع بينهما أكثر
ويجعله، هو أيضاً، مسئولاً عن الحب الفاشل - حتى يتطهر الإثنان من
الذنب الذي أراد هذا الرجل إقتسامه، حتى ينال المغفرة.

"وحدى لا؛ وحدى لا أستطيع."

خلال تلك الدقيقة القصيرة الحميمة والصامتة...

"أنا الآن قوى. وقوتى في أن أقبل دون صراع هذه الأمور

الحتمية".

... قبل هو أيضاً إستحالة النكوص، إستحالة العودة... ونهضت

هى مغممة أن الطفل ينام وحيداً فى المخدع. بقى هو وحيداً وتخيّل،
تخيّلها على ركبتيها، أمام الصليب العاجى، مؤدية الفعل الأخير الذى
يفصلها عنه.

"عن مصيرى وعن ذنبى، متشبثةً بخلاصك الشخصى، رافضةً
هذا، هذا الذى كان يجب أن يكون لنا نحن الإثنين، رغم أننى أعرضه
عليك فى صمت؛ لن تعودى بعد..."

عَقَدَ ذراعيه وخرج إلى ليل الريف، رافعاً رأسه ليحيى صُحبة
الزُّهرة اللامعة، أول نجمة فى قبة سماوية سرعان ما إمتلأت
بالأضواء. ذات ليلة ماضية كان قد نظر إلى النجوم؛ ولن يفيد شياً
أن يتذكر ذلك. فلم يعد نفس الشخص، ولا النجوم عادت هى نفس
النجوم التى تأملتها نظرته الشابة.

كان المطر قد توقف. بعث البستان أريجاً فاغماً للجوافة والخوخ،
للبرقوق والكمثرى. كان هو قد زرع أشجار الحديقة. كان هو قد أقام
الحاجز الذى يفصل المنزل والبستان، مملكته الحميمة، عن أراضى
الفلاحة.

حين وطأت قدماه الأرض النديّة، غرس يديه فى جيبي بنطلونه
وسار ببطء نحو البوابة. فتحها وواصل سيره نحو البيت المجاور.
خلال الحمل الأول لزوجته، كانت تلك الهندية الشابة تستقبله من حين
لآخر، بصمت خامل وغياب كامل للأسئلة والتوقعات.

دخل دون إنذارٍ، دافعاً الباب بضربةٍ، إلى المنزل البائس ذى
الطوب النىء المحطم. أخذها من ذراعها، موقظاً إياها من النوم،
لامساً حرارة الجسد الداكن، الناعس. نظرت الفتاة برعب إلى الوجه
المتجهّم للسيد، إلى الشعر المجعد الذى يسقط فوق عينيْن من زجاج
مخضّر، إلى الشفتين الغليظتين يحيطهما شعر أشعث خشن.

- تعالى، لا تخافى.

رفعت ذراعيها لترتدى البلوزة البيضاء ومدّت يداً لتلتقط الشال.
قادها إلى الخارج. زامت بصوتٍ خفيض، مثل عجل تلتف الأنشطة
حول رقبتة. ورفع هو وجهه نحو السماء، المرصّعة هذه الليلة بكل
أضوائها.

- أترين هذه النجمة الكبيرة اللامعة؟ تبدو وكأنها فى متناول
اليـد، أليس كذلك؟ لكن حتى أنتِ تعرفين أنك لن تلمسيها أبداً. يجب
أن نقول لا لما لا نستطيع لمسه بأيدينا. تعالى؛ ستعيشين معى فى الدار
الكبيرة.

دخلت الشابة إلى البستان منكّسة الرأس.
إلتمعت فى الظلمة الأشجار التى غسلها إنهمار المطر. وامتلات
الأرض المختمرة بروائح ثقيلة وتتفس هو بعمق.
وفى أعلى الدار، فى المخدع، تركت هى الباب موارباً واستلقت.
أشعلت المسرجة. أدارت وجهها إلى الحائط، ضمت يديها على
كتفيها وثت ساقياها. وبعد برهة، فردتهما وتحسست موضع الخفّ
على الأرض. نهضت وسارت فى الغرفة، وهى ترفع رأسها وتخفضه.
ربّتت، دون أن تدري، على الطفل النائم فى السرير الصغير.
تحسست بطنها. عاودت الاستلقاء وبقيت هكذا منتظرة أن ترنّ
خطوات الرجل فى الممشى.

أنا أتركهم يفعلون، لا أستطيع التفكير ولا الرغبة؛ أتعوّد على هذا الألم: لا شيء يمكن أن يدوم إلى الأبد دون أن يتحوّل إلى عادة؛ الألم الذى أحسّه تحت ضلوعى، حول بطنى، فى أحشائى، صار ألى، ألمٌ يقرض: طعم القىء على لسانى هو طعمى؛ إنتفاخ بطنى هو ولادتى، أشبّهه بالولادة، يُضحكنى. أحاول لمسه. أتلّمسه من المعدة إلى العانة. جديد. مستدير. طرى. لكن العرق البارد يتوقف. هذا الوجه دون لون والذى يمكننى رؤيته فى قطع الزجاج غير المتماثلة فى حقيبة يد تيريسا، التى تمر بجوار فراشى، ولا تترك حقيبة يدها أبداً، كأن ثمة لصوصاً فى المخدع. أعانى من هذا الانهيار. لم أعد أدري. ذهب الطبيب. قال أنه سيبحث عن أطباء آخرين. لا يريد أن يتحمل مسئوليتى. لم أعد أدري. لكننى أراهم. لقد دخلوا. يفتح وينغلق الباب الماهوجنى ولا يُسمع صوت الخطوات فوق السجادة السميقة. أغلقوا النوافذ. أسدلوا، بهسيس، الستائر الرمادية. دخلوا. آه، هناك نافذة. هناك عالمٌ بالخارج. هناك هذه الريح العالية، ريح الهضبة، التى تهزّ بضع أشجار سوداء ونحيلة. يجب أن أتففس...

- إفتحوا النافذة...

- لا، لا. قد تُصابَ بالبرد وتُعقّد الأمور.

- إفتحوا...

- Domine non sum dignus ...

- أبصق على الرب...

- ... لأنك تؤمن به...

ذكى جداً، كان هذا ذكياً جداً. يهدئنى. لا أعود أفكر فى هذه الأشياء. نعم، لماذا أسبّه، إذا كان غير موجود؟ هذا يفيدنى. سأسمح بهذا كله لأن تمرّدى يعنى التسليم بوجود تلك الأشياء. سأفعل هذا. لا أدري فيم كنت أفكر. عفواً. القس يفهمنى. عفواً. لن أجعلكم على حقٍ

بتمرّدى. هذا أفضل. يجب أن أرسم على وجهى السأم. هذا ما يليق.
كم من الأهمية يُضفونها على كل هذا. على فعل يعنى، بالنسبة لأكثر
من يهمه، بالنسبة لى، نهاية الأهمية. نعم. هكذا تسير الأمور سيراً
حسناً. هكذا. حين أنتبه إلى أن كل شيء يفقد أهميته، يحاول
الآخرون تحويله إلى أكثر الأشياء أهمية: ألم المرء ذاته، خلال الروح
الغريبة. أطلق هذا الصوت الأجوف من منخارى أنفى وأتركهم يفعلون
وأشبك ذراعى فوق معدتى. أوه، أغربوا جميعاً، دعونى أسمع. لنر هل
سيفهموننى. لنر هل سيفهمون ما تعنيه ذراعٌ مثية هكذا...

"... يزعمون أن هذه العربيات ذاتها يمكن صنعها هنا فى
المكسيك. لكننا سنمنع ذلك، أليس كذلك؟ فعشرون مليون بيسو تساوى
مليون ونصف من الدولارات...

"... Plus our commissions

"... لن يناسبك الثلج مع هذا الزكام.

"... Just hay fever. Well, I'll be

"... لم أنته بعد. يقولون أيضاً إن رسوم الشحن التى تدفعها
شركات التعدين على النقل من وسط الجمهورية إلى الحدود منخفضة
جداً، أنها تعادل دعماً، أن نقل الخضروات يكلف ثمناً أغلى من نقل
معادن شركاتنا...

"... Nasty, nasty

"... وكيف لا. أنت تفهم أنهم لو رفعوا رسوم الشحن، فلن يكون
مُربحاً لنا تشغيل المناجم...

"... Less proffits, sure, lesproffitsue lesslessless

ماذا يجرى، يا ياديبا؟ ياديبا، يا رجل. ما هذا اللفظ؟ ياديبا، يا
رجل.

- إنتهى الشريط. لحظة. البقية على الوجه الآخر.

- إنه لا يستمع، يا أستاذ.

لابد أن ياديبا بيتسم لأنه يعرف. ياديبا يعرفنى. أنا أستمع. آوه، أنا أستمع، آى. هذه الضوضاء تملأ مخى بالكهرباء. هذه الضوضاء لصوتى أنا، صوتى القابل للإنعكاس، نعم، الذى يعاود إصدار أزيز ويمكن سماعه وهو يدور إلى الخلف، بأزيز سنجاب، لكن صوتى مثل إسمى الذى ليس به سوى أحد عشر حرفاً ويمكن كتابته بألف طريقة أموك ريوثيرير ثورتيك مارثى إيتشاو أريمور إلا أن له مفتاحاً، سيداً، هو أرتيميو كروث، آه إسمى، يرن فى أذننى إسمى الذى يثر، ويتوقف، ويجرى فى الإتجاه المعاكس:

" - تكرم، يا مستر كروكرى. أرسل هذا كله تليفافياً إلى المقرات الرئيسية المهتمة فى الولايات المتحدة. قل لهم أن يحركوا الصحافة هناك ضد عمال السكك الحديدية الشيوعيين فى المكسيك.

" Sure, if you say they're commies, I feel it my duty to ____
uphold by any means our...

" - نعم، نعم، نعم. ما أجمل أن تتطابق مثلنا العليا مع مصالحنا، أليس كذلك؟ وهناك شىء آخر: تحدث مع سفيركم، حتى يمارس ضغطاً على الحكومة المكسيكية، الحديثة العهد والتي لم تتضج بعد.
" Oh, we never intervene.

" - إعذر خشونتى. إقترح عليه أن يدرس الموضوع بهدوء وأن يقدم رأيه النزيه، أخذاً فى الاعتبار قلقه الطبيعى على مصالح المواطنين الأمريكين الشماليين فى المكسيك. أن يشرح لهم أن من الضرورى الحفاظ على المناخ المواتى للاستثمار، فمع هذه التحريضات...

" O.K, O.K - "

آه، يا له من قصف من الإشارات، والكلمات، والمثيرات لسمى

المتعب؛ آه، يا للإرهاق؛ آه، يا لها من لغةٍ دون لغة؛ آه، لكننى قلت ذلك،
إنها حياتى، يجب أن أستمع إليها؛ آه، لن يفهموا إشارتى لأننى أستطيع
بالكاد تحريك أصابعى: أوقفوا هذا الآن، فقد أضجرتنى، ما شأن هذا،
يا للإزعاج، يا للإزعاج... لدى ما أقوله لكم:
- أنتَ سيطرتَ عليه وانتزعته منى.

- إنتظرتك هذا الصباح بابتهاج. لتعبر النهر على صهوة الجياد.
- أنا أحملك الذنب. أنت المذنب.

تترك تيريسا الصحيفة تسقط. تقول كاتالينا عند إقترابها من
الفراش، كأننى لا يمكننى سماعها: - يبدو أن حالته سيئة جداً.
- هل قال أين هى؟ - تسأل تيريسا بصوت أكثر إنخفاضاً.
تنفى كاتالينا بهزة رأس. - ليست لدى المحامين. لابد أنها مكتوبة
بخط اليد. رغم أنه قادرٌ على أن يموت دون وصية، حتى يعقد لنا
حياتنا.

أنصت إليهما وعيناي مغمضتان وأتظاهر، أتظاهر.
- ألم يستطع الأب أن ينتزع منه شيئاً.

لابد أن كاتالينا نفثت. أحس بها تركع بجوار رأس الفراش وتقول
بصوت بطيء ومحطم: - كيف تشعر؟... أليس لديك رغبة فى الكلام
قليلاً؟... أرتيميو... هناك شىء مهم جداً... أرتيميو... لا نعرف إن
كنت قد تركت وصية. نريد أن نعرف أين...

الألم يبدأ فى التضائل. ولا تريان العرق البارد الذى ينساب على
جبهتى، ولا سكونى المشدود. أستمع إلى الأصوات، لكننى الآن فقط
أعاود تمييز الأشكال الداكنة. يعود كل شىء إلى بؤرته الطبيعية
وأميزهما بكاملهما. بوجهيهما وتعبيراتهما، وأودّ لو عاد الألم إلى
بطنى. أقول لنفسى، أقول لنفسى وذهنى صافٍ أننى لا أحبهما، أننى
لم أحبهما أبداً.

- ... نريد أن نعرف أين...

تخيلا نفسيكما في مواجهة بائع عديم الثقة، أيتها الحقيرتان،
في مواجهة طردٍ من المسكن، في مواجهة محام مخادع، في مواجهة
طبيب مزيف، تخيلا نفسيكما من الطبقة المتوسطة التافهة، أيتها
الحقيرتان، واقفتين في الطابور لشراء لبن مغشوش، لدفع الضرائب
العقارية، لحضور مقابلة رسمية، للحصول على قرض، واقفتين في
الطابور لتحلما بإمكانكما بلوغ منزلة أعلى، حاسدتين مرور زوجة وابنة
أرتيميو كروث في سيارتهما، حاسدتين منزلاً في لاس لوماس دي
تشابولتيبيك، حاسدتين معطفاً من فراء المينك، عقداً من الزمرد،
رحلة إلى الخارج، تخيلا نفسيكما في عالم بدون كبريائي وتصميمي،
تخيلا نفسيكما في عالم أكون فيه أنا فاضلاً، أكون فيه رقيق الحال:
إلى أسفل، من حيث خرجتُ، أو إلى أعلى، حيث أنا: هنالك فقط،
أقول لكما، يوجد كبرياء، وليس في المنتصف، ليس في الحسد،
والرتابة، والطوابير: كل شيء أو لا شيء: تعرفان رهاني؟ تفهمانه؟ كل
شيء أو لا شيء، كل شيء بالأسود أو كل شيء بالأحمر، بعزيمة، هيه؟
بعزيمة، أن يكون المرء مخاطراً بحياته، محطماً وجهها، مُعرضاً نفسه
لأن يعدمه بالرصاص من هم فوق أو من هم تحت؛ هذا ما يعنيه كون
المرء رجلاً، كما كنت أنا، لا كما كان يمكن أن تتمنيا أنتما، نصف رجل،
رجلاً ذا صرخات ناشزة، رجل مواخير وخمّارات، ذكورياً ممن يظهرون
على بطاقات البريد، آه، لا، أنا، لا أنا لم أضطر للصراخ في
وجهيكما، لم أضطر للإنغماس في السكر حتى أخيفكما، لم أضطر
لضربكما حتى أفرض نفسي، لم أضطر لإذلال نفسي راجياً منكما
المحبة: أعطيتكما الثروة دون أن أنتظر منكما مكافأة، ولا محبة، ولا
تفهماً ولأننى لم أطلبكما بشيء لم تستطيعا هجرانى، تشبثتما
بيدخى، لا عنتين إياي ربما كما لم تكونا لتلعنا مرتبى البائس الملفوف

فى ورق شفاف، بل ربما كنتما ستضطران لإحترامى مثلما لم تكونا
لتحترما إبتدالى، آه أيتها العجوزتان الخرائيتان، العجوزتان المتباهيتان،
العجوزتان العاجزتان اللتان نلتما كل أشياء الثراء وما زال رأساكما
مبتذلين: لو كنتما على الأقل إستفدتما مما منحتكما، لو كنتما على
الأقل فهمتما فيم تفيد، وكيف تُستخدم أشياء البذخ: بينما نلتُ أنا كل
شئ، أتسمعانى؟، كلَّ ما يُشتري وكل ما لا يُشتري، نلت ريخينا،
أتسمعانى، أحببتُ ريخينا، كان اسمها ريخينا وقد أحببتى، أحببتى
دون نقود، وتبعتنى، ومنحتنى الحياة هناك إلى أسفل، أتسمعانى؟
سمعتك، يا كاتالينا، أنصتُ إلى ما قلته له ذات يوم:

" - أبوك؛ أبوك، يا لورنثو... أتظن...؟ أتظن أنه يمكن أن
ينجح...؟ لا أدري، فى إختيار الرجال القديسين... الشهداء
الحقيقيين..."

- Domine non sum dignus ...

أنت ستشمُ، فى أعماق الملك، هذا البخور الذى لا يريد أن يتبددُ
وستعرف، خلف عينيك المغمضتين، أن النوافذ قد أغلقت أيضاً، أنك
لم تعد تتنفس هواء الأصيل المنعش: فقط فوح هذا البخور ورائحة
القس الذى سيتقدم ليمنحك الغفران، طقساً أخيراً لن تطلبه أنت،
وستقبله، رغم ذلك، حتى لا ترضيهم بتمردك فى الساعة الأخيرة: تودُ

أن يجرى كل شيء دون أن تدين لأحدٍ بشيءٍ وتودُّ أن تتذكر نفسك في حياة لا تدين لأحدٍ بشيءٍ: لكنها ستمنعك، ذكراها ستمنعك - ستسُمِّيها: ريخينا؛ ستسُمِّيها: لاورا؛ ستسُمِّيها: كاتالينا؛ ستسُمِّيها: ليليا - ستُلخِّص هي كلَّ ذكرياتك وستجبرك على الاعتراف بها: لكنك ستحوِّل هذا الإمتنان - ستعرفُ ذلك، خلف كل صرخة ألم حادة - إلى إشفاق على نفسك، إلى ضياع لضياعك: لا أحد سيمنحك أكثر، لينتزع منك أكثر، من تلك المرأة، المرأة التي أحببتها بأسمائها الأربعة المختلفة: من غيرها؟

ستقاوم: ستكون قد قمت بإقتراع سرِّي: أن لا تعترف بديونك: ستكون قد طويت في نفس النسيان تيريسا وخيراردو: نسيان ستبرره لأنك لن تعرف شيئاً عنهما، لأن الفتاة ستكبر إلى جانب والدتها، بعيدة عنك أنت الذى لن تعيش إلا من أجل ابنك، لأن تيريسا ستتزوج ذلك الفتى الذى لن تستطيع أبداً تثبيت وجهه في ذاكرتك، ذلك الفتى الضبابى، ذلك الرجل الرمادى الذى لن يجب أن يستهلك ويحتل زمن النعمة الممنوح لذاكرتك: وسباستيان: ألن تودَّ تذكر المعلم سباستيان: ألن تودَّ تذكر تلك اليدين المربَّعتين اللتين ستملصان أذنيك، ستضربانك بالمسطرة: ألن تودَّ تذكر عقل أصابعك المتألمة، أصابعك التى بيّضها الطباشير، ساعاتك أمام السبورة وأنت تتعلم الكتابة، والضرب، ورسم أشياء أولية، منازل ودوائر، ألن تريد: إنه دَيْنك: ستصرخ وتتوقف ذراعاك: ستودُّ أن تنهض وتتمشى لتهدئة ألمك:

ستشم البخور

ستشم الحديقة المغلقة،

ستفكر فى أنك لا يمكن أن تختار، أنك لم تختار ذلك اليوم: بل تركت الأمور تجري، لم تكن مسئولاً، لم تخلق أيّاً من المبدأين الأخلاقيين اللذين كانا يستميلانك ذلك اليوم: لم تستطع أن تكون

مُسئولاً عن الخيارات التي لم تخلقها: ستحلم، منفصلاً عن جسدك الذي يصرخ ويتقلص، منفصلاً عن ذلك الساطور الذي إنغرس في معدتك حتى طفرت من عينك الدموع، ستحلم بذلك الترتيب للحياة، الذي خلقته أنت، والذي لن تستطيع الكشف عنه أبداً لأن العالم لن يعطيك الفرصة، لأن العالم لن يقدم لك سوى قوانينه الراسخة، لوائح المتصارعة، أنك لن تحلم، أنك لن تفكر، أنك لن تحيا: سيكون البخور عطراً في الزمن، عطراً يُحكى: سيحيا الأب بايث في منزلك، ستخفيه كاتالينا في البدروم: لن يكون ذنبك، لن يكون ذنبك:

لن تتذكر ما تقولانه، أنت وهو، تلك الليلة، في البدروم: لن تتذكر إن كنت أنت، أو كان هو من يقوله: ما اسم الوحش الذي يتخفى بإرادته في زى امرأة، الذي يخصى نفسه بإرادته، الذي يسكر بإرادته من الدم الموهوم للرب؟ من سيقول هذا؟ لكنه يحب، وأقسم، لأن حب الرب ضخماً جداً ويسكن كل الأجساد، ويررها: نال أجسادنا بنعمة ومباركة الرب، لنمنحها لحظات الحب التي تريد الحياة حرماناً منها: لا تشعرن بالخجل، لا تشعرن بشيء وبالمقابل ستسسى أحزانك: لا يمكن أن يكون ذلك خطيئة لأن كل كلمات وكل أفعال حبنا القصير، المتعجل، حب اليوم وليس أبداً حب الغد، هي مجرد عزاء نمنحه لأنفسنا أنت وأنا، قبول لشُرور الحياة الضرورية يبرر فيما بعد ندمنا إذ، كيف يمكن أن يوجد ندم حقيقى دون الاعتراف بالشر الحقيقى في داخلنا؟ كيف نتنبه إلى الخطيئة التي يجب أن نتضرع راكعين لننال المغفرة عنها إذا لم نرتكب قبلها الخطيئة ذاتها؟: إنس حياتك، دعنى أطفىء النور، إنس كل شيء وبعدها سنتضرع سوياً من أجل غفراننا ونقيم صلاة تمحو لحظات حبنا: لكى نكرس هذا الجسد الذي خلقه الرب والذي يذكر اسم الرب فى كل رغبة متحققة وغير متحققة،

يذكر اسم الرب في كل تربيته سرية، يذكر اسم الرب في كل إخراجٍ
لسائل منوى زرع الرب بين فخذيك:

أن تحياً يعنى أن تخون إلهك؛ فكلُّ فعل من أفعال الحياة، كل فعل
يؤكدنا ككائنات حية، يتطلب إنتهاك وصايا ربك؛

ستحدث تلك الليلة مع الرائد جابيلان في ماخور، مع كل الرفاق
القدامى ولن تتذكر ما قالوه، تلك الليلة، لن تتذكر إن كانوا هم قد
قالوه، أو أنك أنت من قاله، بصوت باردٍ لن يكون صوت البشر: بل
الصوت البارد للسلطة وللمصلحة: نرغب في أفضل خير ممكن
للوطن: طالما ظل متمشياً مع رفاهيتنا الشخصية: لنكن أذكاء: يمكننا
الوصول إلى بعيد: فلنصنع الضرورى وليس المستحيل: فلنحدد مرة
وإلى الأبد كل أفعال القوة والقسوة التى يمكن أن تفيدنا مرة وإلى
الأبد: حتى لا نضطر لتكرارها: فلنشرع في وضع تدرُّج للمنافع حتى
يتذوقها الشعب: الثورة يمكن عملها بسرعة بالغة: لكنهم غداً
سيطالبوننا بالمزيد والمزيد والمزيد: وحينئذ لن يكون لدينا ما نقدمه إن
كنا قد فعلنا وأعطينا كل شيء: إلا توضيحتنا الشخصية وحدها: لماذا
نموت إن كنا لن نرى ثمار بطولتنا؟: فلنبق دائماً شيئاً احتياطياً: نحن
بشر ولسنا شهداء: كل شيء سيكون مسموحاً لنا به إذا حافظنا على
السلطة: إفقد السلطة وسوف يهتكوك: إنتبه لثروتنا: نحن شباب
لكننا محاطون بهالة مكانة الثورة المسلحة والمنتصرة: لماذا نتعارك؟:
لنموت من الجوع؟: إذا لزم الأمر فإن القوة على حق: والسلطة لا
تُقسَم:

وغداً؟ سنكون موتى أيها النائب كروث؛ فليُرتَّب من يخلقوننا
الأمور كما يستطيعون:

: domine non sum dignus, domine non sum dignus

نعم، رجلٌ يستطيع أن يتحدث مع الرب بالم رجلٍ يمكنه غفران

الخطيئة لأنه إرتكبها، قسيس له الحق في أن يكون كذلك لأن يؤسه
الإنسانى يتيح له ممارسة الخلاص في جسده هو قبل أن يعطيه
للآخرين: domine non sum dignus :

سترفض الذنب؛ لن تكون أنت مسئولاً عن المبدأ الأخلاقى الذى
لم تخلقه، الذى وجدته جاهزاً: كنت ترغب

ترغب

ترغب

ترغب

آه، لقد كانت سعيدة تلك الأيام التى قضيتها مع المعلم سباستيان
والتي لن تودّ تذكرها بعد، جالساً على ركبتيه، وأنت تتعلم تلك الأشياء
الأولية التى يجب البدء منها لكى تصبح رجلاً حراً، وليس عبداً
للوصايا التى كتبت دون إستشارتك: آخ، كانت سعيدة أيام التعلم تلك،
تلك الحرف التى علمك إياها لكى تستطيع كسب قوتك: تلك الأيام مع
الكور والمطارق، حين كان المعلم سباستيان يعود متعباً ويشعر فى تلك
الدروس من أجلك فقط، حتى يمكنك أن تصنع لنفسك قيمة فى
الحياة وتخلق قواعدك الخاصة: أنت المتمرّد، أنت الحر، أنت الجديد
والفريد: لن تودّ تذكره: هو الذى أمرك، وأنت مضيت إلى الثورة: لا
تخرج منى هذه الذكرى، لن يبلّغك:

لن تكون لديك إجابة على القانونين المتعارضين والمفروضين؛

أنت برىء،

أنت ستودّ أن تكون بريئاً،

أنت لم تختّر، تلك الليلة.

(١٩٢٧ : ٢٣ نوفمبر)

هو من نظر بعينه الخضراوين إلى النافذة وسأله الآخر إن كان لا يريد شيئاً فزّر هو عينه، ونظر بعينه الخضراوين إلى النافذة. عندئذ قام الآخر، الذى كان قد ظل حتى تلك اللحظة هادئاً جداً، جداً، بجذب المسدس بعنف من حزامه ووضع به بضربة فوق المنضدة: أنصت هو إلى صدى إهتزاز الأكواب والزجاجات ومدّ يده لكن الآخر كان قد إبتسم، قبل أن يتمكن هو من إعطاء إسم للإحساس الجسمانى الذى أثارته فى فم معدته الحركة المباغتة، الضربة وتأثيرها على تلك الأكواب الكريستال الزرقاء، وتلك الزجاجات البيضاء. لكن الآخر إبتسم ومرت سيارة مسرعة فى الزقاق، بين الصفير والشتائم بالأمّ وأضاءت مصابيحها رأس الآخر المستديرة. أدار الآخر ساقية المسدس وأشار إليه أن بها رصاصتين فقط؛ أدار من جديد، وضبط الزناد ووضع فوهة السلاح على صدغه. حاول هو أن يُشيع ببصره، إلا أن تلك الغرفة الصغيرة لم تكن بها نقطة ثابتة تجذب الإنتباه: الجدران العارية، المطلية بالأزرق والأرضية الحجرية المستوية والمناضد، والكرسيان، والرجلان. إنتظر الآخر حتى كفت العينان الخضراوان عن الدوران فى الغرفة وعادتا إلى المقبض، وإلى المسدس، وإلى الصدغ. كان يبتسم، لكنه يعرق، وهو أيضاً. حاول أن يميّز فى صمت تكتكة الساعة الموضوعة فى الجيب الأيمن للمعطف. ربما كانت تدقُّ أقل مما يدق قلبه؛ لم يكن لذلك أهمية، لأن انفجار طلقة المسدس كان يدوّى فى سمعه، من قبلها، وفى نفس الوقت كان السكون يسيطر على كل الأصوات الأخرى، بما فيها الصوت

المحتمل - الذى لم يرن بعد - لمسدس. إنتظر الآخر. جذب الآخر الزناد وضاعت تكة جافة ومعدنية فى السكون وفى الخارج استمر الليل كما هو، دون قمر. ظل الآخر بالسلاح مصوباً إلى صدغه وبدأ فى الإبتسام، فى القهقهة: إرتجف الجسد البدين من الداخل، مثل المهلبية، من الداخل لأنه لم يتحرك من الخارج. هكذا بقيا بضع ثوان ولم يتحرك هو أيضاً؛ الآن شم رائحة البخور التى صاحبتة منذ ذلك الصباح فى كل مكان واستطاع فقط من خلال الدخان المتخيل أن يميز وجه الآخر، الذى ظل يضحك من الداخل قبل أن يعاود وضع المسدس فوق المنضدة، ويفرد أصابعه المبططة، الصفراء ويدفع السلاح ببطء نحوه. كان يمكن للسعادة العكرة فى عينى الآخر أن تكون إيذاناً بدموع حبيسة؛ لم يرد هو التحقق من ذلك. ألمته فى معدته الذكرى، التى لم تصبح كذلك بعد، لذلك الشخص البدين والسلاح ملتصق بصدغه؛ أما الخوف لدى الآخر، الخوف المسيطر عليه فى المقام الأول، فقد قلص أمعاءه ومنعه من الكلام: ستكون تلك هى النهاية: أن يعثروا عليه فى هذه الغرفة مع البدين الميت، أن تكون هناك حجة ضده. كان قد تعرف على مسدسه هو، المحفوظ دائماً فى درج الصوان، دون أن ينتبه حتى الآن إلى أن البدين يُقرّيه منه بأصابعه القصيرة، والمقبض ملفوف فى ذلك المنديل الذى ربما كان قد إنزلق من يده إذا كان الآخر... لكن إذا كان لم ينزلق، فإن الإنتحار يكون واضحاً. بالنسبة لمن؟ قائد شرطة يموت فى غرفة خالية وعدوه فى مواجهته. من الذى تصرف فى من؟ فك الآخر حزامه وتجرع الكوب حتى آخره مرة واحدة. كان العرق يُقع إبطيه وينساب على عنقه. أصرت الأصابع، المشوّهة لفرط قصرها، على تقريب المسدس منه. ماذا سيقول؟ أنه قد برهن من جانبه على كل شيء؛ ألن يجبن هو؟ ألن يفعل حقاً؟ سأل هو ما الذى تمت البرهنة عليه فقال الآخر أن ما تمت البرهنة عليه هو أنه من جانبه لم يتأخر، أنه إذا وصل الأمر إلى

حد الموت فإنه لم يجبن، أنه لا يجب الاستمرار في جذب الخيط إلى الأبد، أن الأمور على هذا النحو. وإذا كان ذلك لم يقنعه، فلا يعرف ماذا يمكن أن يقنعه. كان ذلك برهاناً - قال له الآخر - على أنه هو يجب أن ينتقل إلى معسكرهم؛ فهل هناك واحدٌ من جماعته مستعدٌ لأن يثبت له ولو دفع حياته ثمناً أنهم يريدونه في ذلك الجانب؟ أشعل سيجارةً وقدم له أخرى وأشعل هو نفسه سيجارته وقرب عود الكبريت من وجه البدين الذي بلون القهوة لكن البدين أطفأه بنفخة وشعر هو بأنه محاصر. تناول المسدس وترك السيجارة في توازن هش على حافة الكوب، دون أن ينتبه إلى أن الرماد يسقط داخل التكيلاً* ويترسب في القاع. ضغط فوهة المسدس على صدغه ولم يحس بأي حرارة، رغم أنه تخيل أنه لابد أن يحس ببرودة وتذكر أن عمره ثمانية وثلاثون عاماً، لكن هذا لا يهم أحداً ولا يهم البدين بل ولا يهمه هو نفسه.

وفي ذلك الصباح كان قد إرتدى ملابسه أمام المراة البيضاء الضخمة في مخدعه وكان البخور قد وصل إلى أنفه لكنه تجاهل ذلك. كذلك تصاعدت من الحديقة رائحة ثمرة قسطل فوق تلك الأرض الجافة والنظيفة في هذا الوقت. رأى الرجل القوى، ذا الذراعين القويتين، والمعدة المليئة دون دهون، والعضلات الصلبة الملفوفة حول السرة الداكنة حيث ينتهي زغب العانة والمعدة. مرّ يداً على وجنتيه، وعلى الأنف المحطمة وعاودته رائحة البخور. إختار قميصاً نظيفاً من الصوان ولم ينتبه إلى أن المسدس لم يعد هناك وانتهى من إرتداء ملابسه وفتح باب المخدع. "لا وقت لدى؛ حقاً، لا وقت لدى. أقول لك لا وقت لدى".

كانت الحديقة قد زرعت نباتات زينة على شكل حدوة حصان

* tequila: شراب مسكر مكسيكى قوى يستخرج من الصبار الأمريكى - م.

وأزهار سوسن، مع أشجار ورد وشجيرات يحيط إطارها الأخضر بالمنزل ذى الطابق الواحد، المشيّد على الطراز الفلورنسى، بأعمدة رشيقة وأفاريز من الجصّ عند مدخل رواق البوابة. طُلِيَت الحوائط الخارجية باللون الوردى وفى داخل الصالونات، التى عبرها هو هذا الصباح، كان الضوء الباهت فى تلك الساعة يبرز الأشكال المرصّعة للمصابيح، وتماثيل المرمر، وستائر المخمل، والمقاعد العالية ذات القماش المطرّز، والفتريينات، والطلاء الذهبى لمقاعد الحب المزدوجة. لكنه توقف عند الباب الجانبى فى عمق الصالون، ويده فوق المقبض البرونزى ولم يُرد أن يفتح ويهبط.

"كان منزل أناس ذهبوا ليعيشوا فى فرنسا. إشتريناه بثمن بخس لكن الترميم كلفنا كثيراً. قلت لزوجى: دعنى أقوم بكل شيء، إترك كل شيء لى، فأنا أعرف كيف..."

قفز البدين من الكرسي، خفيفاً، ممتلئاً بالهواء وأزاح اليد التى تمسك بالمسدس: لم يستمع أحداً إلى الطلقة، لأن الوقت كان متأخراً وكانا وحيدين، نعم، ربما بسبب ذلك لم يستمع إليها أحد، ففاصت فى حائط الغرفة الأزرق بينما ضحك قائد الشرطة وقال يكفى ألعاباً لهذه المرة، يكفى ألعاباً خطيرة: لماذا، إذا كان يمكن تسوية كل شيء بسهولة بالغة؟ بسهولة بالغة، فكّر هو؛ حان الوقت لتسوية الأمور بسهولة؛ ألن أحيا أبداً فى هدوء؟

- لماذا لا تتركونى فى سلام؟ لم لا؟

- لكن هذا أسهل شيء، يا زمّل*. الأمر بيدك.

- إلى أين وصلنا؟

لم يصل؛ بل أحضروه؛ ورغم أنهم كانوا فى وسط المدينة، فقد

* زمّل: صيغة تحبّب من كلمة زميل، شائعة فى أوساط الجنود وما شابه - م.

دوّخه السائق، انحرف إلى اليسار، انحرف إلى اليمين، حوّل ذلك التخطيط الإسباني، ذا المستطيلات، إلى متاهة ذات شفاطات غير محسوسة. كان ذلك كله غير محسوس، مثل اليد القصيرة والهشة للآخر، الذي إنتزع منه السلاح، وهو يضحك على الدوام، وعاد الجلوس، ثقيلًا مرةً أخرى، بدينًا، عرقانًا، وعيناه تلمعان بالشرر.

- ألسنا نحنُ الناكحين الملاعين؟ أتعرف؟ اختر أصدقاءك دائماً من بين الناكحين الكبار، لأنك معهم لن ينحكك أحد. هيا نشرب.

تبادلا الأنخاب وقال البدين أن هذا العالم ينقسم إلى ناكحين وحمقى وأن الوقت حان للإختيار. وقال أيضاً أنها ستكون خسارة أن لا يعرف النائب - هو - كيف يختار في الوقت المناسب، لأنهم شديداً الترابط، أناس طيبون جداً يمنحون الجميع فرصة الإختيار، إلا أنهم ليسوا جميعاً بحيوية النائب، يشعرون بأنهم ذكور جداً ثم يقومون بانتفاضة مسلحة، بينما من السهل جداً تغيير المرء لموقعه كأنه لا يرغب في ذلك ليصبح في الجانب الصحيح. هل هذه أول مرة يهرب فيها؟ إذن أين قضى السنوات الخمس عشرة الأخيرة؟ نَعَسَ صوته، البدين مثل لحمه، ذو الهسيس والمثلج مثل حيّة: حنجرة ذات حلقات منقبضة، يُزَيِّنُها الكحول والسيجار: - ألا يعجبك هذا؟

حدّ الآخرُ بصره فيه وواصل هو الترييت على مشبك الحزام دون أن ينتبه، حتى سحب أصابعه لأن الحلقة الفضية ذكّرتَه ببرودة أو حرارة المسدس وأراد أن يحرّر يديه.

- غداً سيُعدمُ الرهبان رمياً بالرصاص. أقول لك هذا أيضاً

كبرهان على الصداقة، لأنني واثق أنك لست من أولئك الرخوين...

أبعدا الكرسيين. توجّه الآخر إلى النافذة وطرق بأصابعه بقوة على الزجاج. قام بإشارةٍ ثم مد يده إلى الرجل. بقى الآخر عند الباب بينما هبط هو من البرج الدائري العطن الرائحة والمظلم وقلب صندوق

قمامة وفاح كل شيء برائحة قشر برتقال متعفن، وأوراق صحف مبتلة. رفع الرجل الذى كان بجانب الباب إصبعاً إلى قبعته البيضاء وأشار له أن طريق ١٦ سبتمبر يقع إلى ذلك الجانب.

- ماذا تعتقد؟

- أننا يجب أن تنتقل إلى جانب الآخر.

- أنا لا.

- وأنت؟

- أسمعكم.

- ألا يسمعون أحد آخر؟

- إن لاساتورنو امرأة موضع ثقة ولا تخرج من منزلها شائعة...

- إذا لم تخرج الشائعات، فسوف أخرجها أنا...

- صنعنا أنفسنا مع زعيمنا ومع زعيمنا عليهم أن يحطمونا.

- لقد ضاع. نصب له الجديد أحبولة محكمة تماماً.

- وماذا تقترح؟

- يجب أن نكون حاضرين، هذا ما أقوله.

- عليهم أولاً أن يقطعوا أذنى. أن نكون أو لا نكون.

- كيف؟

- هناك طرق.

- لكن، ليس بطريقة مكشوفة، أليس كذلك؟

- أكيد. من المعارض...

- لا، لا، أنا لا أقول شيئاً.

- كأنها نعم ولا فى نفس الوقت...

- أقول يجب أن نكون جميعاً، مثل ذكور حقيقيين، مع هذا أو مع

الآخر...

- استيقظ، يا سيدى الجنرال، فالنهار يطلع.

- إذن؟
- حسناً... الأمر يقف عند هذا الحد. كل واحد يعرف إلى أين يمضى.
- حسناً... من يدري.
- أنا أقول.
- أعتقد صراحةً أن زعيمنا لن يتقدم؟
- يبدو لى، يبدو لى...
- ماذا؟
- لا، فقط يبدو لى.
- وأنت، فى النهاية؟
- وأنا يبدو لى كذلك.
- المهم فى ساعة الحقيقة ألا تتذكروا حتى أننا تناقشنا اليوم.
- من سيتذكر أى شىء؟
- أقول، إذا كان ثمة شكوك.
- الشكوك اللعينة.
- إصمت أنت. أحضر لنا شيئاً، إذهب.
- الشكوك اللعينة، يا سيدى.
- إذن، لن نمضى سوياً؟
- سوياً نعم، لكن كل واحد بطريقته...
- ... وفى النهاية سيستمر توزيع الثمرة فى نفس المكان...
- فى نفس المكان. هذا صحيح.
- ألن تأكل، يا سيدى الجنرال خيمينث؟
- كل واحد يعرف دوره.
- والآن، إذا أفلت لسان أحد...
- لكن، فيم تفكر، يا أخى؟ السنا جميعاً إخوة هنا؟

- أنا أقول أن نعم، لكن بعد ذلك يبدأ المرء فى تذكر الأم التى أنجبته، وبصراحة، تبدأ الشكوك...

- الشكوك اللعينة، كما تقول لاساتورنو...

- اللعينة جداً، يا سيدى الجنرال جايبيلان.

- ويتذكر المرء فقط.

- يمضى المرء ويقرر وحده، وينقضى الأمر.

- لكن المرء يريد إنقاذ نفسه، هيه؟

- بشرف، يا سيدى النائب، بشرف دائماً.

- بشرف، يا سيدى الجنرال، هذا أقل ما يجب.

- إذن...

- هنا لم يحدث شيء.

- لا شيء، لا شيء مطلقاً، لا شيء.

- لكن هل حقاً سينتزعون ضرس زعيمنا؟

- أيهما، زعيمنا السابق أم الحالى؟

- السابق، السابق...

Chicago, Chicago, that toddlin'town: رفعت لاساتورنو إبرة

الفونوغراف وشفقت: - يا بنات، يا بنات، إنتباه...، بينما وضع هو

الشريط فى الجهاز وأزاح الستائر، ضاحكاً، ولم يَرَهُنَّ إلاً جلسة،

مُنْعَكِسَات فى المرآة المبقعة لتلك الصالة، سمراوات لكنهن يضعن

البودرة والكريم، وطابع الحسن المزيف مرسومٌ فوق الخدود، وفوق

الصدور، وبجانب الشفاه، بأخفاف الساتان والجلد، والجونلات

القصيرة، والجفون المائلة إلى الزرقة ويد ثرييرو* فى ثياب الأحد

وعلى وجهه البودرة هو أيضاً: - هديتى، يا سيدى؟

* ثرييرو: سريروس: حارس الجحيم. كلب ذو ثلاث رؤوس يحرس جهنم فى

الميثولوجيا. واضح أنها كنية للبواب - م.

كان الأمر سيمضى على ما يرام، كان هو يعرف ذلك، حين
تحسس بطنه بيده اليمنى وتوقف فى الحديقة الصغيرة أمام دار البغاء
ليتنفس الندى الزغبى وطزاجة الماء فى نافورة المخمل الطحلبى:
حسناً، لابد أن الجنرال خيمينث قد نزع الآن نظارته الزرقاء ولا بد أنه
يفرك جفنيه اليابسين، وتُتَفِّ عُمَاص إلتهاب الملتحمة الذى يكسو
ذقته: سيطلب أن يخلعوا له حذاءه العسكرى، أن يخلع له أحد الحذاء
العسكرى لأنه مُتَعَب ولأنه متعود على أن يخلعوا له الحذاء وسوف
يضحك الجميع لأن الجنرال سينتهز فرصة وضع الفتاة وهى تخلع له
الحذاء ليرفع جونلتها ويكشف الأفخاذ الصغيرة المستديرة الداكنة
المكسوة بحرير أرجوانى، رغم أن الآخرين سيفضلون المنظر الغريب
لتلك العينين المحجوبتين دائماً، والمفتوحتين مرة واحدة مثل محارتين
ضخمتين بلا طعم وسيشرع الجميع، الأصدقاء، الإخوان، الزملاء، فى
فرد أذرعتهم ويجعلون فتيات ماخور لاساتورنو يخلعن لهم السترات،
لكنهن سيدرن كالتحلات حول من يرتدون السترة العسكرية، كأنما لا
تعرف أى واحدةٍ منهن ماذا يمكن أن يكون تحت الرداء العسكرى،
والأزرار ذات النسر والحية، والنجوم الذهبية: كان قد رآهن تتقافزن
هكذا، نديّات، خرجن لتوهن من الشرنقة، وأذرعهن الخلاسية مرتفعة
فى الهواء وفى أيديهن علبة البودرة والبدّارة، تبيّضن رؤوس الأصدقاء،
الإخوان، الزملاء المضطجعين على الأسيرة وسيقانهم مفتوحة
وقمصانهم مبقعة بالكونياك، وصدورهم مبلولة وأيديهم جافة، بينما
يتسلل إيقاع الشارلستون، بينما تأخذن فى نزع ثيابهم ببطء وفى تقبيل
كل جزءٍ عار وتتصايحن حين يمدون أصابعهم: نظر إلى أظافره
بأطرافها البيضاء التى يقال أنها دليلٌ على الكذب وإلى هلال السبابة
ونبح الكلب قريباً منه. رفع ياقة جاكته وسار نحو منزله، رغم أنه كان
يُفضّل العودة إلى المكان الآخر لينام تعانقه الأجساد المكسوة بالبودرة

ويتخلص من ذلك الحامض الذى يقتل أعصابه ويجبره على البقاء وعيناه مفتوحتان، ناظراً بلا ضرورة إلى تلك الصفوف من المنازل الخفيضة، الرمادية، المحاطة بشرفات غاصّة بأصص البورسلين والزجاج، إلى تلك الصفوف من النخيل الجاف والمترب للطريق، وهو يشم بلا ضرورة بقايا الذرة الخضراء فى الفلفل الأحمر والخل. مرّ يده على وجنتيه. بحث بين مجموعة المفاتيح غير المريحة. ستكون هى موجودة بأسفل فى هذه اللحظة: هى التى تصعد وتهبط السلالم المفروشة بالسجاد دون أن تصدر صوتاً والتى تقزع دائماً عندما تراه يدخل: - آى! لقد أفرعتى. لم أتوقعك. لا، لم أتوقعك مبكراً هكذا! أقسم لك أننى لم أتوقعك مبكراً هكذا - وتساءل ما الدافع الذى يجعلها تتخذ مواقف التواطؤ لتجعله هو المذنب. لكن تلك أسماء! أما اللقاءات، الانجذاب المرفوض قبل أن يبدأ حركته، الرفض الذى كان يقربهما أحياناً، فليس لها إسم بعد، لا قبل ولادتها ولا بعد إنتهائها، لأن كلا الفعلين هما نفس الشيء. ذات مرة، فى الظلمة، إلتقت أصابعه وأصابعها على إفريز السلم وأبعدت هى يده وأشعل هو الضوء حتى لا يتعثر، لأنه لم يكن يعرف أنها تهبط بينما يصعد هو، لكن وجهها لم يكن يحمل شعور اليد وأطفأت هى الضوء وأراد هو أن يسمى ذلك شذوذاً لكن ذلك لم يكن هو الإسم، لأن العادة لا يمكن أن تكون شاذة، بقدر ما تكف عن كونها إستثنائية وصادرة عن تفكير مسبق. كان يعرف شيئاً، أملاً، ملفوفاً فى حرير وملاءات كتانية، موضوعاً للمس لأن أضواء المخدع لم تكن تضاء أبداً فى تلك اللحظات: فقط فى تلك اللحظة على السلم وحينئذ لم تخف هى وجهها، ولم تتظاهر بذلك. كانت مرة واحدة، لم يكن من الضرورى تذكرها لكنها رغم ذلك قلّصت معدته برغبة حلوة - مرة فى أن تتكرر. فكر فى ذلك وأحسّه عندما تكرّرت، حين تكرّرت ذلك الفجر ذاته

ولست نفسُ اليد يدها، هذه المرة على الإفريز الذى يؤدى إلى قبو المنزل، رغم أن ضوءاً لم يُشعل وسألته هى فقط: - عم تبحث هنا؟ قبل أن تصحّح نفسها وتكرّر بنفس الصوت: - آى! لقد أفرعتى. لم أتوقعك. أقسم لك أنتى لم أتوقعك مبكراً هكذا: - نفس الصوت، دون تهكم وتتفّس هو تلك الرائحة المُجسّدة تقريباً، تلك الرائحة ذات الكلمات، ذات الهسيس.

فتح باب القبو ولم يتبيّنه فى البداية، لأنه بدا أيضاً أنه مصنوع من البخور؛ أمسكت هى بذراع الضيف السّرى الذى حاول إخفاء طيّات العباءة بين ساقيه وتبديد الرائحة المقدّسة بتلويح ذراعيه، قبل أن ينتبه إلى لا جدوى كل شيء - حمايتها، والحركات المسرحية السوداء - ويحنى رأسه فى إشارة تحاكي الختام لا بد أنها أراحته وأكدت له أنه، من أجل رضاه هو إن لم يكن من أجل رضى الشاهدين اللذين لم يكونا ينظران إليه، بل إلى بعضهما، قد أدّى الأفعال المكرّسة للإذعان. أراد، تضرّع أن ينظر إليه الرجل الذى دخل لتوّه، أن يتعرّف عليه: بنظرة جانبية، رأى القس أنه لا يمكنه إنتزاع عيني الرجل عن المرأة، ولا عينيها عنه، مهما احتضنت هى، وحجبت مفوّه الرب هذا الذى أحسّ فى تقلص الفدة المرارية، فى الصّفرة التى سرت فى عينيهِ ولسانه، إرهاباً برعب لن يستطيع، إذا حانت لحظته - اللحظة التالية، فلن تكون ثمة أخرى - أن يخفيه. فكر الكاهن أنه لم تبق أمامه سوى هذه اللحظة، لقبول مصيره، لكن فى هذه اللحظة لم يكن ثمة شهود. كان ذلك الرجل ذو العينين الخضراوين يرجو: يرجوها أن ترجوه، أن تتجاسر على الرجاء، أن تجرّب مع لا أو نعم القدر ولم تستطع هى الرد؛ لم تعد تستطيع الإجابة. تخيل القس أنها، ذات يوم آخر، حين ضحّت بهذه الإمكانية للإجابة أو الرجاء، كانت قد ضحّت منذ ذلك الحين بهذه الحياة، حياة الكاهن. أبرزت الشموع دكنة الجلد،

المادة التى تحفظ الشفافية والبريق؛ نَسَخَتْ الشموعُ فى توأم أسود كلَّ بياض الوجه، والعنق، والذراعين. إنتظرَ حتى ترجوه. رأى إنقباض تلك الحنجرة التى تودُّ التقبيل. تنهد القس: لن ترجوه هى ولم تبق أمامه هو، فى مواجهة الرجل ذى العينين الخضراوين، سوى هذه اللحظة للقيام بإذعانه، لأنه لن يستطيعَ غداً، سيكون ذلك مستحيلًا عليه دون شك، غداً سينسى الإذعانُ اسمه وسيُدعى أحشَاءً والأحشَاءُ لا تعرفُ كلمات الرب.

نام حتى الظهيرة. أيقظته موسيقى بيانولا فى الشارع ولم يشغل نفسه بالتعرف على الأغنية المعزوفة، لأن صمت الليلة السابقة - أو ذكراها، التى هى الليل والصمت - فَرَضَ لحظاتٍ طويلةً مَيَّتَةً تقطع اللحن ليبدأ من جديدٍ على الفور الإيقاعَ البطيء والحزين، الذى ينساب من النافذة الموارية، قبل أن تعاودَ مقاطعته هذه الذكرى الخالية من الأصوات. رن التليفون فرفع السماعه واستمع إلى الضحكة المكتومة للآخر وقال:

- حسناً.

- ها قد أصبح لدينا فى مقر القيادة، يا سيدى النائب.

- حقاً؟

- السيد الرئيس على علم.

- إذن...

- أنت تعرف. لفتة. زيارة. دون حاجةٍ لأن تقول أى شئ.

- فى أى ساعة؟

- مرّ هنا حوالى الثانية.

- سنتقابل.

إستمعت إليه من المخدع المجاور وشرعت فى البكاء، ملتصقةً بالباب، ويعدّها لم تعد تسمع شيئاً وجفّفت خديها قبل أن تجلس

أمام المرأة.

إشتري الصحيفة من أحد البائعين المتجولين وحاول قراءتها بينما يقود السيارة، لكنه لم يتمكن إلا من إلقاء نظرة على العناوين التي تتحدث عن الإعدام بالرصاص لمن حاولوا اغتيال الزعيم الآخر، المرشح. تذكره في اللحظات العظيمة، في الحملة ضد بيبا، في الرئاسة، حين أقسم الجميع على الولاء له ونظر إلى تلك الصورة للأب پرو، وذراعه مفتوحتان، وهو يتلقى الرصاص. سارت إلى جواره الأغنية البيضاء للسيارات الجديدة، ومرّت الجونلات القصيرة وقبعات الأجراس للنساء والبنطلونات المنفوخة الشبيهة بالسحالي السائدة الآن وماسحو الأحذية الجالسون على الأرض، حول نافورة الضفدعة، لكن لم تكن المدينة هي التي تمر أمام هذه النظرة الزجاجية والثابتة، بل الكلمة. تذوقها ورآها في النظرات السريعة التي تتقاطع مع نظرتي من الأرصفة، رآها في الأوضاع الجسمانية، في تقطيبات الوجوه، في الإيماءات العابرة، في هز الأكتاف، في الإشارات البذيئة للأصابع. شعر بأنه حيّ بصورة خطيرة، مشدوداً إلى عجلة القيادة، تسبب له الدوار الوجوه، والإيماءات، والأصابع البذيئة في الشوارع، بين تأرجحين للبندول. يجب أن يفعل ذلك اليوم إذ في الغد، وبشكل حتمي، سيقوم المهانون اليوم بإهانته هو. أعشى بصره إنعكاس ضوء في زجاج فرفع يده إلى جفنيه: لقد أحسن الاختيار دائماً، إختار الناكح الأكبر، الزعيم الصاعد ضد الزعيم الأقل. إنفتح الميدان الرئيسى الشاسع، بمنصات البيع تحت البواكى ودوت أجراس الكاتدرائية برنين البرونز العميق معلنة الثانية بعد الظهر. أظهر بطاقة النائب للحارس على مدخل قصر الرئاسة. أبرز شتاء الهضبة البللورى الخطوط الظلية الكنائسية للمكسيك العتيق وهبطت جماعات من الطلبة في فترة الامتحانات عبر شارعى الأرجنتين وجواتيمالا.

أوقف السيارة فى الفناء. صعد فى المصعد الشبيه بالقفص. عبر صالونات خشب الورد والثريات المضيئة وجلس فى قاعة الإنتظار. وفيما حوله، لم تكن الأصوات الخفيضة ترتفع إلا لتتطق بحماسة زائفة الكلمتين:

- السيّد الرئيس.

- السيّد الرئيس.

- السيّد الرئيس.

- النائب كروث؟ تفضّل.

مدّ له البدين ذراعيه وربّت الإثنان على ظهرى بعضهما وعلى الخصرين وعلى المؤخرتين وضحك البدين كما يفعل دائماً، من الداخل وإلى الداخل وصنع بسبابته إشارة إطلاق النار على الرأس وعاد الضحك دون صوت، بالاهتزاز الصامت لكرشه وخدّيه الداكنين. زرّ بصعوبة ياقة الرداء العسكرى وسأله إن كان قد قرأ الصحف فقال هو نعم، أنه الآن يفهم اللعبة لكن كل هذا لا أهمية له وأنه جاء فقط ليؤكد للسيد الرئيس ولاءه، ولاءه غير المشروط، وسأله البدين إن كان يرغب فى شىء فحدثه هو عن بعض الأراضى القفر فى ضواحي المدينة، لا تساوى الكثير اليوم لكنها مع الزمن يمكن أن تكون مُريحة ووعدته الآخر بتسوية المسألة لأنهم فى نهاية المطاف زملاء، إخوان. وقد ظل السيد النائب يناضل، هووه، منذ عام ١٣ وأصبح له الحق فى أن يعيش آمناً وخارج تقلبات السياسة: قال هذا وربّت على ذراعه وعاد الطبطبة على ظهره ومؤخرته لتكريس صداقتهما. إنفتح الباب ذو المقابض المذهّبة وخرج من المكتب الجنرال خيمينث، والمقدم جابيلان وأصدقاء آخرون كانوا الليلة الماضية فى دار لاساتورنو ومرّوا دون أن يروه، ورؤوسهم مطأطأة وعاد البدين الضحك وقال له أن كثيرين من أصدقائه قد جاءوا ليضعوا أنفسهم رهن إشارة السيد

الرئيس فى ساعة الوحدة هذه ومدّ ذراعه ودعاه للدخول.
فى عمق المكتب، بجوار ضوء مائل إلى الخضرة، رأى تلك العينين
الثاقبتين فى عمق الجمجمة، عيني النمر المتحفز هاتين وأحنى رأسه
وقال: - تحت أمرك، يا سيدى الرئيس... فى خدمة سيادتك دون
شروط، أؤكد لسيادتك، يا سيدى الرئيس...

أنا أشم هذا الزيت القديم الذين يلطّخون به عينيّ، وأنفى،
وشفتيّ، وقدميّ الباردتين، ويديّ الزرقاوين، وفخذيّ، قرب عضويّ
وأرجو أن يفتحوا النافذة: أريد أن أتفسّس. أطلق هذا الصوت الأجوف
من منخاريّ وأتركهم يفعلون وأشبكُ ذراعيّ فوق معدتيّ. كتان الملاءة،
طزاجتها. هذا حقاً أمرٌ هام. ماذا يعرفون هم، كاتالينا، والقس،
وتيريسا، وخيراردو؟
- دعونى...

- ماذا يعرف الطبيب. أنا أعرفه أفضل. إنها سخرية أخرى.
- لا تقولى شيئاً.
- تيريسيتا، لا تعارضى أباك... أقصد، أمك... ألا ترين أن...
- ها. أنت مسئولة مثله تماماً. أنت لأنك ضعيفة وجبانة، وهو
لأنه... لأنه...
- كفى. كفى.

- مساء الخير.

- من هنا.

- كفى، بحق الرب.

- تفضلوا، تفضلوا.

فيم كنت أفكر؟ ماذا كنت أتذكر؟

- ... مثل متسولين، لماذا يُجبرُ خيراردو على العمل؟

ماذا يعرفون هم، كاتالينا، والقس، وتيريسا، وخيراردو؟ ماذا ستكون أهمية حركاتهم المسرحية الدالة على الحِداد أو عبارات التكريم التي ستظهر في الصحف؟ منذ الذي ستكون لديه أمانة أن يقول، مثلما أقولُ الآن، أن حبي الوحيد كان إمتلاك الأشياء، ملكيتها الحسّية؟ هذا هو ما أحبه. الملاة التي أريت عليها. وكل شيء آخر، كل ما يمر الآن أمام عينيّ. أرضية من المرمز الإيطالي، تتخلله عروقٌ خضراء وسوداء. الزجاجات التي تحتفظ بصيف تلك الأنحاء. اللوحات القديمة، ذات الورنيش المتقشر، التي تلتقط في بقعة واحدة ضوءَ الشمس أو ضوء القناديل، التي تُتيح تلمّسها ببطءٍ بالنظر واللمس، وأنا جالسٌ فوق أريكةٍ من الجلد الأبيض بنقوش ذهبية، وكأس الكونياك في يدي والسيجار في الأخرى، مرتدياً بذلة سموكنج خفيفة، من الحرير، وخفٍ من الجلد الناعم مزروع فوق سجادة سميكة وصامتة من الصوف. هنالك يتملّكُ المرء المشهدَ ووجوه الرجال الآخرين. هنالك، أو جالساً في الشرفة في مواجهة المحيط الباسيفيكي، ناظراً إلى غروب الشمس ومُرَدِّداً بكل الحواس، بأشد الحواس توتراً، آه نعم، بأشد الحواس عدويةً، تقدّم وتراجع، وإحتكاك تلك الأمواج المفضضة فوق الرمال النديّة. أرضٌ. أرضٌ يمكنُ ترجمتها إلى نقود. قطعُ أرضٍ مربّعة في المدينة تبدأ في الإرتفاع فوقها غابة دعامات البناء. أراضٍ خضراء وصفراء في الريف، الأفضل دائماً،

قربَ السدود، يجتاحها طنين الجرارات. أراض رأسية فى الجبال المنجمية، خزائن تقود داكنة. آلات: تلك الرائحة اللذيذة لآلة الطباعة التى تتقيأ أوراقها بإيقاع متسارع...

" - إيه، دون أرتيميو، هل تحس بتوعك؟

" - لا، إنها الحرارة. هذا القيظ. كيف حالك يا مينا؟ هل تتفضلين بفتح النوافذ؟
" - حالا..."

آه، أصوات ضوضاء الشارع. فجأة. لا يمكن فصل بعضها عن البعض الآخر. آه، أصوات ضوضاء الشارع.

" - ماذا تريد، دون أرتيميو؟

" - مينا، أنت تعرفُ بأى قدر من الحماس دافعنا هنا، حتى اللحظة الأخيرة، عن الرئيس باتيستا. لكن لما لم يعد الآن فى السلطة، لم يعد الأمر سهلاً، وأقل من ذلك سهولة الدفاع عن الجنرال تروخييو، رغم أنه يظل فى السلطة. أنت تمثل الإثنين ولا بد أنك تفهم... الأمر مُرهق...

" - حسناً، لا تشغل بالك، دون أرتيميو، سأعمل على تسوية الأمر. لكن مع كل هؤلاء المنهوبين... وإذا كنا نتحدث عن هذا، فأنا أحضر لك الآن بضع أوراق تشرح عمل رجل الخير*... هذا كل شيء...

" - وكيف لا. إتركها لى. آه، يا دياث، حسنٌ أنك جئت. إنشر هذا فى صفحة الافتتاحية بتويع تختصره... نهارك سعيد، مينا، أنتظر أخبارك..."

أخبارك. أخبار. أنتظر أخبارك. أخباراً من شفتى البيضاوين

* Benefactor: لقب الدكتاتور تروخييو - م.

آآى، يداً، أعطونا يداً، نبضاً آخر يُحيى نبضى، شفاه بيضاء...
- أنا أحملك الذنب.

- هل يُريحك هذا؟ إفعليه. لنعبر النهر على صهوة الجياد. لنعد
إلى أرضى. أرضى.

- ... نريد أن نعرف أين...

أخيراً، أخيراً تمنحانى لذة المجىء، راكعتين لحماً وشحماً، لتطلبيا
منى هذا. القس توقع ذلك. لأن شيئاً لا بد أنه يدور حولى على مقربة
شديدة حتى تجيئان بدورهما إلى رأس مخدعى بذلك الارتجاف الذى
لا يغيب عن إنتباهى. تحاولان أن تتبئنا سخرتتى، هذه السخرية
الأخيرة التى طالما تلذذت بطعمها وحيداً، هذا الإذلال الحاسم الذى
لن أتمكن من الاستمتاع بعواقبه النهائية، لكن إرتعاشاته الأولية تسرّنى
فى هذه اللحظة. ربما سيكون ذلك هو الدفء الأخير للإنتصار...

- أين... - أغمغم بعدوبة بالغة، بتصنع بالغ... - أين... أتركانى
أفكر... تيريسا، أظننى أتذكر... أليس هناك صندوق من الماهوجنى...
أحتفظ فيه بالسيجار...؟ له قاع مزدوج...

لا أحتاج إلى إكمال كلامى. تنهض الإثنتان وتجريان إلى الطاولة
الحديدية الضخمة حيث تعتقدان أننى أحياناً، بالليل، أقضى ساعات
الأرق فى قراءة أشياء: بوذهما أن يكون الأمر كذلك. تقلبان أدراجاً،
وتبعثران أوراقاً وتعثران، أخيراً، على صندوق الأبنوس. آه، إذن فهى
هناك. هناك أخرى. أم أخذتاها. لا بد أن أصابعهما قد فتحت بعجلة
القاع الثانى، صاحبتين إياه من القاعدة بذلك الاحترام. لا شىء هناك.
متى أكلتُ آخر مرة؟ تبوّلت منذ وقت طويل. لكن الأكل. تقيأت. لكن
الأكل.

" - السكرتير المساعد على التليفون، دون أرتيميو..."

أسدلوا الستائر، أليس كذلك؟ الوقت ليل، أليس كذلك؟ هناك

نباتات تحتاج إلى ضوء الليل لتُزهر. تنتظر حتى تظهر الظلمة. اللبلاب يفتح بتلاته عند الغروب. اللبلاب. فى ذلك الكوخ كان ثمة شجرة لبلاّب، فى الكوخ بجوار النهر. كانت تتفتح عند حلول المساء. نعم.

" - شكراً، سنيوريتا... حسناً... نعم، أنا أرتيميو كروث. لا، لا، لا، ما من مصالحة مجدية. إنها محاولة واضحة لإسقاط الحكومة. ها قد أفلحوا فى جعل النقابة بكاملها تترك الحزب الرسمى؛ وإذا استمر ذلك، على ماذا ستستندون، يا سيدى السكرتير المساعد؟... نعم... هذا هو الطريق الوحيد: إعلان بطلان الإضراب، إرسال الجنود إليهم، تحطيمهم بالهروات وسجن قاداتهم... كيف لا تكون المسألة خطيرة، يا سيدى... "

الميموزا أيضاً، أذكرُ أن الميموزا أيضاً لها مشاعر؛ يمكنها أن تكون حساسة وخجولة، عفيفة ونابضة، حية، هذه الميموزا...

" - ... نعم، مؤكد... ثمة شيء آخر، حتى نتحدث بوضوح: إذا أظهرتم حضراتكم أنكم ضعفاء، فإننى أنا وشركائى سنودع رؤوس أموالنا خارج المكسيك بوضوح. نحن بحاجة إلى ضمانات. إسمع، ماذا يمكن أن يحدث إذا هربت من البلاد خلال أسبوعين مائة مليون دولار، مثلاً؟... إيه؟... لا، الآن أفهم. هذا ما كان ينقصنا!..."

خلاص. إنتهى. آم. كان هذا كل ما هناك. كان هذا كل ما هناك؟ من يدري. لا أتذكر. منذ زمن لا أستمع إلى أصوات جهاز التسجيل هذا. منذ زمن وأنا أظهار وأنا أفكر فى الحقيقة فى أشياء يطيب لى أن أكلها، نعم، التفكير فى الطعام أهم لآتنى لم آكل منذ ساعات طويلة ويفصل ياديا الجهاز عن التيار وأبقيت عينيّ مغمضتين ولا أدري ماذا يظنون، ماذا تقول كاتالينا، وتيريسا، وخيراردو، والطفلة - لا، جلوريا خرجت، ذهبت منذ برهة طويلة مع ابن ياديا، إنهما يتباوسان فى

الصالة، منتهزين فرصة عدم وجود أحد - لأننى أظل وعينى مغلقتين ولا أفكر سوى فى ضلوع الخنزير، فى لحم الظهر المحمّر، فى الشواء، فى الديوك المحشيّة، فى أنواع الحساء التى تعجبني كثيراً، تقريباً بقدر ما تعجبني أنواع الحلوى، آه نعم، كنت دائماً مفرماً بالحلوى والحلوى هنا لذيذة المذاق، حلوى اللوز والصنوبر، حلوى الكاكاو واللبن الرائب، آه، آه، واللبن المحروق أيضاً، حلوى لبن ثامورا، أفكر فى حلوى لبن ثامورا، والفواكه المسكّرة، وسمك الوقار، فى سمك القاروس، وسمك موسى، أفكر فى المحار والكابوريا.

- لنعبر النهر على صهوة الجياد. ونصل حتى الضفة الرملية والبحر. فى بيراكروث.

فى الصندَفِيَّاتِ والسُّبُّيطِ، فى الأخطبوط وفواكه البحر، أفكر فى البيرة، المرّة كالبحر، البيرة، أفكر فى لحم غزلان يوكاتان، فى أنتى لست عجوزاً، لا، رغم أنتى كنت عجوزاً ذات يوم، أمام مرآة، وفى الجبن الروكفور، كم أستطيعه، أفكر، أريد، كم يخفّف عنى هذا، كم يضجّرنى الإستماع إلى صوتى الخاص الدقيق، الملىء بالتلميحات، التسلطى، الذى يلعب نفس هذا الدور، دائماً، يا للسأم، بينما كان يمكننى أن أكل أكل: أكل، وأنام، وأضاجع والباقى، ماذا؟ ماذا؟ ماذا؟ من يريد أن يأكل ينام يضاجع بنقودى؟ أنت يا ياديبا وأنت يا كاتالينا وأنت يا تيريسا وأنت يا خيراردو وأنت يا باكيتو ياديبا، هل تدعى هكذا؟ لا بد أنك الآن تأكل شفتى حفيدتى فى ظلمة صالتى أو هذه الصالة، أنت الذى مازلت شاباً، لأننى لا أعيش هنا، أنتما شابان، أنا أعرف كيف أعيش جيداً، لهذا لا أعيش هنا، أنا عجوز، هه؟، عجوز ملىء بالوساوس، له الحق فى أن تكون له وساوس لأنه قد هُتِكَ، أترون؟، وهو يهتك الآخرين، إختار فى الوقت المناسب، مثل تلك الليلة، آه لقد تذكرتها قبلاً، تلك الليلة، تلك الكلمة، تلك المرأة: أعطونى

طعاماً: لماذا لا يعطوننى طعاماً: إغريوا: آه، ألم: إغريوا: إهتكوا أمكم:

أنت ستطبقها: إنها كلمتك: وكلمتك هي كلمتى: كلمة شرف:
كلمة رجل: كلمة عَجَلَة: كلمة طاحونة: لعنة، تحية مقصودة، مشروع
حياة، إنتماء، ذكرى، صوت اليائسين تحرير الفقراء، أمر ذوى النفوذ،
دعوة إلى النزاع وإلى العمل، نقشٌ للحب، علامة على المولد، تهديدٌ
وسخرية، كلمة شهادة، رفيقة للعيد وللسُّكر، سيفُ الشجاعة، عرشُ
القوة، قمةُ المداهنة، شعارُ السلالة، طوقُ نجاة الحدود، خلاصة
التاريخ: شارةُ المكسيك ورمزه: كلمتك:*

* الكلمة التى يكرّس لها فوينتس هذا المقطع بكامله لمحوريتها فى الوعي - واللاوعي -
المكسيكى والتى يقول أنها "شعار المكسيك ورمزه" هى كلمة chingada بمعانيها
واشتقاقاتها البالغة الإتساع. وهى من الفعل chingar الذى يعادل تقريباً الفعل
الإنجليزى to Fuck، لكنها تحمل ظلالاً أشد تعقيداً وتشابكاً نتيجة تاريخ المكسيك.
وقد أطلقت (كصفة) على مالىنشى أو مالىنالى التى كانت عبدة لدى هنود المايا ثم
أهدوها إلى هرنان كورتيس فاتح المكسيك فأصبحت عشيقته ومترجمته وغير اسمها
إلى مارينا. وكسبت فى هذا الوضع الجديد عداًء أهل البلاد. وتحمل الكلمة معانى
الإنتهاك والإغتصاب والفحش والإجبار والخديعة وليس مجرد الفعل الجنسى. وتشير
إلى عمليات التهجين القسرى والعنيف والمتابع لثقافات وأجناس عديدة على أرض
المكسيك. فالمايا - مثلاً - يفتصبون سبايا القبائل الصغيرة المهزومة. والإسبان يفتصبون

- إهتك أمك
- إبن الهتيكة
- نحن هنا الهاكون الكبار
- دع عنك المهاتكة
- سأهتك هذا حالاً
- هيا، أيها المهتوك فى استسلام.
- لا تدعهم يهتكونك
- هتكتُ هذه العجوز
- إهتك أنت
- إهتك حضرتك
- إهتك جيداً، ولا يهم من
- المثل قال لك إهتك
- هتكته فى ألف بيسو
- إلى الهتيكة ولو أرعدتم
- أمورى مهتوكة
- هتكنى الرئيس

سبايا الجميع. ويأتى الأمريكيون الشماليون لفرض إغتصاب مادی ومعنوى للمكسيك بنهب الثروات وفرض الثقافة. ولا فكاك للمكسيكى من نتائج هذه الأفعال المركبة والمتتالية. ونعتقد أن فوينتس يودّ التركيز على تقريبها من معانيها الدرامية الأولى التى تحكم كل رؤيته للتاريخ المكسيكى كفعل تهجين عنيف وقسرى لكنه يُظهر الضيق بها لسعيه إلى تجاوز هذا التاريخ بدءاً من قبوله.

وقد نتج عن إتساع إستخدامها التقليل من عمق معانيها الأصلية فأصبحت تعنى فى اللغة الدارجة أشياء كثيرة من الإخفاق إلى الضيق إلى الخداع إلى الخطأ إلى الهزل إلى الافراط فى الشراب وحتى إلى تدريب ديكة القتال - م.

- لا تهتك لى يومى
- فلنذهب جميعاً إلى الهتيكة
- إنغمس فى الهتيكة
- لا أجبن حتى لو هتكونى
- هتكوا الهندى
- هتكنا المستوطنون الإسبان
- الجرينجو يهتكوننى
- عاش المكسيك، أبناء الهتيكة الكبرى:

حزن، فجر، خديعة، تلطيخ سمعة، إحتيال، نوم سىء: أبناء الكلمة. وليدو الهتيكة، موتى فى الهتيكة، أحياء بفعل الهتيكة الخالصة: بطن وكساء، مختبئين فى الهتيكة. إنها تمنح الوجه، وتوزع أوراق اللعب، وتلاعب بالشعار، تغطى التلميح والتلاعب بوجهين، وتكشف العراق والشجاعة، تُسكرُ، تصرخُ، تستسلم، تحيا فى كل فراش، تتسبّد خيلاء الصداقة، والكراهية، والسلطة. كلمتنا. أنت وأنا، أعضاء هذه الطائفة الماسونية: طائفة الهتيكة. أنت من أنت لأنك عرفت كيف تهتك ولم تتركهم يهتكونك؛ أنت من أنت لأنك لم تعرف كيف تهتك وتركتم يهتكونك: سلسلة الهتيكة التى تسجننا جميعاً: حلقة إلى أعلى، وحلقة إلى أسفل، متّحدين مع كل أبناء الهتيكة الذين سبقونا والذين سيتلوننا: سترثُ الهتيكة من أعلى؛ سترثها إلى أسفل: أنت ابن أبناء الهتيكة؛ ستكون أباً لمزيد من أبناء الهتيكة: كلمتنا، خلف كل وجه، وكل إشارة، وكل نصّاحة: عضو الهتيكة، قضيب الهتيكة، مؤخرة الهتيكة: الهتيكة تصدر لك الوصايا، الهتيكة تُخلّصك من بلغم الصوم الكبير، تهتكُ الهتيكة، تهينُ ذلك الهتيكة، لن تكون لك أم، بل ستكون لك هتيكتك: بالهتيكة تنالُ كلَّ أم، أنها توأمك، إنها قريبك، أخوك، أمك، إنها لك أفضل من لا

شيء: الهتيكة: تقصمُ ظهركَ بالهتيكة؛ تشعر أنك تستطيع عمل كل شيء بالهتيكة، تطلق سلسلة ضرطات رائعة مع الهتيكة، يتجعدُ جلدك مع الهتيكة، تثبت عزيمتك مع الهتيكة: لا تجبنُ مع الهتيكة: تدورُ في فلك الهتيكة:

إلى أين تذهب مع الهتيكة؟

يا للسر، يا للخديعة، يا للحنين: تعتقد أنك معها ستعود إلى الأصول: إلى أي أصول؟ ليس أنت: لا أحد يريد العودة إلى العصر الذهبي الكاذب، إلى الأصول المشئومة، إلى الزئير الوحشي، إلى الصراع على لحم الدب، على الكهف وحجر الزناد، إلى التضحية وإلى الجنون، إلى الرعب الذي لا إسم له للأصل، إلى الصنم الذي تجرى التضحية به، إلى الخوف من الشمس، الخوف من الإعصار، الخوف من الخسوف، الخوف من النار، الخوف من الأقنعة، الرعب من الآلهة، الخوف من سن البلوغ، الخوف من الماء، الخوف من الجوع، الخوف من الوحشة، الرعب الكوني: الهتيكة، هَرَم الإنكارات، معبد الفزع.

يا للسر، يا للخديعة، يا للسراب: تعتقد أنك معها ستسير إلى الأمام، ستثبت ذاتك: إلى أي مستقبل؟ ليس أنت: لا أحد يريد السير مُحَمَّلًا باللعة، بالريبة، بالإحباط، بالضعفينة، بالكراهية، بالحسد، بالحنق، بالإحتقار، بانعدام الأمان، بالبؤس، بالإنتهاك، بالسباب، بالتخويف، بالكبرياء الزائف، بالنزعة الذكورية، بفساد هتيكتك المهتوكة:

إتركها في الطريق، إغتلها بأسلحة ليست أسلحتها: فلنقتلها: فلنقتل هذه الكلمة التي تُفرقُ بيننا، تُحجّرُنَا، تُعضّنَا بسُمّها المزدوج للمعبود والصليب: دعونا لا نجعلها جوابنا وشقاعنا: صل، بينما يدهن ذلك القس شفّتيك، وأنفك، وجفنيك، وذراعيك،

وساقيك، وعضوك بالمباركة الأخيرة: تضرع: ألا تكون جوابنا ولا شقاءنا: الهيكة، أبناء الهيكة، الهيكة التي تُسمُّ الحب، تفكُّ عرى الصداقة، تسحقُ الرُّقة، الهيكة التي تُفرِّق، الهيكة التي تفصل، الهيكة التي تُدمِّر، الهيكة التي تُسمُّ: الفرج الطافح بالأفاعى ومعدن الأم الحجرية، الهيكة، التجشؤ الثمل للكاهن فوق الهرم، للسيد فوق العرش، للكاهن الأكبر فى الكاتدرائية: دخان، إسبانيا وأنا هواك*، دخان، أسمدة الهيكة، براز الهيكة، هِضاب الهيكة، أضحيات الهيكة، تشريفات الهيكة، إستعبادات الهيكة، معابد الهيكة، لغات الهيكة: من ستهتكُ اليوم، كى توجد؟ ومن غدا؟ من ستهتكُ: من ستستخدم؟: أبناء الهيكة هم هذه الأشياء، هذه الكائنات التي ستحوّلها أنت إلى موضوعات لإستخدامك، لمتعتك، لسيطرتك، لإحتقارك، لإنتصارك، لحياتك: إبن الهيكة هو شىء تستخدمه أنت: أفضل من لا شىء.

تتعبُ

لا تهزمها

تسمع غمغمات الصلوات الأخرى التي لا تُصِتُ إلى صلاتك أنت: ألا تكون جوابنا وشقاءنا: إغسل نفسك من الهيكة:

تتعبُ

لا تهزمها

حملتها معك طوال حياتك: تلك:

أنت إبن للهيكة

للمهانة التي غسلتها بإهانة رجال آخرين

لنسيان الذى تحتاجه حتى تتذكرُ

* موقع مدينة مكسيكو - م.

لهذه السلسلة اللانهائية لظلمنا

تتعَب

تتعَبِنِي: تهزمنِي؛ تجبرنِي على الهبوط معك إلى هذا الجحيم؛ تودُّ
تذكُرَ أشياء أخرى، وليس هذا: تجبرنِي على نسيان أن الأشياء ستكون،
ليست كائنَةً أبداً، ولم تكن كائنَةً أبداً: تهزمنِي بالهتيكة

تتعَب

إسترح

إحلم ببراءتك

قل ماذا إعتزمت، ماذا ستتأول: أن الإغتصاب سيُرَدُّ لك ذات
يوم بنفس العملة، سيديرُ لك وجهه الآخر: حين تريد أن تتهك وأنت
شابٌ ما لابد أنك ستكون ممتاً له وأنت عجوز: اليوم الذي ستتبه
فيه إلى شيء، إلى نهاية شيء: يوماً ستبكرُ فيه - أنا أهزمك -
وسترى نفسك في المرآة وسترى، في النهاية، أنك قد تركت شيئاً
وراءك: ستتذكره: أول يوم بلا شباب، أول يوم في زمن جديد: أنظر
إليه جيداً، ستنظرُ إليه جيداً، كأنه تمثال، لتتمكن من رؤيته من
جميع الزوايا: ستزيج الستائر ليدخل هذا النسيم الباكر: آه، كم
سيملؤك، آه، سيجعلك تنسى رائحة البخور تلك، تلك الرائحة التي
تتعقبُك، آه، كم سينظفُك: لن يسمح لك حتى بالتلميح بالشك: لن
يقودك إلى حافة ذلك الشك الأول:

(١٩٤٧: ١١ سبتمبر)

هو من أزاح الستائر واستنشق الهواء النظيف. كان النسيم الباكر قد دخل، هازاً الستائر ليعلن عن مقدمه. نظر إلى الخارج: ساعات الفجر هذه هي أفضل الساعات، أكثرها صفاءً، ساعات ربيع يومى. لن تتأخر الشمس المتأججة فى خنقها. لكن فى السابعة صباحاً، إستضاء الشاطئ أمام الشرفة بسلام منعش وخطوط ساكنة. لم تكد الأمواج توشوش ولم تبلغ أصوات المستحمين القلائل حد صرف الإنتباه عن اللقاء المستوحّد للشمس البازغة، والمحيط الهادئ، والرمل الذى مشطه المدّ. أزاح الستائر واستنشق الهواء النظيف. سار ثلاثة صبية على الشاطئ حاملين دلاءهم، وهم يجمعون كنوز الليل: نجوم بحر، وقواقع، وقطع خشب لامعة. تأرجح زورق شراعى قرب الساحل: إنعكست السماء الشفافة على الأرض عبر فلتز من الأخضر الأشد شحوباً. لم تسر أى سيارة عبر الطريق الذى يفصل الفندق عن الشاطئ.

ترك الستارة تسقط ومشى إلى الحمام ذى السيراميك الموريسكى الطراز. نظر فى المرآة إلى هذا الوجه المنتفخ بفعل نوم كان، رغم ذلك، قصيراً جداً، ومختلفاً جداً. أغلق الباب برفق. فتح الصنوبرين ووضع السِدادة فى الحوض. ألقى قميص البيجاما فوق غطاء المرحاض. إنتقى شفرة جديدة، وأخرجها من لفافة الورق الشمعى وأدخلها فى التجويف الذهبى. بعدها ترك سكين الحلاقة تسقط فى الماء الساخن، وبلل فوطة وغطى وجهه بها. ضيّب البخار الزجاج. مسح ياحدى يديه وأشعل إسطوانة ضوء النيون الموضوعة فوق المرآة. عصر أنبوبة مُنتج أمريكى شمالى جديد، كريم الحلاقة الذى يوضع على الجلد مباشرة؛ وضع المادة البيضاء المنعشة فوق خديه، وذقته، ورقبته. لسع أصابعه عند إخراج سكين الحلاقة من الماء. أبدى إيماءة ضيق وبيده اليسرى

فَرَدَ خِداً وِبدأ يَحْلِقُ، من أَعلى إلى أَسفل، بِعِناية، لاوياً فَمه. جَعَله
البَخارُ يَعرِقُ؛ أَحسَّ بِالقطراتِ تَتَزَلَقُ على ضِلوعه. الآنَ حَلَقَ ضِدَّ إِتْجاهِ
الشَّعرِ بَبطءٍ وِبعدها رَبتَ على ذِقْنه لِيتَأَكَّدَ من نَعومتِها. عاودَ فَتَحَ
الصَّنْبُورينَ، وَبَلَ الفُوطَةَ، وَتَغَطِيَةَ وَجْهِهَ بِها. نَظَّفَ أذُنِيهَ وَنَدَّى وَجْهه
بِلُوسِيونٍ مُثيرٍ جَعَله يَزهَرُ من المَمتعة. نَظَّفَ الشَّفْرةَ وَأَعادَ وَضْعَها في
التَجويفِ وَوَضَعَ سَكِينَ الحِلاَقَةِ في جِرابِهِ الجِلْدِي. جَذَبَ السِّدادةَ
وَتَأَمَّلَ، لِلحِظَّةِ، شَفَطَ البَرَكَةِ الرَّمادِيَةِ من الصَّابُونِ وَالشَّعِيرَاتِ
الْمُلتَصِقَةِ. لَاحِظَ تَقاطِيعَهُ: أَرادَ أنْ يَكْتَشِفَ نَفْسَ الشَّخْصِ الَّذِي عَهدَ
دائِماً، لِأنَّهُ حينَ نَظَّفَ من جَدِيدِ البَخارِ الَّذِي كَسَى الزَّجاجَ، شَعَرَ دُونَ
أنْ يَدْرِي - في هَذِهِ السَّاعَةِ البَاكِرةِ، سَاعَةِ الوَاجِبَاتِ التَّافِهَةِ لَكِنْ لا
غَنى عَنها، سَاعَةِ التَّوَعُّكاتِ الهَضْمِيَةِ وَأَنواعِ الجُوعِ غَيرِ المَحْدَدَةِ، سَاعَةِ
الرَّوائِحِ غَيرِ المَرغُوبَةِ الَّتِي تُلَفُّ الحِياةَ اللَّاواعِيَةَ لِلنَّوْمِ - بِأنْ زَمناً طَوِيلاً
قَدْ إنْقَضَى دُونَ أنْ يَرى نَفْسَهُ، بَينما يَنظُرُ إلى نَفْسِهِ كُلَّ يَومٍ في مِراةِ
حَمَّامٍ. مُرِّعٌ مِنَ الزَّئِيقِ وَالزَّجاجِ وَصُورَةٍ حَقِيقِيَّةٍ فَرِيدَةٍ لِهَذَا الوَجهِ ذِي
العَينَينِ الخَضِرَائِيَّينِ وَالقَمِّ المَلِيِّ بِالحَيَويَّةِ، ذِي الجِيبَةِ الواسِعَةِ
وَالوَجَنَتَينِ البَارِزَتَينِ. فَتَحَ فَمَهُ وَأَخْرَجَ لِسانَهُ الخَشَنَ في جُزُرٍ صَغِيرَةٍ
بَياضاءَ؛ بَعْدَها بَحْثٌ في الإِنعِكَاسِ عَنِ فِراغاتِ الأَسنانِ الناقِصَةِ. فَتَحَ
خِزانَةَ الحَمَّامِ وَتَناولَ الكِبارِي الَّتِي كانَتِ مُستَقَرَّةً في قاعِ كُوبٍ مَمْلُوءٍ
بِالماءِ. شَطَفَها بِسُرْعَةٍ وَثَبَّتَها في مَواضِعِها، مُدِيرًا ظَهرَهُ لِلمِراةِ. فَرَدَ
المَعجُونِ المَخضَّرَ فُوقَ فِرْشاةِ الأَسنانِ وَنَظَّفَ أَسنانَهُ. تَفَرَّغَ وَتَخَلَّصَ
مِنَ بَنطَلونِ البِيجَاما. فَتَحَ صَنْبُورَ البَانيو. تَحَسَّسَ الحِراةَ بِكَفِّ يَدِهِ
وَأَحسَّ بِالإِنسِكابِ غَيرِ المُتكَافِئِ على رَقَبَتِهِ، وَهُوَ يَمُرُّ الصَّابُونُ فُوقَ
جَسَدِهِ النَحِيلِ، ذِي الضِّلُوعِ البَارِزَةِ، وَمَعَدَتِهِ المَتَرَهِّلَةِ وَعَضَلاتِهِ الَّتِي
مازالَتِ تَحْتَفِظُ بِبَعْضِ الشَّدِّ العَصَبِيِّ، لَكِنها الآنَ تَميلُ إلى التَدَلِّي نَحوِ
الداخِلِ، بِطَريقَةٍ بَدَتْ لَهَ غَرِيبَةً، إِذا لَمْ يَحافِظَ على إِنْتِباءٍ نَشِيطٍ

ومصطنع... فقط عندما يكون مُراقباً، مثلما فى هذه الأيام، من جانب تلك النظرات الوقحة لفندق الشاطئ. أدار وجهه إلى البانيو، أغلق الصنبورين وفرك نفسه بالفوطة. عاوده الإحساس بالرضى حين فرك صدره وإبطيه بماء اللافاندر ومرّر المشط فوق شعره المجعد. تناول من closet سروال الإستحمام الأزرق وقميص البولوا الأبيض. إرتدى الخفّ الإيطالى ذى القماش والرباط وفتح ببطء باب الحمام.

واصل النسيم هزّ الستائر والتمعت الشمس بالكاد: ستكون خسارة، خسارة حقيقة أن يضيع النهار. فى سبتمبر لا يمكن التكهّن أبداً. نظر نحو الفراش المزدوج. ظلت ليليا نائمة، فى ذلك الوضع التلقائى، الحرّ: الرأس مستندة على الكتف والذراع ممدودة فوق الوسادة، الظهر مكشوف وإحدى الركبتين مثنية، خارج الملاءة. إقترب من الجسد الشاب، الذى كان هذا الضوء الأول يتلاعب فوقه بخفة، مضيئاً الزغب الذهبى للذراعين والأركان النديّة للجفنين، والشففتين، والإبط ذى القشّ. ركع لينظر إلى لآلى العرق فوق الشفتين ويحسّ بالدفع الفاتر الذى يتصاعد من جسد حيوان صغير مسترخ، لوّحته الشمس، لا يعرف الخجل فى براءته. مدّ ذراعيه، برغبة فى أن يديرها ويرى مقدمة الجسد. إنفلقت الشفتان شبه المفتوحتين وتهدّدت الفتاة. هبط هو ليُفطر.

حين إنتهى من قهوته، نظّف شفّتيه بالفوطة الصغيرة ونظر حوله. فى هذه الساعة، دائماً، يبدو أن الأطفال هم الذين يفطرون، بصحبة المريّيات. كانت الرؤوس الناعمة والرطوبة هى رؤوس من لم يستطيعوا مقاومة إغراء الاستحمام قبل الإفطار ويستعدّون الآن للعودة، بثياب الاستحمام المبلولة، إلى الشاطئ الذى يلوذ به ذلك الزمن بلا زمن ووحدها مُخيّلة كل طفل هى التى تمنح فيه الإيقاع المرغوب لساعات، طويلة أوقصيرة، من قلاع وأسوار تقام، من

مُقدِّماتٍ مَرِحَةٍ لِلدَّفْنِ فِي الرَّمَالِ، مِنْ نُزْهَاتٍ يَتَنَاقَرُ فِيهَا الرِّذَاذُ
وَأَلْعَابُ مَهْدُومَةٍ، مِنْ أَجْسَادٍ مَتَمَدِّدَةٍ بِلاَ زَمَنِ فِي زَمَنِ الشَّمْسِ، مِنْ
صِيحَاتٍ فِي كَسَاءٍ غَيْرِ مَلْمُوسٍ مِنَ الْمَاءِ. كَانَ غُرِيْباً أَنْ يَرَاهُمْ، بِالْفِي
الصِّغْرِ، يَبْحَثُونَ فِي الْخَلَاءِ الْمَفْتُوحِ عَنْ مَلَاذٍ فَرِيدٍ لِدَفْنِ خِيَالِي، لِقَصْرِ
مِنَ الرَّمَالِ. الْآنَ إِنْسَحَبَ الْأَطْفَالُ وَدَخَلَ ضِيُوفُ الْفُنْدُقِ الْبَالِغُونَ.

أَشْعَلَ سِيَجَارَةً وَإِنْتَابَهُ ذَلِكَ الدُّوَارُ الْخَفِيفُ الَّذِي ظَلَّ مِنْذُ بَضْعَةِ
أَشْهُرٍ يَصَاحِبُ دَائِماً أَوَّلَ نَفَسِ دَخَانٍ فِي النَّهَارِ. وَجَّهَ نَظْرَتَهُ بَعِيداً عَنْ
صَالَةِ الطَّعَامِ، صَوَّبَ قَوْسَ الشَّاطِئِ النَّاعِمِ الَّذِي يَتَلَوَّى فِي الزَّيْدِ مِنْ
طَرَفِ الْمَحِيطِ الْمَفْتُوحِ حَتَّى الْهَلَالِ الْأَصْفَرِ لِلْخَلِيجِ، الْمُبْذُورِ الْآنَ
بِالْقَوَارِبِ الشَّرَاعِيَةِ وَبِجَلْبَةِ نَشَاطٍ مُتَصَاعِدَةٍ. مَرَّ بِجَوَّارِهِ زَوْجَانِ مِنْ
مَعَارِفِهِ وَحَيَّاهُ بِإِيْمَاءَةٍ. هَزَّ رَأْسَهُ وَسَحَبَ مِنْ جَدِيدٍ نَفْساً مِنَ الدَّخَانِ.

تَصَاعَدَتِ جَلْبَةُ صَالَةِ الطَّعَامِ: الشُّوْكَ وَالسَّكَاكِينُ فَوْقَ الْأَطْبَاقِ،
وَالْمَلَاعِقُ الصَّغِيرَةُ تَقْلُبُ مَا فِي الْفَنَاجِينِ، وَالزُّجَاجَاتُ الَّتِي تَنْزَعُ
سَدَادَاتِهَا وَفُورَانَ الْمِيَاهِ الْمَعْدَنِيَّةِ، وَالْكِرَاسِيُّ وَهِيَ تَحْرُكُ مِنْ مَكَانِهَا،
وَأَحَادِيثُ الْأَزْوَاجِ، وَمَجْمُوعَاتُ السِّيَاحِ. وَالْوَشْيُ الْمَتَزَايِدُ لِلْأَمْوَاجِ،
الَّذِي لَمْ يُرَضِّهِ أَنْ تَغْلِبَهُ ضَوْضَاءُ الْبَشَرِ. وَمِنْ مَائِدَتِهِ، بَدَأَ مُتَنَزِّهٌ
الْوَاجِهَةَ الْحَدِيثَةَ لِأَكَابُولِكُو، الَّذِي أَنْشَأَ عَلَى عَجَلٍ لِتَوْفِيرِ الرَّاحَةِ لِلْعَدَدِ
الْكَبِيرِ مِنَ الْمَسَافِرِينَ الْأَمْرِيكِيِّينَ الشَّمَالِيِّينَ الَّذِينَ حَرَمَتْهُمْ الْحَرْبُ مِنْ
وَايْكِي، وَبُورْتُوْفِينُو، وَبِيَا رِيْتَزْ، وَكَذَلِكَ لِإِخْفَاءِ الْفَنَاءِ الْخَلْفِيِّ الْبَائِسِ،
الْفَارِقِ فِي الْوَحْلِ، لِلصِّيَادِينَ الْعَارِينَ وَأَكْوَاخِهِمْ بِالْأَطْفَالِ الْمُنْتَفَخِي
الْبَطُونِ، وَالْكَلَابِ الْجَرِيَاءِ، وَبِرْكَ الْمِيَاهِ السُّودَاءِ، وَدِيدَانِ الْأَمْعَاءِ
الشَّعْرِيَّةِ وَجَرَاثِيمِ الْبَاسِيلِلُوسِ. الزَّمَانُ دَائِماً، فِي هَذِهِ الْحَاضِرَةِ ذَاتِ
الْوَجْهِ الْمَزْدُوجِ، الشَّدِيدَةِ الْبَعْدِ عَمَّا كَانَتْ وَالشَّدِيدَةِ الْبَعْدِ عَمَّا تَرِيدُ أَنْ
تَكُونَ.

دَخَنٌ، جَالِساً، وَتَتَمِيلُ خَفِيفٌ فِي سَاقِيهِ اللَّتَيْنِ لَمْ تَعُودَا تَحْتَمِلَانِ،

حتى فى الحادية عشرة صباحاً، هذا الثوب الصيفى. فَرَكَ ركبته فى الخفاء. لابد أن فى داخله برد، لأن النهار تفجّر فى ضوءٍ واحدٍ مستدير وتأجج قرص الشمس تحيطه حلقة برتقالية. ودخلت ليلى، وعيناها مختفيتان خلف نظارةٍ داكنة. نهض واقفاً وقرب الكرسى من الفتاة. أشار للجرسون. ولاحظ تهامس الزوجين اللذين يعرفانه. طلبت ليلى ثمرة بابايا وقهوة.

- نَمَتَ جيداً؟

أومأت الفتاة بالإيجاب، إبتسمت دون أن تفتح شفيتها وربّت يدَ الرجل السمرء، البارزة فوق المفرش.

- ألم تصل الصحف من مكسيكو؟ - قالت بينما تُقطعُ شرائح الفاكهة - لماذا لا تتأكد؟

- نعم. أسرعى، فالیخت ينتظرنا فى الثانية عشرة.

- وأين سنأكل؟

- فى النادى.

توجه الرجل نحو الإدارة. نعم، سيكون يوماً مثل الأمس، يومَ حديث صعب، وأسئلة وأجوبة مسترخية. لكن الليل، دون كلمات، هو شىء آخر. لماذا يطلب أكثر؟ العقد، الضمنى، لا يتطلب حياً حقيقياً، ولا حتى ما يشبه الإهتمام الشخصى. أراد فتاةً ترافقه فى الإجازة. وقد نالها. ويوم الإثنين سينتهى كلُّ شىء، ولن يعود لرؤيتها. منذاً سيطلب أكثر من ذلك؟ إشتري الصحف وصعد ليرتدى بنطلوناً من القطن الخفيف.

فى السيارة، إنغمست ليلى فى قراءة الصحف وعلّقت على بعض أخبار السينما. وضعت ساقاً برونزية فوق الأخرى وتركت فردة حذاء تسقط من قدمها. أشعل السيجارة الثالثة هذا الصباح، ولم يقل لها أنه يُصدر هذه الصحيفة، تلهى بمراقبة الإعلانات التى تتوّج المباني

الجديدة وهذا الإنتقال الغريب للفندق ذى الخمسة عشر طابقاً ولطعم
الهمبورجر إلى الجبل العارى، الذى أخرج أحشاءه الحفّارُ الميكانيكى،
الذى يقف ببطنه الحمراء فوق الطريق.

حين قفزت ليليا برشاقة إلى ظهر اليخت وحاول هو أن يتوازن
ووضع قدمه أخيراً على اليخت، كان الآخر هناك وكان هو من مدّ لهما
يده ليصعدا من الرصيف المتأرجح.

- كسافيه آدام.

شبه عار، بثوب استحمام بالغ القصر ووجهه داكن، بلون الزيت
حول العينين الأزرقاوين والحاجبين الكثيفين اللعوبين. مدّ يده بحركة
ذئب برىء: جسور، وصريح، ومتكتم.

- يسأل دون رودريجو إن كان لا يزعجكم أن تشاركونى المركب.
أوماً هو بالإيجاب ويبحث عن مكان فى الكابينة الظليلة قال آدام
ليليا:

- ... عرضه على العجوز منذ نحو أسبوع ويعلها نسى...

إبتسمت ليليا وفردت القوطة فوق مقدمة المركب المشمسة.

- أترغبين فى تناول شىء؟ - سأل الرجل ليليا عندما إقترب خادم

المركب بعربة المشروبات والمزات

قالت ليليا، المستلقية، لا بإصبعها. قُرب هو العربة والتقط اللوز

بينما الخادم يعدُّ له چين - آند - تونيك gin - and - tonic. كان

كسافيه آدام قد إختفى فوق سقف الكابينة. رن صوت خطواته

الثابتة، وحوارٌ سريع مع شخص فوق الرصيف، ثم حركة جسمه وهو

يستلقى على سقف الكابينة.

خرج اليخت الصغير ببطءٍ من الخليج. تناول هو قلنسوته ذات

الحافة الشفافة واتكأ ليشرب الجين - آند - تونيك gin - and - tonic.

فى مواجهته، تمددت الشمس فوق ليليا. فكّت الفتاة مشبك

السوتيان وكشفت ظهرها . أبدى جسدها كله رعشة إبتهاج . رفعت ذراعيها وعقدت شعرها المفكوك ، النحاسي اللامع ، فوق مؤخر رقبتها . إنساب عرقٌ دقيقٌ جداً فوق رقبتها ، مبللاً اللحم الأملس المستدير للذراعين والظهر الناعم ، بسلسلة الظهر الفائرة . نظر إليها من عمق الكابينة . الآن تتاعست في نفس وضع الصباح . متكئة على الكتف ، وإحدى ركبتيها مثنية . رأى أنها قد حلقت إبطها . إنطلق الموتور وانشق الماء إلى قمتين مسرعتين ، مُطوَّحاً رذاذاً مالحاً ، متماثلاً ، مشقوقاً ، سقط فوق جسد ليليا . بلل ماء البحر سروال الاستحمام الصغير وألصقه بإليتيها وغاص به بين فخذيها . إقتربت طيور النورس ، متصايحة ، من المركب السريع ورشف هو ببطء شرابه . هذا الجسد الفتى ، بدل أن يُثيره ، ملأه بالمشاكسة ، بنوع من التقشف الحاقد . لعب ، وهو جالس على كرسى القماش في عمق الكابينة ، لعبة إرجاء رغباته ، تخزينها حتى الليل الصامت والمتوحد ، حين يختفى الجسدان في الظلمة ولا يمكن جعلهما موضوعاً للمقارنة . في الليل ، لن يحتفظ لها سوى يديه الخبيرتين ، المحبتين للتأني والمفاجأة . خفض بصره ورأى هاتين اليدين السمرأوين ، بعروقهما المخضرة ، الناتئة ، اللتين حلتا محلّ توقد ونفاد صبر عصور أخرى .

وجدوا أنفسهم في البحر المفتوح . الساحل المهجور ، ذو الأجمات المشعثة والصخور البارزة ، كان يغطيه وهجٌ من القيظ الحارق . إستدار اليخت في البحر المرّ واصطدمت به موجة ، فبللت جسد ليليا : صرخت بابتهاج ورفعت صدرها ، الذي يبرز منه هذان الزرآن الورديان اللذان بدا أنهما يُثبَّتَان النهدين الصليبين . عاودت الإستلقاء . إقترب الخادم بطبق فؤاح من الكرز المخدوش ، والخوخ ، والبرتقال المقشّر . أغمض هو عينيه وأفسح المجال لإبتسامة صعبة ، يفرضها التفكير : هذا الجسد الزلق ، وهذا القوام المعتدل ، وهذان الفخذان المثلثان ، يحملون أيضاً

خَفِيَّةٌ فِي خَلِيَّةٍ مَتَاهِيَةِ الصِّغَرِ حَتَّى الْآنَ، سِرْطَانُ الزَّمَنِ. هَذِهِ
الْأَعْجُوبَةُ السَّرِيعَةُ الزَّوَالِ، فِيمَ سَتَفْتَرِقُ، بَعْدَ مَرُورِ الْأَعْوَامِ، عَنْ هَذَا
الْجَسَدِ الْآخِرِ الَّذِي تَمْلِكُهُ الْآنَ؟ هَيْكَلٌ عَظَمَى فِي الشَّمْسِ تَسِيلُ مِنْهُ
الزِّيُوتُ وَالْعَرِيقُ، يَغْرِقُ شَبَابَهُ الْخَاطِفُ، الضَّائِعُ فِي غَمْضَةِ عَيْنٍ، شَعْرٌ
ذَابِلٌ، وَأَفْخَاذٌ سَتَتَجَعَّدُ بِالْوِلَادَاتِ وَالْبَقَاءِ الْمَجْرَدِ، الْقَلْقُ فَوْقَ الْأَرْضِ
وَرَوْتِينَاتُهَا الْأُولِيَّةُ، الْمُتَكَرِّرَةُ دَوْمًا، وَالْعَارِيَّةُ مِنَ الْأَصَالَةِ. فَتَحَ عَيْنِيهِ.
نَظَرَ إِلَيْهَا.

هَبَطَ كَسَافِيِيهِ مِنَ السَّقْفِ. رَأَى هُوَ ظُهُورَ السَّاقِينَ الْمَكْسُوتِينَ
بِالشَّعْرِ، ثُمَّ انْتَفَاخَ الْعَضْوِ الْمُخْتَبِئِ، ثُمَّ الصَّدْرُ الْمُلْتَهَبُ. نَعَمْ: كَانَ
يَمْشَى مِثْلَ ذَنْبٍ، حِينَ انْحَنَى لِيَدْخُلَ الْكَابِيْنَةُ الْمَفْتُوحَةُ وَيَأْخُذَ
خَوْخَتَيْنِ مِنَ الطَّبَقِ الْكَبِيرِ الْمَوْضُوعِ فَوْقَ وَعَاءِ الثَّلْجِ. وَجَّهَ إِلَيْهِ
إِبْتِسَامَةً وَخَرَجَ وَالْفَاكْهَةُ فِي قَبْضَتِهِ. تَرَبَّعَ فِي مُوَاجَهَةِ لَيْلِيَا، وَسَاقَاهُ
مَفْتُوحَتَانِ فِي مُوَاجَهَةِ وَجْهِ الْفَتَاةِ؛ لَمَسَ كَتِفَهَا. إِبْتَسَمَتْ لَيْلِيَا وَتَنَاولَتْ
إِحْدَى الْخَوْخَتَيْنِ الْمَقْدَمَتَيْنِ بِكَلِمَاتٍ لَمْ يَسْتَطِعْ هُوَ سَمَاعَهَا فَقَدْ
خَنَقَهَا صَوْتُ الْمُوتُورِ، وَالنَّسِيمِ، وَالْأَمْوَاجِ الْمُسْرَعَةِ. الْآنَ أَخَذَ هَذَانِ
الْقَمَانِ يَمْضِغَانِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ وَسَالَتِ الْعَصَارَةُ عَلَى ذَقْنِيهِمَا. لَوْ
عَلَى الْأَقْل... نَعَمْ. ضَمَّ الْفَتَى سَاقِيَهُ وَاسْتَبَدَّ، وَهُوَ يَمْدُهُمَا، إِلَى
جَانِبِ الْمَرْكَبِ. رَفَعَ عَيْنِيهِ الْبَاسِمَتَيْنِ، مُقْطَبًا جَبِينَهُ، إِلَى سَمَاءِ
مُنْتَصَفِ النَّهَارِ الْبَيْضَاءِ. نَظَرَتْ إِلَيْهِ لَيْلِيَا وَحَرَكَتْ شَفَتَيْهَا. أَشَارَ
كَسَافِيِيهِ إِلَى شَيْءٍ، حَرَكَ ذِرَاعَهُ وَأَشَارَ نَحْوَ الشَّاطِئِ. حَاوَلَتْ لَيْلِيَا
النَّظَرَ إِلَى هُنَاكَ، مُغْطِيَةً نَهْدِيهَا. عَاوَدَ كَسَافِيِيهِ الْإِقْتِرَابَ وَضَحَكَ
الْإِثْنَانِ حِينَ رَیْبَطَ لَهَا مَشِيْكَ السُّوْتِيَانِ الْقِمَاشِيَّ وَجَلَسَتْ هِيَ
وَصَدْرُهَا رَطْبٌ وَمَرْسُومٌ وَظَلَّلَتْ جَبْهَتَهَا بِإِحْدَى يَدَيْهَا لَتَرَى مَا أَشَارَ
إِلَيْهِ فِي الْخَطِّ الْبَعِيدِ لِبَلَاجِ صَغِيرٍ غَائِرٍ، كَأَنَّهُ خَلِيجٌ صَغِيرٌ أَصْفَرُ،
بَيْنَ كَثَافَةِ الدَّغْلِ. نَهَضَ كَسَافِيِيهِ عَلَى قَدَمِيهِ وَصَاحَ أَمْرًا لِقَائِدِ

اليخت. إستدار اليخت من جديد وتوجه إلى البلاج. استتدت الشابة أيضاً إلى جانب المركب وقرّبت حقيبة يدها لتقدم سيجارة إلى كسافيه. تحدثا.

رأى هو الجسدين، الجالسين جنباً إلى جنب، الداكن بنفس الدرجة والناعمين بنفس الدرجة، مرسومين بخط واحد لا ينقطع، من الرأس وحتى الأقدام المفرودة. ساكنين لكنهما مشدودين بإنتظار أكيد، متمائلين في جدّتهما، في سعيهما الذي لا يجهدان في إخفائه إلى أن يُجرّبا نفسيهما، أن يعرضا نفسيهما. رشف شرابه ووضع نظارته السوداء، التي تكاد مع القلنسوة ذات الحافة أن تخفى وجهه. تحدثا. فرغا من مصمصية بذرة الخوخ ولا بد أنهما قالا: "لذيذ"، أو ربما،

"يروقتى..."

شيئاً لم يقله أحدٌ من قبل، يقوله الجسدان، الحضوران اللذان يستهلان الحياة. لا بد أنهما قالا...

- لماذا لم نلتق من قبل؟ أنا دائماً في النادي...

- لا، أنا لا... هيا، تعالى نقذف البذرتين. واحد...

رأهما يقذفان البذرتين في وقت واحد، بضحكة لم تبلغ مسامعه؛ رأى قوة الأذرع.

- غلبتك! - قال كسافيه حين سقطت البذرتان دون ضجيج، بعيداً عن اليخت. ضحكت هي. عاودا الاسترخاء.

- هل تحبين التزلج؟

- لا أعرف.

- هيا سأعلمك...

ماذا سيقولان؟ سعل وقرب العربة ليعدّ مشروباً آخر. لا بد أن كسافيه سيتحقق من نوع الثنائى الذى تكونه ليليا وهو. لا بد أنها

ستحكي حكايتها الصغيرة البائسة. وسيهز هو كتفيه، ويجبرها على
تفضيل جسد الذئب، ليلية واحدة على الأقل، من أجل التغيير. لكن أن
يحب... أن يحب...

- المسألة هي إبقاء الذراعين صلبتين، أترين؟، ألا تثق ذراعيك...
- أرني أولاً كيف تفعل أنت...

- وكيف لا. دعينا نصل إلى البلاج الصغير.

آه، نعم! أن يكون المرء شاباً وثرياً.

توقف اليخت على مسافة بضعة أمتار عن البلاج المختبئ.
إنزلق، مُتعباً، وأفلت رائحة البنزين، ملوثاً البحر ذا البلورات الخضراء
والقاع الأبيض. تناول كسافيه لوحى التزلج وألقاهما فى الماء؛ ثم
غطس، وطفأ مبتسماً وأرتداهما.

- إقذفى إلى الحبل!

بحثت الفتاة عن المقبض وألقته إلى الشاب. عاود اليخت
الإنطلاق وارتفع كسافيه من الماء، مُتتبعاً أثر المركب رافعاً إحدى
ذراعيه بالتحية بينما تتأمله ليليا ويشرب هو الجين - آند - تونيك
gin - and - tonic: هذه المسافة من البحر التى تفصل بين الشابين
كانت تقرّبهما على نحو خفى؛ كانت توحدّهما أكثر من مضاجعة
لصيقة وتثبّتتهما فى قرب ساكن، كأنما اليخت لا يمخر
الباسيفيكي، كأن كسافيه تمثالٌ منحوتٌ إلى الأبد، تجرّه المركب،
كأن ليليا قد توقفت فوق واحدة، أى واحدة، من الموجات التى
تفتقر ظاهرياً إلى قوام خاص بها، التى ترتفع، وتتلاطم، وتموت،
وتتلاحم - هى نفسها أخرى - دائماً فى حركة ودائماً متماثلة،
خارج الزمن، مرآة لذاتها، لموجات الأصل، موجات الألفية الضائعة
والألفية المقبلة. غاص بجسده فى ذلك المقعد المنخفض والمريح.
ماذا سيختار الآن؟ كيف يمكن أن يُفليت من هذا القدر المشحون

بضرورات تفلت من سيطرة إرادته؟

أفلت كسافيه المقبض وسقط في البحر أمام البلاج. غاصت ليليا دون أن تنظر إليه، دون أن تنظر إليه هو. لكن التوضيح سيأتي. أى توضيح؟ هل ستوضح ليليا له هو؟ هل سيطلب كسافيه توضيحاً من ليليا؟ هل ستقدم ليليا توضيحاً لكسافيه؟ حين ظهرت رأس ليليا، تضيؤها ألف لمسة غريبة للشمس والبحر، في الماء بجوار رأس الشاب، عرف أن لا أحد، باستثنائه، سيتجاسر على طلب توضيح؛ أن هناك إلى أسفل، في البحر الهادئ لهذا الخليج الشفاف، لن يفتش أحد عن الأسباب أو يوقف الالتقاء الحتمي، لن يُفسد أحد ما جرى، ما كان يجب أن يجرى. ما الذي يقف بين الشابين؟ أهو هذا الجسد الغائص في الكرسي، المرتدى قميص البولو، والبنطلون القطنى الخفيف والقلنسوة ذات الحافة؟

أهى هذه النظرة العاجزة؟ هناك إلى أسفل، كان الجسدان يسبحان في صمت ومنعته حافة المركب من رؤية ما يحدث. صفر كسافيه. إنطلق اليخت وظهرت ليليا، للحظة، فوق سطح البحر. سقطت؛ توقف اليخت. الضحكات الواسعة، المفتوحة، بلغت سمعه. لم يسمعها تضحك هكذا أبداً. كأنها ولدت لتوها، كأنما ليس وراءها، دائماً وراءها، شواهد لتاريخ وحكايات، حُرم من العار، من أفعال ارتكبتها هى، وارتكبتها هو.

إرتكبتها الجميع. كانت هذه هى الكلمة التى لا تُحتمل. إرتكبتها الجميع. لم تستطع التقطية المرة إحتواء هذه الكلمة التى تتجاوزها. التى تقطع كل خيوط السلطة والذنب، خيوط السيطرة الفريدة على آخرين، على أحد، على فتاة فى سلطته، إشتراها هو، لتجعلهم يندرجون فى عالم واسع من الأفعال الشائعة، من المصائر المتماثلة، والخبرات دون بطاقة إمتلاك. إذن فهذه المرأة ليست موسومة إلى

الأبد؟ لن تكون، إلى الأبد، امرأةً إمتلكها هو بشكل عابر؟ ألن يكون هذا هو تعريفها وقدرها: أن تكون ما كانته لأنها كانت ملكةً في لحظة بعينها؟ هل تستطيع ليليا أن تحب كأنما لم يوجد هو أبداً؟ نهض، مشى إلى مقدمة المركب وصاح:
- الوقت تأخر. يجب العودة إلى النادي لنأكل في الوقت المناسب.

أحس بأن وجهه، وكل جسمه، متصلبين يغطيها نشاءٌ شاحب حين إنتبه إلى أن أحداً لم يسمع صيحته، فلم يكن يستطيع السمعُ جسدان خفيفان يسبحان تحت الماء المتلألئ، متوازيين، دون تلامسٍ، كأنهما يطفوان في طبقة أخرى من الهواء.

تركهما كسافيه آدم على الرصيف وعاد إلى اليخت: كان يريد أن يواصل التزلج. ودّعهما من مؤخرة المركب. لوّح بالقميص ولم يكن في عينيه شيءٌ مما ودّ هو أن يراه. مثلما خلال الغداء عند شاطئ الخليج، تحت سقف سعف النخيل، ودّ أن يرى ما لم يجده في عيني ليليا الكستائيتين. لم يكن كسافيه قد سأل. ولم تكن ليليا قد حكّت تلك الحكاية الحزينة الميلودرامية التي إستمتع هو بمذاقها في داخله وهو يُميّز الطعومَ المتمازجة لحساء فيشي Vichyssoise. زيجة الطبقة الوسطى تلك، مع الصعلوك الموجود دائماً، الذكورى، المفترى، الشيطان البائس؛ الطلاق ثم العهر. ودّ لو يحكيها - آه، لا بد أن يحكيها - لكسافيه. ورغم ذلك، كلفه تذكُّر الحكاية عناءً، لأنها كانت قد هربت من عيني ليليا، ذلك الأصيل، كأنما كان الماضى قد هرب خلال الصباح من حياة المرأة.

لكن الحاضر ما كان يمكنه الهروب لأنهما يعيشانه، جالسين على هذين الكرسيين الحصير ويأكلان بطريقة ميكانيكية الغداء المُعدَّ خصيصاً: حساء فيشي، وإستاكوزا، نبيذ كوت دو رون،

وآلاسكا مطهو. كانت جالسةً هناك، يدفع هولها. أوقف الشوكة بالجمبرى قبل أن تبلغ فمه: يدفع هولها، لكنها تفلت منه. لم يعد يستطع إمتلاكها أكثر من ذلك. ففى هذا المساء، هذه الليلة ذاتها، ستبحث عن كسافيه، وسيتقابلان سراً، وقد حددًا الموعد فعلاً. أما عينا ليليا، الضائعتان فى مشهد الزوارق الشراعية والمياه الساكنة، فلم تقولا شيئاً. لكن بإمكانه أن ينتزع ذلك منها، أن يفتعل فضيحة ... شعر بأنه زائف، وغير مرتاح وواصل أكل الإستاكوزا ... أى طريق الآن... إنه لقاء قاتل يتغلب على إرادته... آه، يوم الإثنين سينتهى كلُّ شىء، لن يعود لرؤيتها، لن يعود للبحث عنها فى الظلام، عارياً، متأكداً من العثور على ذلك الدفء الفاتر مضطجعاً بين الملاءات، لن يعود...

- ألسنت نعساناً؟ - غمغمت ليليا حين قُدمت لهم الحلوى - ألا يسبب لك التبيذ دواراً؟
- نعم. قليلاً. تفضلنى.

- لا؛ لا أريد آيس كريم... أودّ أن أنام القيلولة.
عند الوصول إلى الفندق، ودعته ليليا بإشارة من أصابعها وعبر هو الطريق وطلب من صبرى أن يضع له كرسيّاً تحت ظل النخيل. تعب فى إشعال السيجارة: فقد اجتهدت ربح خفية، لا يمكن تحديد إتجاهها فى وقت العصر الحار، فى إطفاء الكبريت. الآن كان بعض الثائيات الشباب ينامون القيلولة بالقرب منه، محتضنين بعضهم البعض سيقانهم مشتبكة، والبعض الآخر يخفون رؤوسهم تحت الفوط. بدأ يتمنى أن تهبط ليليا وتريح رأسها على ركبتيه المكتسيتين بالقطن الخفيف، الرفيعتين، الصلبتين. عانى أو أحس بأنه مجروح، متضايق، غير واثق. عانى من غموض ذلك الحب الذى لا يمكنه لمسّه. عانى من ذكرى ذلك التواطؤ الفورى، دون كلمات، المبرم أمام

عينيه بحركات لا تقول شيئاً في ذاتها، لكنها في حضور ذلك الرجل، ذلك الرجل الغائص في كرسى القماش، الغائص خلف حافة القلنسوة، والنظارة الداكنة... تمددت إحدى الشابات المستلقيات بإيقاع كسول في ذراعيها وشرعت ترش بيدها، مطراً من الرمل الناعم على رقبة رفيقها. صرخت حين قفز الشاب متصنعاً الغضب وأمسكها من خصرها. تدحرج الإثنان على الرمال؛ ونهضت هي وجرت؛ وهو خلفها، حتى عاد للإمساك بها، لاهثة، عصبية، وحملها بين ذراعيه نحو البحر. تخلص هو من الخُف الإيطالي وأحس بالرمل الساخن تحت قاع قدميه. أن يذرع البلاج حتى نهايته، وحيداً. أن يسير وعيناه مصوبتان على آثار أقدامه، دون أن يتوقع أن المدّ سيشرع في محوها وأن كل خطوة جديدة هي الشاهد الوحيد، العابر، على نفسها.

كانت الشمس عند مستوى العينين.

خرج العاشقان من البحر - هو، المرتبك، لم يستطع قياس زمن هذا الجماع الطويل، على مرأى من البلاج تقريباً، لكنه ملتف في ملاءات بحر الغروب الفضّي - ولم يعد ذلك الإستعراض اللعوب الذي دخلا به إلى الماء، هذه المرة، سوى رأسين متحدين في صمتٍ والنظرة الخفيضة لتلك الفتاة الرائعة، السمراء، الشابة... الشابة. عاود الشابان الإستلقاء، قريباً جداً منه، وتغطية رأسيهما بنفس الفوطة. تغطيا أيضاً من المساء، المساء المدارى البطئ. بدأ الزنجى الذي يؤجر الكراسى في جمعها. نهض هو وسار نحو الفندق.

قرر أن يأخذ غُطساً في حمام السباحة قبل أن يصعد. دخل إلى كابينة خلع الملابس القائمة بجوار الحمام وعاد إلى خلع الخُف، جالساً فوق مقعد خشبي. كانت الخزانات الحديدية التي تحفظ ثياب النزلاء تخفيه. سمع بضع خطوات رطبة فوق الأرضية

المطاطية، وراءه؛ وضحكت أصواتٌ فقدت أنفاسها؛ وجففت أجسادها بالفضول. نزع قميص البولوا. من الجانب الآخر للخزانة، تصاعدت رائحة نفاذة لعرق، وتبع أسود، وماء كولونيا. وتصاعد دخان نحو السقف.

- اليوم لم تظهر الجميلة والوحش.

- اليوم لا.

- غريبة هذه الفتاة...

- للأسف، هذا الطائر القبيح لن يصمد.

- سيموت بالسكتة فجأة.

- نعم، أسرع.

عاودا الخروج. إرتدى خُفّه وخرج مرتدياً القميص.

صعد السلم إلى المِخدع. فتح الباب. لم يكن لديه سببٌ للإندهاش. كان السرير المشعث من القيلولة هناك، لكن لم تكن لياليا هناك. توقف في منتصف الغرفة. كانت المروحة تدور مثل طائر حبيس. وفي الخارج، في الشرفة، ليلة أخرى مليئة بالجنادب وديدان الوهج. ليلة أخرى. أغلق النافذة حتى لا تهرب الرائحة. إلتقطت حواسه هذا الفوح لعطر تم رشه حديثاً، لعرق، ومناشف مبلولة، ومواد تجميل. ليست هذه هي أسماؤها. فالوسادة، ألتى ما زالت غائرة، هي حديقة، فاكهة، أرض مبتلة، بحر. تحرك ببطء نحو الصوان حيث تضع هي... تناول بين يديه السوتينان الحريري، قربه من خده. إحتكت به الذقن النابتة. لابد أن يكون مستعداً. يجب أن يستحم، ويحلق من جديد إستعداداً لليلة. أفلت السوتينان وسار بخطوة جديدة، راضياً مرة أخرى، نحو الحمام.

أضاء النور. فتح صنبور الماء الساخن. ألقى القميص فوق غطاء المرحاض. فتح الخزانة الصغيرة. رأى تلك الأشياء، الأشياء التي

تخص الإثنيين. أنابيب معجون الأسنان، كريم حلاقة بالمنتول، أمشاط من صدف السلاحف، كولد كريم cold cream، علبة أسبيرين، أقراص ضد الحموضة، فوط صحية، ماء لاقتدر، شفرات حلاقة زرقاء، بريانتين، أحمر شفاه، كبسولات ضد التقلصات، غرغرة صفراء، موانع حمل، ماء مغنيسيوم، أشرطة لاصقة، زجاجات يود، وعاء شامبو، قصافات، مقصات أظافر، قلم أحمر شفاه، قطرة للعين، إصبع كافور للأنف، شراب للسعال، مزيل لرائحة العرق. تناول سكين الحلاقة. كانت مليئة بزغب كستائى، كثيف، مشتبك بين الشفرات ومجراها. توقف والسكين بين يديه. قريبا من شفتيه وأغلق، لا إرادياً، عينيه. وحين فتحهما، فإن ذلك العجوز ذا العينين المحترقتين، والوجنتين الرماديتين، والشفنتين الذابلتين، ذلك الذى لم يعد هو الآخر، الإنعكاس المعروف، جاوب تقطيعته من داخل المرأة.

أنا أراهم. لقد دخلوا. يفتح، وينغلق باب الماهوجنى ولا تصدر الخطوات صوتاً فوق السجادة السمكة. لقد أغلقوا النوافذ. أسدلوا، بهسيس، الستائر الرمادية. وددتُ لو أطلب منهم أن يفتحوها، أن يفتحوا النوافذ. ثمة عالمٌ بالخارج. هناك ريح الهضبة، العالية، التى تهز بضع شجرات سوداء ونحيلة. يجب أن أتنفس... دخلوا. - أقتربنى، يا بنيتى، حتى يتعرف عليك. قولى له اسمك.

رائحتها طيبة. رائحتها زكية. آه، نعم، مازلت أستطيع أن أتبين
خديها الملتهين، وعينيها اللامعتين، وكل قوامها الفتى، الرشيق، الذى
يقترّب من فراشى بخطوات قصيرة.

- أنا... أنا جلوريا...

- إنتظرتك هذا الصباح بإبتهاج. لنعبر النهر على صهوة الجياد.

- أترى كيف إنتهى؟ أترى، أترى؟ تماماً مثل أخى. هكذا إنتهى.

- هل يُريحُك هذا؟ إفعليه

- Ego te absolvo ...

الخشخشة المنعشة والعذبة لأوراق البنكنوت والسندات الجديدة
حين تتناولها يدُ رجل مثلى. الإندفاع السلس لسيارة فاخرة، مصنوعة
خصيصاً، بتكييف هواء، وبار، وتليفون، ووسائد للظهر، ومساند
للأقدام، إيه، يا قسيس، إيه؟، هل هناك مثلها فى السماء، هيه؟ وهذه
السماء التى هى السلطة على البشر، الذين لا يُحصّون، ذوى الوجوه
المختفية، ذوى الأسماء المنسية: الأسماء ذات الألف شكل فى المنجم،
والمصنع، والصحيفة: ذلك الوجه المجهول الذى يحملنى صباح يوم عيد
قديسى، الذى يُخفى عني عينيه تحت الخوذة حين أزور أعمال
التقيب، الذى يحنى لى رقبتة علامة على اللياقة حين أجوب المزارع،
الذى يرسم لى صوراً كاريكاتورية فى مجلات المعارضة: إيه، إيه؟ هذا
موجودٌ فعلاً، هذا يخصّنى فعلاً. هذا هو حقاً كون المرء إلهاً، إيه؟ أن
يكون مرهوباً ومكروهاً أو ما شئت، هذا هو حقاً كون المرء إلهاً، فعلاً،
إيه؟ قل لى كيف أنقذُ كلَّ هذا وسأتركك تكمل كل طقوسك، أضربُ
صدرى، وأمشى على ركبتى حتى مزار مقدس، وأشرب الخل وأتوجُّ
نفسى بالأشواك. قل لى كيف أنقذُ كلَّ هذا، لأن روح...

- ... الإبن، والروح القدس، آمين...

يظل هناك، على ركبتيه، ووجهه مفسول. أحاول أن أدير له

ظهري. يمنعني ألم جنبي. آآآى. لعله إنتهى الآن. سأنال الغفران.
أريد النوم. ها هي الطعنة تأتي. ها هي تأتي. آآآى - آه. والنساء. لا،
ليستا هاتين. النساء. اللاتي تعشقن. كيف؟ نعم. لا. لا أدري. نسيتُ
ذلك الوجه. يا إلهي، نسيتُ الوجه. كان ملكي، كيف أنساه.
" - ياديبا... ياديبا... إستدع لى رئيس الإستعلامات ومحركة
الاجتماعيات."

صوتك يا ياديبا، إستقبال صوتك الأجوف عبر ذلك الإنترفون...
" - نعم، دون أرتيميو. دون أرتيميو، هناك مشكلة عاجلة. هؤلاء
الهنود يمضون ثائرين. يريدون أن تدفع لهم دينك لقطعك غاباتهم.
" - ماذا؟ كم المبلغ؟
" - نصف مليون.
" - فقط؟ قل لقائد الشرطة المحلى أن يؤدبهم، فأنا أدفع له من
أجل هذا. لم يكن ينقصنا إلا...
" - ها هو مينا فى صالة الإنتظار. ماذا أقول له؟
" - إجعله يدخل."

آه ياديبا، لا أستطيع أن أفتح عيني وأراك، لكننى أستطيع رؤية
أفكارك يا ياديبا، من خلف قناع الألم: الرجل الذى يحتضر إسمه
أرتيميو كروث، أرتيميو كروث فقط؛ وحده هذا الرجل يموت، هيه؟، لا
أحد غيره. كأنها ضربة حظ تؤجل الميتات الأخرى. هذه المرة لا يموت
سوى أرتيميو كروث. وهذه الميتة ربما أصابته بدل أخرى، ربما ميتتك
أنت، يا ياديبا... آه. لا. ما زالت لدى أشياء لأصنعها. لا تكونوا
متأكدين هكذا، لا...

- قلت لك أنه يتظاهر.

- دعيه يستريح.

- أقول لك أنه يتظاهر!

أراهما، من بعيد. أصابعهما تفتحُ بتعجلُ القاع الثاني، تخرجانه من القاعدة بإحترام. لا شيء فيه. لكننى أهرز ذراعى، مشيراً إلى حائط خشب البلوط، إلى الصوان الضخم الذى يشغل جانباً بأكمله من المخدع. تجريان إلى هناك، تجاذبان كلَّ الأبواب، تجاذبان كل الشماعات المحملة ببذلات زرقاء، ومخططة، وذات زرارين، وذات مخمل آيرلندى، ولا تتذكران أنها ليست ببذلاتى، أن ثيابى فى منزلى، تجاذبان كلَّ الشماعات بينما أشيرُ لهما بيديَّ اللتين أحركهما بالكاد، أن الوثيقة ربما كانت محفوظة فى أحد الجيوب الداخلية اليمنى لإحدى البذلات. تتزايد عجلة تيريسا وكاتالينا، وتأخذان فى التقلب دون تحفظ، تلقيان السترات الفارغة على السجادة، حتى تقلبانها جميعاً وتديران وجههما إلى. لا يمكننى إبقاء وجهى جاداً تماماً. أنا متمترسٌ خلف وسائد كبيرة وأتنفس بصعوبة، لكن نظرتى لا تفلت تفصيلاً واحداً. أحس بها سريعة ومتعطشة. أطلب بيدي أن تقتربا:

- الآن أتذكر... إنها فى حذاء... أتذكر جيداً...

أراهما على أربع، فوق صفٍ من السترات والبنطلونات، تديران نحوى مؤخرتيهما العريضتين، وتحركان أفخاذهما بلهات فاحش، بين أحذيتى، وعند ذلك فقط تسقط سحابة العذوبة المرة فوق عينيّ، أرفع يدي إلى قلبى وأغلق جفنى.

- ريخينا...

تبدأ مهمة المهانة والجهد من المرأتين فى التبدُّد فى الظلام. أحرك شفتى لأغمغم بذلك الإسم. لم يعد لدى الكثير من الوقت للتذكر، لتذكر الآخر، الذى أحب... ريخينا...

"ياديا... ياديا... أريد أن أكل شيئاً خفيفاً... ليست معدتى على ما يرام. تعال لترافقنى فور أن تنتهى من ذلك..."

كيف؟ تتقى، تشيّد، تصنع، تحفظ، تواصل: لا أكثر... أنا...

" - نعم، إلى اللقاء. مع إحترامى.

" - أحسنت الكلام، يا سنيور. من السهل سحقهم.

" - لا، يا پاديبيا، ليس سهلاً. ناولنى هذا الطبق... هذا، طبق الساندوتشات... لقد رأيت هؤلاء الناس فى مسيرات. حين يحزمون أمرهم، يكون من الصعب إحتواؤهم..."

كيف كانت الأغنية؟ منقياً مضيت إلى الجنوب، نفتى الحكومة وبعد عام عدت؛ آه يا لليالى القلقة التى أقضيها بدونك، بدونك؛ لا صديق ولا قريب يتألم لى؛ وحده الحب، وحده الحب، حب تلك المرأة، هو الذى جعلنى أعود...

" - لهذا يجب العمل الآن، حين يولد السخط ضدنا، وسحقهم من الجذور. يفتقرون إلى التنظيم ويراهنون بكل شىء من أجل كل شىء. تفضل، تفضل ساندوتشات، فهناك ما يكفى إثنين..."

" - تحريضٌ عقيم..."

لدى زوج غدارات بمقبض عاجى لأنضمَّ وسط الطلقات إلى عمال السكة الحديد أنا عاملة السكة حديد ولدى حبيبى خوان هو هنائى وأنا حبه: إذا حسبتى جندياً لأنك تريننى بعذاءٍ عسكرى فإننى عامل سكة حديد فقير من سكك الحديد المركزية.

" - لا، فمعهم حق. وليس معهم. لكنك أنت الذى كنتَ ماركسياً فى شبابك، يجب أن تفهم على نحو أفضل. عليك أن تخاف مما يجرى. أما أنا فلم أعد أخاف..."

" - كامپانيلا بالخارج."

ماذا قالوا؟ ورم؟ نزيف؟ فتق؟ إنسداد؟ ثقب؟ إلتواء أمعاء؟ مفص قولونى؟

آه، پاديبيا، يجب أن أضغط زراً كى تدخل، پاديبيا، لا أراك لأن عيني مغمضتين، وعيناي مغمضتان لأننى لم أعد أثق بتلك الرقعة

الضئيلة، غير الكاملة، لشبكيّتي: ماذا لو فتحتُ عينيّ ولم تعد الشبكية
تستقبل أى شيء، لم تعد تتقل شيئاً إلى المخ؟ ماذا؟

- إفتحوا النافذة

- أنا أحملك الذنب. تماماً مثل أخى.

نعم.

أنت لن تعرف، لن تفهم لماذا تريد كاتالينا، الجالسة بجوارك،
أن تتقاسم معك تلك الذكرى، تلك الذكرى التى تريد فرض نفسها
على كل ما عداها: أنت فى هذه الأرض، لورنثو فى تلك الأخرى؟،
ماذا تودُّ هى أن تتذكر؟، أنت مع جُونثالو فى هذا السجن؟، لورنثو
بدونك فى ذلك الجبل؟: لن تعرف، لن تفهم إن كنتَ أنتَ هو، إن كان
هو سيكون أنت، إن كنتَ عشتَ ذلك اليوم بدونه، معه، هو من أجلك،
أنت من أجله. ستتذكر. نعم، ذلك اليوم الأخير كنتما أنت وهو معاً -
إذن لم يعش هو ذلك من أجلك، ولا أنت من أجله، كنتما معاً - فى
ذلك المكان. سألك هو إن كنتما تذهبان معاً حتى البحر؛ تذهبان
على صهوة الجياد؛ سألك إن كنتما ستذهبان معاً، على صهوة
الجياد، حتى البحر: سيسألك أين ستأكلان وقال لك - سيقول لك -
بابا، سيبتسم، سيرفع ذراعه ببندقية الصيد وسيخرج من المخاضة
وجذعه عارٍ، رافعاً إلى أعلى ببندقية الصيد والجرينديات القماش.

لن تكون هي هناك. لن تتذكر كاتالينا هذا. لهذا تحاول أنت أن تتذكره، حتى تنسى ما تريدك أن تتذكره. ستحيا هي حبيسة وسترتجف حين يعود هو، لعدة أيام، إلى مدينة مكسيكو، لوداعكم. إن كان سيعود لوداعكم. تعتقد هي ذلك. لكنه لن يفعل. سيأخذ السفينة البخارية من بيراكروث، سيمضي. لا بد أنه سيمضي. لا بد أنها تتذكر ذلك المخدع حيث تصارع روائح النوم لتبقى رغم أن هواء الربيع يدخل من الشرفة المفتوحة. لا بد أنها تتذكر السريرين المنفصلين، الغرفتين المنفصلتين، رأسى الفراشين الحريريّين، الملاءات المنكوشة للغرفتين المنفصلتين، المساحات الفائرة في الحشيتّين، الخطّ الظلّي العنيد لمن ناما في هذين الفراشين. لن يمكنها تذكر حافري المهرة، الشبيهين بلؤلؤتين سوداوين، غسلهما النهر السّبخ. أنت نعم. فعند عبور النهر، ستتبيّتان أنت وهو على الضفة الأخرى شبح أرض مرتفع فوق التخمّر الضبابي للصباح. هذا الصراع للدغل الداكن مع الشمس اللاهبة سيتجسد في انعكاس مزدوج لكل الأشياء، في شبح للرطوبة وهي تعانق وهج القيظ. سيفوح المكان برائحة الموز. سيكون هو كوكويا. لن تعرف كاتالينا أبداً ما كانته، وما تكونه، وما ستكونه كوكويا. ستجلس هي تنتظر على حافة الفراش، والمرآة في يد وفرشاة الشعر في اليد الأخرى، بلا رغبة، وطعم المرارة في حلقها، مُقررة أنها ستبقى هكذا، جالسة، ونظرتها ضائعة، دون رغبة في عمل شيء، قائلة لنفسها أن المشاحنات تجعلها هكذا دائماً: فارغة. لا: وحدكما أنت وهو ستشمران بحوافر الحصان فوق التربة المسامية للضفة. كذلك، عند الخروج من الماء، ستشمران بالبرودة مختلطة بحرارة الغابة وستنظران إلى الوراء: ذلك النهر البطي الذي يحرك بعذوبة طحالب الضفة الأخرى. وعلى مسافة أبعد، في عمق درب شجيرات

التاباتشين* المزهرة، السقف، الذى تم طلاؤه من جديد، لضيعة كوكويا المستقرة فوق سهل ظليل. ستردد كاتالينا: "يا إلهى، لا أستحق هذا"؛ سترفع المرأة وتتساءل هل هذا ما سيراه لورنثو حين يعود، إن عاد: هذا التشوه المتزايد للذقن والرقبة. هل سينتبه للتجاعيد المتخفية التى ستبدأ فى الظهور عند الجفنين والخدين؟ سترى فى المرأة شعرة أخرى وخطها المشيب وستتزعجها. وأنت، ولورنثو إلى جانبك، ستدخل إلى عمق الغابة. سترى أمامك ظهر ابنك العارى، الذى ستتأوب عليه أيضاً ظلال دغل المانجروف** وحبيبات أشعة الشمس التى ستخترق سقف الأغصان الكثيف. ستمزق جذور الأشجار الكثيرة العقد قشرة الأرض، وستطّل خشنة ومتلوية. على طول الدرب الذى يفتحه الساطور. درب سرعان ما ستعاود النباتات المتسلقة نسج شباكها فيه. سيسير لورنثو خبيئاً وهو منتصب القامة، دون أن يحرك رأسه، ضارباً بسوطه جانبي المهرة ليهش الذباب ذا الطنين. ستردد كاتالينا أنه لن يثق فيها، لن يثق فيها ما لم يرها كما كانت من قبل، مثلما كان طفلاً، وستستلقى وهى تئن، وذراعاها مفرودتان، ونظرتها غائمة وستترك فردتى الخف الحريريتين تفلتان من قدميها وستفكر فى ابنها، الشديد الشبه بأبيه، الشديد النحافة، الشديد الدكة. ستطقطق الأغصان الجافة تحت الحوافر وسينفث السهل الأبيض بشواشى القصب المتماوجة. سيضغط لورنثو مهمازيه. سيدير وجهه وستفرج شفاته فى ابتسامة ستصل إلى عينيك مصحوبة بصيحة إبتهاج وذراع مرفوعة: ذراع قوية، وجلد زيتونى، وإبتسامة بيضاء مثل إبتسامات

* 'tabachines': اسم شعبى لنوع من الشجيرات موجود بكثرة فى المكسيك - م
 ** المانجروف: شجر ينبت على حافة المياه المالحة وتتدلى أغصانه لتصنع جذوراً

شبابك: ستتذكر شبابك بسببه وبسبب هذه الأرجاء ولن تريد أن تقول للورنثو كم تعنى بالنسبة لك هذه الأرض لأنك إن فعلت ربما إنتزعت تعاطفه: ستتذكر كاتالينا تربيتات لورنثو الطفولية، منذ الأيام القاسية لموت العجوز جماليل، ستتذكر الطفل على ركبتيه بجوارها، ورأسه مستلقية على حجر أمه، بينما تدعوه هي بهجة حياتها، لأنها لم تجدها قبل أن يولد هو، فقد قاست كثيراً، دون أن تستطيع قول ذلك، لأنها كانت لديها واجبات مقدسة والطفل ينظر إليها دون أن يفهم: ما السبب، ما السبب، ما السبب. ستحضر أنت لورنثو ليحيا هنا حتى يتعلم محبة هذه الأرض وحده، دون حاجة لأن تشرح له دوافع الجهد الشغوف الذي ستكون قد أعدت به بناء جدران الضيعة المحترقة وأدخلت به الزراعة إلى أراضى السهل. ليس لسبب، بل دون سبب. ستخرجان إلى الشمس. ستأخذ القبة ذات الحافتين العريضتين، وستضعها فوق رأسه. الريح التي يثيرها العدو في الجو الهادئ والمومض ستملأ فمك، وعينيك، ورأسك: سيتقدمك لورنثو، مثيراً غباراً أبيض، على الطريق المفتوح بين الزراعات وخلفه، عدواً، ستكون متأكداً من أن كليكما تحسان نفس الإحساس: السباق يوسّع الشرايين، يجعل الدم يتدفق، يغذى قوة الإبصار، يفتح على هذه الأرض الواسعة المفعمة بالحياة، الشديدة الاختلاف عن الهضاب، وعن الصحراوات التي ستعرفها، المقسمة إلى مربعات ضخمة، حمراء، وخضراء، وسوداء، تتناثر فيها النخلات العالية، الطينية والعميقة، التي تفوح بروائح الروث وقشور الفاكهة، التي تجيب بحواسها التي هذبها الكدح على الحواس المتيقظة، المنتشية لإبنك ولك أنت، أنت وإبنك اللذان تجريان بسرعة وتتقدان من الخمول كل الأعصاب، وكل عضلات الجسم المنسية. سيجرح مهمازاك بطن الكميت، حتى يدمى: ستعرف أن لورنثو يريد سباقاً.

ستقطع نظرتُه المتسائلة عبارات كاتالينا . ستتوقف هي، ستتساءل إلى أى مدى يمكنها أن تصل، ستقول لنفسها أنها مسألة زمن، مسألة أن تأخذ في كشف النقاب عن الأسباب تدريجياً، نعم، حتى يفهمها جيداً . هي جالسة على المقعد وهو على قدميه، وذراعه على ركبتها . ستدوى الأرض تحت السنايك؛ ستحنى أنت رأسك، كأنك تريد تقربها من أذن الحصان لتهمزه بالكلمات، لكن ثمة هذا الثقل، ثقل الهندي الياكى الذى سيكون منطرحاً، على وجهه، فوق مؤخرة نفس الحيوان، الياكى الذى سيمدُّ ذراعاً ليتعلق بخصرك: الألم سيجعلك تنعس: ستتدلّى ذراعك وساقك خاملتين وسيظل الياكى يحتضن خصرك ويئن وسحنته متقلصة: ستتتابع أكوام الصخور وستسيران تخفيكما الظلمة، فى أخدود الجبل، مكتشفين ودياناً داخلية من الصخر، ووهاداً عميقة تستقر فوق مجارى مياه مهجورة، وطرقاً مليئة بالأشواك والأجمات: من سيتذكر معك؟ أهو لورنثو بدونك فى ذاك الجبل؟ أهو جونثالو معك فى هذا السجن؟:

(١٩١٥: ٢٢ أكتوبر)

هو من إلتف بالبطانية الزرقاء، لأن الريح الثلجية لهذه الساعات كانت تُكذِّبُ، بحفيف أعواد النباتات المقطوعة، حرارة النهار العمودية. كانوا قد قضوا الليل كله فى العراء، دون طعام. وعلى مسافة أقل من كيلومترين إنتصبت التيجان البازلتية لسلسلة الجبال، وجذورها غائرة

فى الصحراء القاسية. منذ ثلاثة أيام قبلها، كان فصيل الإستطلاع يسير دون إسترشاد باتجاه أو علامات، لا يرشده سوى أنف النقيب، الذى إعتقد أنه يعرف حيل وطرق الطوابير، الممزقة الآن والهاربة، لفرنثيسكو بيبا*. وإلى الوراء، على مسافة ستين كيلومتراً، بقيت القوات التى لا تنتظر سوى رسول من الفصيل، بأقصى سرعة للجواد، لتتقض على بقايا قوات بيبا وتمنعها من الإنضمام إلى قوات لم ينهكها القتال فى تشيهوا هوا. لكن أين ستكون مِرْق قوات الزعيم؟ إعتقد هو أنه يعرف: فى أحد الممرات الوعرة للجبل، سالكة أصعب الطرق. فى اليوم الرابع - هذا اليوم - كان يجب على الفصيل أن يتوغل داخل السيرا** بينما تتقدم القوات الموالية لكارانثا صوب الموقع الذى سيغادره هو ورجاله، عند الفجر. منذ الأمس، فرغت أكياس دقيق الذرة. والجاويز الذى خرج على حصانه الليلة الماضية، حاملاً زمزميات الفصيل كله، نحو الجدول الذى يفيض من بين الصخور ويفيض عند أول إلتقاء بالصحراء، لم يجده. فقد رأى المجرى ذا العروق المحمرة، نظيفاً ومجعداً، خاوياً. كانوا قد مروا منذ عامين بنفس هذا المكان فى موسم المياه والآن ليس سوى كوكب مستدير يتأرجح، من الفجر وحتى الغسق، فوق الرؤوس الملهبة للجنود. كانوا قد عسكروا دون أن يشعلوا ناراً؛ لأن أى حارس يمكنه أن يتبينها من الجبل. وكذلك، لم يكن هذا ضرورياً. فلن يطهوا أى طعام، وفى إتساع السهل المتصحّر، لن تدفئ أحداً ناراً منعزلة. ملتفاً فى لفاعة، ربّت هو على وجهه النحيل؛ إمتداد الشارب الخشن فى الذقن التى نبتت خلال الأيام الماضية؛ وطبقة التراب المتصقة بجانبى الشفتين، وفى الحواجب، وفى قصبة الأنف. شكّل المعسكر ثمانية عشر رجلاً، على

* Villa : اشتهر خارج المكسيك باسم فيلا مع زاباتا ونطقه الإسباني ثاباتا - م

** السيرا: سلسلة الجبال - م

مبعدة بضعة أمتار من القائد: فهو ينام أو يحرس وحيداً، دائماً،
تفصله مسافة من الأرض عن جنوده. وقريباً، كانت غُرر الخيل تتماوج
فى الريح وترتسم أشكالها السوداء على جلد الأرض الأصفر. كان يودُّ
الصعود: فمنبع المسيل فى الجبل وبين صخوره تتشكل تلك القطرات
من الإنتعاش القصير والمستوحد. كان يودُّ الصعود: فالعدو لا يمكن أن
يكون بعيداً. أحس جسده بالتوتر تلك الليلة. كان الصيام والعطش قد
جعلتا عينيه غائرتين ومفتوحتين أكثر، تلك العينان الخضراوان
بنظرتهم المتماثلة والباردة.

ظل القناع المصبوغ بالتراب ثابتاً ومستيقظاً. إنتظر ظهور الخيط
الأبيض ليأخذ فى التحرك: فى اليوم الرابع، طبقاً لما هو متفق عليه.
لم ينم أحدٌ تقريباً، لأنهم كانوا ينظرون إليه من بعيد، جالساً وركبته
مضمومتين، ملتفاً بالبطانية، ساكناً. ومن حاولوا إغلاق عيونهم. كانوا
يصارعون ضد العطش، والجوع، والإرهاق. ومن لم ينظروا إلى النقيب
نظروا إلى صف الخيول برؤوسها المحنية. كانت أعناقها قد رُبطت
بشجرة مثكيتى* سميكة تبرز من الأرض، مثل إصبع ضائع. ونحو
الأرض كانت تنظر الخيول المتعبة. لابد أن الشمس تظهر من خلف
الجبل. حان الوقت.

كان الجميع بانتظار هذه اللحظة التى نهض فيها القائد، وطوّح
لِفاعه الأزرق وكشف صدره المحمّل بأحزمة الرصاص، والمشبك اللامع
لحزام الرداء العسكرى، وقطعتى جلد الخنزير الملتفتين فوق ساقه فوق
الحذاء. دون كلمة، نهض الفصيل واقترب من الخيول. النقيب كان
على صواب: فقد ظهر الوميض المروحي خلف القمم الأكثر إنخفاضاً
وأطلق قوساً من الضوء صاحبه كورس الطيور غير المرئية، البعيدة،

* mezquite: شجر مكسيكى شبيه بالأكاسيا تستخرج منه عطور - م

لكنها سيدةُ السكون الشاسع للأرض المهجورة. أشار هو إلى الياكى توبيّاس وقال له بلغته: عليك أن تبقى فى المؤخرة، وفور أن نتبيّن العدوّ تسابق الريح لتُبَلِّغ عن ذلك.

أوماً الياكى موافقاً، وهو يرتدى قبعته المنفوخة، ذات القمة المستديرة، المزيّنة بريشة حمراء مشبوكة فى جانبها. قفز النقيب إلى سرجه وبدأ طابور الرجال خببه الخفيف نحو بوابة السيرا: إلى الأخدود ذى الممرات الضيقة الصفراء.

برزت ثلاثة أفاريز فى جسم الأخدود. إتجهت القوة إلى الثانى: الأقل إتساعاً، لكنه يتيح مرور الخيل فى طابور منفرد: الذى يقود إلى النبع. كانت الزمزميات الفارغة تصطدم برنين مكتوم بأفخاذ الرجال؛ وكرّر سقوط الأحجار تحت السنايك ذلك الصوت الأجوف العميق، الذى كان يتبدّد دون صدى، بالضربة الجافة الفريدة لطبل مشدود، على طول الإخدود. من أعلى الممر الضيق، كان الطابور القصير يبدو منكساً رؤوسه، يتقدم متحسّساً طريقه. هو وحده ظل ناظراً إلى القمم، مُزَرَّراً عينيه إتقاءً للشمس، تاركاً للحصان التعامل مع تضاريس الأرض. على رأس الفصيل، لكن يشعر لا بالخوف ولا بالفخر. كان قد خلف الخوف وراءه، ليس فى اللقاءات الأولى، بل فى اللقاءات المتكررة التى جعلت من الخطر حياة عادية ومن الهدوء عنصراً مُدهشاً. لذا، أزعجه سراً هذا السكون المطبق للأخدود ولذا شدد قبضته على الأعنة وأعدّ، دون أن ينتبه، عضلات ذراعه ويده لتناول مسدسه بسرعة. إعتقد أنه لا يعرف الكبرياء. فقد منعه من ذلك الخوف فى البداية، ثم التعمّد بعدها. لم يستطع أن يشعر بالفخر حين صفرّت الطلقات الأولى قريبة من سمعه وفرضت تلك الحياة المعجزة نفسها فى كل مرةٍ يحيد فيها الرصاص عن هدفه: حينها لم يستطع سوى الشعور بالدهشة إزاء الحكمة العمياء لجسده فى تفادى الطلقات، فى

النهوض أو الإنحناء، في إخفاء الوجه خلف جذع شجرة؛ دهشة واحتقار، حين فكر في العناد الذي يدافع به الجسد، الأسرع من الإرادة، عن نفسه. ولم يستطع أن يشعر بالفخر، بعدها، حين لم يعد يسمع إلا بالكاد ذلك الصفير العنيد، المألوف. فقط، كان يحيا لحظة خطر، محكومة وجافة، في هذه اللحظات التي أحاطه فيها السكون غير المتوقع. دفع فكّه إلى أمام، بإيماءة شك.

أكد له الصفير المتصل لأحد الجنود، خلفه، خطر هذه النزهة في الأخدود. وقطعت الصفير طلقات مفاجئة وأنين معروف: كانت خيول بييا تنقض، يدفعها فرسانها، رأسياً، من قمة الأخدود في هبوط إنتحاري، بينما البنادق المتمرسية في الجرف الثالث تجرح رجال الفصيل وتجمع الخيول الدامية وتتدحرج، يلفها دوى البارود، حتى القاع ذي الصخور المديبة: لم يستطع هو إلا أن يدير وجهه ويرى توبيّاس يخرج عن الإفريز، مقلداً رجال بييا، منحدرأ على السفوح المسننة، في محاولة عبثية لتنفيذ الأوامر: إنزلت قدم حصان الياكي وطار خلال ثانية، قبل أن يصطدم بقاع الممر الضيق ويسحق فارسه تحت ثقله. تصاعد العويل، مصحوباً بنيران كثيفة؛ إنزلق هو من الجانب الأيسر للحصان وتدحرج، متحكماً في سقوطه باستدارات واستنادات، نحو القاع: في نظرته الغائمة، كانت بطون الخيل الجامحة تنبض في الأعلى، بجوار الطلقات، غير المجدية هي الأخرى، للرجال المباغتين فوق ذلك الجرف الضيق، دون إمكانية للإحتماء أو المناورة بخيولهم. سقط، متشبثاً بجوانب الجبل، وسقط فرسان بييا فوق الجرف الثاني، لخوض القتال الإلتحامي. الآن استمر التدحرج الوحشي لأجساد متلاحمة وخيول مجنونة، بينما يلمس هو بيديه الداميتين قاع الأخدود المظلم ويخرج مسدسه. لم يكن بانتظاره سوى سكون آخر. كانت القوات قد أبيدت. زحف،

بذراعه وساقه المتألمتين، نحو صخرة عملاقة.

- أخرج، يا تقيب كروث، سلّم نفسك...

أجابت الحنجرة الجافة: - حتى تعدمونى بالرصاص؟ أنا صامدٌ هنا.

لكن اليد اليمنى، التى شلّها الألم، لم تكد تستطيع الإمساك بالمسدس. وحين رفع ذراعه، أحس بوخزة غائرة فى بطنه: أطلق الرصاص، ورأسه ساقط، لأن الألم يمنعه من رفع بصره: ظل يطلق الرصاص حتى كرّر الزناد وحده حركة معدنية. قذف المسدس إلى الجانب الآخر من الصخرة الضخمة وعاد الصوت من أعلى للصياح: - إخرج ويداك خلف رقبتك.

على الجانب الآخر من الصخرة، تمدّد أكثر من ثلاثين حصاناً، ميتين أو محتضرين. بعضهم يحاول رفع رأسه؛ وآخرون يتكئون على ساق مثنية؛ وأغلبهم تلتمع وردات حمراء كبيرة فى جبهتهم، وعنقهم، وبطنهم. وفوق الحيوانات أحياناً، وتحتها أحياناً أخرى، إتخذ رجال الفريقين أوضاعاً ذاهلة: وجوههم إلى أعلى، كأنهم يبحثون عن خيط ماء المسيل الجاف؛ وجوههم إلى أسفل، محتضنين الصخور. وجميعهم موتى، باستثناء ذلك الرجل الذى يئن، تحت ثقل مهرة بُنية. - دعونى أخرج هذا - صاح بجماعة القمة - قد يكون واحداً منكم.

كيف؟ بأية أذرع؟ بأية قوة؟ لم يكد ينحنى ليمسك إبطى جسد توبيّاس المحشور، حتى صفرت طلقة من الصلب واصطدمت بالصخرة. رفع بصره. هدأ قائد الجماعة المنتصرة - خوذة بيضاء، بادية من ظلّ القمة - مُطلق الرصاص بحركة من ذراعيه. إنساب العرق اللزج، المترب، من معصميه وإذا كان أحد المعصمين لا يكاد يستطيع الحركة، فقد تمكّن المعصم الآخر من جذب كتف توبيّاس

بإرادة مُركَّزة.

أنصت، خلف ظهره، إلى السنايك المسرعة لأنصار بييا الذين انفصلوا عن الطابور ليقبضوا عليه. كانوا فوق رأسه حين خرجت ساقا الياكى المحطمتان من تحت الحيوان. إنتزعت أيدي أنصار بييا أحزمة الطلقات من صدره.

كانت الساعة السابعة صباحاً.

ولن يتذكر تقريباً، عندما دخل في الرابعة بعد الظهر سجن بيرالس، السير الحثيث الذي فرضه المقدم ثاجال تابع بييا على رجاله وعلى السجينين ليقطع، في تسع ساعات، الممرات الوعرة للسييرا ويهبط إلى القرية التابعة لولاية تشيهواهوا. ففي رأسه التي تخترقها الآم ثقيلة، لم يكد يتبيّن الطريق الذي قطعه. الطريق الأصعب، في الظاهر. والأسهل لمن كان، مثل ثاجال، قد رافق بانتشو بييا منذ العمليات الأولى وظل عشرين عاماً يذرع هذه السييرا ويُسجّل مخابئها، وممراتها، وأخايدها، ودروبها المختصرة. كان شكل الخوذة الشبيه بالفطر يُخفي نصف وجه ثاجال، لكن أسنانه الطويلة المضمومة كانت تبتسم دائماً، يحدّدها الشارب واللحية الأسودين. إبتسمت حين أركبوه هو بصعوبة فوق الحصان ومدّوا الجسد المحطم للياكى، على وجهه، على عجيذة نفس الحصان. وابتسمت حين مد توبيّاس ذراعه وتعلّق بخصر النقيب. وابتسمت حين شرع الطابور في السير متوغلاً في فوهة مظلمة، في كهف حقيقى ذى فتحتين، يجهله هو وغيره من أنصار كارانثا، أتاح في ساعة واحدة قطع مرحلة تستغرق أربع ساعات في الطرق المفتوحة. لكنه إنتبه إلى ذلك كله نصف إنتباه. كان يعرف أن كلا فريقى الحرب الطائفية كانا يعدمان بالرصاص فوراً ضباط الجماعة المعادية وتساءل ما الدافع، الآن، للمقدم ثاجال في إقتياده إلى مصير مجهول.

أنعسته الرائحة. كان ذراعه وساقه، اللتين حطمتها السقطة تتدليان خاملتين وظل الياكى يحتضنه ويئن، ووجهه مُتقلّص. كانت أكوام الصخر المنحدرة تتتابع وهم يسرون تخفيهم الظلال، عند قاعدة الجبال، مكتشفين ودياناً داخلية من الصخور، وهوآت عميقة تستقر فوق مجارى مياه مهجورة، وطرق تُقدّم فيها شجيرات الأشواك والأجمات سقفاً خادعاً لمرور الطابور. ربّما لم يعبر هذه الأرض سوى رجال بانتشو بيبا، فكّر، ولهذا تمكنوا من الفوز، قبلاً، بتلك السلسلة من إنتصارات حرب العصابات التى حطمت ظهر الدكتاتورية. إنهم أساتذة فى المباغته، والحصار، والهروب السريع بعد توجيه الضربة. كل ما هو نقيض مدرسته فى الحرب، مدرسة الجنرال البارو أوبريجون، التى كانت مدرسة المعركة التقليدية، فى سهل مفتوح، بعتاد كافٍ ومناورات فى أراض تم إستكشافها.

- ضُمُّوا الصف، بنظام. لا تتشتتوا منى - كان المقدم ثاجال يصيح كلما خرج من مقدمة الطابور وسار نحو الخلف، مبتلعاً الفبار ومبرزاً أسنانه - . سنخرج الآن من الجبل ومن يدري ماذا ينتظرنا. إستعدوا جميعاً؛ إنحنوا؛ عيونٌ صاحبة لتمييز سحب الفبار؛ جميعنا يمكننا الرؤية أفضل منى وحدى...

أخذت كتل الصخور تنفتح. كان الطابور فوق قمةٍ مستوية وصحراء تشيهواهاوا، المتماوجة، المرشقة بأشجار الميثكىتى، تنفتح عند أقدامهم. كانت تقطع الشمس لفحاتٍ من الهواء المرتفع: طبقة باردة لا تلمس أبداً حواف الأرض الملهبة.

- سنسلك طريق النجم، لنهبط بسرعة أكبر - صاح ثاجال - . أمسك رفيقك جيداً، يا كروث، فالهبوط عمودى.

ضغطت يد الياكى حزام أرتيميو؛ لكن كان فى ضغطته شىء أكثر من الرغبة فى عدم السقوط؛ إلحاحٌ تواصلى. خفض أرتيميو رأسه،

رَبَّتْ عُنُقَ الْحَصَانِ ثُمَّ أَدَارَ وَجْهَهُ نَحْوَ سَحْنَةِ تَوْبِيَّاسِ الْمُتَقَلِّصَةِ.
- غَمَغَمَ الْهِنْدِيُّ بِلُغَتِهِ: - سَنَمُرُ بِجَوَارِ مَنْجَمٍ مَهْجُورٍ مِنْذُ زَمَنِ بَعِيدٍ.
حِينَ نَمُرُ بِجَوَارِ إِحْدَى فَوَّهَاتِ الدَّخُولِ، إِنزَلَقَ مِنْ عَلَى الْحَصَانِ وَاجِرٌ
إِلَى الدَّاخِلِ؛ الْمَنْجَمُ مَلَأَ بِالْأَنْفَاقِ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَعْثُرُوا عَلَيْكَ هُنَاكَ...
لَمْ يَتَوَقَّفْ عَنِ التَّرِييبِ عَلَى شَعْرِ الْحَصَانِ. عَاوَدَ رَفَعَ رَأْسَهُ
وَحَاوَلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ، أَثْنَاءَ الْهَبُوطِ نَحْوَ الصَّحْرَاءِ، ذَلِكَ الْمَدْخَلَ الَّذِي تَحْدُثُ
عَنْهُ تَوْبِيَّاسُ.

غَمَغَمَ الْيَاكِيُّ: - إِنْسَنِي. فَسَاقَايَ مَكْسُورَتَانِ.
الْثَّانِيَةِ عَشْرَةَ؟ الْوَاحِدَةَ؟ كَانَتْ الشَّمْسُ تَزْدَادُ ثِقَلًا.
ظَهَرَتْ بَضْعُ عُنُزَاتٍ فَوْقَ صَخْرَةٍ فَصُوبَ إِلَيْهَا بَعْضُ الْجُنُودِ
بِنَادِقِهِمْ. هَرَيْتَ وَاحِدَةً، وَسَقَطَتْ الْأُخْرَى صَرِيعةً مِنْ فَوْقِ قَاعِدَتِهَا
فَتَرَجَّلَ أَحَدُ جُنُودِ بِييَا وَحَمَلَهَا فَوْقَ ظَهْرِهِ.
- لَتَكُنْ هَذِهِ آخِرُ مَرَّةٍ يَصْطَادُ فِيهَا أَحَدُ الْمَاشِيَةِ! - قَالَ ثَاجَالُ
بِصَوْتِهِ الْأَجَشِّ وَالْبَاسِمِ. - سَتَحْتَاجُونَ إِلَى هَذِهِ الطَّلَقَاتِ ذَاتَ يَوْمٍ، يَا
عَرِيفُ بَايَانِ.

ثُمَّ نَهَضَ فَوْقَ الرِّكَابِ، وَقَالَ لِلطَّابُورِ كُلِّهِ: - إِفْهَمُوا شَيْئًا، يَا
حَمَقِي: إِنَّا نَمْضِي وَأَنْصَارُ كَارَانَا يَدُوسُونَ عَلَى ذَيْلِنَا. فَلَا تَعَاوَدُوا
تَبْدِيدَ الذَّخِيرَةِ. مَاذَا تَظُنُّونَ؟ أَنَّا نَمْضِي مُنْتَصِرِينَ صُوبَ الْجَنُوبِ،
مِثْلَمَا مِنْ قَبْلُ؟ لَا. إِنَّا نَمْضِي مَهْزُومِينَ، صُوبَ الشَّمَالِ، مِنْ حَيْثُ
خَرَجْنَا.

- إِسْمَعِ، يَا سَيِّدِي الْمَقْدَمِ - زَامَ الْعَرِيفُ بِصَوْتِهِ الْمَكْتُومِ -، لَدَيْنَا
عَلَى الْأَقْلِ شَيْءٌ نَتَبَلَّغُ بِهِ.

- مَا لَدَيْنَا هِيَ أُمٌّ عَاهِرَةٌ - صَرَخَ ثَاجَالُ.
ضَحَكَ الطَّابُورُ وَرَبَطَ الْعَرِيفُ بَايَانُ الْعُنْزَةَ الْمِيْتَةَ فَوْقَ مَوْخِرَةِ
حَصَانِهِ.

- لا يلمس أحد الماء ولا دقيق الذرة حتى نصل إلى أسفل - أمر
ثاجال.

لكن تفكيره هو كان مثبتاً في شعاب الهبوط. وها هي هناك، عند
إستدارة هذا المنعطف، الفوهة المفتوحة للمنجم.

إصطدمت سنابك ثاجال بالقضبان الضيقة التي تتقدم لنصف
متر خارج المدخل. الآن قفز كروث من الحصان وتدحرج على المنحدر
الخفيف قبل أن تستطيع البنادق المباحة الاستعداد وسقط على ركبتيه
في الظلام: رنت الطلقات الأولى واختلطت أصوات أنصار بييا. جعل
البرد المباح رأس الرجل خفيفة؛ وسببت لها الظلمة الدوار. إلى
الأمام: جرت الساقان ناسيتين الألم، حتى إصطدم الجسد بالصخر:
وحين فتح ذراعيه، مدّهما نحو نفقين متباعدين. من أحدهما تهب ريحٌ
قوية؛ وفي الآخر، حرارة متكومة. أحست اليدان الممدوتان، في أطراف
الأصابع، هاتين الحرارتين المتعارضتين. عاود الجرى، عبر الجانب
الساخن، الذي لا بد أنه أعمق. ووراءه، كانت تجرى أيضاً، بموسيقى
المهاميز، أقدام أنصار بييا. أطلق عود ثقاب وميضه البرتقالي وفقد
هو توازنه وسقط في نفق رأسى وشعر بالصدمة الجافة لجسده فوق
بعض الدعامات المسوسة. فوقه، لم تتوقف جلبية المهاميز وارتدت
غمغمة الأصوات فوق حوائط المنجم. نهض المطارد بعناء؛ حاول أن
يتبين أبعاد المكان الذى سقط فيه، والمخرج الذى يمكن منه متابعة
الفرار.

"الأفضل أن أنتظر هنا..."

تصاعدت الأصوات فوقه، كأنها تتجادل. ثم سُمعت، بوضوح،
قهقهة المقدم ثاجال. تراجعت الأصوات. صفر شخصٌ ما، عن بعد:
صفارة إنبيه واحدة، خشنة. وبلغت المخبأ جلبات أخرى غير محددة،
ثقيلة، إستطالت خلال عدة دقائق. وبعدها، لا شيء. بدأت العينان في

الإعتياد: الظلمة.

"يبدو أنهم مضوا. ربما كان كميناً. الأفضل أن أنتظر هنا."

فى حرارة النفق المهجور، تحسس صدره، وجسّ جنبه الذى آلمته الصدمات. كان فى مساحة مستديرة بلا مخرج: هى، بالتأكيد، آخر نقطة فى إحدى الحفائر. كانت بضع دعائم مكسورة ملقاة على الأرض؛ وكانت أخرى تسند سقف الصلصال الضعيف. تحقق من ثبات إحداها ووضع ثقله عليها، جالساً، فى انتظار مرور الساعات. كانت إحدى الأخشاب تمتد نحو الفتحة التى سقط منها: لم يكن صعباً تسلّقها والوصول مرة أخرى إلى كهف المدخل. لمس عدة تمزقات فى بنطلونه، وفى السترة التى انفصلت منها خطوط القصب المذهبة. إرهاق، وجوع، ونعاس. مدّد جسده شابّ ساقيه وأحس بالنبض القوى فى فخذه. الظلمة والاسترخاء، اللهاث الخفيف والعيون المغمضة. فكر فى النساء اللواتى كان يؤدّ معرفتهن؛ أما جسد من عرفهن فهرب من خياله. الأخيرة كانت فى فرسنيو. عاهرة ترتدى أفضل ثيابها. واحدة من أولئك اللواتى يبكين حين تسألن، "من أين أنت؟ ولماذا إنتهى بك المطاف هنا؟". السؤال الدائم، من أجل بدء محادثة ولأنهن جميعاً يسرّهن إختراع حكايات. أما تلك فلا؛ إنها تبكى فقط. والحرب التى بلا نهاية. واضح أن هذه هى العمليات الأخيرة. شبك ذراعيه فوق صدره وحاول أن يتنفس بانتظام. حالما سيسيطرون على الجيش المحطم لبانشو بيبا، سيكون ثمة سلام. سلام.

"ماذا سأفعل حين ينتهى هذا؟ ولماذا الإعتقاد بأنه سينتهى؟ أنا لا أفكر هكذا أبداً."

ربما سيعنى السلامُ فرص عمل طيّبة. فى إرتحاله المتعرج عبر أراضى المكسيك، لم يشارك سوى فى التدمير. لكن دُمّرت أراض زراعية يمكن زراعتها من جديد. وذات مرة، فى الباخيو، رأى أرضاً

زراعية ممتازة، يمكن بجوارها أن يبنى لنفسه بيتاً يبوأى وأفتية
مزهرة ويسهر على البذار. أن يرى كيف تنمو بذرة، ويعتني بها، ويرعى
إزدهار النبتة، ويجمع الفاكهة. يمكن أن تكون هذه حياة طيبة، حياة
طيبة...

"لا تتم، كن مستعداً..."

قَرَصَ فخذه. طَوَّحَتْ عضلات الرقبة رأسه إلى الوراء.
لم يكن يأتي من أعلى أى صوت. باستطاعته الاستكشاف. إتكا
على الدعامة الصاعدة حتى يبلغ، بقدمه، النتوءات الصخرية للفوهة.
مضى متأرجحاً، بذراعه القوية، من نتوء إلى نتوء، حتى أنشِبَ أظافره
فى المنصّة العليا. ظهرت رأسه. كان فى النفق الساخن. لكنه بدا الآن
أشدَّ ظلمةً واختناقاً مما كان. سار حتى الكهف الذى تتوزع منه
الأنفاق. تعرّف عليه لأن نفق الريح القوية كان إلى جوار النفق الآخر
السئ التهوية، لكن على مسافة أبعد لم يكن الضوء يدخل من الفتحة
الأصلية. هل يكون الليل قد حلّ؟ هل يكون قد فقد حساب الساعات؟
فى الظلام، بحثت يده عن المدخل. لم يكن الليل هو الذى أغلقه،
بل متراس من الصخور الثقيلة، أقامه أنصار بييا قبل ذهابهم. لقد
حبسوه فى هذه المقبرة ذات الدعامات المتهاكمة.

أحس بهذا فى أعصاب معدته: أنه منسحق. وعلى نحو آلى. وسّع
منخارى أنفه فى جهدٍ خيالى للتنفس. رفع أصابعه إلى صدغيه وربّت
عليهما. النفق الآخر، الجيد التهوية. فهذا الهواء يأتي من الخارج،
يصعد من الصحراء، تسوطه الشمس. جرى نحو الممر الثانى. إلتصق
أنفه بذلك الهواء العذب، المتجدّد، وأخذ، ويداه مُستندتان على
الجدران، يتعثّر فى الظلام. بلّلت يده قطرة. قرّب فمه المفتوح من
الجدار، باحثاً عن مصدر الماء. من السقف الأسود كانت تتساقط تلك
اللالئ البطيئة، المنعزلة. إلتقط قطرة ثانية بلسانه؛ وانتظر الثالثة،

والرابعة. أمال رأسه. بدا أن النفق قد بلغ نهايته. تشمّم الهواء. كان يأتي من أسفل، أحسّ به حول كاحله. ركع، وبحث بيديه. من تلك الفتحة غير المرئية، من هناك ينبع: والنفق الضيق هو ما كان يمنحه قوة أكبر من قوته الأصلية. كانت الأحجار مُفككة. بدأ يجذبها، حتى إتسع الشق، وفي النهاية، إنهار: دهليزٌ جديد، تضيؤه عروق فضيئة، إنفتح خلف الإنهيار. دفع جسده وانتبه، في الممر الجديد، إلى أنه لا يستطيع السير على قدميه: فلم يكن الممر يسعه إلا وهو على بطنه. وهكذا ظل يسحب جسده، دون أن يعرف إلى أين يؤدي جهده الزاحف. عروقٌ رمادية، وانعكاسات مذهبة لشرائط الضابط المقصّبة: وحدها هذه الأضواء المتفاوتة كانت تضيئ تمهله الشبيه بأفعى متشرنقة. عكست عيناه أشد أركان الظلمة سواداً وإنساب خيط من اللعاب على ذقنه. أحس بفمه مليئاً بثمار التمر الهندي: ربما كانت الذكرى اللاإرادية لثمرة ما زالت تثير في الذاكرة غدده اللعابية، ربما كانت الرسول الأمين لرائحة تتبعث من بستان ناء، حملها هواء الصحراء الساكن، حتى بلغت الممر الضيق. إلتقطت حاسّة الشم المنتبهة شيئاً آخر. فمّاً ممثلاً بالهواء. رئةٌ ممثلة. طعاماً لا يخطئ لأرض قريبة: لا يخطئ بالنسبة لشخص ظل وقتاً طويلاً حبيس طعام الصُخور. ظل الممر المنخفض يرتفع؛ والآن إنتهى بشكل مفاجئ وانحدر، بحدة، إلى فضاء داخلي واسع وأرض رملية. أفلت الدهليز المرتفع وترك نفسه يسقط فوق الفراش الأبيض. كانت بعض عروق النباتات قد دخلت حتى ذلك الموضع. من أين؟

"نعم، الآن يعود إلى الإرتفاع. لكنه ضوء! بدا إنعكاساً للرمال. لكنه ضوء!"

جرى، وصدره ممتلئ، نحو الفتحة التي تستحم في الشمس. جرى، دون أن يسمع أو يرى. دون أن يسمع عزف الجيتار البطئ

والصوت الذى يصاحبه، صوتٌ متناقلٌ وحسنى لجندى مُرهَقٍ.
فتيات دورانجو يكتسبن بالأزرق والأخضر،
من الساعة الثامنة فصاعداً، من لا تقرصُ منهم بعضٌ...

دون أن يرى النار الصغيرة التى يتأرجح فوقها الهيكل العظمى
للعنزة التى تم إصطيادها فى الجبل ولا الأصابع التى تتزع منها مِرْقاً
من الجلد.

سقط دون أن يسمع أو يرى، فوق أول شريط من الأرض المضاعة.
كيف كان بإمكانه أن يرى، تحت شمس الثالثة بعد الظهر هذه،
المنصبّة، التى تضئ مثل فطرٍ من الجير خوذة الرجل الذى ضحك ومدَّ
يده.

- هيا، يا نقيب، فأنت ستجعلنا نصل متأخرين. إنظر فقط كيف
يدخل الياكى إلى الضيعة. والآن نعم، يمكن استخدام الزمزميات.
فتيات تشيهواهو لم تعدن تعرفن ماذا تفعلن،
وتطلبن من الرب أن يكون ثمة رجل يعرف كيف يجيد محبتهن...

رفع السجين وجهه وقبل أن يرى المجموعة المتكئة للمقدم ثاجال،
ترك عينيه تتوهان فى المنظر الطبيعى الجاف للأحجار والنباتات
الشائكة، المنظر الطبيعى الممتد والبطئ، الساكن والثقيل كالرصاص.
بعدها، نهض ووصل إلى المعسكر الصغير. نظر إليه الياكى محدّقاً.
مد هو ذراعه وانتزع مِرْقَةً محترقة من ظهر العنزة وجلس يأكل.
بيرالس.

كانت قرية من الطوب النئ. لا تكاد تتميز عن غيرها من القرى.
مربعٌ واحد، هو الذى يمر فى مواجهة رئاسة البلدية، كان مرصوفاً
بالحجارة. أما ما عداه فكان من التراب الذى سوّته أقدام الأطفال

العارية، وأظافر الديكة الرومية التى تتنفس عند مداخل الشوارع، وأقدام جماعات الكلاب التى تنام أحياناً فى الشمس وتجرى جميعها أحياناً، وهى تتبع، على غير هدى. ربما كان هناك واحدٌ أو إثنين من المنازل الجيدة، ببوابات ضخمة ومزاليج من الحديد ومواسير من الصفيح: هما دائماً منزل المرابى ومنزل الزعيم السياسى (حين لا يكون هذا وذاك هما نفس الشخص)، الهاربين الآن من العدالة العاجلة لبانتشو بيبيا. كانت القوات قد إحتلت المقرين مائة الأفنية - المختبئة خلف الجدران الضخمة التى تدير وجهها الشبيه بالحصن نحو الشارع - بالخيول والقش، بصناديق الذخيرة والأدوات: ما إستطاعت فرقة الشمال، المهزومة، إنقاذه فى مسيرتها نحو نقطة إنطلاقها. كان لون القرية مُغبراً، واجهة الرئاسة وحدها كانت تضىء بلون وردى، يضيع على الفور، عند الجانبين وعند الأفنية، فى نفس لون الأرض المائل إلى الرمادى. كان هناك مصدر ماء قريب؛ ولهذا السبب تأسست القرية، التى كانت ثروتها تنحصر فى بعض الديكة والدجاجات، وبعض أعواد الذرة الجافة المزروعة فى الحوارى الترايبية، ودكانتى حدادة، ودكان نجارة، ودكان بقالة وبعض الصناعات المنزلية. كانت القرية تحيا بمعجزة. وتحيا فى صمت. ومثلما فى غالبية النجوع المكسيكية، كان من الصعب معرفة أين يختبئ سكانها. فى الصباح كما فى المساء، وفى المساء كما فى الليل، ربما أمكن سماع ضربات مطرقة، ملحاحة، أو عويل طفل حديث الولادة، لكن سيكون من الصعب الالتقاء فى الشوارع الحارقة بكائن حى. وأحياناً يُطلُّ الأطفال، ضئيلين، حفاة. القوات أيضاً بقيت خلف جدران المنازل التى استولت عليها أو مختفية فى أفنية الرئاسة، التى إتجه نحوها الطابور المتعب. وحين ترجّلوا، إقترب حارس فأشار المقدم ثاجال إلى الهندى الياكى.

خذ هذا إلى السجن. وأنت تعال معى، يا كروث.

الآن لم يكن المقدم يضحك. فتح مصراعى باب المكتب المطلّى
بالجير وجفف عرق جبهته بكمّته. فك حزامه وجلس. تأمله السجين
وهو واقف.

- إجذب كرسيّاً، يا نقيب، ودعنا نتحدث على سجيتنا. هل تريد
سيجارة؟

تناولها السجين وقرب لهبُ الولاة الوجهين.
- حسناً. عاود ثاجال الإبتسام. الأمر بسيط جداً. بإمكانك أن
تخبرنا بخطط من يطاردوننا وسنطلق سراحك. أنا صريح معك. نحن
نعرف أننا خسرنا، ورغم كل شيء نريد الدفاع عن أنفسنا. أنت جنديّ
جيد وتفهم هذا.

- بالتأكيد. ولهذا السبب نفسه لن أتكلم.
- نعم. لكن ما سيكون عليك أن تخبرنا به قليل جداً. فأنت وكل
أولئك الموتى الذى تخلّفوا فى الأخدود كنتم تشكلون فصيل استطلاع،
كان ذلك واضحاً تماماً. وهذا يعنى أن مجمل القوات ليست بعيدة.
حتى أنهم إشتّموا الطريق الذى سلكناه نحو الشمال. لكن لما كنتم لا
تعرفون جيداً ذلك الممر عبر الجبل، فالموكد أنه كان عليكم أن تعبروا
السهل كلّهُ وهذا يستغرق عدة أيام. والآن: كم عددهم، وهل هناك
قوات سبقت بالقطار، وبكم تحسب إمداداتهم من الذخيرة، وكم عدد
قطع المدفعية التى يجرونها؟ أى تكتيك إستقروا عليه؟ أين ستتجمّع
الألوية المتفرقة التى تقتفى أثرنا؟ تصوّر بساطة الأمر: عليك أن تقصّ
على كلّ هذا وتخرج حراً. أعطيك كلمتى.

- منذ متى تعطون هذه الضمانات؟

- مرحى، أيها النقيب، إننا سنخسر فى كل الأحوال. أنا صريح
معك. الفرقة تفككت. إنقسمت إلى مجموعات ستضيع فى الجبال،
وتتسلّ بإطراد، لأنهم على طول الطريق سيبقون فى قراهم، فى

أراضى ضياعهم. نحن مُتعبون. إنها أعوامٌ طويلة من القتال، منذ أن إنتفضنا ضد دون پورفيريو. بعدها قاتلنا مع ماديرو، ثم ضد الملّونين أنصار أوروثكو، ثم ضد زعران هويرتا، ثم ضدكم أنتم أنصار كارانثا. إنها أعوام طويلة. وقد تعبنا. وقومنا مثل الحرباوات، يأخذون لون الأرض، يستقرّون فى الأكواخ التى خرجوا منها، يعاودون إرتداء زى الفَعلة ويعاودون إنتظار ساعة مواصلة القتال، ولو طال الأمد مائة عام. وهم يعرفون الآن أننا خسرنا هذه المرة، تماماً مثل أنصار ثاباتا* فى الجنوب. أنتم كسبتم. فلماذا يجب أن تقتلنا وفريقك هو الذى كسب الحرب؟ دعنا نخسر ونحن نقاتل. لا أطلب منك سوى هذا. دعنا نخسر ببعض الشرف.

- بانتشو بيبا ليس فى هذه القرية.
- لا. إنه يسبقنا. والرجال يهجروننا. لقد صرنا قلة قليلة.
- وأى ضمانات تعطوننى؟
- نتركك حياً هنا فى السجن حتى ينقذك أصدقائك.
- هذا، إذا كسب رجالنا. وإذا لم يكسبوا...
- إذا هزمناهم، أعطيك حصاناً حتى تذهب.
- وهكذا يمكنكم قتلى بالرصاص من الظهر حين أخرج جرياً.
- قل لنا أنت...
- لا. ليس لدى ما أقوله.
- فى السجن صديقك الياكى والمحامى برنال، مبعوث كارانثا.
- إنتظر معهما أمر الإعدام بالرصاص.
- نهض ثاجال.

لم يكن لدى أى منهما مشاعر. فقد فقدها كل واحدٍ منهما، فى

* Zapata: اشتهر خارج المكسيك باسم زاباتا - م

فريقه، تأكلت بفعل الأحداث اليومية، بفعل الدفع المتصل دون هدنة لصراعهما الأعمى. كانا قد تحدثنا بطريقة الية، دون توريث لعواطفهما. طلب ثاجال المعلومات وأتاح فرصة الاختيار بين الحرية وبين فصيل الإعدام، ورفض السجين تقديم المعلومات: لكن ليس بوصفهما ثاجال وكروث، بل مثل ترسين في ماكينتي حرب متعارضتين. لهذا السبب، لقي نبأ الإعدام بالرصاص لا مبالاة مطلقة من جانب السجين. لا مبالاة هي، بالضبط، ما أجبره على الإنتباه إلى الهدوء الوحشي الذي قبل به موته الخاص. عندئذ نهض هو أيضاً وهو يجر على فكيه.

- أيها المقدم ثاجال، لقد قضينا زمناً طويلاً ونحن نطيع الأوامر، دون أن نتيح لأنفسنا الوقت لفعل شيء، كيف أقول لك؟، لفعل شيء يقول: هذا الشيء أفعله بوصفي أرتيميو كروث؛ هذه اللعبة ألعبها أنا وحدي، وليس بصفتي ضابطاً في الجيش. إذا كان عليك أن تقتلني، إقتلني بوصفي أرتيميو كروث. لقد قلت أنت أن هذا سينتهي، أننا مُتعبون. أنا لا أريد أن أموت بوصفي آخر ضحايا قضية منتصرة وأنت أيضاً لا تريد أن تموت بوصفك آخر ضحايا قضية خاسرة. كن رجلاً، يا سيدي المقدم، ودعني أكون رجلاً. أقترح عليك أن نتبارز بالمسدسات. إرسم خطأ في الفناء ولنخرج كلانا مسلحين من ناصيتين متقابلتين. وإذا تمكنت أنت من جرحي قبل أن أعبر الخط، فلتقتلني. وإذا عبرته دون أن تصيبنى، فلتطلق سراحي.

- عريف پايان! - صاح ثاجال وبريق في عينيه .. خذه إلى الزنزانة.

ثم أدار وجهه إلى السجين. - لن تُخطروا بساعة تنفيذ الإعدام، ومن ثم يجب أن تظلوا مستعدين، قد يكون خلال ساعة، وكذلك قد يكون غداً أو بعد غد. وعليك فقط أن تفكر فيما قلته لك.

عبر القضبان كانت تدخل الشمس الفارسية وترسم بالأصفر
الخطوط الخارجية لهذين الرجلين، أحدهما واقف، والآخر مستلق.
حاول توبيّاس أن يغمغم بتحية؛ أما الآخر، الذي كان يتمشى بعصبية،
فاقترب منه فور أن أصدرت الزنزانة صريراً واحتكت مفاتيح عريض
الحراسة بالملزاج.

- حضرتك النقيب أرتيميو كروث؟ أنا جونتالو برنال، مبعوث
القائد الأعلى بينوستيانو كارانثا.

كان يرتدى زياً مدنياً: بذلة كشمير بلون البن بحزام مستعار في
الجزء الخلفي. وراقبه هو مثلما يراقب كل المدنيين الذين يلقون
بأنفسهم من حين إلى آخر على النواة الفارقة في العرق لمن يقاتلون:
بنظرة سريعة متهمكة ولا مبالية، حتى استرسل برنال، وهو يمر بمنديل
على جبهته الواسعة وشاربه الأشقر:

- الهندي في حالة سيئة جداً. ساقه مكسورة.

هزّ النقيب كتفيه. - لن يبقى طويلاً

- ماذا تعرف؟ - سأل برنال وأوقف المنديل فوق شفتيه، بحيث
خرجت الكلمات مخنوقة.

- سينسفوننا جميعاً. لكنهم لا يقولون في أي ساعة. لن نموت من
الزكام.

- أليس هناك أمل في أن يصل رجالنا قبل ذلك؟

كان النقيب هو من توقف الآن. كان يدور، مراقباً السقف،
والحوائط، والنافذة الصغيرة ذات القضبان، والأرضية الترابية: البحث
الغريزي عن الفوهة التي يمكن الهرب منها. ونظر إلى عدو جديد:
الواشي المزروع داخل الزنزانة.

سأل: - ألا يوجد ماء؟

- شربه الياكى.

أنَّ الهنـدى. إقـتـرب هو من الوجه النحاسى المتكى على المسند
الحجرى لتلك المصطبة العارية التى تقوم مقام السرير والمقعد. توقف
خـدّه بجوار خـدّ توبيّاس ولأول مرة، بقوة أجبرته على التراجع، شعر
بحضور ذلك الوجه الذى لم يكن أبداً أكثر من عجيبةٍ داكنة، جزءٍ من
القوات، يمكن التعرف عليه فى التكامل العصبى والسريع لجسده
المقاتل أكثر مما يمكن التعرف عليه فى هذا الهدوء، وهذا الألم. كان
لتوبيّاس وجه: وقد رآه. كانت مئات من الخطوط البيضاء - خطوط
ضحك وضيق وعيون مُزَرَّزة ضد الشمس - ترسم عند زاويتي الجفون
وتتقاطع على الوجنتين العريضتين. ابتسمت الشفتان الممتلئتان
والبارزتان بعذوبة وكان فى العينين الرماديتين، المهدبتين شىءً شبيه
ببئر من الضوء الكابى، المسحور، الذكى.

- لقد وصلت حقاً. قال توبيّاس فى لغته، التى تعلمها النقيب
خلال تعامله اليومى مع قوات سيرا إقليم سنيالوا.

ضغط اليد المعروقة للياكى - نعم، يا توبيّاس. من الأفضل أن
تعرف شيئاً: سيعدموتنا بالرصاص.

- هذا ما يجب أن يفعلوه. لو كنت أنت لفعلت نفس الشىء.

- نعم.

ظلوا صامتين، بينما تختفى الشمس. أعدّ الرجال الثلاثة أنفسهم
لقضاء الليل معاً. تمشّى برنال بتمهل فى الزنزانة: أما هو فنهض ثم
جلس فوراً على التراب مرةً أخرى ورسم خطوطاً على الأرضية. وفى
الخارج، فى الدهليز، أضيئ مصباحٌ بترولى وصدر صوتٌ عن فكى
عريف الحراسة. هبّت ريحٌ باردة فوق الريف الصحراوى.

نهض على قدميه من جديد، وإقتررب من باب الزنزانة: ألواح
سميكة، خشب صنوبر دون تلميع، وتلك الفتحة الصغيرة على ارتفاع
النظر. من الجهة الأخرى، إرتفع دخان سيجارة أوراق الشجر التى

أشعلها العريف. أغلق قبضتيه حول القضبان الصدئة وراقب المنظر الجانبي لوجه حارسه. كانت الخصلات السوداء تبرز من القلنسوة القماشية وتنتهي عند الوجنتين المربعتين الجرداوين. بحث السجين عن نظرتة وأجاب العريف بإيماءة سريعة، إيماءة "ماذا تريد؟" صامتة من رأسه ويده الخالية. وأطبقت اليد الأخرى على القربينة بحكم العادة.

- هل تلقيتم الأمر لصباح الغد؟

نظر إليه العريف بعينيه الواسعتين الصفراوين. ولم يجب.

- أنا لست من هنا. وأنت؟

- من هناك من الشمال. قال العريف.

- كيف حال المكان؟

- أين؟

حيث سيعدموننا. ماذا يبدو للنظر من هناك؟

توقف وأشار للعريف أن يناوله الولاة.

- ماذا يبدو للنظر؟

عند ذلك فقط تذكر أنه ظل دائماً ينظر إلى الأمام، منذ الليلة التي عبر فيها الجبل وأفلت من نطاق بيراكروث القديم. منذ ذلك الحين لم يعاود النظر إلى الوراء. منذ ذلك الحين أراد أن يعرف نفسه وحده، دون أى قوة أخرى سوى قواه الخاصة... والآن... لم يستطع مقاومة هذا السؤال. كيف حال المكان، ماذا يبدو للنظر من هناك. الذى ربما كان طريقته فى إخفاء ذلك التوق إلى التذكر، ذلك المنحدر المؤدى إلى صورة نباتات سرخس وارفة وأنهار متمهلة، صورة أزهار مُستدقة فوق كوخ، صورة جونة منشأة وشعر ناعم، يفوح برائحة السفرجل...

- سيحملونكم إلى الفناء الخلفى. كان العريف يقول. وما يبدو

للنظر، حسناً، ماذا يمكن أن يكون؟ جدارٌ مرتفع، كله ثقوب من فرط
الإعدامات التي نُجريها هنا...

- والجبل؟ ألا يبدو الجبل للنظر؟

- حسناً، الحقيقة هي أنني لا أتذكر.

- هل رأيت الكثيرين...؟

- يوووه...-

- من المحتمل أن من يعدم بالرصاص يرى ما يجرى أفضل ممن
يُعدمون.

- ألم تشهد إعداماً أبداً؟

("نعم، لكن دون أن ألاحظ جيداً، دون أن أفكر أبداً فيما يمكن
أن يكون شعور من يُعدمون، في أن دورى قد يجئ ذات مرة. لذا ليس
لى الحق في أن أسألك، أليس كذلك؟ إنك فقط قد قتلت مثلي، دون
أن تلاحظ جيداً أى شيء. لهذا لا يعرف أحدٌ شعور من يُعدمون ولا
يستطيع أحدٌ أن يحكيه. إذا كانت العودة ممكنة، إذا كان ممكناً حكى
ما يعنيه سماع دفعة طلقات والإحساس بها في الصدر، في الوجه. إذا
كان ممكناً حكى حقيقة ذلك، فربما لن نجرؤ على القتل، أبداً؛ وربما
لم يعد يهم أحداً أن يموت... ربما كان ذلك فظيماً... وربما كان
طبيعياً تماماً مثل الميلاد... ما أدرانا أنت وأنا؟")

- إسمع أيها النقيب، شرائط القصب هذه لن تفيدك بعد. أعطنى
إياها.

أدخل العريف يده من بين القضبان وأدار هو ظهره إليه. ضحك
الجندي بأزيز مكتوم.

الآن كان الياكى يغفم أشياء بلغتة وجرجر هو قدميه إلى المسند.
الصلب، ليلمس بيده جبهة الهندي المحمومة ويستمع إلى كلماته. كانت
تساب بهسهسة عذبة.

- ماذا يقول؟

يعكس أشياء. كيف إنتزعت منهم الحكومة أراضيهم الأزلية لتعطيلها لبعض الجرينجو*. كيف قاتلوا هم دفاعاً عنها ثم وصلت القوات الفيدرالية وبدأت تقطع أيدي الرجال وتطاردهم في الجبل. كيف صعدوا بزعماء الياكى إلى زورق حربي ومن هناك قذفوا بهم إلى البحر مُحملين بالأثقال.

كان الياكى يتحدث وعيناه مغمضتين. - نحن الذين بقينا قيّدونا في طابور طويل جداً ومن هناك، من سينالوا، جعلونا نمشي حتى الطرف الآخر، حتى يوكاتان.

- كيف كان عليهم أن يسيروا حتى يوكاتان وأخذ العجائز والنساء والأطفال يتساقطون موتى. ومن تمكنوا من بلوغ ضياع السيزال** بيعوا كعبيد مع فصل الأزواج عن زوجاتهم. كيف أجبروا النساء على مضاجعة الصينيين، حتى تتسبن لفتهن وتلدن المزيد من الأجراء...
- عُدْتُ، عُدْتُ. فور أن عرفت باندلاع الحرب، عدتُ مع إخوتي لتناضل ضد الأذى.

ضحك الياكى بهدوء وأحسنّ هو بالرغبة في التبول. نهض وفتح فتحة البنطلون الكاكي؛ بحث عن ركن وسمع صوت الطرطشة في التراب. قطب جبهته وهو يفكر في النهاية المعتادة للشجعان الذين يموتون وبقعة رطوبة في بنطلونهم العسكري. أما برنال، المشبوك الذراعين الآن، فبدأ أنه يبحث، عبر القضبان العالية، عن شعاع من القمر يضيئ هذه الليلة الباردة والمظلمة. أحياناً، كان يتناهى إليهم ذلك الطرّق الملحاح للقريبة؛ وتنبح الكلاب. واستطاعت بضع محادثات ضائعة، بلا معنى، إختراق الجدران. نفخ سترته وإقترب

* الجرينجو: تقال إحتقاراً أو تهكماً للأمريكيين الشماليين - م

** pita = Henequen: نبات تصنع من أليافه الحبال - م

من المحامى الشاب.

- ألدك سجائر؟

- نعم... أظن أن نعم... كانت هنا.

- قدّم منها للياكى.

- قدّمت له من قبل. لا تعجبه سجائرى.

- وهل يحمل سجائره؟

- يبدو أنها نفدت منه.

- قد يكون لدى الجنود أوراق لعب.

- لا؛ لن يمكننى التركيز. أظننى لن يمكننى...

- هل تشعر بالنعاس؟

- لا.

- معك حق. لا يجب النوم.

- أظن أنك ستقدم ذات يوم؟

- ماذا؟

- أقول، ستقدم على أنك نمت قبل...

- هذا ظريف.

- آه، نعم. من الأفضل إذن أن نتذكّر. يُقال أن التذكر شيء طيب.

- ليست وراءنا حياة طويلة.

- كيف لا. هذه هى ميزة الياكى. ربما لهذا السبب لا يحب

الكلام.

- نعم. لا، لا أفهمك...

- أقول أن لدى الياكى أشياء كثيرة ليتذكرها.

- ربما كان التذكر مختلفاً فى لغته.

- كل تلك المسيرة، من سينالوا. ما حكاها لنا منذ برهة.

- نعم.

- ...
- ريخينا...
- ماذا؟
- لا. إنتى فقط أردد بعض الأسماء.
- ما عمرك؟
- سأتم السادسة والعشرين. وأنت؟
- تسعة وعشرون. وأنا أيضاً ليس لدى الكثير لأتذكره. هذا مع أن الحياة قد أصبحت مضطربة، على حين غرة.
- متى بدأ المرء فى تذكر طفولته، مثلاً؟
- بالتأكيد؛ فهذا يُرهق.
- أتعرف؟ الآن، بينما نتحدث...
- نعم؟
- حسناً؛ رددتُ بعض الأسماء. أتعرف؟ لم تعد أليفة؛ لم تعد قادرة على أن تقول لى شيئاً:
- الفجر سيطلع.
- لا تلتفت لهذا.
- ظهرى يعرق بشدة.
- أعطنى السيجارة. ماذا حدث؟
- عفواً. ها هى. ربما لا يشعر المرء بشيء.
- يقولون هذا.
- من الذين يقولون، يا كروث؟
- من يقتلون. مؤكد.
- وهل يهتمك كثيراً؟
- حسناً...
- لماذا لا تفكر فى...

- فى ماذا؟ فى أن كل شىء سىظل على حاله، رغم أنهم يقتلوننا؟
- لا، لا تفكر فيما سىحدث، بل فيما حدث. أنا أفكرُ فى كل من ماتوا فعلاً فى الثورة.
- نعم؛ أتذكرُ بولى، وأپارىثيو، وجومث، والنقيب تيبورىثو أمارىياس... أتذكرُ قليلين.
- أراهن أنك لا تعرف إسم عشرين منهم. وليسوا هم فقط. ماذا كانت أسماء كل الموتى؟ ليس فقط موتى هذه الثورة؛ بل موتى كل الثورات وكل الحروب وحتى الموتى على فراشهم. منذاً سیتذكرهم؟
- أنظر: أعطنى ثقاباً.
- عفواً.
- الآن طلع القمر.
- أتريد رؤيته؟ إذا إستدتت على أكتافى، يمكنك بلوغ...
- لا. لا يستحق الأمر العناء.
- من الأفضل أنهم نزعوا ساعتى.
- نعم.
- أعنى، حتى لا أحسب الساعات.
- مؤكد. لقد فهمتُ.
- الليل بدا... بدا أطول...
- اللعنة على هذه الرغبة فى التبول.
- أنظر إلى الياكى. لقد نام. من الأفضل أن أحداً لم يُظهر الخوف.
- الآن، يومٌ آخر ونحن هنا.
- من يدرى. ربما دخلوا فجأة بعد برهة.
- لا. تروقه لعبتهم. ثمة إعتيادٌ مفرط على الإعدام عند الفجر.
- سوف يلعبون معنا.

- أليس شديدَ الإندفاع؟
- بيبا، نعم لكن ليس ثاجال.
- كروث... ألا يبدو هذا بالغ العبثية؟
- ماذا؟
- أن يموت المرء على يد أحد الزعماء وهو لا يؤمن بأي واحدٍ منهم.
- هل نذهب نحن الثلاثة معاً أم يخرجوننا واحداً واحداً؟
- مرة واحدة أسهل، أليس كذلك؟ أنت العسكرى.
- ألا تخطر على بالك أى حيلة؟
- سأقص عليك شيئاً؟ إنه شيء يميتُ من الضحك.
- ما هو؟
- ما كنت أقوله لك لو لم أكن متأكداً من أنتى لن أخرج من هنا حياً. لقد أرسلنى كارانثا فى هذه المهمة بهدفٍ وحيد هو أن يمسكوا بى ويكونوا هم المسئولين عن موتى. لقد سيطر على عقله أن بضلاً ميتاً أفضل من خائن حي.
- هل أنت خائن؟
- الأمر يتوقف على الطريقة التى تنظر بها إليه. أنت لم تفعل سوى القتال؛ أطعت الأوامر ولم تتشكك مطلقاً فى رؤسائك.
- بالتأكيد. فالمهم هو كسب الحرب. ماذا، ألسنت مع أوبريجون وكارانثا؟
- مثلما كان يمكن أن أكون مع ثاباتا أو بيبا. أنا لا أؤمن بأي واحدٍ منهم.
- إذن؟
- هذه هي المأساة. ليس هناك سواهم. لا أدري إن كنت تتذكر البداية. كانت منذ وقت قصير جداً، لكنها تبدو بعيدة جداً... وقتها لم

يكن القادة مهمين. وقتها كنا نعمل هذا ليس للإرتفاع برجل، بل للإرتفاع بالجميع.

- أتريد الحديث بسوءٍ عن ولاء رجالنا؟ هذه هي الثورة، لا أكثر: الولاء للرؤساء.

- نعم. حتي الياكي، الذي خرج في البداية للقتال من أجل أرضه، لا يقاتل الآن إلا من أجل الجنرال أوبريجون وضد الجنرال بيبا. لا، من قبل كان الأمر مختلفاً. قبل أن يتدهور هذا إلى طوائف. الشعب الذي يمر بثورة كان شعباً تنتهي فيه ديونُ الفلاح، وتُصادرُ فيه ممتلكات المرابين، ويُطلقُ فيه سراح السجناء السياسيين ويجرى فيه تدمير الإقطاعيين القدامى. لكن إنظر فقط كيف تركنا خلف ظهورنا من يؤمنون بأن الثورة ليست من أجل تضخيم الزعماء بل من أجل تحرير الشعب.

- سيُتاح الوقت لهذا

- لا، لن يُتاح. الثورة تبدأ بدءاً من ميادين القتال، لكنها فور أن يصيبها الفساد، تكون قد ضاعت حتى لو ظلت تكسب المعارك الحربية. وقد كنا جميعاً مسئولين. فقد تركنا الجشعين، والطموحين، والتافهين يُفرِّقون بيننا ويقودوننا. والذين يريدون ثورة حقيقية، جذرية، غير متهاونة، هم لسوء الحظ رجالٌ جاهلون ودمويون. أما المتعلمون فلا يريدون سوى نصف ثورة، تتمشى مع الشيء الوحيد الذي يهمهم: أن يزدهرُوا، ويعيشُوا حياة رغدة، ويحلُوا محلَّ نخبة دون بورفيريو. هنا تكمن مأساة المكسيك. إنظر إلى أنا. طيلة حياتي وأنا أقرأ كروپوتكين، وباكونين، وبليخانوف العجوز، بصحبة كتيبي منذ أن كنت صبياً، أناقش وأناقش. وفي ساعة الحسم، على أن أنضمَّ إلى صفوف كارانثا لأنه هو الذي يبدو مهندياً، هو من لا يخيفني. أترى هذه الرقاعة؟ أنا أخاف من

الزعران، من بييا ومن ثاباتا... "سأظلُ شخصاً مستحيلاً طالما ظل
الأشخاص الممكّنون اليوم ممكنين..." آه، نعم. كيف لا.
- أنت تفقد الحياء فى ساعة الموت...

— "هذا هو العيب الجذرى فى طبعى: حب ما هو خيالى،
المغامرات التى لم يرها أحد قط، المشروعات التى تفتح آفاقاً لا نهائيةً
وغير متوقعة..." آه، نعم. كيف لا.

- لماذا لم تقل هذا أبداً هناك فى الخارج؟

- قلته منذ عام ١٣ لإيتورى، للوثيو بلانكو، لبويلنا، لكل
العسكريين الشرفاء الذين لم يحاولوا أبداً التحول إلى زعماء. ولهذا
لم يعرفوا كيف يوقفوا لعبة كارائنا العجوز، الذى كرس نفسه طوال
حياته لزراع الفرقة والإنقسام، ولو كان الأمر بخلاف ذلك، ألم يكن
بإستطاعة أى واحد أن يأكل منه القيادة، هذا العجوز التافه؟ لهذا
رقى التافهين، أمثال بابلو جونتالث، الذين لا يمكنهم منافسته. هكذا
فرّق صفوف الثورة، وحولها إلى حرب طائفية.

- ولهذا بعثوك إلى بيرالس؟

- بمهمة هى إقناع أنصار بييا بأن عليهم الاستسلام. كأننا لم نكن
نعرف جميعاً أنهم يهريون مهزومين وأنهم فى بأسهم يُعملون سلاحهم
فى أى مؤيد لكارائنا يقف فى طريقهم. فالعجوز لا يحب أن يلوّث
يديه. يفضل أن يقوم له العدو بالأعمال القذرة. أرتيميو، أرتيميو، لم
يكن الرجال على مستوى شعبهم وثورتهم.

- لماذا لا تنتقل إلى صفوف بييا؟

- إلى زعيم آخر؟ لأرى كم يدوم ثم أنتقل إلى آخر وآخر غيره،
حتى أعود فأجدنى فى زنزانة أخرى فى إنتظار أمر إعدام آخر؟
- لكنك تتقذ نفسك هذه المرة...

- لا... صدقنى، يا كروث، كان بودى أن أنقذ نفسى، أن أعود إلى

پويبلا. أن أرى زوجتي، وإبنى. لويسا ويانتشولين. واختى العزيزة كاتالينا، التى ترتبط بى كثيراً. أن أرى أبى، دون جمالييل العجوز، البالغ النبالة، البالغ العمى. أن أحاول أن أشرح له لماذا ورطت نفسى فى هذا. فلم يفهم أبداً أن ثمة واجبات من الضرورى إنجازها حتى لو عرفنا مقدماً أنها ستفشل. بالنسبة له فإن ذلك النظام أبدى؛ الضياع، الربا المُقنَّع، وكل ذلك... ليته كان هناك من يمكن أن أكلفه بالذهاب لرؤيتهم وإبلاغهم بأى شىء من طرْفى. لكن لن يخرج أحدٌ من هنا حياً، أعرف. لا؛ الأمر كله هو لعبة تصفيات مشئومة. ها نحن نحيا بين مجرمين وأقزام، لأن الزعيم الأكبر يتبنى أقزاماً لا يستطيعون منافسته والزعيم الصغير عليه أن يغتال الكبير كي يصعد. يا للأسى، يا أرتيميو. ما ضرورة كل ما يجرى وما ضرورة عدم إفساده. ليس هذا ما أردناه حين صنعنا الثورة مع كل الشعب، عام ١٣... وأنت، إحزم أمرك. فعندما تتم تصفية ثاباتا وبييا، لن يبقى سوى زعيمين، هما زعيماك الحاليان. إلى من منهما ستعاز؟

- زعيمى هو الجنرال أوبريجون.

- من الأفضل أنك حزمت أمرك فعلاً. فلنر إن كان ذلك لن يكلفك حياتك؛ فلنر إن...

- أنت تتسى أنهم سيعدموننا.

ضحك برنال باندهاش، كأنه حاول الطيران فمنعه الثقل المنسى لبعض الأصفاد. ضغط على كتف السجين الآخر وقال:

- هوسٌ سياسى لعين! وربما كان حدساً. لماذا لا تتقل أنت إلى صفوف بييا؟

لم يستطيع أن يتبين جيداً وجه جونثالو برنال، لكنه شعر فى الظلمة بهاتين العينين المتهمكتين، بجو العليم بكل شىء والذى يحيط بهؤلاء المحامين التافهين الذين لم يقاتلوا أبداً، الذين لم يفعلوا سوى

أن يتكلموا كثيراً بينما يكسبون هم المعارك. أبعد جسده بعنف عن جسد برنال.

- ماذا حدث؟ - إبتسم المحامي.

زام هو وأشعل سيجارته المطفأة. - لا يصحُ الحديث على هذا النحو. - قال من بين أسنانه. - ماذا؟ هل أحدثك بشكل مباشر؟ يثير قرفى من يكشفون عن دخليتهم دون أن يطلب منهم ذلك أحد وخصوصاً فى ساعة الموت. إبق صامتاً، يا سيدى المحامى، وقل لنفسك ما شئت، لكن دعنى أموت دون أن تضعف عزيمتى.

إكتسى صوت جونتالو بقشرة معدنية: - إسمع، يا جدع، نحن ثلاثة رجال محكومٌ عليهم بالإعدام. وقد حكى لنا الياكى حياته... وكان السخط موجهاً ضد نفسه، لأنه قد ترك نفسه لينساق للثقة والثرثرة، وكشف عن دخيلته لرجل لا يستحق الثقة. - كانت تلك حياة رجل. كان معه حق.

- وأنت؟

- قاتلت فقط. وإن كان هناك المزيد، فلست أتذكره.

- أحببتَ امرأة ما...

أطبق قبضتيه.

- ... كان لك أبوان؛ وما أدرانى إن كان لديك حتى ابن. لا؟ أنا

كان لدى ابن، يا كروث؛ أنا حقاً أعتقد أن حياتى كانت حياة رجل، وددت لو كنت حراً لأواصلها؛ ألا تودُّ أنت؟؛ ألا تودُّ فى هذه الساعة لو كنت تربتُ...؟

تقطع صوت برنال حين نحشت يده هو عنه فى الظلمة، وخببطه فى الحائط، دون أن ينطق بكلمة، بخوار مُصمت، وأظافره مغروسة فى ياقة البذلة الكشمير لهذا العدو الجديد المسلح بالأفكار وضروب الرقة، الذى لم يكن يفعل سوى تكرار نفس تفكيره الدفين، تفكير

النقيب، السجين، تفكيره هو: ماذا سيحدث بعد موتنا؟ وكرّره رنال، رغم القبضتين المضمومتين اللتين تنتهكانه:

- لو لم يقتلونا قبل أن نكمل الثلاثين؟... كيف كانت ستتصبح حيواتنا؟ كان بودّى أن أفعل أشياء كثيرة...

حتى غمغم هو أيضاً، وظهره غارق في العرق ووجهه قريب جداً من وجه برنال: - ... سيظل كل شيء على حاله، ألا تعرف هذا حقاً؟ ستطلع الشمس؛ وسيظل الأطفال يولدون رغم أنك أنت وأنا سنكون قد نسفنا تماماً، ألا تعرف هذا حقاً؟

أقلت الرجلان من عناقهما العنيف. تهاوى برنال على الأرض؛ ومشى هو نحو باب الزنزانة، عازماً: سيقصّ على ثاجال خطة زائفة، ويطالب بإنقاذ حياة الياكى، وسيترك برنال ليواجه مصيره.

حين قاده عرّيف الحراسة، وهو يترنّم، إلى حضرة المقدم، لم يكن هو يشعر إلا بذلك الألم الضائع لريخينا، تلك الذكرى العذبة والمرّة التي طالما إختبأت والآن تتفتح عن آخرها، راجية إياه أن يظل حياً، وكأن امرأة ميتة تحتاج إلى ذكرى رجل حتى لتظل أكثر من مجرد جسدٍ إلتهمه الدود في حفرة بلا إسم، في قرية بلا إسم.

- سيكون من الصعب عليك أن تخذعنا - قال المقدم ثاجال بصوته المبتسم الأبدى -. في نفس هذه اللحظة يخرج فصيلان ليريا إن كان ما تحكيه لنا مؤكداً وإذا لم يكن، أو إذا جاء الهجوم من ناحية أخرى، فعليك أن تسلّم نفسك إلى السماء وأن تفكر في أنك لم تكسب سوى بضع ساعاتٍ من الحياة، لكن على حساب شرفك.

مدّ ثاجال ساقيه وحرك أصابع قدميه داخل الجورب. كان الحذاء العسكري فوق المنضدة، مُتعباً ودون دعامة.

- والياكى؟

- لم يكن هذا ضمن ما أبرمناه. إنظر: الليل يستطيل. فلماذا

نجعل أولئك التعساء يحلمون بشمس جديدة؟ عريف پايان!... فلنبعث بالسجينين إلى الحياة الأفضل. أخرجهما من الزنزانة واحملوهما إلى الخلف.

- الياكى لا يستطيع السير - قال العريف.

- أعطوه ماريجوانا - قهقهة ثاجال -.. حسناً، أخرجوه على نقالة وأسندوه كيفما استطعتم إلى الجدار.

ماذا رأى توبيّاس وجونثالو برنال؟ نفس ما رآه النقيب، رغم أن هذا يفوقهم إرتفاعاً، وهو واقف إلى جانب ثاجال فوق شرفة الرئاسة. وإلى أسفل، تم إخراج الياكى على نقالة وسار برنال مطأطئ الرأس ووُضع الرجلان أمام جدار الإعدام بين مصباحين بتروليين.

إنها ليلة تأخرت فيها ومضات الفجر فى الإنبلاج ولم ترسم خطوط الجبال، حتى حين دوّت البنادق بإرتجاجات حمراء مدّ برنال يده ليلمس كتف الياكى. ظل توبيّاس مستنداً إلى الجدار، مُحتمياً بالنقالة. أضاء المصباحان وجهه المحطّم، بعلامات الرصاصات. ولم يلتصع سوى كاحلى جسد جونثالو برنال الساقط، حيث بدأ يسيلُ خيطان من الدم.

- هاك ميّتاك - قال ثاجال.

وتبعت كلماته رصاصات أخرى، بعيدة وكثيفة، انضم إليها على الفور مدفعٌ أجشُّ أطار إحدى زوايا المبنى. تصاعدت صرخات أنصار بييا مُشوَّشة حتى الشرفة البيضاء حيث صاح ثاجال بتساؤل مرتبك:

- وصلوا فعلاً وجدونا فعلاً! هم أنصار كارانثالا بينما أسقطه هو وأطبق يده - التى عاودتها الحياة، مُركّزة بكل قوته - على مقبض مسدس المقدم. أحس فى يديه بالجفاف المعدنى للسلاح. غرسه فى ظهر ثاجال وطوّق بذراعه اليمنى عنق المقدم، وضغطه وأبقاه على الأرض، بلهاتٍ عنيف ورغوة بين شفّتيه. من فوق حاجز الشرفة،

إستطاع أن يرى الفوضى التى سادت فى فناء الإعدام. جرى جنود
فصيل الإعدام، وهم يطأون جثتى توبياس وبرنال، ويقلبون مصباحى
البترول: تتابعت الانفجارات المنهالة فى كل قرية بيرالس، مصحوبة
بصرخاتٍ وحرائق، بتقافز خيول وصهيل. خرج المزيد من جنود بييا
إلى الفناء، وهم يرتدون السترات العسكرية، ويريطون بنطلوناتهم.
ورسمت الأضواء الساقطة خطأً ذهبياً فى كل منظر جانبي لوجه، فى
كل حزام، فى كل عروة. إمتدت الأيدي لتتناول البنادق وأحزمة
الطلقات. فُتح باب الإسطبل بعجلةٍ وخرجت الخيول الصاهلة إلى
الفناء، إمتطأها الفرسان واندفعوا من البوابة المفتوحة. جرى بعض
المتأخرين خلف الخيالة وفى النهاية ظل الفناء خاوياً. جثتا برنال
والياكى. مصباحا بترول. إبتعد الصباح؛ مضى للقاء الهجوم المعادى.
أفلت السجين ثاجال. ظل المقدم على ركبتيه، يسفل، ويتحسس عنقه
المخنوق. إرتفع صوته بالكاد: - لا تستسلموا. أنا هنا.

وكشف الصباح، أخيراً، جفنه الأزرق فوق الصحراء.

توقف الطنين القريب. وعبر الشوارع جرى جنود بييا لمواجهة
الحصار. إصطبغت قمصانهم البيضاء بالأزرق. لم يصدر عن الفناء
همهمة واحدة. نهض ثاجال على قدميه، وهو يفك أزرار سترته
الرمادية، فى حركةٍ يقدم فيها صدره للرصاص. تقدم النقيب بدوره،
والمسدس فى يده.

- إقبل ما عرضته عليك - قال للمقدم بصوتٍ جافٍ.

- فلنهبط - قال ثاجال وفرد ذراعيه.

فى المكتب، أخذ ثاجال المسدس الكولت من أحد الأدراج.

سارا، مسلّحين كلاهما، عبر الممرات الباردة حتى الفناء. حسباً
منتصف المربع. أزاح المقدم، بقدمه، رأس برنال. رفع النقيب مصباحى
البترول.

إتخذ كلٌ منهما موقعه عند زاوية. وتقدّما.

أطلق ثاجال النار أولاً وجرححت طلّفته الياكى تويّياس من جديد.
توقف المقدم وأضاء عينيه السوداوين أملّ: كان الآخر يتقدّم دون أن يطلق النار. كان الحدثُ يجرى مثل طقس شرف. تشبّث المقدم - ثانية،
ثانيتين، ثلاث ثوان - بالأمل فى أن الآخر سيحترم شجاعته، فى أن
الإثنين سيلتقيان عند منتصف الفناء دون إطلاق نارٍ جديد.

توقّف الإثنين عند منتصف الفناء.

عادت الإبتسامة إلى وجه المقدم. عبر النقيبُ الخطّ المتخيّل.
ضاحكاً، أوماً ثاجال إيماءةً صداقةً بيده حين اخترقت طلّقتان
متتابعتان معدته ورآه الآخر ينثى ويسقط عند قدميه. عندها ترك
المسدس يسقط فوق جمجمة المقدم الفارقة فى العرق وظل، دون
حراك، واقفاً.

حرّكت ريح الصحراء خصلات شعره الأكرت على جبهته،
وكرمشات السترة المبللة بالعرق، والأربطة المقطوعة لقطعتي الجلد
الملتفتين حول ساقيه. وقفت شعرات ذقنه ذات الأيام الخمسة فوق
خدّيه وضاعت عيناه الخضراوان خلف رموشه المترية والدموع الجافة.
على قدميه، بطلاً وحيداً فى ساحة الموتى المحاصرة. على قدميه،
بطلاً دون شهود. على قدميه، محاطاً بالوحشة، بينما تدور المعركة
خارج القرية، على قرع الطبول.

خفض بصره. كان الذراع الميّت للمقدم ثاجال يمتد نحو الرأس
الميّت لجونثالو. وكان الياكى جالساً، وجسده الميّت مستندٌ إلى جدار
الإعدام؛ كان ظهره قد ترك توقيماً مخطّطاً فوق قماش النقالة. إنحنى
بجوار المقدم وأغلق له عينيه.

نهض بسرعة واستشّق هواءً ودّ فيه أن يجد، أن يشكر، أن يمنح
إسماً لحياته وحرّيته. لكنه كان وحيداً. لم يكن لديه شهود. لم يكن

لديه رفاق. أفلتت من حنجرتة صرخة صماء، أخمدها المدفع الرشاش
المُعادِل لها على البعد.
"أنا حرّ؛ أنا حرّ".

ضمّ قبضتيه فوق معدته وتقلّص وجهه من الألم.
رفع بصره ورأى، أخيراً، ما لا بد أن يراه محكومٌ بالإعدام عند
الفجر: خطّ الجبال البعيد، والسماء التي إبيضّت أخيراً، وجدران
الفناء الطينية. وسمع ما لا بد أن يسمعه محكومٌ بالإعدام عند الفجر:
شقشقة الطيور المختبئة، وصرخة حادة لطفل جائع، وذلك الوقع
الغريب لمطربة أحد عمال القرية، غريباً عن الطنين المتصل، الرتيب،
الضائع، لإطلاق المدافع وزخات الرصاص المستمرين خلف ظهره. عملٌ
مجهول الهوية، أقوى من الطنين، واثقٌ من أنه بعد إنقضاء الصراع،
والموت، والتصر، ستعاود الشمسُ الشروق، كل يوم...

أنا لا أستطيع أن أرغب؛ أتركهم يفعلون. أحاول لمسها. أتحمسها
من السرّة حتى العانة. مستديرة. طريّة. لم أعد أدري. ذهب الطبيب.
قال أنه سيبحث عن أطباء آخرين. لا يريد أن يكون مسئولاً عني. لم
أعد أدري. لكنني أراهم. لقد دخلوا. ينفتح، وينغلق باب الماهوجنى ولا
تُصدرُ الخطوات صوتاً فوق السجادة السميكة. لقد أغلقوا النوافذ.
أسدلوا، بهسيس، الستائر الرمادية. لقد دخلوا.
- إقتربى، يا بنيّتى... حتى يتعرّف عليك... قولى له إسمك...

رائحتها طيبة. رائحتها زكية. آه، نعم، مازلت أستطيع أن أتبين خديها الملتهبين، وعينيها اللامعتين، وكل قوامها الفتى، الرشيق، الذى يقترب من فراشى بخطوات قصيرة.

- أنا... أنا جلوريا...

أحاول أن أتمم إسمها. أعرف أن كلماتى غير مسموعة. على الأقل يجب أن أشكر لتيريسا هذا: أنها قرّبت منى جسد إبنتها الفتى. لو كنت فقط أتبين وجهها على نحو أفضل. لو كنت فقط أستطيع رؤية تقطيباتها على نحو أفضل. لا بد أنها تُشم رائحة القشور الميتة هذه، رائحة القيء والدم؛ لا بد أنها تنظر إلى هذا الصدر الفائر، إلى هذه الذقن الرمادية المشعثة، إلى هاتين الأذنين الشمعيتين، إلى هذا الرشح الأنفى الذى لا سبيل إلى إيقافه، إلى هذا اللعاب الجاف فوق الشفتين والذقن، إلى هاتين العينين الزائفتين اللتين لا بد أنهما تُظهران نظرة أخرى، وهذه...

يبعدونها عنى

- المسكينة... لقد تأثرت...

- هيه؟

- لا شىء، يا بابا؛ إسترح.

يقولون أنها خطيبة ابن باديا. كيف لا بد أنه يقبلها، أى كلمات لا بد أنه يقولها لها، آه، نعم، أى خجل. يدخلون ويخرجون. يلمسون كتفى، يهزون رؤوسهم، يغمغمون بعبارات مهموسة، نعم، لا يعرفون أننى أنصت إليهم، رغم كل شىء: أنصت إلى أشد المناقشات تباعداً، إلى المحادثات فى أركان المخدع، وليس إلى المحادثات القريبة، الكلمات التى تُقال بجوار رأس فراشى.

- كيف تراه، سنيور باديا؟

- سىء، سىء.

- إنه يترك إمبراطورية كاملة.

- نعم.
- سنوات طويلة على رأس أعماله!
- سيكون من الصعب جداً إستبداله.
- سأقول لك. بعد دون أرتيميو، ليس هناك سواك...
- نعم، أنا مُتَّفَهُمٌ...
- ومن سيتولَّى منصبك، فى هذه الحالة؟
- هناك الكثير من الناس المؤهلين.
- إذن، هل يتم الإعداد لعدة ترقيات؟
- كيف لا. توزيع جديد كامل للمسئوليات.
- آه، ياديا، إقترب. هل أحضرت جهاز التسجيل؟
- على مسئوليتك؟
- دون أرتيميو... أحضرت لك...
- " - نعم، يا ريس.
- " - كن مستعداً. الحكومة ستضرب بيدٍ من حديد ويجب أن تكون مستعداً لتولَّى إدارة النقابة.
- " - نعم، يا ريس.
- " - أنبهك إلى أن عدداً من الذئاب العجوزة يُعدُّون أنفسهم هم أيضاً. وقد ألمحت للسلطات أنك من يتمتع بثقتنا. ألا تتناول شيئاً؟
- " - شكراً لكننى أكلتُ. أكلتُ منذ برهة.
- " - لا تجعلهم يأكلون منك القيادة. قم بجولتك، فى السكرتارية، فى إتحاد العمال المكسيكى، فى هذه الأماكن...
- " - وكيف لا، يا ريس. إعتد على.
- " - وداعاً، كامپانيلا. فى الخفاء. حاذر جيداً. هيا بنا، يا ياديا..."
- خلاص. إنتهى. كان هذا كل شىء: هل كان هذا كل شىء؟ من

يدري. لا أتذكر. منذ زمن وأنا لا أستمع إلى أصوات جهاز التسجيل هذا. منذ زمن وأنا أظاهر. من يلمسني؟ من هذا القريب مني جداً؟ يا للعبث، يا كاتالينا. أقول لنفسى: يا للعبث، يا لها من تربيته بلا جدوى. أتساءل: ماذا ستقولين لى؟ أتظنين أنك قد وجدت أخيراً الكلمات التى لم تجرؤى قط على نطقها؟ آه، أنتِ أحببتى؟، لماذا لم نقل ذلك؟ أنا أحببتك. لم أعد أذكر. تربيتك تجبرنى على رؤيتك ولا أعرف، لا أفهم لماذا، وأنت جالسة إلى جوارى، تتقاسمين معى فى النهاية هذه الذكرى ودون لوم فى عينيك هذه المرة. الكبرياء. لقد أنقذنا الكبرياء. وأماتنا الكبرياء.

- ... بمرتب بائس، بينما يهيننا بهذه المرأة، يقذف بالتurf فى وجوهنا، يمنحنا ما يمنحنا وكأننا شحاذون...

لم يفهموا. لم أفعّل شيئاً من أجلهم. لم أضعهم فى حسابانى. فعلته من أجلى. لا تهمنى هذه الحكايات. لا يهمنى تذكر حياة تيريسا وخيراردو. لا يهتموننى.

- لماذا لم تطلب منه أن يعطيك مكانك، يا خيراردو؟ أنت مسئؤل مثله تماماً...

لا يهتموننى.

- إهدئى، تيريسيتا، إفهمى وضعى؛ أنا لا أشكو.

- قليلٌ من الشخصية؛ ولا هذا...

- دعوه يستريح.

- لا تتحازى إلى جانبه! لم يُعذب أحداً قدر ما عذّبك...

أنا نجوت. يا ريخينا. ماذا كان اسمك؟ لا. أنت ريخينا. ماذا كان اسمك أنت، أيها الجندى بلا اسم؟ جونتالو. جونتالو برنال. هندى ياكى. ياكى بائس. نجوت. وأنتم متم.

- وكذلك عذّبنى. كيف يمكن أن أنسى. لم يحضر حتى الفرس.

عُرسى، عُرس ابنته...

لم تفهما أبداً. لم أكن بحاجة إليهما. صنعت نفسى وحدى.

جندى. ياكى. ريخينا. جونثالو.

- لقد حطمت حتى ما أحبه، يا ماما، أنت تعرفين.

- لا تتكلمى. بحق الرب، لا تتكلمى...

الوصية؟ لا تشغلوا بالكم: توجد ورقة مكتوبة، ومختومة، ومسجلة أمام موثق؛ أنا لا أنسى أحداً: لماذا أنساكم، لماذا أكرهكم؟ ألن تشكروا لى هذا، سرّاً؟ ألن يسعدكم التفكير فى أننى حتى اللحظة الأخيرة فكرت فيكم لأسخر من نفسى؟ لا، أنا أذكركم بلا مبالاة إجراء بارد، عزيزتى كاتالينا، ابنتى الحبيبة، حفيدتى، زوج ابنتى: أوزع عليكم ثروة هائلة، ستسبونها أنتم، علناً، إلى مجهودى، إلى دأبى، إلى إحساسى بالمسئولية، إلى مميزاتى الشخصية. إفعلا ذلك. إجلسوا هادئين. إنساوا أننى كسبت هذه الثروة مُعرضاً حياتى للخطر، دون أن أعرف، فى صراع لم أشأ فهمه لأنه لم يكن يناسبنى أن أعرفه، أن أفهمه، إذ لم يكن يستطيع معرفته، وفهمه إلا من لا ينتظرون شيئاً من وراء توضيحتهم. هذه هى التوضيحية، أليس هذا حقاً؟ منح كل شىء مقابل لا شىء. كيف سنسمّى، إذن، منح كل شىء مقابل كل شىء؟ لكن هؤلاء لم يقدموا لى كل شىء. هى قدمت لى كل شىء. ولم آخذه. لم أعرف كيف آخذه. ماذا سيكون اسمها؟

* O.K. The picture's clear enough. Say, the old boy at — "

the Embassy wants to make a speech comparing this Cuban

* أو. كى. الصورة واضحة بما يكفى. لنقل أن الفتى الكبير فى السفارة يريد أن يلقي خطاباً يقارن فيه هذه الفوضى الكويتية بالثورة المكسيكية العتيقة. لماذا لا تمهد الجو بإفتاحية...؟

mess with the old - time Mexican revolution. Why don't you
the climate with an editorial...?×prepare

" - نعم، نعم. سنفعل. عشرون ألف بيسو؟

Seems fair enough. Any ideas? - "

" - نعم. قل له أن يُقيم تضاداً واضحاً بين حركة فوضوية،
دموية، مُدمرة للملكية الخاصة ولحقوق الإنسان وبين ثورة منظمة،
سلمية، ومشروعة مثل الثورة المكسيكية، التي أدارتها طبقة وسطى
تستلهم جيفرسون. إن ذاكرة الناس سيئة في نهاية المطاف. قل له أن
يتملقنا.

"Fine. So long, Mr. Cruz, it's always ... - "

آه، يا له من قصف للإشارات، والكلمات، والمثيرات لسمعي
المتعب؛ آه، يا للإرهاق؛ لم يفهموا إيماءتي لأنني لا أكاد أستطيع
تحريك أصابعي؛ فليقطوه، لقد أسأمتي، ما علاقة ذلك، يا للضجر، يا
للضجر...

- باسم الأب، والإبن...

- إنتظرتك هذا الصباح بابتهاج. لنعبر النهر على صهوة الجياد.

- لماذا إنتزعته من جانبي؟

سأورثهم الميئات اللامجدية، الأسماء الميئة لريخينا، للياكى...
توبياس، الآن أتذكر، كانوا ينادونه باسم توبياس... لجونثالو برنال،
لجندي بلا إسم. وهي؟ إنها أخرى.

- أفتحوا النافذة.

- لا. قد تصاب بالبرد وتُعقد الأمور.

لاورا. لماذا؟ لماذا جرى كل شيء على هذا النحو؟ لماذا؟

أنت ستبقى على قيد الحياة: ستعاود تحسُّس الملاءات وستعرف أنك قد بقيتَ على قيد الحياة، برغم الزمن والحركة اللذين يُقلِّلان حظوظك مع كل لحظة: بين الشلل وبين الانفلات يقع خط الحياة: المفامرة: ستتخيَّل الأمان النهائي، ألا تتحرك أبداً: ستتخيَّل نفسك ساكناً، في مأمن من الخطر، من الصدفة، من عدم اليقين: لن يوقف هدوؤك الزمن الذي يجري بدونك، رغم أنك تخترعه وتقيسه، الزمن الذي ينفي سكونك ويُخضعك لخطرهِ المتمثل في الإنقراض: مفامراً، ستقيس سرعتك بسرعة الزمن:

الزمن الذي ستخترعه لتظلَّ على قيد الحياة، لتتظاهر بوهم بقاء أطول على الأرض: الزمن الذي سيخلقه مُحكَّ بقوة إدراك ذلك التابع للضوء والظلمات في لوحة الحلم؛ بقوة الإبقاء على تلك الصور للصفاء الذي تتهدَّه التراكمات المركَّزة والسوداء للسحب، ونذير الرعد، وما يتبعُ البرق، والإنصباب المنهمر للمطر، والظهور الأكيد لقوس قزح؛ بقوة الإنصات إلى النداءات الدورية للحيوانات في الجبل؛ بقوة الصراخ بعلامات الزمن: عواء زمن الحرب، عواء زمن الحِداد، عواء زمن الإحتفال؛ في النهاية، بقوة قول الزمن، التحدث بالزمن، التفكير في الزمن غير الموجود لكون لا يعرفه لأنه لم يبدأ مطلقاً ولن ينتهى أبداً: لم تكن له بداية، ولن تُكون له نهاية ولا يعرف أنك ستخترع مقياساً للامتأهى، احتياطياً للعقل: ستخترع وتقيس زمناً غير موجود،

ستعرف، ستميز، ستحكم، ستحسب، ستخيل، ستوقع، وستنتهى
بالتفكير فيما لن يكون له واقع آخر سوى ما يخلقه مخك، ستتعلم
السيطرة على عنفك حتى تسيطر على عنف أعدائك: ستتعلم فرك
خشبين حتى تشتعلا لأنك ستكون بحاجة إلى وضع مشعل على مدخل
كهفك وإخافة الوحوش التي لن تتبيّنك، التي لن تفرّق لحمك عن لحم
الوحوش الأخرى وسيكون عليك أن تشيّد ألف معبد، وتصدر ألف
قانون، وتكتب ألف كتاب، وتعبد ألف إله، وترسم ألف لوحة، وتصنع
ألف آلة، وتسيطر على ألف شعب، وتحطم ألف ذرة لتعود وتضع
مشعلك المشتعل على مدخل الكهف،

وستفعل كلّ هذا لأنك تفكر، لأنك ستكون قد طوّرت تصريفاً
عصبياً في المخ، شبكة كثيفة قادرة على تلقّي المعلومات وإرسالها من
الجبهة إلى الوراء: ستبقى على قيد الحياة، ليس لأنك الأقوى، بل
بفعل الصدفة الداكنة لكون يزداد برودة باستمرار، لن يبقى فيه على
قيد الحياة سوى التكوينات العضوية التي تعرف كيف تحافظ على
درجة حرارة أجسادها في مواجهة تغيّرات الوسط المحيط، التي تركّز
هذه الكتلة العصبية في الجبهة وتستطيع توقع الخطر، والبحث عن
الغذاء، وتنظيم حركتها وتوجيه سباحتها في المحيط المستدير، الممتد،
المزدحم للأصول: ستبقى في قاع البحر الأنواع الميّتة والمفقودة،
أخواتك، ملايين الأخوات التي لم تخرج من الماء بنجومها الخمسة
القابلة للإنقباض، بأصابعها الخمسة المغروسة في الضفة الأخرى، في
الأرض الصلبة، في جُزر الفجر: ستبزغ مع الأميبا، والزواحف،
والطيور مهجّنة معاً: الطيور التي ستلقى بنفسها من القمم الجديدة
لتتحطم في الهاوى الجديدة، وهي تتعلم خلال إخفاقها، بينما صارت
الزواحف تطير والأرض تبرد: ستبقى على قيد الحياة مع الطيور التي
يحميها الريش، مُلتقّة بسرعة حرارتها، بينما تنام الزواحف الباردة،

تبيت بياتاً شتوياً وتموت فى النهاية وأنت ستتشبَّ حوافرك فى الأرض الصلبة، فى جزر الفجر، وستغرق مثل حصان، وستتسلق الأشجار الجديدة بدرجة حرارتك الثابتة وستهبط بخلايا مخك المتمايزة، ووظائفك الحيوية التى صارت تلقائية، وثوابتك من الهيدروجين، والسُّكَّر، والكالسيوم، والماء، والأكسجين: حراً لتفكر فيما يتجاوز الحواس المباشرة والاحتياجات الحيوية.

ستهبط بخلايا مخك العشرة آلاف مليون، ببطارتك الكهربائية فى رأسك، مَرناً، مُتَحَوِّلاً، لتستكشف، لتُشبع فضولك، لتقترح على نفسك غاياتٍ، وتحققها بأقل مجهود، لتتجنب الصعوبات، لتستشرف، وتتعلم، وتنسى، وتذكر، وتربط بين الأفكار، وتتعرف على الأشكال، وتضيف درجاتٍ إلى الهامش الذى تركته الضرورة حُرّاً، وتطرح إرادتك من جوانب جاذبية ورفض الوسط المادى، وتبحث عن الشروط المواتية، وتقيس الواقع بمعيار الحد الأدنى، وترغب سِرّاً فى الحد الأقصى، ولا تُعرض نفسك، رغم ذلك، لرتابة الإحباط:

تتعوّد، تتوافق مع متطلبات الحياة المشتركة:

ترغب: ترغب فى أن تكون رغبتك والشيء المرغوب هما نفس الشيء؛ تحلم بالتحقق الفورى، بالتماهى دون أى إنقصال بين الرغبة وما هو مرغوب:

تتعرف على نفسك:

تتعرف على الآخرين وتجعلهم يتعرفون عليك: وتعرف أنك تُعارض كل فردٍ، لأن كل فردٍ هو عقبة أخرى أمام بلوغ رغبتك: ستختار، ستختار حتى تبقى على قيد الحياة، ستختار واحدة فقط من بين المرايا اللانهائية، واحدة فقط ستعكسك بطريقة لا رجوع فيها، وستملأ بقية المرايا بظل أسود، ستقتل أنت هذه المرايا قبل أن تقدم لك، مرة أخرى، هذه الطرق اللانهائية أمام الاختيار:

ستقرر، ستتقى واحداً من الطرق، ستضحى بالبقية: ستضحى
بنفسك عندما تتقى، ستكف عن كونك كل الرجال الآخرين الذين كان
يمكنك أن تكونهم، ستود أن يكمل رجال آخرون - رجل آخر - بدلاً منك
الحياة التي شوَّهتها عندما اخترت: عندما اخترت نعم، عندما اخترت
لا، عندما سمحت ليس لرغبتك، المطابقة لحريتك، بأن ترشدك في
متاهة، بل لمصلحتك، لخوفك، لكبريائك:
ستخاف من الحب، ذلك اليوم:
لكنك ستستطيع إستعادته: سترقد وعيناك مغمضتان، لكنك لن
تكف عن الرؤية، لن تكف عن الرغبة، لأنك على هذا النحو ستجعل
الشيء المرغوب ملكك:
الذكرى هي الرغبة المتحققة
اليوم حيث حياتك ومصيرك هما نفس الشيء.

(١٩٣٤: ١٢ أغسطس)

هو من إنتقى عود ثقاب، وحكّه على الجانب الخشن لعلبة
الكبريت، تأمل اللهب وقريّه من طرف السيجارة. أغمض عينيه.
إستنشق الدخان. مدّد ساقيه واضطجع في المقعد المخملى؛ مسدّد
المخمل بيده الخالية وشم أريج أزهار أقحوان موضوعة في إناء
زجاجي، على الطاولة، خلف ظهره. أنصت إلى الموسيقى البطيئة،

المنبعثة من الفونوغراف، الموضوع هو الآخر خلف ظهره.
- أنا جاهزٌ تقريباً.

بحثٌ مُتَحَسِّساً، بيده الخالية، عن الألبوم المفتوح الموضوع فوق
منضدة الجوز الصغيرة، إلى يمينه. لمس أغلفة الكرتون، وقرأ Deuts-
chen Grammophon Gesellschaft وأنصت إلى الإستهلال الجليل
للتشيلو الذى انفصل عن بقية الآلات، وأبرز حضوره، وتغلب فى
النهاية على قرار الكمنجات وأزاحها إلى المرتبة الثانية. كفَّ عن
الإنصات. سوَّى رباط عنقه ورَبَّتْ خلال بضع ثوان على الحرير
المنبج، ذلك الحرير الذى يخشخش بخفةٍ حين تلمسه الأصابع.
- هل أُعِدُّ لك شيئاً؟

إتجه إلى المنضدة الواطئة، على عجالات، المخصَّصة لحمل أنواع
الزجاجات والكؤوس حيث إنتقى زجاجة ويسكى إسكتلندى وكأساً
ثقيلة، من زجاج بوهيميا، وقاس إصبعين من الويسكى داخل الكأس،
ثم إختار مكعباً من الثلج وصب قليلاً من الماء المعدنى.
- ما تتأوله أنت.

عندئذ كرَّر العملية وتناول الكأسين بين يديه، وهزَّهما، وأدارهما
قليلاً فى راحتيه حتى يمتزج الويسكى جيداً بالماء واقترب من باب
المخدع.

- دقيقة واحدة.

- هل إختارته من أجلى؟

- نعم. أتذكُر؟

- نعم.

- إعذرنى لتأخُّرى.

عاد إلى المقعد. عاود تناول الألبوم، ووضعه على ركبتيه. Werke
von Georg Friedrich Händel. إستمعاً إلى الكونشرتوهين فى تلك

القاعة المفرطة التدفئة وبالصدفة كان من حظهما أن جلسا جنباً إلى جنب، واستمعا - إستمعت هي - لأنه كان يتحدث بالإسبانية ويُعلّق مع صديق له على أن التدفئة أكثر من المعتاد في القاعة. طلب هو منها البروجرام بالإنجليزية فابتسمت هي وقالت له، بالإسبانية، بكل سرور. إبتسم الإثنان. كونشرتى جروسي، العمل رقم ٦.

تواعدا على اللقاء في الشهر التالي، حين كان كلاهما سيصل إلى تلك المدينة، في ذلك المقهى في شارع كومارتان، بالقرب من بولفار دي كابوسين، والذي سيعاود هو زيارته بعدها بسنوات، بدونها، دون أن يستطيع تحديد موقعه بالضبط، راغباً في أن يراه من جديد، في أن يعود فيطلب نفس المشروب، وحدده بأنه مقهى له ديكور أحمر وبنّي داكن، بكراسي رومانية بلا ظهر وبار طويل من الخشب المائل إلى الحمرة، ليس مقهى في الهواء الطلق، لكنه مقهى مفتوح، دون أبواب. شرباً نعناعاً بالماء. وعاود الطلب. قالت هي أن سبتمبر هو أفضل الشهور، نهاية سبتمبر وبدايات أكتوبر. الصيف الهندي. العودة من الإجازات. دفع الحساب. تعلّقت بذراعه، ضاحكة، مستشقة الهواء، وعبرا أفنية الباليه رويال، وسارا بين قاعات العرض والأفنية، وهما يدوسان أوراق الشجر الأولى الميتة، ترافقهما الحمائم، ودخلا ذلك المطعم ذا الموائد الصغيرة وظهور الكراسي المخملية وحوائط المرايا الملونة، والمزّين برسوم قديمة، بطلاء قديم من الذهب، والأزرق، والبنّي الداكن.

- جاهزة.

نظر من فوق كتفه ورآها تخرج من المخدع، واضعة القرط في شحمة أذنها، ومُسوية بيدها شعرها الناعم، بلون العسل. قدّم لها الويسكي المعدّ ورشفت هي رشفة صغيرة، مُكرمشة أنفها وجلست في المقعد الأحمر، ووضعت ساقها اليمنى فوق الأخرى ورفعت الكأس إلى

مستوى عينيها. أجاب هو بإيماءٍ مماثلة وابتسم لها، ينما إلتقطت هي شيئاً من على ياقة ردائها الأسود. كانت آلة الكلافسان تؤدي النغمة المحورية لذلك الهبوط، بمصاحبة آلات الكمان: تخيله كهبوط من القمة، وليس كمسيرةٍ إلى الأمام: هبوط بطيء، غير محسوس، يتحول عند لمس الأرض إلى بهجةٍ من التضادات بين نغمات الكمنجات العميقة والحادة. كانت آلة الكلافسان قد أفادت، مثل الأجنحة، في الهبوط ولس الأرض. والآن، على الأرض، كانت الموسيقى ترقص. نظر الإثنان إلى بعضهما.

- لاورا...

أصدرت إشارةً بإصبعها السبابة وواصل الإثنان الإستماع؛ هي جالسة، والكأس بين يديها؛ وهو واقفاً، يدير كرة الأبراج السماوية حول محورها، ويوقفها من حين إلى حين ليتبين الأشكال المرسومة بالفضة فوق الهيئة المفترضة للمجرات: centauro, altar, pez, lebril, escudo, cuervo. أخذت الإبرة تدور فوق الصمت؛ مشى هو حتى الفونوغراف، رفع الإبرة عن الأسطوانة، ووضعها فوق مسندها.

- ناسبتك الشقة جداً.

- نعم. أمرٌ غريب. لكنها لم تتسع لكل أشياءي.

- إنها على أحسن حال.

- اضطررت لتأجير بدروم للإحتفاظ بكل ما لم تتسع له.

- لو شئت، لأمكنك...

- شكراً. - قالت ضاحكة -: أتمنى فقط بيتاً كبيراً، سابقى في

هذه الشقة.

- أتريد سماع المزيد من الموسيقى، أم نمضي؟

- لا. نكمل الكأس ونخرج.

توقفاً أمام تلك اللوحة وقالت هي أنها تروقها جداً ودائماً ما

تأتى لرؤيتها لأن هذه القطارات المتوقفة، وهذا الدخان الأزرق، وهذه البيوت الضخمة بالأزرق والأصفر فى العمق، وهذه الأشكال الآدمية الممحيّة، المُشار إليها بالكاد، وهذا السقف الفظيع، من الحديد وقطع الزجاج الداكنة، لمحطة سان - لازار المرسومة بريشة مونية تروقهها جداً، هى ما يروقهها فى هذه المدينة حيث الأشياء، ربما، ليست جميلة جداً إذا نُظر إليها معزولة، فى تفاصيلها، لكنها لا تُقاوم إذا نُظر إليها سوياً. قال لها أن تلك فكرة فضحكت هى وربّت على يده وقالت له أن معه حق، أنها تروقهها ببساطة، يروقهها كل شىء، أنها راضية وعاد هو، بعدها بسنوات، لرؤية تلك اللوحة، حين كانت معروضة فى ال - چى - دو - پوم* وقال له المرشد الخاص أن الأمر لافت، فخلال ثلاثين عاماً تضاعفت قيمة تلك اللوحة أربع مرات، وهى الآن تساوى عدة آلاف من الدولارات، أمرٌ لافت.

إقترب، توقف خلفها، ربّت على مسند المقعد ثم لمس كتفى لاورا. أمالت رأسها على يد الرجل، ومسّدت خدّها بأصابعه. تنهدت إبتسامة جديدة، إبتعدت ورشفت قليلاً من الويسكى. طوّحت رأسها إلى الورا، وعيناها مغمضتين، وإبتلعت الرشفة بعد أن أبقتها بين لسانها وحلقها.

- يمكننا أن نعود العام القادم. ألا تظنين؟

- نعم، يمكننا أن نعود.

- أتذكر كثيراً كيف كنا نتمشى فى الشوارع.

- وأنا أيضاً. لم تكن قد ذهبت أبداً إلى ال - Village*. أتذكر أننى

أخذتك إلى هناك.

* Jeu - de - Paume: متحف للفن الحديث فى قصر التويلرى كانت تعرض فيه

اللوحات الانطباعية . م.

** Village: حى راق فى نيويورك . م.

- نعم. يمكننا أن نعود.

- ثمة شيءٌ حىٌ جداً فى تلك المدينة. أتتذكّر؟ لم تكن قد تعلمت تمييز رائحة النهر والبحر معاً. لم تكن قد حدّدتها. سرنا حتى نهر الهدسون وأغمضنا عيوننا حتى نميّزها.

تتاوّل يد لاورا، وقبّل أصابعها. رنّ جرس التليفون وتقدّم هو ليتناول السماعة، رفعها واستمع إلى الصوت الذى كان يردّد: - أيوه... أيوه، أيوه... لاورا؟

وضع يداً فوق السماعة السوداء وقدمها إلى لاورا. تركت هى الكأس فوق المنضدة الصغيرة ومشّت حتى التليفون.

- نعم؟

- لاورا. أنا كاتالينا.

- نعم. كيف حالك.

- ألا أعطلك؟

- كنت خارجة.

- لا، لن آخذ منك وقتاً طويلاً.

- قولى.

- ألا آخذ وقتك؟

- لا، أقول لك لا.

- أعتقد أنتى إرتكبت خطأ. كان يجب أن أقول لك.

- حقاً؟

- نعم، نعم. كان يجب أن أشتري منك الأريكة. الآن وأنا أفرش

المنزل الجديد إنتبهت. هل تذكرين الأريكة، تلك الأريكة المزينة بشغل

الإبرة؟ تصوّرى أنها يمكن أن تناسب الردهة على نحو جيد جداً، لأننى

أشتريت بضع سجاجيد فرنسية، سجاجيد لتزيين الردهة وأعتقد أن

الشيء الوحيد الذى يناسبها هو أريكتك المشغولة...

- من يدري. ربما كان شغل الإبرة أكثر مما ينبغي.
- لا، لا، لا. إذ أن سجاجيدي ألوانها غامقة وأريكتك ألوانها فاتحة، بحيث أن هناك تضاداً جميلاً.
- لكنك تعرفين أنتى فرشت هذه الأريكة هنا، فى الشقة.
- آه، لا تكونى هكذا. لديك مايزيد عن حاجتك من الأثاث. ألم تحكى لى أنك وضعت أكثر من نصف الأثاث فى بدروم؟ نعم، حكيت لى، أليس كذلك؟
- نعم. لكننى رتبت الصالة بحيث...
- إذن فكرى فى الأمر. متى ستأتين ل ترى المنزل؟
- وقتما تشائين.
- لا، ليس هكذا، بشكل غير محدد. إختارى يوماً لنتناول الشاي سوياً ونتحدث.
- الجمعة؟
- لا، الجمعة لا أستطيع، لكن الخميس ممكن.
- إذن الخميس.
- لكننى أقول لك أنه بدون قطعة أثاثك ستضيع الردهة، أكاد أفضل لو لم يكن لدى ردهة، أترين؟ ستضيع. من السهل توضيب شقة. سترين.
- إذن الخميس.
- ورأيت زوجك ماشياً فى الشارع. حيانى بإهتمام كبير. لاورا، إنها لخطيئة، خطيئة أن تطلقا. وجدته أمور جداً. وواضح أنه يفتقدك. لماذا، يا لاورا، لماذا؟
- هذا أمرٌ إنقضى.
- إذن الخميس. نحن الإثنان وحدنا، لنتحدث على راحتنا.
- نعم، يا كاتالينا. إلى الخميس.

- وداعاً.

دعاها للرقص وعبرا صالونات فندق پلازا ذات النخيل المزروع في الأصص وتوجّها إلى الصالون وأخذها هو بين ذراعيه وربّتت هي على أصابع الرجل الطويلة، ولمست حرارة راحة يده، وأسندت رأسها على كتف رفيقها، وباعدتها، ونظرت إليه بإمعان، مثلما نظر هو إليها: ناظرين إلى بعضهما، ناظرين إلى بعضهما، عينا خضراوان، وعيناها رماديتان، ناظرين إلى بعضهما، وحيدين في صالون الرقص مع تلك الأوركسترا التي كانت تعزف لحن بلوز بالغ البطء، ناظرين إلى بعضهما، والأصابع متعانقة، والقامة متعانقة، يدوران بطء، وتلك الجونلة ذات الكرانش، تلك الجونلة...

وضعت هي السماعه ونظرت إليه وانتظرت. مشت حتى الأريكة المشغولة وربّتت عليها وعاودت النظر إلى الرجل.

- هل تسمح بإضاءة النور؟ هذا الذي إلى جوارك. شكراً.
- إنها لا تعرف شيئاً.

إبتعدت لاورا عن الأريكة ونظرت إليها. - لا، الضوء أكثر مما يجب لا أعرف بعد كيف أوزعه جيداً. إضاءة منزل ضخمة ليست كإضاءة هذه...

شعرت بأنها مرهقة، جلست على الأريكة، تناولت كتاباً صغيراً، مجلداً بالجلد، من المنضدة الجانبية وقلبت صفحاته. أزاحت إلى جانب شعرها الأشقر الذي كان يغطي نصف وجهها، بحثت عن ضوء الأباжورة وتمتمت بصوت خفيض ما تقرأه، وحاجبها مرفوعان وفي شفتيها إستكانة خفيفة. قرأت ثم أغلقت الكتاب وقالت: - كالديرون دي لا باركا، ورددت من الذاكرة، ناظرة إلى الرجل: - ألن تكون ثمة سعادة ذات يوم؟ يا إلهي، قل لي، لماذا خلقت أزهاراً، إن لم يكن للشّم أن يستمتع بالرائحة الناعمة لأريج عطورها...

تمددت فوق الأريكة، مُغطّية عينيها بيديها، مُردّدة بصوتٍ دقيق،
مُرهق، بصوتٍ لا يريدُ أن يسمع نفسه أو يُسمع: - ... إن لم يكن
للسمع أن يسمعها؟ ... إن لم يكن للعيون أن تراها؟ ... وأحسّت يده
فوق عنقها، تلمس اللآلئ الحية، متلامسة مع جلد الصدر.
- أنا لم أجبرك...

- لا، لا علاقة لك. هذا أمرٌ سابق.

- ولماذا حدث؟

- أوه، ربما لأن فكرتي عن نفسي مفرطة في الخُيلاء... لأننى
أعتقد أننى أستحق معاملة أفضل... ألا أكون شيئاً بل شخصاً.
- ومعى؟

- لا أدرى. لا أدرى. أنا فى الخامسة والثلاثين. ومن الصعب أن
نبدأ من جديد، ما لم يمدّ لنا أحدٌ يداً... تكلمنا تلك الليلة، أتذكر؟
- فى نيويورك.

- نعم. قلنا أننا يجب أن نعرف بعضنا...

- ... أن إغلاق الأبواب أخطر من فتحها... ألا تعرفنى حتى الآن؟
- أنت لا تقولين شيئاً أبداً. لا تطلبين منى شيئاً أبداً.

- كان علىّ أن أفعل ذلك، أليس كذلك؟ لماذا؟

- لا أدرى...

- لا تدرى. ولن تدرى إلا إذا أفصحتُ لك...

- ربما.

- أنا أحبك. وأنت قلت لى أنك تحببى. لا، أنت لا تريد أن
تفهم... أعطنى سيجارة.

أخرج علبة السجائر من جيب الجاكتة. إنتقى عود ثقاب وأشعله
بينما تناولت هى السيجارة وأحست بالورق بين شفّتيها، وبلّته، وأزالت
الحافة المنتزعة، الملتصقة بالشفة، بإصبعين وفركتها بين الإصبعين،

وقذفتها بخفةٍ وانتظرت. ونظر هو إليها.

- الآن ربما إستأنفت دروسى. فى الخامسة عشرة كنت أريد أن أرسـم. ثم نسيت ذلك بعدها.

- ألن نخرج؟

نزعـت حذاءها، وأراحت رأسها على وسادة، ونفثت حلقات الدخان نحو السقف.

- لا، لن نخرج الآن.

- أتريدىن ويسكى آخر؟

- نعم، أعطنى آخر.

تناول الكأس الفارغ من على المنضدة، نظر إلى بقعة أحمر الشفاه على حافته، إستمع إلى خشخشة مكعب الثلج وهو يصطدم بالزجاج، مشى حتى المنضدة الواطئة، صب الويسكى من جديد، تناول مكعب الثلج الآخر بالكماشة الفضية...

- دون ماء، لو سمحت.

سألته هى إن كان لا يقلقه أن يعرف إلى ماذا تنظر، إلى من وإلى ماذا تنظر الفتاة الواقفة فوق الأرجوحة، المكتسية بالبياض - بالبياض والظل - والشرائط الزرقاء المعقودة تنتشر على طول الفستان؛ قالت له أن شيئاً يظل دائماً خارج اللوحة، لأن العالم الذى تمثله اللوحة يجب أن يتسع، أن يمتد إلى خارجها ويصبح ممثلاً بألوان أخرى، بحضورات أخرى، بإغراءات أخرى، تتشكل بفضلها اللوحة وتكون. خرجا إلى شمس سبتمبر. سارا، تحت بواكى شارع ريقولى وقالت هى أنه يجب أن يعرف ميدان فوسج، الذى ربما كان أجمل الميادين. أوقفا سيارة أجرة. فرد هو فوق ركبتيه خريطة المترو وأخذت هى تتبّع بإصبعها الخط الأحمر، والخط الأخضر، متعلقة بذراعه، ونفسها قريب جداً من نفسه، قائلة أن تلك الأسماء تسعدُها، ولا تتعبُ من ترديدها،

ريشار لونوار، ليدرو - رولان، فى دو كالثير...
ناولها الكأس وعاد لإدارة كرة الأبراج السماوية، لقراءة الأسماء
serpens, libra, argo navis, horologium, piscis, sagittarius, cater,
lupus. جعلها تدور، تاركاً إصبعه يحتك بالكرة، يلمس النجوم الباردة،
النائية.

- ماذا تفعل؟

- أنظر إلى هذا العالم.

- آه.

إنحنى وقبّل شعرها المحلول؛ أومأت برأسها، وابتسمت.

- زوجتك تريد هذه الأريكة.

- سمعتُ.

- بماذا تتصحنى؟ هل يجب أن أكون سَخِيَّة؟

- كما تشائين.

- أم لا مبالية؟ هل أنسى أنها كلمتني؟ أفضّل أن أكون لا مبالية.

السخاء مثل شتمة قبيحة ودون ظُرفٍ أحياناً، ألا تظنّ ذلك؟

- لا أفهمك.

- ضع قليلاً من الموسيقى.

- أيّها تريدين الآن؟

- نفس الموسيقى. ضع نفس الموسيقى، لو سمحت.

قرأ الأرقام على الأربعة وجوه. رتبها، وضغط الزر، وترك
الأسطوانة تسقط، تسقط بلطماتها الجافة على القرص اللين. شم
ذلك المزيج من الشمع والمواسير الساخنة والخشب الملمّع وعاد
الإستماع إلى أجنحة الكلافسان، الهبوط الناعم نحو البهجة، إلى زهد
الكلافسان، زهده فى الهواء، حتى يلمس مع الكمنجات الأرض

- الصلبة، الدِّعامة، ظهر العملاق.
- هل ارتفاع الصوت مناسبٌ هكذا؟
- أعلى قليلاً. أرتيميو...
- نعم؟
- لم أعد أحتمل أكثر، يا حَبِّى. عليك أن تختار.
- إصبرى، يا لاورا. خذى بالك...
- من ماذا؟
- لا تجبرينى.
- على ماذا؟ هل أنت خائفٌ منى؟
- ألسنا على ما يرام هكذا؟ هل ينقص شىء؟
- من يدرى. ربما لا ينقص شىء.
- لا أسمعك جيداً.
- لا، لا تخفض الصوت. إستمع إلىّ رغم الموسيقى لقد تعبْتُ.
- أنا لم أخدعكِ. ولم أجبركِ.
- لم أغَيِّرْكِ، وهو أمرٌ مختلف. أنت لستَ مستعداً.
- أنا أحبكِ هكذا، كما كنّا حتى الآن.
- مثل أول يوم.
- نعم، هكذا.
- لم يعد اليوم أولُ يوم. الآن تعرفنى. قل لى.
- خذى بالك، يا لاورا، لو سمحت. فهذه الأشياء تُسبِّبُ الأذى.
- يجب أن نعرف كيف نراعى...
- المظاهر؟ أم الخوف؟ لكن لن يحدث شىء، تأكّد أن شيئاً لن يحدث.
- كان يجب أن نخرج.
- الآن لا. لا، الآن لا. إجعل الصوت أعلى.

إرتطمت الكمنجاتُ بالزجاج: البهجة، الزهد. بهجة تلك التقطية
المفتصبة تحت العينين الصافيتين واللامعتين. تناول هو القبعة من فوق
كرسى. مشى نحو باب الشقة. توقف ويده فوق المقبض. نظر إلى
الوراء. لاورا مُقْرِفِصَةً، والوسائد بين ذراعيها، مُدِيرَةً ظهرها إليه.
خرج. أغلق الباب بعناية.

أنا أستيقظ مرةً أخرى، لكن بصرخةٍ هذه المرة: شخصٌ ما غرس
نصلاً طويلاً وبارداً فى معدتى؛ شخصٌ ما من الخارج: فأنا لا يمكننى
أن أحاول إغتيال حياتى بهذه الطريقة: ثمة شخص، ثمة آخر قد
غرس قطعة صلب فى أحشائى: أفرد ذراعى، أبذل جهداً كى أنهض
فأجد الأيدى، الأذرع الغريبة تسندنى، تطالبنى بالهدوء، تقول أنتى
يجب أن أظل ساكناً ويسجلُ إصبعٌ بسرعة الأرقام فى التليفون،
يخطىء، يعاود المحاولة، ويعاود الخطأ، وينجح أخيراً فى الإتصال،
يطلب الدكتور، حالاً، بسرعة، لأننى أودّ لو أنهض وأخفى الألم
بالحركة ولا يتركوننى أفعل - من يكونون؟ من يكونون؟ - وتتصاعد
التقلصات، أتخيلها مثل حلقات أفعى، تصعد حتى الصدر، حتى
الحنجرة، وتملأ لسانى، فمى، بهذا الطعام المطحون، المرّ، لوجبة
قديمةٍ ما نسيتهما والآن أتقيؤهما، ووجهى إلى أسفل، باحثاً عبثاً عن إناءٍ
بورسلين لا عن هذه السجادة الملطخة بسائل معدتى السميك والكريه

الرائحة: لا يتوقف، يחדش صدرى، إنه شديد المرارة ويجعل حنجرتى
تضحك، يُدغدِغنى دغدِغَاتُ مُفْرِعة: يستمر، لا يتوقف، إنه هضم
قديم مع دمٍّ، أتقيؤه فوق سِجادة المِخدع ولا أحتاج لأن أرى نفسى كى
أحس بشحوب وجهى، بزرقة شفَتى، بالإيقاع المتسارع لقلبى بينما
يختفى النبض من معصمى: غرسوا نصلاً فى سرَّتى، نفس السِرة التى
غذَّتى بالحياة ذات مرة، ذات مرةٍ ولا أستطيع أن أصدِّق ما تقوله لى
أصابعى حين ألمس هذه البطن المتصقة بجسدى لكنها ليست بطنى:
منتفخة، متضخمة، بارزة بفعل هذه الفازات التى أحس بها تتحرك ولا
أستطيع إطلاقها، مهما ضغطتُ: هذه الضغوطات التى تصعد حتى
حنجرتى وتعود للهبوط إلى بطنى، إلى أمعائى، دون أن أستطيع
إطلاقها: لكننى أستطيع شمَّ نَفَسِ العِطِن، الآن وأنا أتمكن من
الإستلقاء وأشعر أنهم بجوارى ينظفون السجادة بتعجُّل: أشمُّ الماء
بالصابون، الخرقة المبللة التى تحاول هزيمة رائحة القيء تلك: أريد أن
أنهض؛ إذا مشيت فى الحجرة سينقشع الألم، أنا أعرف أنه سينقشع:
- إفتحوا النافذة.

- لقد حطمت حتى ما أحبه، يا ماما، أنت تعرفين.

- لا تتكلمى. بحق الرب، لا تتكلمى.

- ألم يقتل لورنثو، ألم يفعل...؟

- إسكتى، يا تيريسا! أمتنع من أن تواصلى الكلام. إنك

تجرحيننى.

هيه، لورنثو؟ لا يهم. لا يهمنى. فليقولوا كل شىء. أعرف منذ
زمن بعيد ما يقولونه دون أن يجروءوا على قوله لى. فليقولوه الآن.
فلينتهزوا الفرصة. لقد فرضتُ نفسى. وهم لم يفهموا. هم ينظرون
إلى كالتماثيل بينما الكاهن يدهننى بالزيت فى جفنى، وفى عيني، وفى
شفَتى، وفى قدمى ويدي، وبين ساقى، قرب عورتى. أوصل جهاز

التسجيل، ياباديا .

لنعبّر النهر...

وتوقفنى هى، تيريسا، وهذه المرة أرى الخوف فى عينيها، أرى الذعر فى تقطية شفيتها الخاليتين من الأصباغ، وفى ذراعى كاتالينا ثقل لا يُحتمل من الكلمات التى لم تتطرق أبداً وأمنعها أنا من نطقها: يتمكنون من طرحى على الفراش: لا أستطيع، لا أستطيع، الألم يثنى خصرى، على أن ألمس أطراف قدميَّ بأطراف أصابعى حتى أعرف أن القدمين موجودتان ولم تختفيا، مثلجتين، ميتين فعلاً، آآآآآآآآآآ ميتين فعلاً وأنتبه الآن فقط إلى أنه دائماً، طوال حياتى، كانت ثمة حركة غير ملحوظة فى أمعائى، طوال الوقت، حركة أتعرف عليها الآن فقط لأننى فجأة لم أعد أحسُّ بها: لقد توقفت، كانت حركة موجية صاحبتنى طوال حياتى، والآن لا أحسُّ بها، لا أحسُّ بها، لكننى أنظرُ إلى أظافرى حين أفردُ يديَّ لألمس قدميَّ المثلجتين اللتين لم أعد أحسُّ بهما، أنظر إلى أظافرى الجديدة الزرقاء، المسودة، التى نبتت كى أموت، آآخ - آآآى، لا، سينقضى هذا، لا أريد هذا الجلد الأزرق، هذا الجلد الملون بلون الدم الميت، لا، لا لا أريده، الأزرق شئ آخر، السماء زرقاء، الذكريات زرقاء، الخيول التى تعبر الأنهار زرقاء، زرقاء الجياد اللامعة وأخضر هو البحر، الأزهار زرقاء، أزرق أنا لا، لا، لا، لا، آآآآآآآآآى، وعلى أن أسقط على ظهري لأننى لا أدري إلى أين أتوجه، ولا كيف أتحرك، لا أدري إلى أين أوجه ذراعى وساقى اللتين لا أحسُّ بهما، لا أدري إلى أين أنظر، لم أعد أريد النهوض لأننى لا أدري إلى أين أذهب، لدى فقط هذا الألم فى سرّتى، هذا الألم فى بطنى، هذا الألم بجانب ضلوعى، هذا الألم فى شرجى وأنا أدفع بلا جدوى، أدفع وأنا أجدش نفسى، أدفع وساقاي منفرجتين ولم أعد أشمُّ شيئاً لكننى أستمع إلى نحيب تيريسا وأحسُّ بيد كاتالينا على ظهري.

لا أدري، لا أفهم لماذا، وأنت جالسة إلى جوارى، تتقاسمين معى هذه الذكرى أخيراً وهذه المرة دون لوم في نظرتك. آه، لو فهمت. لو فهمنا. ربما كان ثمة غشاء آخر خلف العيون المفتوحة والآن فقط سنمزقه، لنرى. يمكن أن يخرج من الجسد بقدر ما يمكن لجسد المرء أن يستقبله من نظرة، ومن تربيته الآخرين. تلمسينى. تلمسين يدي وأحس بيدك دون أن أحس بيدي. تلمسينى. تربت كاتالينا يدي. هل يكون حباً. أتساءل. لا أفهم. هل يكون حباً؟ كنا معتادين تماماً. على أنتى إذا قدّمت الحب، تردّ هي باللوم؛ على أنها إذا قدّمت الحب، أردّ أنا بالكبرياء: ربما كانا نصفين لنفس العاطفة، ربما. تلمسينى. تريد أن تتذكر معى ذلك، ذلك وحده؛ أن تفهمه.

- لماذا؟

- لنعبر النهر على صهوة الجياد...

أنا نجوت. يا ريخينا. ماذا كان اسمك؟ لا. أنت ريخينا. ماذا كان اسمك أنت، أيها الجندي بلا أسم؟ نجوت. وأنم متّم. أنا نجوت.

- اقتربى، يابنيتى... حتى يتعرّف عليك... قولى له اسمك...

لكننى أسمع نحيب تيريسا وأحس بيد كاتالينا على ظهري وبالحركة السريعة ذات الصرير لذلك الرجل الذى يتحسّس معدتى، ويقبس نبضى، ويفتح بعنف أجفانى ويغرق عينى في ضوء زائف يضئ وينطفئ، يضئ وينطفئ ويعاود تحسس معدتى، يدخل إصبعاً في شرجى، يدخل الترمومتر الساخن والكحولى في فمى وتتوقف الأصوات الأخرى ويقول الشخص الحديث الوصول شيئاً على مبعده، في قاع نفق:

- من المستحيل أن نعرف. قد يكون فتقاً مُحْتَبساً. وقد يكون إلتهاباً في الغشاء البريتونى. وقد يكون مغص إلتهاب كلوى، وفي هذه الحالة، يجب حقنه بإثنين سنتيجرام من المورفين. لكن هذا يمكن أن

يكون خطيراً. أعتقد أننا يجب أن نستشير طبيباً آخر.

آى أيها الألم الذى يهزم نفسه بنفسه، آى أيها الألم الذى تستطيل حتى لا يعود الأمر يُهمُّ، حتى تتحول إلى حالة إعتيادية: آى أيها الألم، لن أعود أتحمّلُ غيابك، أعودُ عليك، آى أيها الألم، آى... قـل شيئاً، دون أرتيميو، تكلم، لو سمحت. تكلم.

- ... لا أتذكرها، لم أعد أتذكرها، نعم، كيف سأنساها...
- أنظر: النبض يتوقف تماماً حين يتكلم.
- إحقنه، يا دكتور، حتى لا يتعذب...
- يجب أن يراه طبيب آخر. الأمر خطير.
- ... كيف سأنساه...
- إسترح، من فضلك. لا تقل شيئاً. هكذا. متى تبوّل آخر مرة؟
- هذا الصباح... لا، منذ ساعتين، دون أن يدري.
- ألم تحتفظوا بالبول؟
- لا... لا.
- ضعوا له المبوّلة. إحتفظوا بالبول؛ من الضروري تحليله.
- لم أكن هناك؛ فكيف سأذكر؟
مرة أخرى ذلك الشئ البارد. مرة أخرى عضوى الميت موضوعاً في الفتحة المعدنية. سأتعلم كيف أحيا مع كل هذا. إنها نوبة؛ نوبة يمكن أن تصيب عجوزاً في سنّ؛ نوبة ليست شيئاً من العالم الآخر؛ ستتقضى؛ لا بد أن تنقضى؛ لكن الوقت قليل جداً، لماذا لا يتركونى أتذكرُ ذلك؟ نعم، حين كان الجسد فتياً؛ كنت فتياً ذات مرة؛ كنت فتياً... آه، الجسد يموت ألماً، لكن المخ يمتلئ بالضوء: ينفصلان، أعرف أنهما ينفصلان: لأننى الآن أتذكرُ ذلك الوجه.

- أظهر الندم:
لى ابن، صنعته أنا: لأننى الآن أتذكرُ ذلك الوجه: من أين أمسكُ

به، من أين حتى لا يهرب، من أين، بحق الرب، من أين، من فضلك، من أين.

أنت ستصيحُ من أعماق ذاكرتك: ستخفض رأسك كأنك تريد أن تُقربها من أذن الحصان وتهمزها بالكلمات. ستحسُّ - ولا بد أن ابنك سيحس بنفس الشئ - بذلك النفس القوى، الذي يتصاعد منه البخار، بذلك العرق، بتلك الأعصاب المشدودة، بتلك النظرة الزجاجية، بفعل المجهود. سيضيع الصوتان تحت رنين الحوافر وسيصيح هو: "لم تستطع أبداً التغلب على المهرة، يا بابا!" "ومن علمك ركوب الخيل؟ هيه؟"، "أقول لك أنك لا تستطيع التغلب على المهرة!"، "لنرى!" "يجب أن تحكى لى كل شئ، يا لورنثو، مثلما حدث حتى الآن، تماماً... تماماً مثلما حدث حتى الآن... لا يجب أن يُخجلك شئ، إن كنت تحكيه لأُمك؛ لا، لا، لا ترتبك أبداً في حضوري؛ فأنا أفضل صديق لك، وربما صديقك الوحيد... ستُكرّر ذلك ذاك الصباح، مُمدّدة فوق الفراش، ذاك الصباح الربيعي وسترددُ لنفسها كل المحادثات التي كانت قد أعدتها منذ طفولة ابنها، منتزعة إياه منك، وهي ترعاه اليوم بطوله، رافضة أن تقبل مربية، ساجنة الطفلة، منذ سن ست سنوات، في المدرسة الداخلية الدينية، حتى يصبح الوقتُ كله للورنثو، حتى يعود لورنثو على تلك الحياة المريحة،

دون خيارات. ستجعل السرعة الدموع تطفّر من عينيك: ستحتضن بساقيك بطن الحصان الكُميت، ستطوّح بنفسك بعنف على غُرَّتِه، لكن المهرة السوداء ستظل تسبقك بثلاثة أطوال. ستتصبّب، مُرهقاً؛ ستخففُ عدّوك. سيبدو لك أجمل أن ترى المهرة والفارس الشاب وهما يبتعدان بتلك الضوضاء الضائعة في غناء الببغاوات الضخمة، في القفار التي ستحدر من جوانب الجبال: سيكون عليك أن تزرر عينيك حتى لا تغيب عن بصرك مهرة لورنثو، التي ستتحرف الآن عن الدرب لتعاود الخَبَبَ باتجاه النباتات المتكاثفة، عائدة إلى مجرى النهر. لا: دون خيارات صعبة، دون ضرورات مزعجة للاختيار، ستقول كاتالينا لنفسها، مُفكرةً في أنك، في البداية، قد ساعدتها بلا مبالاة، دون أن تدري، لأنك ستكون منتمياً إلى عالم آخر، ذلك العالم المتمثل في العمل والقوة الذي عَرَفْتُهُ هي حين أخذت أنت أراضى الدون جمالييل، تاركاً الطفل لينضم، في البداية، إلى العالم الآخر للمخادع نصف المضاءة: وسط طبيعي، مناخ من الاستبعادات والاندماجات غير المحسوسة تقريباً، تصنعه هي بين الغمغمات المقدسة، والتصنعات الهادئة. ستتحرف مهرة لورنثو عن الدرب لتعاود الخَبَبَ باتجاه النباتات المتكاثفة، عائدة إلى مجرى النهر. سيشير ذراع الفتى المرفوع صوب الشرق، حيث بزغت الشمس، صوب البحيرة التي يفصلها عن البحر حاجزُ النهر. ستغمض عينيك حين تحسّ، من جديد، بتصاعد البخار الساخن نحو وجهك، بهبوط الظل المنعش فوق رأسك، ستترك الحصان يواصل طريقه وحده ويؤرجحك فوق السرج المبلّل بالعرق. وخلف أجفانك المغمضة، سيتناثر في ومضاتٍ غير مرئية شكل الشمس وشكل الظل، سيرتسم الطيف الأزرق للهيئة الشابة والقوية. ستكون قد إستيقظت ذاك

الصباح، مثل كل الصباحات، بالبهجة المتوقعة. "لقد أدريتُ دائماً خدًى الآخر"، ستردد كاتالينا، والطفل قريب منها، "دائماً؛ دائماً ما تحملتُ كل شئ؛ لو لم يكن من أجلك"، وستحبُّ أنتِ هاتين العينين المندھشتين، المتسائلتين، اللتين ستتركانك تقودهما: "ذات يوم سأحكي لك...". لن تخطئ بحملك لورنثو إلى كوكويا منذ سن الثانية عشرة؛ سترر ذلك: لا. من أجله فقط ستكون قد اشتريت الأراضى، وأعدت بناء الضيعة وتركته فيها، طفلاً - سيداً، مسئولاً عن الحصادات، مفتوحاً على حياة الخيول والصيد، حياة السباحة وصيد السمك. ستراه من بعيد، على صهوة المهرة، وستقول لنفسك أنه قد صار صورة شبابك، ممشوقاً وقوياً، أسمرأ، وعيناه الخضروان غائرتان في وجنتيه البارزتين. ستستنشق العفن الطينى للضفة. "ذات يوم سأحكي لك... أبوك؛ أبوك، يا لورنثو..." ستترجّلان بجانب الأعشاب المتماوجة للبحيرة. وسيخفض الحصانان خطميهما، وقد تحرراً، سيلعقان الماء، سيلعقان أحدهما الآخر وفماهما رطبان. وعلى الفور سيجريان ببطء، بخيب منوم، وهما يُفرّقان الأعشاب المتدلية في الماء، ويهزان عرْفيهما؛ ويثيران زبداً متناثراً، تاركين الشمس وانعكاس الماء يذهبانهما. سيضع لورنثو يده فوق كتفك. "أبوك؛ أبوك، يا لورنثو... لورنثو: هل تحبُّ حقاً الربَّ ألهنا؟ هل تؤمن بكل ما علمتكَ؟ هل تعرف أن الكنيسة هي جسدُ الرب على الأرض وأن الكهنة هم مفوضو الرب...؟ هل تؤمن...؟" سيضع لورنثو يده فوق كتفك. ستظران في عيون بعضكما، وستبتسمان. ستمسكُ لورنثو من رقبته؛ سيتظاهر الفتى بتوجيه ضربة إلى معدتك؛ ستتكش أنت شعره، ضاحكاً؛ ستتعانقان في صراع زائف لكنه قوى، مُطلق العنان، لاهث، حتى تسقطا مستسلمين فوق العشب، ضاحكين،

مختقين، ضاحكين... "يا إلهي، لماذا أسألك عن هذا؟ ليس لي الحق، فعلاً ليس لي الحق... لا أدري، في امتحان الرجال القديسين... امتحان الشهداء الحقيقيين... هل تعتقد أنه يمكن أن ينجح؟ ... لا أدري لماذا أسألك..." سيعود الحصانان، مُتَعَبَيْنِ مثلكما وستسيران، ممسكين بعنانيهما، على طول الجسر الرملي المؤدّي إلى البحر، إلى البحر المفتوح، لورنثو، وأرتيميو، إلى البحر المفتوح، إلى حيث سيجري لورنثو، متوثباً، نحو الأمواج التي ترتطم بخصره، إلى البحر الإستوائي الأخضر الذي سيبلّ بنطلونه، البحر الذي يحرسه طيران النوارس المنخفض، البحر الذي يقنع بإخراج لسانه المتعب فوق الشاطئ، البحر الذي ستتأوله أنت، بدافع تلقائي، في راحة يدك وترفعه إلى شفّتك: البحر الذي له طعم بيّرة مُرّة، ويفوح برائحة الشّمَام، والجوانابانا*، والجوافة، والسفرجل، والتوت: سيجذب الصيادون شباكهم الثقيلة نحو الرمل، ستقتربان، ستكسران معهم صدقات القواقع، ستأكلان معهم الكابوريا والجمبري وكاتالينا، وحيدة، ستحاول أن تغمض عينيها وتنام، ستنتظر عودة الصبي الذي لم تره منذ عامين، منذ أن أكمل الخامسة عشر ولورنثو، وهو يمزّق الغلاف الوردي للجمبري ويشكر الصيادين على شريحة الليمون التي يناولونه إياها، سيسألك إن كنت لا تفكر أبداً فيما يوجد على الجانب الآخر من البحر، لأنه يعتقد أن الأرض كلها تُشبه بعضها، والبحر وحده هو المختلف. ستقول له أن ثمة جُزُر. سيقول لورنثو أن أشياء كثيرة تحدث في البحر، وكأن علينا أن نكون أضخم، أكمل حين نعيش في البحر. وتودُّ أنت فقط، وأنت تتمدّد على الرمل وتستمع إلى القيثارة المحلية لصيادي بيراكروث، تودُّ فقط أن تشرح له أنه في

* guánabana : ثمرة خشنة من الخارج ذات نواة بيضاء.. شهية قد يبلغ وزنها كيلو جرامين. تنمو في المناطق الاستوائية من أمريكا-م.

السنوات المنصرمة، منذ أربعين سنة، إنكسر شئٌ هنا، كى يبدأ شئٌ
أو كى لا يبدأ أبداً شئٌ، أكثر جدّةً. تحت شمس الفجر الغائمة، في
شمس الظهيرة القوية والمصهورة، على الدروب السوداء وبجانب هذا
البحر، هذا، الهادئ الآن، الكثيف، الأخضر، وُجدَ بالنسبة لك طيفٌ،
ليس واقعياً رغم أنه حقيقى، كان يمكنه... لم يكن ذلك - نفس
حقيقة تلك الإمكانيات الضائعة - هو ما أزعجك إلى هذا الحد، ما
دفعك للعودة إلى كوكويا ولورنثو في يدك، بل شيئاً أشدَّ صعوبةً -
ستقول ذلك بعينيك المغمضتين، بطعم الجمبرى في فمك، باللحن
البيراكروثى في مسامعك، ضائعاً في إتساع هذا الأصيل - في
التعبير عنه، في التفكير فيه وأنت وحيد؛ ورغم أنك تودُّ أن تقوله
لإبنك، فلن تجرؤ: يجب أن يفهم من تلقاء ذاته: تسمعه يتمدد،
يقرفص، ووجهه بإتجاه البحر المفتوح، وأصابعه العشرة مفتوحة،
تحت السماء الغائمة، الداكنة على حين غرة: "ستبحر سفينة خلال
عشرة أيام. وقد حجزت تذكرة": السماء ويد لورنثو التى تمتد لتتلقى
أولى قطرات المطر، كأنها تتسوّلها: "ألم تكن أنت لتفعل نفس الشئ،
يا بابا؟ أنت لم تبق في دارك. الإيمان؟ لا أدري. أنت أتيت بى إلى
هنا، وعلمتني كل هذه الأشياء. كائننى عدتُ لأحيا حياتك، أتفهمنى؟"
"نعم". الآن هناك تلك الجبهة. أعتقد أنها الوحيدة الباقية.
وسأذهب"... أوه، هذا الألم، أى هذه الوخزة، آى، كم سيتودُّ أن
تهض، وتجري، وتتسى الألم وأنت تسير، تعمل، تصيح، تنظم: ولن
يتركوك، سيأخذونك من ذراعيك، سيجبرونك على أن تظل هادئاً،
سيجبرونك، جسمانياً، على مواصلة التذكر، ولن تريد، تريد، آى، لا
تريد: ستكون فقط قد حلمت بأيام تخصُّك: لا تريد أن تعرف شيئاً
عن يوم يخصُّك أكثر من أى يوم آخر، لأنه سيكون اليوم الوحيد الذى
يحياه شخص آخر من أجلك، الوحيد الذى ستستطيع تذكره باسم

شخص آخر؛ يومٌ قصير، رعب، يومٌ أشجار حور بيضاء، يا أرتيميو،
إنه يومُك أيضاً، إنها حياتك أيضاً... آى.

(١٩٣٩ : ٢ فبراير)

هو من كان فوق السقيفة، وبين يديه بندقية، وتذكر حين كان
الإثنان يخرجان للصيد إلى البحيرة. لكن هذه بندقية صدئة، لا تُفيد
في الصيد. من السقيفة، ظهرت واجهة الأسقفية. لم تبق سوى
الواجهة، مثل قشرة دون طوابق ولا أسقف. خلف الواجهة، كانت
القنابل قد هدمت كلَّ شئ. ظهرت بعض قطع الأثاث القديمة.
مدفونة؛ وفي الشارع كان يسير في صف واحد رجل له عنق دجاجة
وأمرأتان تلبسان السواد. زَرَّروا أعينهم وهم يحملون بين أيديهم بعض
الصُّرر ويمشون بخطو ذاهل بجانب الواجهة. كان يكفى النظر إليهم
للتعرُّف على الأعداء.

- هيه، إلى الرصيف الآخر!

صاح فيهم من ذلك الموقع المرتفع فوق السقيفة فرفع الرجل
وجهه وأعشت الشمس عويناته. هز ذراعه ليشير لهم أن يعبروا
الشارع ويتجنبوا خطر الواجهة التي بدت على وشك الانهيار. عبروا
الشارع وعلى البعد دَوَّت طلقات مدفعية الفاشيين - كانت ترن جوفاءً
حين تسقط في تجاويف الجبل وحادة حين تصفر في الهواء - بعدها

جلس على كيس رمل. إلى جواره كان ميجيل. لم يكن شئ ليفصله عن المدفع الرشاش. رأيا من السقيفة شوارع القرية المهجورة. كانت في الشوارع حُفر، وأعمدة تلفراف مكسورة وكابلات متشابكة - وذلك الدوى الذى لا ينتهى لطلقات المدفعية والـ تـاك - تـاك - تـاك لبعض البنادق، وألواح القرميد الجافة والباردة -: وحدها واجهة الأسقفية. القديمة ظلت واقفة في ذلك الشارع.

- لم يبق لدينا سوى شريط واحد من طلقات الرشاش - قال لميجيل فأجاب ميجيل: - سننتظر حتى الغروب. وبعدها...

استندا على الجدار وأشعلا سيجارتين. لف ميجيل كوفيته حتى أخفت لحيته الشقراء. هنالك على البعد، كانت الجبال مغطاة بالجليد؛ كان الجليد قد تساقط كثيراً، رغم أن الشمس تلمع. في الصباح، كانت الجبال ترتسم ويبدو أنها تتقدم نحوهم. ثم ستراجع، عند الغروب؛ ولن تعود ترى الدروب وصنوبرات السفوح. وعند نهاية النهار، لن تعود سوى كتلة نائية وبنفسجية.

لكن في تلك الظهيرة، نظر ميجيل إلى الشمس وزرّ عينيه وقال له: - لو لم تكن المدافع وتكتكة الطلقات، لحسب المرء أننا في سلام. جميلة أيام الشتاء هذه، إنظر إلى أين هبط الجليد.

نظر إلى التجاعيد البيضاء والعميقة التى تسرى من جفون ميجيل إلى خده الملتحي؛ كانت تلك التجاعيد مثل الجليد لوجهه. لن ينساها، لأنه تعلم أن يرى فيها المأساة، والشجاعة، والسخط، والهدوء. أحياناً كانوا قد كسبوا في المعارك، قبل أن يدفعوهم من جديد إلى الوراء. وأحياناً كانوا يخسرون فقط. لكن قبل الكسب والخسارة، كانت خطوط وجه ميجيل تحمل التعبير الذى يجب أن يرتسم فيها. تعلم

الكثير من وجه ميجيل. ولم يكن ينقصه سوى أن يراه ييكى.
أطفأ السيجارة على الأرضية فامتد طرفها مثل خيطٍ من الشرر
وسأل ميجيل لماذا أخذوا يخسرون فأشار إلى جبال الحدود وقال: -
لأن مدافعنا الرشاشة لم تمرّ من هناك.
• أطفأ ميجيل السيجارة هو الآخر وبدأ يدندن:

الجنرالات الأربعة، الجنرالات الأربعة،
الجنرالات الأربعة، يا أماء،
الذين تمرّدوا...

فأجابه هو، مستنداً بدوره على أكياس الرمل:
مع حلول عيد الميلاد، يا أماء،
سيكونوا قد سُنقوا، سيكونوا قد سُنقوا...

أنشدا كثيراً، لقتل الوقت. كان ثمة ساعات كثيرة مثل هذه،
يتوليان فيها الحراسة ولا يحدث شيء فينشدان. لم يكونا يعلنان أنهما
سينشدان. كذلك لم يكونا يشعران بالخجل من الغناء بصوت عالٍ أمام
الآخرين. تماماً مثلما كانا يضحكان دون سبب ويلعبان أنهما
يتصارعان وينشدان كذلك على الشاطئ قرب كوكويا، مع صيادى
السّمك. لكنهما الآن ينشدان لتقوية عزيمتهما، رغم أن كلمات النشيد
لا بد أنها تبدو كسخرية، لأن الجنرالات الأربعة لم يُسنقوا، بل قطعوا
عليهم خط الرجعة في هذه القرية وأمامهم كانت الحدود الجبلية. ولم
يعد أمامهم مكان يذهبون إليه.

بدأت الشمس في الإختفاء مبكراً، حوالى الرابعة بعد الظهر،
وربّت هو على بندقيته العتيقة المائلة إلى اللون البرتقالى، بمقبضها

الملون بالأصفر، ووضع قلنسوته. لف كوفيته، تماماً مثل ميجيل. منذ عدة أيام، أراد أن يقترح عليه أمراً. كان حذاؤه متهاكاً، لكنه مازال يتحمل. وبالمقابل، كان ميجيل يمشى بخفٍ قماشى قديم، ملفوف في خرق قماش ومربوط بخيوط. كان يريد أن يقول له أنهما يمكن أن يتاوبا الحذاء: يوم يرتديه هو ويوم يرتديه أنا. لكنه لم يجرؤ. كانت تجاعيد الوجه تقول له أنه لا يجب أن يفعل ذلك. الآن أخذا ينفخان في أيديهما، لأنهما يعرفان ما يعنيه قضاء ليلة شتوية فوق السقيفة. عندئذ، من عمق الشارع، ظهر يجرى، وكأنه خرج من إحدى تلك الحُفر، جندى من رجالنا، جمهورى. لوح بذراعيه وسقط أخيراً، على وجهه. وخلفه، كان عدة جنود جمهوريون يضربون بأحذيتهم الأرضية المقصوفة بالقنابل. فذلك القصف المدفعى، الذى بدا نائياً جداً، إقترب دفعة واحدة ومن الشارع صاح أحد الجنود:

- سلاح، من فضلكم، سلاح!

- لا تتوقفوا! - صرخ الرجل الذى كان في مقدمة جنودنا.. لا تكونوا هدفاً سهلاً!

مروا جرياً أسفلهما فصوصاً المدفع الرشاش نحو مؤخرة رفاقهما: إعتقدا أنهم يطاردونهم.

- لابد أنهم أصبحوا على مقربة - قال لميجيل.

- صوب، يا مكسيكى، صوب جيداً - قال له ميجيل وتناول بين راحتيه آخر شريط طلقات بقى لديهم.

لكن رشاشاً آخر سبقهما، على مسافة ناصيتين أو ثلاث، كان وكر رشاش متمرس آخر، لكنه تابع للفاشيين، قد إنتظر لحظة إنسحابنا والآن يرشق الرشاش الشارع ويقتل جنودنا.

لكن ليس قائدهم، الذى إنبطح على وجهه وصاح:

- إنبطحوا على بطونكم! لن تتعلموا أبداً!

حوّل هو وضع الرشاش ليطلق النار على وكر الرشاش المتمرس
ذاك وغابت الشمس خلف الجبال. نيران الرشاش بين يديه هزّت
جسده وغمغم ميجيل: - العزيمة وحدها لا تكفى. المغاربة* الشُّقر
مجهزون تجهيزاً أفضل.

فقد أصدرت المحركات أزيزاً فوق رأسيهما.

- ها قد وصلت طائرات كاپرونى.

كان يقاتلان جنباً إلى جنب، لكنهما لم يعودا يريان بعضهما في
الظلام، مدّ ميجيل ذراعه ولمس كتفه. للمرة الثانية هذا اليوم، يقصف
الطيران الإيطالى القرية.

- هيا بنا، يا لورنثو. ها قد عادت طائرات كاپرونى.

- إلى أين نذهب؟ ماذا؟ هل نترك الرشاش؟

- لم يعد يفيد. ليس لدينا طلقات.

كان الرشاش المعادى قد سكت أيضاً. وتحتهما، في الشارع، مرّت
جماعة من النساء. تبيّناهن لأنهن كن ينشدن، رغم كل شئ، بأصوات
مرتفعة.

مع ليستر وكامپسينو

مع جالان ومع مودستو،

مع القومندان كارلوس،

لا يعرف جنود الميليشيا الخوف...

كانت أصواتاً غريبة، بين كل ضجيج القنابل، لكنها أقوى من
القنابل، لأن هذه كانت تتساقط بين الحين والحين بينما تُشد

x moros : تقال - تحقيراً للمغاربة الذين حاربوا في صفوف فرانكو. والشُّقر
تجعل الإشارة إلى الاسبان الفاشيين مع التحقير الموجه للمغاربة-م.

الأصوات طوال الوقت. "ولم تكن أصواتاً عسكريةً جداً، يابابا، بل أصوات نساء عاشقات. كنَّ ينشدن لمقاتلي الجمهورية كما ينشدن لأحبائهن وهناك في أعلى، وقبل أن نتخلّى عن الرشاش، تلامست بالصدفة يدانا أنا وميجيل وفكرنا في نفس الشئ. أنهن تنشدن لنا، لميجيل ولورنثو وأنهن يحببتنا..."

عندئذٍ إنهارت واجهة الأسقفية فانبطحا على الأرض، يغطّيهما الغبار، وفكر هو في مدريد، حين وصل، في المقاهي الغاصّة بالناس حتى الثانية أو الثالثة فجراً، حين لم يكونوا يتكلمون إلا عن الحرب ويشعرون بنشوة هائلة، بيقين هائل بأنهم سينتصرون وفكر في أن مدريد ستظل تقاوم وفي أن نساء مدريد صنعن من القنابل فتاحات زجاجات... زحفاً حتى السلم. كان ميجيل ساكناً. ومضى هو يجرجر بندقيته البرتقالية. كان يعرف أن لديهم بندقية واحدة لكل خمسة محاربين. وقرر ألا يُفقد بندقيته. هبطا السلم الحلزوني.

"أظن أن طفلاً كان يبكي في إحدى الغرف، لا أدري، لأنتى ربما خلطت بين البكاء وبين صفارات الإنذار الجوى". لكنه تخيله هناك، وقد هجره ذووه. هبطا مُتَحَسِّسين طريقيهما، في الظلام. كانت الظلمة من الكثافة بحيث أنهما عند خروجهما إلى الشارع بدا لهما أن الوقت نهار. قال ميجيل: "لن يَمروا" * فأجابته النساء: "لن يَمروا" أعشاهما الليل ولا بد أنهما سارا قليلاً فاقدى الاتجاه، لأن إحدى النساء جرت نحوهم وقالت: - ليس من هنا. تعالوا معنا.

حين تعودوا على ضوء الليل، كانوا جميعاً منبطحين على وجوههم

* no pasarán : شعار الجمهوريين، أطلقته دولوريس إيباروري، الزعيمة الشيوعية، أثناء حصار مدريد، دلالة على الإصرار على عدم ترك الفاشيين يَمرون-م

على الرصيف. عزلهم الانهيار عن الرشاشات المعادية: كان الشارع مقطوعاً؛ استنشق هو الغبار، وكذلك عرق الفتيات المستلقيات إلى جواره. حاول أن يرى وجوههن. ولم ير سوى كاسكيت، سوى بيريه من الصوف، حتى رفعت الفتاة الممددة إلى جواره وجهها فرأى شعرها المفكوك، الكستائي، الذي أبيض بفعل جير الانهيار وقالت هي:

- أنا دولورس

- لورنثو. وهذا ميجيل.

- أنا ميجيل.

- فقدنا جماعتنا.

- كنا من الفرقة الرابعة.

- كيف نخرج من هنا؟

- يجب الالتفاف وعبور الجسر

- هل تعرفان المكان؟

- ميجيل يعرفه.

- نعم، أنا أعرفه.

- من أين أنت؟

- أنا مكسيكي.

- آه، إذن لن يكون التفاهم صعباً.

ابتعدت الطائرات ونهض الجميع على أقدامهم. ذكرت نوري ذات الكاسكيت ومارياً ذات البيريه الصوف إسميهما فكرراً هما إسميهما. كانت دولورس ترتدى بنطلونها وچاكتة والإشتان الأخريان معطفين وحقيبتى ظهر. تقدموا في طابور عبر الشارع المهجور، قريباً جداً من جدران المنازل العالية، تحت الشرفات الداكنة بنوافذها المفتوحة، كأن اليوم صيف. سمعوا صوت الطلقات الذي لا ينتهى، لكنهم لم يعرفوا من أين تأتى. أحياناً، كانوا يدوسون الزجاج المكسور أو كان ميجيل،

الذى يمضى في مقدمة الطابور، يقول لهم أن يحذروا أحد الكابلات. نبح فيهم كلبٌ من مدخل أحد الشوارع فقذفه ميغيل بحجر. في إحدى الشرفات كان يجلس عجوزٌ على كرسيه الهزاز وكوفيته ملفوفة حول رأسه. لم ينظر إليهم حين مرّوا ولم يفهموا ماذا يفعل هناك: هل ينتظر عودة أحد أم ينتظر بزوغ الشمس. لم ينظر إليهم.

أخذ هو نفساً عميقاً. تركوا القرية وراءهم وبلغوا حقل أشجار حور عارية. ذلك الخريف، لم يجمع أحدٌ الأوراق الجافة التى أخذت تخشخش تحت أقدامهم، وقد إسودّت من الرطوبة. نظر إلى الخرق المبلّلة التى تلف قدمى ميغيل وأراد، مرةً أخرى، أن يُقدم له حذاءه، لكن الرفيق كان يسير بثباتٍ بالغ، تحمله ساقان قويتان ورشيقتان جداً، بحيث إنتبه إلى لا جدوى أن يُقدم له ما لا يحتاجه. وعلى البعد، كانت تنتظرهم جوانب الجبال الداكنة. ربما، سيحتاج الحذاء عندما يبلغونها. أما الآن فلا. الآن كان هناك الجسر وتحتة يجرى نهرٌ موأّرٌ وعميق توقف الجميع لينظروا إليه.

- ظننته سيكون متجمداً - أوماً هو إيماءة ضيق.
- أنهار إسبانيا لا تتجمد أبداً - غمغم ميغيل - تجرى دوماً.
- لماذا؟ - وجهت دولورس سؤالها إليه هو.
- لأننا على هذا النحو يمكننا أن نتجنب الجسر.
- لماذا؟ - قالت الآن ماريا وكان الثلاثة الآخرون، بنظراتهم المتسائلة، مثل أطفال فضوليين.

قال ميغيل: - لأن الجسور ملفومة عموماً.
لم تتحرك المجموعة الصغيرة. مَسَمَرهم النهر السريع الأبيض الذى يجرى تحت أقدامهم. لم يتحركوا. حتى رفع ميغيل وجهه ونظر نحو الجبل وقال:

- لو عبرنا الجسر، لأمكننا الوصول إلى الجبل ومن هناك إلى

الحدود. ولو لم نعبره، سيعدموتنا بالرصاص...

- إذن؟ - قالت ماريًا بشهقة مكتومة وللمرة الأولى رأى الرجلان نظرتها الزجاجة والمتعبة.

- لقد خسرنّا! - صرخ ميجيل وضم قبضتيه الفارغتين وتحرك هكذا، كأنه يبحث في الأرض المغطاة بالأوراق السوداء عن بندقية - ما من عودة إلى الوراء! فلم يعد لدينا لا طيران، ولا مدفعية، ولا أى شئ! لم يتحرك هو. ظل ناظرًا إلى ميجيل حتى أمسكت دولورس، اليد الدافئة لدولورس، الأصابع الخمسة التي سحبتها لتوها من إبطها، بالأصابع الخمسة للفتى وفهم هو. بحثت عن عينيه ورأى هو، للمرة الأولى كذلك، عينيه، رَمَش ورأهما خضراوين، تماماً مثل البحر قرب أرضنا. رأها منكوشة الشعر ودون أصباغ، وخداها محمرّان من البرد وشفثاها ممتلئتان وجافتان. لم يلتفت إليهما الثلاثة الآخرون. سارا، هي وهو، متشابكى اليدين وداسا فوق الجسر. تشكك هو للحظة. لكنها لم تتشكك. منحتهما الأصابع العشرة دفئًا، هو الدفء الوحيد الذي شعر هو به خلال كل هذه الشهور.

"... الدفء الوحيد الذي شعرتُ به خلال كل تلك الشهور من التراجع البطئ نحو قطالونيا وجبال البرانس..."

استمعا إلى خرير النهر تحتتهما وإلى طقطقة ألواح خشب الجسر. وإذا كان ميجيل والفتاتان قد صاحا عليهما من الضفة الأخرى، فإنهما لم يسمعا. فقد إستطال الجسر، بدا كأنه يعبر محيطاً وليس هذا النهر المندفع.

"دق قلبي بسرعة. ولا بد أن النبض كان محسوساً في يدي، لأنها رفعتها ووضعتها على صدرها وأحسستُ هناك بقوة قلبها..."

عندئذ سارا جنباً إلى جنب دون خوف وقصُر الجسر.

من الجانب الآخر للنهر، انبثق ما لم يكونا قد رأياه. شجرة دردار

ضخمة بلا أوراق، ضخمة، جميلة، وبيضاء. لم يكن الجليد يغطيها، بل ثلج لامع. التمعت مثل جوهرة، من فرط بياضها، في الليل. أحسّ هو بثقل بندقيته فوق كتفه، بثقل ساقيه، وقدميه الرصاصيتين فوق خشب الجسر: بكل تلك الخفة، والالتماع، والبياض بدت له شجرة الدردار تلك التي تتظرهما. تشبّث بأصابع دولورس. أعمته الريح الثلجية. فأغمض عينيه.

"أغمضت عيني، يابابا، وفتحتهما، خائفاً ألا تعود الشجرة هناك..."

عندئذ أحست الأقدام بالأرض، توقفاً، لم ينظرا إلى الورا، جرياً كلاهما نحو شجرة الدردار، دون أن يعيرا إلتفاتاً لصرخات ميغيل والفتاتين، ودون أن ينصتا للمسيرة الجديدة لرفاقهما فوق الجسر، جرياً واحتضنا الجذع العاري، الأبيض المكسوّ بالثلج، إهتزازاً ملتصقين به بينما تتساقط تلك اللآلئ من البرد فوق رأسيهما، تلامسا بأيديهما وهما يعانقانه ثم انفصلا بعنف عن شجرتهم ليتعانقا دولورس وهو، ليرتّب هو على جبهتها وترتّب هي على عنقه؛ تباعدت هي حتى يرى بشكل أفضل عينيها الخضراوين، النديتين، وفمها المنفرج قبل أن تدفن رأسها في صدر الفتى وترفع وجهها وتمنحه شفيتها، قبل أن يحيط بهما الرفاق، لكن دون أن يعانقوا الشجرة كما فعلا...

"يالدفتك، يالولا، ما أدفأك وكم صرتُ أحبك!"

عسكروا في نتوءات سلسلة الجبال. تحت تاج الجليد. بحث ميغيل والشاب عن أغصان وأشعلا ناراً. جلس هو بجوار لولا وعاد ليمسك بيدها. أخرجت ماريّاً من حقيبة ظهرها إناءً مكسوراً وملأته بالجليد وأذابته فوق النار كما أخرجت قطعة من جبن الماعز.. وبعدها، ضاحكة، أخرجت نوري من صدرها بعض الأكياس المجعّدة من شاى ليطنون وضحكوا جميعاً من وجه قبطان اليخت الإنجليزي

ذاك الذى يزئ أكياس الشاى.

حكى نورى أنه قبل سقوط برشلونه كانت قد وصلت علب تبغ، وشاى ولبن مجفف بعث بها الأمريكيون. كانت نورى مائلة إلى البدانة ومرحة وعملت قبل الحرب في مصنع منسوجات، لكن ماريا تحدثت وتذكرت أيام أن كانت تدرس في مدريد وتعيش في نزل الطلبة وتخرج إلى الإضرابات ضد بريمو - دى ريبيرا* وتبكي في حفلات افتتاح مسرحيات لوركا.

"أكتب لك، وأنا أسند الورق على ركبتي، وأسمعهم يتحدثون وأحاول أن أقول لهن كم أحب إسبانيا ولا يخطر ببالى سوى الحديث عن زيارتي الأولى إلى توليدو، وهي مدينة كنت أتخيلها كما رسمها إلجريكو، ملتفة بإعصار من البروق والسحب المخضرة، مشيدة فوق نهر التاخو الضيق، مدينة، كيف أقول لك؟ كانت في حرب ضد نفسها. ووجدت مدينة تستحم في الشمس، مدينة للشمس والصمت وقصر مقصوف، لأن لوحة إلجريكو - أحاول أن أقول لهن - هي كل إسبانيا وإذا كان تاخو** توليدو أشد ضيقاً، فإن جرح إسبانيا يمتد من البحر إلى البحر. رأيت هذا هنا، يا بابا. هذا ما أحاول أن أقول لهن..."

هذا ما قاله لهن، قبل أن يبدأ ميغيل في حكى كيف انضم إلى لواء المقدّم أسنثيو وكم كلفه أن يتعلم القتال. قال لهم أن كل مقاتلى الجيش الشعبى بالغو الشجاعة، لكن ذلك لا يكفي للانتصار. فلا بد

* الدكتاتور ميغيل/بريمودى ريبيرا اى أوربانيجا (١٨٧٠-١٩٣٠) عسكري وسياسي إسباني تمرد عام ١٩٢٢ وأقام دكتاتورية عسكرية. وفي ١٩٢٧ أقام بوحي من الفاشية الإيطالية حزباً قومياً وبرلمانياً استشارياً. عزل عام ١٩٣٠م

** tajo : النهر الذى يمر بتوليدو (طليطلة) وتعنى الكلمة (بحروف صغيرة) جرحاً أو قطعاً بالسيف أو جرحاً غائراً. وهو يلعب على المعنيين-م

من تعلم القتال. والجنود المرتجلون يستغرقون وقتاً طويلاً في فهم أن
ثمة قواعد للأمان وأن من الأفضل أن يواصلوا البقاء أحياء كي
يواصلوا القتال. علاوة على ذلك، فإنهم حين يكونون قد تعلموا الدفاع
عن أنفسهم يكون مازال ينقصهم تعلم كيف يهاجمون. وحين يكونون
قد تعلموا كل هذا، يكون مازال ينقصهم أصعب شئ، أن يحرزوا
أصعب انتصار، الذي هو الانتصار على أنفسهم، على عاداتهم وأوجه
راحتهم. تحدث بسوء عن الفوضويين، الذين هم، وفقاً لما يقوله
ميجيل، انهزاميون وتحدث بسوء عن تجار السلاح الذين وعدوا
الجمهورية بأسلحة كانوا قد باعوها لفرانكو. قال أن أكبر آلامه، ذلك
الذي سيحمله معه إلى القبر، هي عدم فهمه للسبب في أن عمال
العالم لم ينتفضوا حاملين السلاح ليدافعوا عنا في إسبانيا، لأن
إسبانيا إذا خسرت فسوف يعنى ذلك أنهم جميعاً خسروا. قال هذا
وقسم سيجارة وأعطى نصفها للمكسيكى ودّخن الإثنان، هو بجوار
دولورس ومرّر لها العُقب لتدخن هي أيضاً.

سمعوا قصفاً عنيفاً، من بعيد. ومن المعسكر، ظهر وميض مائل
للصفرة، مروحةٌ من الغبار في الليل - إنها فيجيراس - قال ميجيل -
إنهم يقصفون فيجيراس.

نظروا صوب فيجيراس. كانت لولا قريبة منه. لم تكن تتحدث
إلى الجميع. كانت تتحدث إليه وحده، بصوت خفيض، بينما ينظرون
لذلك الغبار وتلك الضجة النائين. قالت إنها في الثانية والعشرين،
أكبر منه بثلاث سنوات، وزاد هو من عمره وقال أنه قد أكمل الرابعة
والعشرين. قالت أنها من الباثيتى وأنها قد ذهبت إلى الحرب لتتبع
خطيبها. فقد درس الإثنان سوياً - درسا الكيمياء - وتبعته هي، لكن
المفارقة أعدموه في أوبييدو. حكى هو لها أنه قدم من المكسيك وأنه
كان يحيا هناك في موضع حار، قريب من البحر، ملئ بالفاكهة. طلبت

هى منه أن يحدثها عن الفواكه الاستوائية وأضحكتها الأسماء التى لم تكن قد سمعتها قط وقالت له أن مامى* mamey يبدو كأنه إسم لسم وجوانابانا guanabana إسم لطائر. قال لها أنه يحب الخيول وأنه حين وصل كان فى سلاح الفرسان، لكن لا توجد الآن خيول ولا أى شئ. قالت له أنها لم تركب خيلاً أبداً؛ وحاول هو أن يشرح لها البهجة التى يمنحها ركوب الخيل، خصوصاً على الشاطئ عند الفجر، حين تخفُّ الريح الشمالية لكن مطراً خفيفاً مازال يسقط ويختلط الزبد الذى تثيره الحوافر بالمطر الخفيف ويمضى المرء بصدر عار وشفتين مليئتين بالملح. أعجبها هذا. قالت أنه ربما لازال باقياً لديه تذكُّار من الملح فى فمه وقبليته. كان الآخرون قد ناموا بجوار النار وكانت النار تخمد. نهض ليقلبها، ومازال طعم لولا ذاك فى فمه. رأى أنهم قد ناموا جميعاً بالفعل، متعانقين ليتدفأوا وعاد إلى جانب لولا. فتحت له الجاكته المبطنة بصوف الخراف فشبك يديه على ظهر الفتاة وبلوزتها القطنية وغطت هى ظهره بالجاكته. همست فى أذنه أنهما يجب أن يحددا مكاناً يعاودان الالتقاء فيه، إذا ما انفصلا. فقال أنهما يمكن أن يلتقيا فى مقهى يعرفه بالقرب من تمثال La Cibeles ، حين تحرر مدريد فردت هى أنهما يمكن أن يتقابلا فى المكسيك فقال نعم، فى ميدان ميناء بيراكروث، تحت البواكى، فى مقهى لا پاروكيا. سيتناولان قهوة ويأكلان كابوريا.

إبتسمت هى وابتسم هو أيضاً وقال لها أنه يود أن ينكش شعرها ويقبلها فسبقتة ونزعت قلنسوته ونكشت شعره بينما وضع يده تحت بلوزتها القطنية، ورئت على ظهرها، وبحث عن نهديها الطليقين وعندها لم يعد يفكر فى شئ ولا هى أيضاً. بالتأكيد، لأن صوتها لم

* فاكهة إستوائية أمريكية لذيذة-م

يكن ينطق كلمات بل يُفرغ كل ما تفكر فيه في تلك الغممة المتصلة
التي هي في آن واحد شكراً أحبك لا تتسنى تعال...

أخذوا يخترقون الجبل ولأول مرة أخذ ميغيل يسير بصعوبة
وليس بسبب الصعود، الذي كان شاقاً. فقد إخترق البرد قدميه، بردٌ
بأسنان كان الجميع يحسونه على وجوههم. استتدت دولورس على
ذراع حبيبها وإذا نظر إليها خلصة رآها مهمومة، لكنه إذا نظر إليها
مباشرة تبسم. إنه يرجو فقط - ويرجون جميعا - ألا يهْب إعصار. هو
الوحيد الذي يحمل بندقية وليس في بندقيته سوى طلقتين. قال لهم
ميغيل أنهم لا يجب أن يخافوا.

"أنا لا أخاف. فالحدود على الجانب الآخر وسنعبّر هذه الليلة
إلى فرنسا، في فراش، يُظله سقف. سنتعشى جيداً. أتذكرك وأفكر
أنك لن تشعر بالخجل مني، أنك كنت ستفعل نفس ما فعلت. أنت
أيضاً ناضلت، وسيُسرك أن تعرف أن ثمة دائماً شخصاً يواصل
النضال. أعرف أن هذا سيسرك. لكن هذا النضال سينتهي الآن. فور
عبورنا الحدود سيكون قد إنتهى العضو الشارد في الألوية الدولية
وسيبدأ شيء آخر. لن أنسى أبداً هذه الحياة، يابابا، ففيها تعلّمت كل
ما أعرف. الأمر بسيط جداً. سأقصه عليك حين أعود. الآن لا
تواتيني الكلمات".

لمس بإصبع الخطاب الذي يحمله في جيب قميصه. لم يكن
يستطيع فتح فمه في هذا البرد. تنفّس لاهثاً. نفث من بين أسنانه
المطبقة بخاراً أبيض. مضوا ببطء بالغ. كان طابور اللاجئين هائلاً؛
إمتد حتى مرمى البصر. مضت أمامهم العربات المحملة بالقمح
والمقانيق التي يحملها الفلاحون إلى فرنسا؛ ومضت النساء حواملات
المراتب والملاءات، وآخرون حاملين صوراً وكراسي، جراراً ومرايا. قال
الفلاحون أنهم سيواصلون البذار في فرنسا. تقدموا ببطء شديد.

ومضى معهم أطفال أيضاً، بعضهم رُضِعَ. كانت أرض الجبل جافة، قاسية، شائكة، مليئة بالأجمات. مضوا يخترقون الجبل. أحس بقبضة دولورس المختبئة في جنبه وأحس كذلك بأنه يجب أن ينقذها ويحميها. كان يحبها أكثر من الليلة الماضية. وعرف أنه في الغد سيحبها أكثر من اليوم. وستحبه هي أيضاً. لم يكن ثمة حاجة لقول ذلك. كانا يروقان بعضهما. هذا هو الأمر. كنا نروق بعضنا. أصبحا يعرفان كيف يضحكان معاً. وكان لديهما ما يقصّانه.

إنفصلت دولورس عنه وجرت نحو ماريّا. كانت جنديّة المليشيا قد توقفت بجانب صخرة، وإحدى يديها فوق جبهتها. قالت أن هذا لا شئ. أنها تحس بالإرهاق الشديد. كان عليهم أن يتحّوا جانباً كي تمر الوجوه المحمّرة، والأيدى المتجمّدة، والعربات الثقيلة. عادت ماريّا لتقول أنها تشعر ببعض الدوار. أخذتها لولا من ذراعها وواصلوا طريقهم وعندها، نعم عندها شعروا بضجيج المحرك قريباً منهم وتوقفوا. لم تظهر الطائرة. فتشوا عنها جميعاً، لكن السماء كانت ملبّدة. كان ميجيل أول من تبيّن الأجنحة السوداء، والصليب المعقوف وأول من صرخ في الجميع: إنبطحوا! على وجوهكم!.

على وجوههم جميعاً، بين الصخور، وتحت العربات جميعاً، ما عدا تلك البندقية التي مازالت فيها طلقتان. ولا تطلق النار، بندقية الـ ٨ ملليمتر اللعينة، المقشّة اللعينة الصدئة، لا تطلق النار مهما ضغط على الزناد، واقفاً، حتى يمر الضجيج فوق الرؤوس، ويملؤها بذلك الظل السريع وبمدفع رشاش يرشق الأرض ويُدوَّى على الأحجار...

"إنبطح يا لورنثو، إنبطح، أيها المكسيكى!"

إنبطح، إنبطح، إنبطح، يا لورنثو، وهذا الحذاء الجديد فوق الأرض الجافة، يا لورنثو، وبندقيتك على الأرض، يا مكسيكى، ومدّ في معدتك، كأنك تحمل المحيط في أحشائك وها قد أصبح وجهك على

الأرض بعينيك الخضراوين والمفتوحتين وما يُشبه الحلم، بين الشمس والليل، بينما تصرخ هي وتعرفُ أنت أن الحذاء سيفيد في النهاية
ميجيل المسكين بلحيته الشقراء وتجاعيده البيضاء وخلال دقيقة واحدة ستلقى دولورس نفسها فوقك، يا لورنثو، وسيقول لها ميجيل أنه لا فائدة، باكياً لأول مرة، أنهم يجب أن يواصلوا طريقهم، أن الحياة على الجانب الآخر من الجبال، الحياة والحرية، لأن تلك، نعم، كانت الكلمات التي كتبها: أخذوا هذا الخطاب، أخرجوه من القميص الملطخ، ضغطت هي عليه بين يديها، ما أدفأه، لو سقط الجليد لدفنه، حين قبّلتها مرة أخرى، يا دولورس، منطرحة فوق جسده وودّ هو أن يحملك إلى البحر، على صهوة الجياد، قبل أن تلمس دمه وينام معك في عينيه... ما أشدّ خضرتها... لا تتسى...

أنا كنت سأقول لنفسي الحقيقة، لو لم أكن أحسُّ بشفتي البيضاوين لو لم أنثن مطوياً، عاجزاً عن السيطرة على نفسي، لو احتملت ثقل الملاءات، لو لم أعاود الاستلقاء، مُتقلّصاً، ووجهي إلى أسفل، لأتقيأ هذا المخاط، هذه العصارة المرارية: كنت سأقول لنفسي أنه لا يكفي ترديد الزمن والمكان، البقاء الخالص؛ كنت سأقول لنفسي شيئاً أكثر من ذلك، رغبة لم أعبر عنها أبداً، هي التي أجبرتني على

أن أقوده - آى، لا أدري لا أنتبه - نعم، على أن أُجبره على العثور على طرف الخيط الذى قطعته أنا، على مواصلة حياتى، على إكمال مصيرى الآخر، الجزء الثانى الذى لم أستطع أنا إكماله، ولا تفعل هى سوى أن تسألنى جالسةً بجوار رأس فراشى:

- لماذا جرى الأمر على هذا النحو؟ قل لى: لماذا؟ وأنا ربيته من أجل شئ آخر. لماذا إنتزعته؟

- ألم يُرسل إلى الموت ابنه المدلل ذاته؟ ألم يفصله عنك وعنّى كى يشوّه؟ أليس هذا صحيحاً؟

- تيريسا، أبوك لا يسمعك...

- إنه يتظاهر. يغمض عينيه ويتظاهر.

- إسكتى.

- إسكتى.

أنا لم أعد أدري. لكننى أراهم. لقد دخلوا. يفتح وينغلق الباب الماهوجنى ولا تصدر الخطوات صوتاً فوق السجادة السمكية. أغلقوا النوافذ. أسدلوا، بهسيس، الستائر الرمادية. دخلوا.
- أنا ... أنا جلوريا ...

الخشخشة المنعشة والعذبة لأوراق البنكنوت والسندات الجديدة حين تتناولها يد رجل مثلى. الإندفاع السلس لسيارة فاخرة، مصنوعة خصيصاً، بتكييف هواء، وبار، وتليفون، ووسائد للظهر ومساند للأقدام، إيه، ياقسيس، إيه؟ هل هناك مثلها فى السماء، هيه؟
- أريد أن أعود إلى هناك، إلى الأرض...

- لماذا جرى الأمر على هذا النحو؟ قل لى: لماذا؟ وأنا ربيته من أجل شئ آخر. لماذا انتزعته؟

ولا تُنتبه إلى أن ثمة شيئاً أشدّ إيلاماً من الجثة المهجورة، من الثلج والشمس اللذين دفنهما، من العينين المفتوحتين إلى الأبد، اللتين

إلتهمتهما الطيور: تكف كاتالينا عن فرك القطن على صدغى وتبتعد
ولا أدري إن كانت تبكى: أحاول أن أرفع يدي لأجدها: يسرى في
المجهود في طعنات متقطعة من الذراع حتى الصدر ومن الصدر حتى
البطن: فعلى الرغم من الجثة المهجورة، على الرغم من الثلج والشمس
الذين دفناها، على الرغم من العينين المفتوحتين إلى الأبد، اللتين
إلتهمتهما الطيور، ثمة ما هو أسوأ: هذا القى الذى لا سبيل إلى
إيقافه، هذه الرغبة التى لا سبيل إلى إيقافها في التبرز دون أن
أستطيع، دون أن أنجح في جعل الغازات تخرج من هذه البطن
المنتفخة، دون قدرة على وقف هذا الألم المنتشر، دون قدرة على العثور
على النبض في المعصم، دون قدرة على الإحساس بالساقين، شاعراً
بأن الدم ينبجس منى. ينسكب داخلى، نعم، داخلى، أنا أعرف ذلك
وهم لا يعرفون ولا أستطيع إقناعهم، فهم لا يرونه يقطر من شفتى،
وبين ساقى: لا يصدقونه، يقولون فقط أننى لم تعد لدى حرارة، أه
حرارة، فقط يقولون إنهيار، إنهيار، فقط يُخمنون تورماً، تورماً لحواف
سائلة، هذا ما يقولونه بينما يمسكون بى، يتحسسوننى، يتحدثون عن
قطع رخام، نعم، أسمعهم، قطع رخام بنفسجية في أحشائى التى لم
أعد أحس بها، لم أعد أراها: على الرغم من الجثة المهجورة، على
الرغم من الثلج والشمس اللذين دفناها، على الرغم من العينين
المفتوحتين إلى الأبد، اللتين إلتهمتهما الطيور، ثمة ما هو أسوأ: ألا
أستطيع أن أتذكره، ألا أستطيع أن أتذكره إلا عن طريق تلك الصور
الشخصية، تلك الأشياء المتروكة في المخدع، تلك الكتب بالملاحظات
على هوامشها: لكن ما هى رائحة عرقه؟

لا شئ يُكرّر لون جلده: أننى لا أستطيع التفكير فيه حين لا أعود
أستطيع رؤيته والإحساس به؛

مضى على صهوة الحصان، ذاك الصباح؛

هذا أتذكره: تلقيت خطاباً بطوايع أجنبية لكن التفكير فيه
آه، حلمت، تخيلت، عرفت تلك الأسماء، تذكرت تلك الأناشيد، آه
شكراً، لكن المعرفة، كيف يمكنني أن أعرف؟ لا أدري، لا أدري كيف
كانت تلك الحرب، مع من تحدثت قبل أن يموت، ماذا كانت أسماء
الرجال والنساء الذي مضوا بصحبته إلى الموت، ما قاله، ما فكر فيه،
ماذا كان يرتدي، ماذا أكل ذلك اليوم، لا أدري: اخترع مشاهد طبيعية،
أخترع مدناً، اخترع أسماءً لها لم أعد أتذكرها: ميجيل، خوسيه،
فيدريكو، لويس؟ كونسويلو، دولورس، ماريّا، إسبيرانثا، مرثيدس،
نوري، جوادالوبي، إستيبان، مانويل، أورورا؟ جواداراما، البرانس،
فيجيراس، توليدو، تيرويل، إبرو، جيرنيكا، جوادالافارا؟: الجثة
المهجورة، الثلج والشمس اللذين دفناها، العينين المفتوحتين إلى الأبد،
اللتين إلتهمتهما الطيور.

آي، شكراً، على أنك علمتني ما كان يمكن أن تكونه حياتي،
آي، شكراً، لأنك عشت ذلك اليوم بدلاً مني،
فثمة شيء أشد إيلاماً:

إيه، إيه؟ هذا موجودٌ فعلاً، هذا يخصني فعلاً. هذا هو حقاً كونُ
المرأِ إلهاً، إيه؟، أن يكون مرهوباً ومكروهاً أو ما شئت، هذا هو حقاً
كونُ المرءِ إلهاً، فعلاً، إيه؟ قل لي كيف أنقذُ كلَّ هذا، أيها القسيس،
وسأتركك تكملُ كلَّ طقوسك، أضربُ صدري، وأمشي على ركبتَيَّ حتى
مزار مقدس وأشرب الخلَّ وأتوجُّ نفسي بالأشواك. قل لي كيف أنقذُ
كلَّ هذا، لأن روح...

- ... الإبن، والروح القدس، آمين...

ثمة شيء أشد إيلاماً:

- لا، في هذه الحالة، لا بد أن هناك ورم طري، نعم، لكن هناك

كذلك إزاحة أو خروج جزئي لإحدى الأمعاء...

- أكرّر: إنها التواءات معوية. هذا الألم لا يسبّبه سوى إلتواء الطيّات المعوية، ومن هنا الإنسداد...
- في هذه الحالة، يجب إجراء عملية..
- ربما تتطور الفرغرينا، دون أن نتجنبها...
- الإزرقاق قد صار واضحاً...
- السحنة...
- إنخفاض في الحرارة...
- غيبوبة...
- إسكتوا... إسكتوا!
- إفتحوا النوافذ
- لا أستطيع أن أتحرك؛ لا أعرف إلى أين أنظر، إلى أين أتوجّه؛ لا أحس بالحرارة، فقط بالبرودة التي تأتي وتروح في الساقين، لكن ليس برودة وحرارة كل ما عداهما، كل ما هو محفوظ، وما لم آره أبداً...
- المسكينة... لقد تأثّرت...
- ... إسكتوا...، أخمّن شَبْهِي، لا تقولوه... أعرف أن أظافري مسودّة، وجلدى مُزرق... إسكتوا...
- إلتهاب الزائدة الدودية؟
- يجب أن نجرى عملية.
- إنها مخاطرة.
- أكرّر: مغص كلوى. إثنين سنتي جرام من المورفين ويهدأ.
- إنها مخاطرة.
- لا يوجد نزيّف.
- شكراً. كان يمكن أن أموت في بيرالس. كان يمكن أن أموت مع ذلك الجندي. كان يمكن أن أموت في تلك الغرفة العارية، أمام ذلك الرجل البدين. أنا نجوتُ. وأنت متٌ. شكراً.

- أمسكوه. المبوله.

- رأيت كيف إنتهى به الأمر؟ رأيت، رأيت؟ تماماً مثل أخى.
هكذا إنتهى.

- أمسكوه. المبوله.

أمسكوه. إنه يمضى. أمسكوه. يتقياً. يتقياً ذلك الطعم الذى كان
يشمه فقط. لم يعد يستطيع الإنحناء. يتقياً وفمه إلى أعلى. يتقياً
برازه. يسيل من شفتيه، على خديه. نفاياته. تصرخن. تصرخن. لا
أسمعهن، لكن لا بد من الصراخ. لا يحدث. هذا لا يحدث. لا بد من
الصراخ كى لا يحدث هذا. يمسكوننى، يضغطوننى. إنتهى الأمر. إنه
يمضى. إنه يمضى دون أى شئ، عارياً. دون أشياءه. أمسكوه. إنه
يمضى.

أنت ستقرأ ذلك الخطاب، المؤرَّخ في معسكر اعتقال، المختوم
بأختام بلدٍ أجنبى، الموقع باسم ميغيل، الذى سيضم الخطاب الآخر،
المكتوب بسرعة، والموقع باسم لورنشو: ستتلقى ذلك الخطاب، ستقرأ:
"أنا لا أخاف... أتذكرك... لن تشعر بالخجل... لن أنسى أبداً هذه
الحياة، يا بابا، ففيها تعلَّمتُ كلَّ ما أعرف... سأقصه عليك حين
أعود": ستقرأ وستختار مرةً أخرى: ستختار حياةً أخرى.

ستختار أن تتركه في رعاية كاتالينا، لن تحمله إلى تلك الأرض،
لن تضعه على حافة إختياره الخاص: لن تدفعه إلى ذلك المصير
القاتل، الذي كان يمكن أن يكون مصيرك: لن تجبره على فعل ما لم
تفعله أنت، على إنقاذ حياتك الضائعة: لن تسمح، هذه المرة، بأن تموت
أنت في درب صخري وتتجو هي:

ستختار أن تعانق ذلك الجندي الجريح الذي يدخل الغابة
الصفيرة الرائعة، أن تمدده، وتنظف له ذراعه التي حطمها الرشاش
بمياه ذلك الجدول الضئيل، الذي تحرقه الصحراء، أن تضمّ جراحه،
أن تبقى معه، أن تحافظ على أنفاسه بأنفاسك، أن تنتظر، تنتظر حتى
يكتشفونكما، ويقبضون عليكما، ويعدومونكما بالرصاص في قرية
ذات اسم منسى، مثل تلك القرية الترايبية، مثل تلك القرية المبنية كلها
بالطوب ألتى وأوراق الشجر: أن يعدموا الجندي ويعدموك، أن يعدموا
رجلين بلا اسم، عاريين، مدفونين في القبر الجماعي للمحكوم عليهم،
دون شاهد قبر: ميتاً في سن الرابعة والعشرين، دون مزيد من
الدروب، دون مزيد من المتاهات، دون مزيد من الاختيارات: ميتاً
ممسكاً بيد جندي بلا اسم أنقذته أنت: ميتاً:

ستقول للاورا: نعم

ستقول لذلك الرجل البدين في تلك الغرفة العارية، المطلية

بالأزرق: لا

ستختار البقاء هناك مع برنال وتويّاس، أن تتبع قدرك، ألا تصل
إلى ذلك الفناء الدامي لتبرّر نفسك، لتفكر أنك بموت ثاجال قد
غسلت موت رفيقك.

لن تزور جمالييل العجوز في پوييلا

لن تمتلك ليليا حين تعود تلك الليلة، لن تفكر أنك لن تستطيع
أبداً، بعد ذلك، إمتلاك امرأة أخرى.

ستكسر الصمت تلك الليلة، ستتحدث مع كاتالينا، سترجو منها
أن تغفر لك، ستحدثها عن الذين ماتوا من أجلك، سترجوها أن تقبلك
هكذا، بتلك الذنوب، سترجوها ألا تكرهك، أن تقبلك هكذا .
ستبقى مع لونيرو في الضعية، لن تهجر أبداً ذلك المكان
ستظل بجانب المعلم سياستيان - كيف كان، كيف كان -، ولن
تذهب للإنضمام إلى الثورة في الشمال،
ستكون أجيراً
ستكون حدّاداً
ستبقى بعيداً، مع الذين بقوا بعيداً
لن تكون أرتميو كروث، لن يكون عمرك واحداً وسبعين عاماً، لن
تزن تسعة وسبعين كيلو جراماً، لن يكون طولك متراً وإثنين وثمانين
سنتيمتراً، لن تستخدم أسناناً صناعية، لن تدخن سجائر تبغ أسود، لن
تستخدم قمصاناً حريرية إيطالية، لن تجمع أزهار القمصان، لن تعهد
بأربطة عنقك إلى دار أزياء نيويورك، لن ترتدى تلك البذلات الزرقاء
ذات الأزهار الثلاثة، لن تفضّل الكشمير الأيرلندي، لن تشرب چين مع
تونيك، لن تكون لديك سيارة فولفو، وسيارة كاديلاك، وسيارة كاميون
رامبلر، لن تتذكر وتحب تلك اللوحة لرينوار، لن تفطر بيضاً مسلوقاً
وخبزاً مُحَمَّصاً بمربى ماركة بلاكويل، لن تقرأ كل صباح صحيفة
تملّكها، لن تتصفح مجلتي لايف وباري مانش في بعض الليالي، لن
تسمع تلك التعويذة إلى جوارك، تلك الجوقة، تلك الكراهية التي تودُّ
إنتزاع حياتك قبل الأوان، التي تستحضر، تستحضر، تستحضر،
تستحضر ما كان باستطاعتك أن تتخيله، مبتسماً، منذ قليل والآن لن
تتحمله :

De profundis clamavi
De profundis clamavi

إنظر إلى، إستمع إلى، أضئ عيني، لا تجعلني أرقد ميتاً / لأنك
يوم تأكل منها ستموت موتاً / لا تفرح لموت أحد، تذكر أننا جميعاً
نموت / ألقى الموت والجحيم في بركة النار وكان هذا هو الموت الثاني /
ما أخشاه، هو ما يحدث لي، وما يفرغني، هو ما يملكني / ما أشدّ
مرارة ذكراك للرجل الذي يشعر بالرضى بثرواته / هل فتحت لك
أبواب الموت؟ / بالمرأة بدأت الخطيئة وبالمرأة نموت جميعاً / هل رأيت
أبواب المنطقة المظلمة؟ / جيد هو حكمك للمعوز ومن نضبت قواه /
وأى ثمار نالوا حينئذ؟ إنها تلك التي يدخلون منها الآن، لأن نهايتها
هي الموت / لأن شهية الجسد هي الموت:
كلمة الرب، حياة، ونذر بالموت،

de profundis clamavi, domine,
omnes eodem cogimur, omnium versatur urna
quae quasi saxum Tantalum semper impendit
quid quisque vitet, nunquam homini satis cautum est
in horas
mors tanem inclusum protrahet inde caput
nascentes morimur, finisque ab origine pendet
atque in se sua per vestigia volvitur annus
omnia te vita perfuncta sequentur

جوقة، قبر؛ أصوات، محرقة؛ ستخيل، في المنطقة إنس وعيك،
وتلك الطقوس، وتلك الإحتفالات، وتلك الأفولات: دفن، حرق جثمان،
بلسم: مكشوفاً في أعلى برج، حتى لا تحلل الأرض، بل الهواء: حبيساً
في القبر مع عبيدك الميتين؛ تبيك نائحات مستأجرات؛ مدفوناً مع
أعز ممتلكاتك، مع صحبتك، مع لألك السوداء: شمعة، سهر،

requiem aeternam, dona eis Domine
de profundis clamavi, Domine

صوت لاورا، التي كانت تتحدث عن هذه الأشياء، جالسة على

الأرض، وركبتها مثنيتان، والكتاب الصغير المُجلَّد بين يديها... يقول
أن كلَّ شيء يمكن أن يكون قاتلاً لنا، حتى ما يمنحنا الحياة... يقول
أنا مادمننا لا نستطيع شفاء الموت، واليؤس، والجهل، فإننا نُحسنُ
صنعاً، كي نكون سعداء، بالأ تفكر فيها... يقول أن الموت المباحة هو
وحده ما يجب الخوف منه؛ لهذا يحيا كهنة الإعتراف في بيوت
الأقوياء... يقول كُن رجلاً؛ إخش الموت خارج الخطر، وليس في
الخطر... يقول أن تبصُر الموت هو تبصُر للحرية... يقول يالها من
خطوات بكماء تحملك، آه أيها الموت البارد... يقول لن تستطيع أن
تغفر لك الساعات؛ الساعات التي تلعق الأيام... يقول مُظهراً لى
العقدة الضيقة مقطوعة... يقول، أليس بابى مصنوعاً من معادن
مزدوجة؟... يقول ساعانى ألف موت، فأنا أنتظر حياتى ذاتها...
يقول إن الإنسان يريد أن يحيا بينما يريد الرب أن يموت... يقول،
فيم تفيد الكنوز، والأتباع، والخدم...؟

فيم؟ فيم؟ فليفتنوا، فلينشدوا، فلينوحوا؛ فلن يلمسوا المنحوتات
الباذخة، الترصيعات الوافرة، المصبوبات من الجص والذهب،
الصناديق المُطعّمة بالعظم والصدف، الأقفال والمزاليج، الخزائن ذات
المصاريع وفتحات المفاتيح الحديدية، المقاعد الفوّاحة من الصنوبر
المكسيكى، كراسى الجوقة، الحلّيات العليا والأفاريز السفلى الباروكية
مساند المقاعد المنحنية، الدعامات المخروطة، الأقتعة المتعدّدة الألوان،
المسامير البرونزية، الجلود المنقوشة، أقدام الموييليا ذات المخالب
والكُرات، عباءات الكهنة ذات الخيوط الفضية، المقاعد المكسوة
بالدمقس، الأرائك المخملية، موائد قاعات الطعام، الأوانى والجرار،
أسطح الموائد المشطوفة الحافة، الأسرّة ذات المظلات والطنافس،
الاعمدة المُحرّزة، شعارات النبالة والحواف المنقوشة، الأبسطة
الصوفية، المفاتيح الحديدية، اللوحات الزيتية المُتشقّقة، أقمشة الحرير

والكشمير ، الأصواف والتافتاه، آنية الكريستال والقناديل، الأطباق
المرسومة يدوياً، دعائم السقف الدافئة، هذا لن يمُسُّوه: هذا سيكون
ملكك:

ستمُدُّ يدك:

ذات يوم عادي، لكنه سيكون رغم ذلك يوماً إستثنائياً؛ منذ ثلاث،
أو أربع سنوات؛ لن تتذكر؛ ستتذكر من أجل التذكر؛ لا، ستتذكر لأن
أول ما تتذكره، حين تحاول التذكر، هو يومٌ على حدة، يومٌ إحتفالٍ
طقسى، يومٌ ينفصل عن سواه بفعل الأرقام الحمراء؛ وسيكون هذا هو
اليوم - أنت نفسك ستفكر في ذلك حينها - الذي تختمرُ فيه كلُّ
أسماء، وأشخاص، وكلمات، وأفعالٍ دورةٍ* وتجعل قشرة الأرض
تطقطق؛ ستكون ليلةٌ ستحتفلُ فيها أنت بالعام الجديد؛ أصابعك
المصابة بالتهاب المفاصل ستمسك بالدرابزين الحديدي بصعوبة؛
وستدُسُّ اليد الأخرى في قاع جيب الجاكته وستهبطُ بثاقل:
ستمُدُّ يدك:

* «إحتفال كويوا كان هو طقس سيكون فيه أرتميو نفسه — محكياً بضمير المفرد
الفائب — هو المحتفل. ويتم الطقس في تاريخ أسطوري، في يوم من أيام التقويم
المقدس، تحدد الأرقام الحمراء، يشيرُ إلى وداع عام و قدوم العام الجديد. نعرف أن
أرتميو قد إحتفل لأعوام عديدة بنفس الإحتفال دون أن يكون له معنى خاص. ومن ثم
تتابنا الشكوك.

عمر أرتميو ستة وستون عاماً. في الرابعة عشرة ينفصل عن لونيرو، وبذلك،
فإنه يُكمل اثنين وخمسين عاماً من الحياة العامة. وحين يُكمل كلُّ عام يومه الأخير،
كان المكسيكيون القدماء يقيمون إحتفال النار، لكن هذا الإحتفال كانت له دلالة خاصة
حين تكتمل دورة من اثنين وخمسين عاماً. وهنا يكمن السبب الذي يوضح الشحنة
الدلالية الغريبة لـ «يوم الإحتفال» هذا. إنه تاريخ تجتمع فيه الأسماء، والأشخاص،
والكلمات، والأفعال لتُصوِّر الحدث الجوهري: إكتمال الدورة. إنه اللحظة التي نجد

(١٩٥٥ : ٢١ ديسمبر)

هو من أمسك بالدرابزين الحديدى بصعوبة. دسَّ اليد الأخرى في قاع جيب الجاكته المنزلية وهبط بتثاقل، دون أن ينظر إلى الكوى المخصَّصة لتماثيل العذراء المكسيكية. عذراء جوادلوبى، وثابويان، وريميديوس. الشمسُ الغاربة، عند دخولها من نوافذِ الزجاج الملون، ذهبت الأثواب المحشوة الدافئة، والتتورات الواسعة الشبيهة بأغشية فضيَّة؛ وصبغت بالحُمرة خشب العوارض المحروق: وأضاءت نصف وجه الرجل. كان مرتدياً البنطلون، والقميص ورباط العنق السموكنج: مكسوًّا بالروب المنزلى الأحمر، بدا مشعوذاً عجوزاً ومُتعباً: تخيل التكرار، المتوقع تلك الليلة، للأفعال التى أمكنها ذات مرة أن تتبدى

فيها أن كل الظروف التى تكونها «تختمر وتجعل قشرة الأرض تطلق»، تاريخ مُثقل بقوى فائقة للطبيعة، حتمية، لا يمكن تجنبها، تُجسَّدُ في مواضع بعينها: منزل كويوا كان، ذكرى الإبن الميت، الانفصال عن كاتالينا، ليليا، الإنطلاق الإنحلالى والباذخ للثروة. والهيكة: خايمى ثيبايوس، إلخ..

ولهب المدفأة، والألعاب النارية لا بد أنها تُذكرُ بانقضاء الزمن القديم الذى يمثلُه أرتميو. لهذا فإن الراوى يؤكد على عشره، وإلتهاب مفاصله، وتضاؤل كبريائه. ولا بد أن الزمن الجديد سيقوم على أنقاضه.

نقلا عن مقال الناقد René Jara C.

ب عنوان. El mito y la nueva novela hispanoamericana.

A propósito de "La muerte de Artemio Cruz"

مُشَبَّعةٌ بمسرةٍ فريدة؛ أما اليوم، فسوف يتعرَّفُ بضيقٍ على نفس الوجوه، ونفس العبارات التي أضفت رنينها عاماً بعد عام على إحتفال سان سيلبستري في مقر الإقامة الضخم في كويواكان.

رنت الخطوات جوفاء فوق الأرضية الحجرية. والقدمان، المضغوطتان بخفةٍ داخل الخُفِّ القماشى الأسود، تخرجرتا بذلك الثقل المرتجف الذى لم يعد يستطيع السيطرة عليه، طويلاً، ومتأرجحاً على عقبيه غير الثابتين، وصدره عريض ويدان متدلّيتان، عصبيّتان، تتخللهما هما أيضاً عروقٌ نافرة، قطع ببطء الممرات المطلية بالأبيض، وهو يطاء الأبسطة الصوفية السمكية، وينظر إلى نفسه في المرايا العتيقة وفي قطع الكريستال المتفرقة للأثاث الكولونيالية، مُمسداً بأصابعه الأقفال والمزاليج، والخزائن ذات المصاريح وفتحات المفاتيح الحديدية، والمقاعد الفوَّاحة من الصنوبر المكسيكي، والترصيعات الوافرة. فتح له أحدُ الخدم باب الصالون الكبير؛ توقف العجوز لآخر مرةٍ أمام مرآةٍ وسوى ربطة عنقه الناعمة. سوى، براحة يده، الشعرات الرمادية القليلة، المتماوجة، التى تحيط بجبهته المرتفعة. ضفط فكهُ لتستقر أسنانه الصناعية فى موضعها ودخل الصالون ذا الأرضية الملمعة، ذلك الإتساع الفسيح من ألواح الأرز اللامعة التى أزيحت عنها الأبسطة لإتاحة الرقص، المفتوح على العشب الناعم وشرفات القرميد، المزيّن بلوحات العصر الاستعماري: سان سباستيان، سانتا لوثيا، سان خيرونيمو، سان ميغيل.

فى آخر الصالون، كان بانتظاره المصوِّرون، مجتمعين حول مقعد الدمقس الأخضر، تحت النجفة ذات الخمسين ضوءاً والمعلقة من السقف. دقَّت الساعة السادسة فى الساعة الموضوععة فوق المدفأة المفتوحة بجوار المقاعد الجلدية المتأثرة حول النار المشتعلة خلال تلك الأيام الباردة. حيّاهم برأسه وجلس على المقعد، مُسوياً الصديري

المنشئ وأساور القميص القطنية. إقترب خادمٌ آخر بكلبي الحراسة الرماديين، بخطميهما الورديين وعيونهما الحزينة ووضع الطوقين الخشنيين بين يدي السيد. لمع طوقا الكلبين، المزينان بالبرونز، بأضواء متباينة. رفع رأسه وضغط على أسنانه من جديد. أضاءت الومضات الرأس الرمادية بدرجات ضوءٍ جيرية. وكلما طلبوا منه أوضاعاً جديدة، كان يُصرُّ على تسوية شعره والمرور بأصابعه على الكيسين الثقيلين اللذين يتدليان من منخاريه وينتهيان عند عنقه. وحدهما الوجنتان العاليتان كانتا تحتفظان بصلايتهما المعهودة، رغم الشبكات الدقيقة من التجاعيد التي تتخللهما بدءاً من الجفنين وتزداد عمقاً كل يوم، كأنها تريد حماية تلك النظرة التي تبدو مرحةً ومرةً في آن واحد، وتلكما الحدقتين الخضراوين المختفيتين بين طيات اللحم المتهدل.

نبح أخذ الكلبين وأراد الانفلات من قيده. إنطلق وميضٌ في نفس اللحظة التي إنجذب هو فيها بعنف من مقعده، وعلى وجهه تعبيرٌ عن الحيرة المتصلبة، بفعل قوة جذب الكلب. نظر بقية المصورين بقسوة لمن التقط الصورة. نزع المسئول المربع الأسود من الكاميرا وسلمها، في صمت، إلى مُصوِّر آخر.

حين خرج المصورون، مدَّ هو يده المرتعشة وتناول سيجارة بفلتر من الصندوق الفضى الموضوع فوق المنضدة الريفية الطراز. أشعل لهب الولاعة بصعوبة وتفقد ببطء، هازاً رأسه بإيماء موافقة، لوحات سير القديسين العتيقة، المدهونة بالورنيش، تُبَقِّعُها مساحات كبيرة ميتة من الضوء المباشر تخفى التفاصيل المركزية للأعمال لكنها، بالمقابل، تضيء بروزاً داكناً على الأركان ذات الدرجات الصفراء والظلال المائلة إلى الحمرة. ربت على الدمقس واستتشق الدخان عبر الفلتر. إقترب الخادم دون أن يُصدر صوتاً وسأله إن كان يقدم له شيئاً. أوماً موافقاً وطلب مارتيني مركز جداً. فتح الخادم ضلفتين من

خشب الأرز المشغول ليظهر التجويفُ المبطنُ بالمرايا، واجهةُ بطاقات الماركات الملونة والسوائل الموضوعة في زجاجات: أوبال أخضر زمردى، أحمر، أبيض بلورى: شارتروز، بيبرمينت، أكوافيت، فيرموت، كورثوازييه، لونج چون، كالفادوس، آرمانياك، بيهيروفكا، بيرنوه وصفوف الكؤووس الكريستال، ثقيلة وقصيرة، رشيقة ومُخشخة. تلقى مشروبه. أشار للخادم أن يمضى إلى القبو ليختار الماركات الثلاث لمشروبات العشاء. مدَّ ساقيه وفكر في التدقيق الذى كان قد راعاه عند بناء وتوفير وجوه الراحة لهذا المنزل، منزله الحقيقى. كان يمكن لكاتالينا أن تعيش في الدار الضخمة في حيّ لاس لوماس، العديمة الشخصية، المماثلة لكل مقار إقامة أصحاب الملايين. أما هو فكان يفضل أن يجد هذه الجدران العتيقة، التى تحمل قرنين من الأحجار والصخر البركانى، والتى تُقرِّبه بطريقة غامضة من فصول الماضى، من صورة للأرض لم يكن يريد أن يفقدها تماماً. نعم، كان واعياً بأن ذلك كله كان ينطوى على إستبدال، على فعل سحرى. ورغم ذلك كانت الأخشاب، والأحجار، والقضبان الحديدية، والمنحوتات، والموائد الضخمة، وأشغال النجارة، وعتبات النوافذ والفُرجات بين الأعمدة، وخرائط الكراسى تتأمر لتعيد إليه حقاً، بعطر حنينٍ خفيف، مناظر، وأجواء، ومشاعر محسوسة من شبابه.

كانت ليليا تتذمَّر؛ لكن ليليا لن تفهم أبداً. ماذا يمكن أن يوحى لهذه الفتاة سقفٌ ذو عوارض عتيقة؟ وماذا، نافذة ذات قضبان بها مساحاتٌ داكنة من الصدا؟ وماذا، اللمسُ الباذخ للعباءة فوق المدخنة، بقشور ذهبية، وموشاة بخيوط الفضة؟ وماذا، رائحة الصنوبر المكسيكى للخزانات؟ وماذا، البريق المغسول للمطبخ ذى القيشانى الريفى؟ وماذا، الكراسى الأسقفية لحجرة الطعام؟ ثرياً، حسبياً، باذخاً كان إمتلاك هذه الأشياء مثل إمتلاك النقود وعلامات الوفرة الأكثر

بداهةً. آه، نعم، ياله من ذوق مكتمل، بالحسنية الأشياء غير الحية،
ياللذة، ياللمتعة الموضوعة على حدة... ومرة واحدة في العام يتقاسم
هذا كله المدعوون إلى حفل إستقبال سان سيلبستري الشهير... إنه
يوم مُتَع مضاعفة: لأن المدعوين عليهم أن يقبلوا هذا المنزل بإعتباره
منزله الحقيقي ويفكروا في كاتالينا المستوحدة التي، مجتمعةً معهما،
مع تيريسا وخيراردو، تتناول العشاء في تلك الساعات في مقر لاس
لوماس... بينما يقدم هو للمدعوين ليليا ويفتح أبواب قاعة طعام
زرقاء، أواني طعام زرقاء، ومفارش زرقاء، وحيطان زرقاء... حيث
تسيل الخمور وتجئ الأطباق الضخمة ممثلةً باللحوم النادرة،
والأسماك الوردية والاستاكوزا الفواحة، والأعشاب السرية، وأنواع
الحلوى المكوّمة...

هل كان من الضروري مقاطعة إسترخائه؟ الترنح اللامبالي ليليا
فوق الأرضية. أظافرها دون ألوان فوق باب الصالون. وجهها ملطخ
بالدهن. تريد أن تعرف إن كان الفستان الوردي يناسبها لحفل الليلة.
لا تريد أن تبدو نشازاً مثل العام الماضي، وتثير ذلك الضيق المزدري.
آه، لقد بدأ يشرب! لماذا لا يدعوها إلى كأس؟ يرهقها إنعدام الثقة
هذا، هذا البار المغلق بالقفل، هذا الخادم الوقح الذي ينكر عليها الحق
في الدخول إلى القبو. هل يصيبها السأم؟ كأنه لم يكن يعرف. توذ لو
تكون عجوزاً، قبيحة، حتى يطردها مرة وإلى الأبد ويتركها تحيا كما
يروق لها. لا أحد يوقفها؟ وماذا عن النقود، والرفاهية، والدار الكبيرة؟
نقود كثيرة، ورفاهية كثيرة، لكن دون بهجة، دون تسليات، دون الحق
حتى في شرب كأس. طبعاً، تحبه جداً. قالت ذلك ألف مرة. النساء
تعودن على كل شيء؛ الأمر يتوقف على المحبة التي تتلنها. يمكنهن أن
يتعودن على حب شاب مثلاً على حب أبوى.

طبعاً تكنُّ له إعزازاً أكيد... إنقضت ثمانى سنوات تقريباً وهما

يعيشان معاً ولم يتشاجر معها، لم يُوبّخها... لم يفعل سوى أن أجبرها... لكن كم يسعدها أن تتسلى قليلاً... ماذا؟ هل تخيلها بهذه الحماسة؟... خلاص، خلاص، إنه لم يعرف أبداً كيف يحتمل دعاية. طبعاً، لكنه ينتبه للأمور... لا أحد يبقى للأبد... تجاعيد كقدم الديك حول العينين... الجسدان... إلا أنه هو أيضاً معتادٌ عليها، أليس كذلك؟ في سنه سيكون شاقاً عليه أن يبدأ من جديد. بكل هذه الملايين... يتكلفُ المرءُ عناءً ووقتاً طويلاً في البحث عن امرأة... الملعونات... يعرفنُ الأعيب كثيرة، ويروق لهن التملص... إطالة اللحظات الأولية... الرفض، الشك، الانتظار، الإغواء، آي، كلُّ هذا... ويجعلنُ العجائز حمقى... طبعاً هي مريحة أكثر... وهي لا تشكو، لا، طبعاً لا. بل ويُرضى خيلاءها أن يأتوا لتحيتها كلَّ عام جديد... وهي تحبه، نعم، إنه يُقسم على ذلك، لقد أصبحت مفرطة في إعتيادها له... لكن كم يصيبها السأم!... لنرى، ما العيب في أن تكون لها بضع صديقات حميمات، في أن تخرج لتتسلى بين الحين والحين، في... في أن تتناول كأساً في مكان ما كل أسبوع...؟

ظلّ ساكناً. لم يكن يُسلم لها بهذا الحق في مضايقته ورغم ذلك... فإن تهاوناً فاتراً ومتراخياً... غريباً تماماً على طبعه... أجبره على البقاء هناك... والمارتيني بين أصابعه المتصلبة... يستمع إلى سخافات هذه المرأة التي تزداد سوقية كل يوم و... و... لا، إنها مازالت مقبولة... رغم أنها لا تحتمل... كيف كان يمكنه أن يسيطر عليها؟... كل ما كان يسيطر عليه كان يطيعه، الآن، بمجرد إمتدادٍ معينٍ مُفترض، خامل... لقوة سنوات شبابه... يمكن لليليا أن تهجره... عصر ذلك قلبه... لا يقوى على تجنب ذلك... ذلك الخوف... ربما لن تكون ثمة فرصة أخرى... أن يبقى وحيداً... حرّك بصعوبة أصابعه، رُسغه، مرفقه وسقطت الطفاية على السجادة وبعثرت الأعقاب المبتلة

والصفراء في قوس، تراب، غلاف أبيض، وقشرة رمادية، وقلب أسود.
إنحني، متنفساً بصعوبة.

- لا تتحن. حالاً سأنادي على سيرافين

- نعم

ربما... سأم. لكن قرف، نفور... دائماً، يتخيل بفعل الشك...
جعلته رقة لا إرادة يدير وجهه لينظر إليها...

راقبها، عند إطار الباب... حانقة، عذبة... الشعر مصبوغ بلون
كستنائي وذلك الجلد الأسمر... هي أيضاً لم يكن باستطاعتها
الرجوع... فلن تستعيده أبداً وهذا يجعلهما متعادلين... مهما فصل
بينهما السن أو الطبع... مشاجرات، لماذا؟... شعر بالإرهاق. لا أكثر...
الإرادة والقدر قرراً... لا أكثر... لا أشياء أكثر، لا ذكريات، ولا أسماء
أكثر من تلك المعروفة... عاود الترييت على الدمقس... الأعقاب،
والرماد المتناثر لم تكن رائحتها طيبة. وليليا، واقفة هناك ووجهها
ملطخ بالدهن.

هي عند المدخل. وهو جالس في مقعد الدمقس.

عندئذ تنهدت هي ومضت مترنحة إلى المخدع

وانتظر هو جالساً، دون أن يفكر في أي شيء، حتى فاجأته الظلمة
حين رأى نفسه منعكساً بدقة بالغة في الأبواب الزجاجية المؤدية إلى
الحديقة. دخل الخادم ومعه الجاكت، ومنديل، وزجاجة ماء كولونيا،
واقفاً، سمح العجوز بإلباسه الجاكت ثم فرد المنديل لينثر عليه الخادم
بضع قطرات من اللوسيون. حين وضع المنديل في جيب الصدر، تبادل
نظرة مع الخادم. خفض الخادم عينيه. لا. لماذا سيفكر فيما يمكن أن
يشعر به هذا الرجل؟

- سيرافين، الأعقاب بسرعة...

نهض مستنداً بكلتا يديه على ذراعي المقعد. سار بضع خطوات

نحو المدفأة وربّت على حديد توليدو المشغول وأحسن بلفح النار على وجهه ويديه. تقدّم عندما سمع همهمات الأصوات الأولى - المسرورة، المعجبة - في ردهة المنزل. إنتهى سيرافين من التقاط الأعقاب.

أمر بتقليب النار ودخل آل ريجولس بينما الخادم يُحرّك ملاقط الحديد ويتصاعد لهب ضخّم في المدخنة. من الباب المؤدى إلى قاعة الطعام تقدّم خادم آخر بين يديه صينية. أخذ روبرتو ريجولس كأساً بينما كان الزوجان الشابان - بتينا وزوجها، ثيبايّوس الشاب - مشتبكي الأيدي، يذرعان الصالون ويمتدحان اللوحات العتيقة، ومصبوبات الجص والذهب، والترصيعات الوافرة، والحليّات العليا والأفاريز السفلى الباروكية، والدعامات المخروطة، والأقنعة المتعدّدة الألوان. كان يدير ظهره إلى الباب حين إرتطم الكأس بالأرضية بإيقاع جرس مكسور وصاح صوتٌ ليليا بشئ في لهجة سخرية. رأى العجوز والمدعوون وجه تلك المرأة دون مساحيق وهي تظهر مستندة على مقبض الباب: - ترلاً، ترلاً! عام جديد سعيد!... لا تقلق، أيها العجوز، فسوف أفيق خلال ساعة واحدة... وأهبط كأن شيئاً لم يكن... أردت فقط أن أقول لك أنني قرّرت قضاء عام هادئ جداً... هادئ تمام الهدوء!...

أتجه نحوها بخطوه المرتعش الصعب وصاحت هي: - لقد ملّت من مشاهدة برامج التلفزيون طوال النهار... أيها العجوز! مع كل خطوة من خطوات العجوز، كان صوت ليليا يسرع أكثر. - صرتُ أعرف كلّ حكايات رعاة البقر... بومبوم... مارشال أريزونا... معسكر الهنود الحمر... بومبوم... صرتُ أحلم بتلك الأصوات... أيها العجوز... إشرب بيپسى... لا أكثر... أيها العجوز... أمنّ مع راحة؛ بوليصات تأمين...

صفعت اليد المصابة بالتهاب المفاصل الوجه المجرّد من المساحيق

وسقطت الخصلات المصبوغة على عيني ليليا . كفت عن التنفس .
أدارت ظهرها ومضت، ببطء، وهي تلمس خدّها . عاد هو إلى جماعة
آل ريجولس وخايمي ثيبايّوس . حدّق بصره فيهم، في كل واحد منهم،
خلال عدة ثوان، ورأسه مرتفع . رشف ريجولس الويسكى؛ وخبأ نظرتة
خلف الكأس . إبتسمت بتينا واقتربت من المضيف بسيجارة بين يديها،
كأنها تطلب لها .

ـ أين وجدت هذه الخزانة؟

إبتعد العجوز وأشعل الخادم سيرافين عود ثقاب قرب وجه الفتاة
وكان عليها أن تبعد وجهها عن قامة العجوز وتدير له ظهرها . في عمق
الردهة، خلف ليليا، دخل الموسيقيون متلفعين بكوفياتهم، تصطك
أسنانهم من البرد . طرّق خايمي ثيبايّوس بأصابعه ودار حول عقبيه
مثل راقص فلامنكو .

فوق المائدة ذات أرجل الدولفين، تحت النجفات البرونزية، طيور
حجل في صلصلة شحم خنزير ونبيد حامض، وأسمال قد ملفوفة
بأوراق خردل من تاراجونا، وبطّات برية مكسوة بقشور برتقال،
وأسمك شبوط تحيطها بطارخ محار، وحساء سمك قطالوني كثيف
برائحة الزيتون، وديك بالنبيذ مطهو على اللهب يسبح في نبيد ماكون،
وحمام محشو بمسحوق الخرشوف، وأطباق سمك ضخمة فوق كتل
الثلج، وأسياخ إستاكوزا وردية في حلقات من الليمون، وفطر مع شرائح
طماطم، وچامبو من بايونا، وحساء لحم بقر مطهو بنبيذ أرمانياك،
ورقاب إوز محشوة بمسحوق لحم الخنزير، وعجينة قسطل مع قشور
تفاح مقلية في الجوز، وصلصات بصل وبرتقال، وثوم وفستق، ولوز
وقواقع: في عيني العجوز، حين فتّح الباب المشفول بنقوش قرون
الوفرة والملائكة ذات الأفخاذ، المطلية بألوان متعددة في دير كيريتارو،
لمعت تلك النقطة العصية البلوغ: فتح الأبواب على مصراعيها وابتسم

إبتسامة جافة، خشنة، كلما قدّم أحد الخدم طبقاً من أطباق درسدن إلى أحد المدعوين المائة، مصحوباً بطقطقة أدوات المائدة على الأطباق الزرقاء؛ إمتدت كؤوس الكريستال نحو الزجاجات التى يقدمها الخدم وأمر هو بإزاحة الستائر التى تحجب الواجهة الزجاجية المفتوحة على الحديقة التى تظللها أشجار الكرز، والبرقوق العارية، الهشة، والتماثيل النظيفة من أحجار الأديرة: أسود، وملائكة، ورهبان مهاجرون من قصور وأديرة عصر نائب الملك؛ إنطلقت صواريخ الألعاب النارية، القلاع الضخمة من الأضواء الواهنة المنطلقة صوب مركز قبة السماء الشتوية، الصافية والبعيدة: إشارة بيضاء ومُقطّقة يقطعها التحليق الأحمر لمروحة تتخللها الألوان الصفراء: نافورة لندوب الليل المفتوحة، ملوك محتفلون تبرق أوسمتهم الذهبية فوق قماش الليل الأسود، عربات من الضوء تسير صوب نجوم الليل المتلّفة بالحداد. خلف شفّتيه المطبقتين، ضحك تلك الضحكة المغفمة. تم إستبدال الأطباق الضخمة الفارغة بمزيد من الطيور، بمزيد من المحار، بمزيد من اللحم الدامى. دارت الأذرع العارية حول العجوز الجالس بتثاقل في كوة من مقاعد الجوقة العتيقة، المطعمة، المنقوشة ببذخ، بحلياتٍ عليا وأفاريز سفلى مغناججة. استنشّق، ونظر إلى عطور النساء، إلى استدارات النحور، إلى السرّ المحلوق في الآباط، إلى شحمات الأذان المحمّلة بالجواهر، إلى الأعناق البيضاء والخصور الضامرة التى ينطلق منها تحليق التافته، والحرير، وشباك الذهب؛ إستنشّق تلك الرائحة لماء اللافاندر والسجائر المشتعلة، لطلاء الشفاء وظلال الجفون، للأحذية النسائية والكونياك المسكوب، لثقل الهضم وطلاء الأظافر. رفع كأسه ونهض هو نفسه على قدميه؛ وضع الخادم بين يديه أطواق الكلبين اللذين سيرافقانه خلال ساعات الليل المتبقية؛ إنطلقت صيحات العام الجديد: إرتطمت الكؤوس بالأرضية وربّتت الأذرع،

وضغطت، وارتفعت للإحتفال بعيد الزمن هذا، بهذه الجنازة، بمحرقة
الذاكرة هذه، بهذا الإنبيعات المختمر لكل الأفعال، بينما تعزف
الأوركسترا لحن Las golondrinas ، لكل الأفعال، والكلمات،
والأشياء الميَّنة لتلك الدورة، للاحتفال بتأجيل هذه الحيات المائة التي
علقت أسئلتها، رجالاً ونساءً، لتقول لنفسها، بنظرة ندية أحياناً، أنه ما
من زمن سوى هذا، الذي يُعاش وتجرى إطلاته خلال هذه اللحظات
التي يمدّها إصطناعياً إنفجار الصواريخ والأجراس المدوية: ربّت ليلى
عنقه كأنها تطلب منه الصفع: كان هو يعرف، ربما، أن أشياء كثيرة،
رغبات ضئيلة كثيرة يجب كبتها حتى يمكن، في لحظة إمتلاء واحدة،
الاستمتاع تماماً، دون جهد مسبق، ولا بد أنها ممتة له لذلك: قال لها
ذلك بغمغمة. وحين عاودت الكمنجات، في الصلاة، عزف لحن بؤساء
باريس، تناولت هي، بدلال معروف، ذراعه لكنه رفض بإيماءة من رأسه
البيضاء وسار يسبقه الكلبان إلى المقعد الذي سيشغله بقية الليل، في
مواجهة أزواج الراقصين... سيتسلى برؤية الوجوه، المتكلفة، العذبة،
الماجنة، الشريرة، الغبيّة، الذكيّة، مفكراً في الحظ، في الحظ الذي
نالاه الجميع، هم وهو... وجوه، أجساد، رقصات كائنات حرّة، مثله...
كانت تبعث فيه الثقة، تبعث فيه الأمان وهو ينتقل بخفة فوق الأرضية
المدھونة بالشمع، تحت شبكة العنكبوت المضيئة... وهو يحرّر ذكرياته،
يجعلها قاتمة... كانت تجبره، بطريقة شاذة، على الإستمتاع أكثر بهذه
الهويّة... بهذه الحرية والسلطة... لم يكن وحيداً... فهؤلاء الراقصون
يرافقونه... هذا ما قالت له حرارة بطنه، رضا أحشائه... الرفقة
السوداء، الكرنفالية، للشيخوخة ذات السلطة، للحضور المشوب
بالشيب، بالتهاب المفاصل، الثقيل... صدى الابتسامة المتصلة،
الخشنة، المنعكسة في حركة العينين الخضراوين... سلاطات نبيلة
حديثّة العهد، مثله... وأحياناً أحدث عهداً... كانت تدور، تدور...

يعرفهم... صناعيون... تجار... ذئاب... أطفال مؤدبون... مرابون...
وزراء... نوّاب... صحفيون... زوجات... خطيبات... قوآدات...
عشاق... دارت الكلمات المبتورة لمن كانوا يمرّون راقصين أمامه...
- نعم... - سنذهب بعد ذلك... - لكن أبى... - ... أحبك... - ...
حر...؟ - هذا ما حكوه لى... - ... أمامنا وقتٌ كافٍ... - إذن... - ...
هكذا... - ... يسرنى هذا... - أين؟ - ... قل لى... - ... لن أعود
أبدأ... - ... هل أعجبك؟... - ... صعب... - ضاع ذلك... - حلوة... -
... شهى المذاق... - ... إنهار... - ... عن جدارة... - ... هممم...
هممم ! كان بمقدوره أن يخمّن من عيونهم، من حركات شفاههم،
وأكتافهم... كان بمقدوره أن يقول لهم في صمت ما يفكر فيه... كان
بمقدوره أن يقول لهم من هم... كان بمقدوره أن يذكرهم بأسمائهم
الحقيقية... بالافلاسات المزيفة... بتخفيضات العملة المكشوفة
مسبقاً... بالمضاريبات على الأسعار... بالرهونات المصرفية...
بالإقطاعات الجديدة... بالتحقيقات الصحفية بسعر محدد لكل
سطر... بعقود الأشغال العامة المتضخّمة القيمة... بالجولات
الانتخابية لحساب الكبار... بتبديد ثروات الآباء... باستغلال النفوذ
في وزارات الدولة... بالأسماء الزائفة: أرتورو كاپدييلا. خوان فيليبى
كووتو، سباستيان إيبارجوين، بيشتى كاستانييدا، پدرو كاسو، خينارو
أرياجا، خايمى ثيبايّوس، بيبيتو إيبارجوين، روبرتو ريجولس... وعزفت
الكمنجات وتطايرت الجونلات وذيول الفراك... لن يتحدثوا عن هذا
كله... سيتحدثون عن رحلات وغراميات، عن منازل وسيارات، عن
إجازات وإحتفالات عن مجوهرات وخدم، عن أمراض وقساوسة...
لكنهم موجودون هناك، هناك، فى البلاط... أمام أوفرهم سُلطة...
يدمرهم أو يتملقهم بخبر فى الصحيفة... يفرض عليهم حضور
ليليا... يحفزهم، بصوتٍ خفى، على الرقص، على الأكل، والشراب...

يحس بهم حين يقتربون...

- كان على أن أحضره، لمجرد أن يرى هذه اللوحة لرئيس الملائكة،
هذه، رائعة...

- قلت هذا دائماً: وحده ذوق دون أرتميو...

- كيف يمكن أن نعبر عن شكرنا لك؟

- كان كلُّ شئ رائعاً حتى أنتى ظلت مبهورة، مبهورة، مبهورة، يا

دون أرتميو؛ يالها من أنبذة! وتلك البطّات بتلك الأشياء الرائعة!

... أن يُشيع بوجهه ويتجاهل... كانت تكفيه الشائعات... لم يُردّ

أن يثبّت إنتباهه في شئ... كانت الحواس تتمتع بمجرد همهمات ما

يحيطه... ملامس، روائح، طعوم، صور... فليسمّوه، بين الضحكات

والوشوشات، مومياء كويواكان... فليسخروا من ليليا بابتساماتٍ

سرّية... فهاهم هناك، يرقصون تحت بصره...

رفع ذراعاً: إشارة إلى قائد الأوركسترا: توقفت الموسيقى في

منتصف المعزوفة وكفّ الجميع عن الرقص: اللحن الشرقى الخليط

ينبعث من الأوتار، الممر المفتوح وسط الناس، المرآة شبه العارية التي

تقدّمت من الباب، مؤرجحة ذراعيها ومؤخرتها حتى إحتلت مركز

الصالون: صرخة مرحة: الراقصة المنحنية أمام إيقاع الطبول الذي

يسيطر على خصرها: جسدٌ ملطخٌ بالزيت، شفاه برتقالية، جفون

بيضاء وحواجب زرقاء: على قدميها، راقصةٌ حول الدائرة، محرّكةٌ

بطنها في إرتجافات تتزايد سرعة: إختارت إيبارجوين العجوز وجرتّه

من ذراعه إلى مركز حلقة الرقص، أجلسته على الأرض، ووضعت

ذراعيه في وضع الإله فيشنو، تراقصت حوله وحاول هو تقليد

تماوجاتها: إبتسم الجميع: إقتربت من كاپديبيلا، أجبرته على نزع

الچاكت، وعلى الرقص حول إيبارجوين: ضحك المضيف، غاطساً في

كرسيه الدمقسى، مُرَبِّتاً على أطواق الكلبين: إمتطت الراقصة ظهر

كووتو وشجعت عدة نساء على تقليدها: ضحكوا جميعاً: دمّرت
الإمتطاءات، بين القهقهات، تسريجات الشعر ولطخت بالعرق وجوه
الأمازونات المنتفخة: تكرمشت الجونلات، وقد رُفعت إلى ما فوق
الركبة: فرد بعض الشبان، بين ضحكات حادة، سيقانهم لكعبة خيول
السباق المرتجفة الذين كانوا يتقاتلون بين العجوزين الراقصين والمرأة
ذات الفخذين المفتوحين.

رفع بصره، كأنه يطفو من غطس بفعل ثقل حجرى: فوق الرؤوس
المشعثة والأذرع المتماوجة، والسماء الصافية ذات العوارض والحيطان
البيضاء، واللوحات الزيتية للقرن السابع عشر والثياب السمكية
الملائكية... وفي السمع المنتبه، العمل الخفى للجرذان الهائلة - ظهور
سوداء، وأسنان حادة - التى تسكن سقوف وملاط هذا الدير القديم
التابع للقديس خيرونيمو، والتى تنزلق أحياناً دون حياء من أركان
الصالة وفي الظلام، بالآلاف، وفوق وتحت المحتفلين المرحين، كانت
تتنظر... ربما... فرصة مباغتتهم جميعاً... لتعديهم بالحمى
والصداع... بالدوار والرجفة الباردة... بالانتفاخ الصلب والمؤلّم بين
الساقين والإبطيين... إذا رفع ذراعه من جديد... حتى يفلق الخدم
المدخل بعوارض حديدية... مخارج هذا المنزل ذى الأوانى والجرار...
واللوحات الزيتية المتشققة... والأسيرة ذات المظلات والطنافس...
والمفاتيح الحديدية... والمصاريع والكراسى... والأبواب المصنوعة من
معادن مزدوجة... وتماثيل الرهبان والأسود... ووجدت جماعة
الكومبارس نفسها مضطرة للبقاء هنا... وعدم مغادرة السفينة...
لفرك أجسادها بالخل... وإشعال حرائق بالخشب العطرى... وتعليق
مسابح من الصعتر حول أعناقهم... وهش الذبابات الخضراء والطنانة
بتراخ... بينما يأمرهم هو بالرقص، بالحياة، بالشراب... بحث عن
ليليا في بحر الناس المتصايحين: كانت تشرب وحيدة وصامتة في

ناصية، وعلى شفيتها إبتسامة بريئة، مديرةً ظهرها للرقصات والمعارك
المُفتعلة... كان بعض الرجال يخرجون للتبُّول... وأيديهم فوق
سراويلهم... وبعض النساء يخرجن لوضع البودرة... وهن يفتحن
حقيبة أدوات الزينة... إبتسم بقسوة... الشيء الوحيد الذي يثير
إنطلاق البهجة والسخاء: كَرَّكَر في صمت... تخيلهم... جميعاً، وكل
واحد فيهم، واقفين صفّاً أمام مرحاضى الدور الأرضى... كلهن
يتبولون ومثانتهم ممتلئة بسوائل رائعة... كلهم يتبرزون بقايا الطعام
المُعَدُّ خلال يومين بتدقيق، وذوق، وأنتقاء... غريبين في كل شئ عن
هذا المصير النهائى للبطل والقواقع، للمعاجين والصلصات... آه نُعم،
أكبر مُتَع الليلة كلها.

تعبوا سريعاً. إنتهت الراقصة من الرقص وبقيت تحيطها
اللامبالاه. عاود القوم الحديث، وطلب المزيد من الشميانيا، والجلوس
على الأرائك العميقة؛ وعاد البعض من جولاتهم، يُزِرُّون البنطلون،
وتحفظن علبه البودرة في حقيبة أدوات الزينة. إستفدت. العريضة
القصيرة المتوقعة... التسامى الدقيق المبرمج... عادت الأصوات إلى
نغمتها الهادئة المتماوجة... إلى تكتّم الهضبة المكسيكية... وعادت تلك
الهموم... كأنها تريد الإنتقام من اللحظة الماضية، من اللحظة
العابرة...

- ... لا، لأن الكورتيزون يسبب لى الفواق...
- ... لا تعرفين التدريبات الروحية التى يُعلِّمها الأب مارتينث...
- إنظرى إليها: من يمكن أن يقول ذلك؛ يقال أنهما...
- ... اضطرت لطردها...
- ... لويس يصل متعباً لدرجة أنه لا يريد سوى...
- ... لا، خايمى، لا يحب...
- ... أصبحت منطلقة جداً...

- ... لشاهدة التليفزيون لبعض الوقت...
- ... خادمت اليوم لم يعد يمكن إحتمالهن...
- ... عاشقان منذ نحو عشرين عاماً...
- ... كيف سيتمنحون حق الانتخاب لهذه الحقنة من الهنود؟
- ... والمرأة وحيدة في بيتها؛ أبداً...
- ... إنها مسائل سياسة عليا؛ نحن نتلقى...
- ... ليظل الحزب الثوري الدستوري يختار برفع الأصابع وبس...
- ... تعليمات السيد الرئيس في البرلمان...
- ... أنا أتجاسر حقاً...
- ... لاورا؛ أعتقدت إن إسمها لاورا...
- ... نحن نعمل بضعة أفراد...
- ... إذا عادوا لذكر الـ income tax ...
- ... من أجل ثلاثين مليوناً من الكسالى...
- ... أنا بصراحة سأحمل مدخراتي إلى سويسرا...
- ... الشيوعون لا يفهمون سوى...
- ... لا خايمي، لا يجب أن يضايقه أحد...
- ... ستكون صفقة رائعة...
- ... بالهراوات...
- ... تستثمر فيها مائة مليون...
- ... إنها لوحة رائعة لدالي...
- ... ونستعيدّها خلال عامين...
- ... أرسلها إلى وسطاء قاعة عرضي...
- ... أو أقل...
- ... في نيويورك...
- ... عاشت سنواتٍ طويلة في فرنسا؛ تغريرات...، يقال...

- ... سنجتمع نحن السيدات فقط...
- ... باريس هي مدينة النور بمجرد إسمها...
- ... حتى نتسلى وحدنا...
- ... إذا أردت، نخرج غداً إلى أكابولكو...
- ... مضحك؛ عجالات الصناعة السويسرية...
- ... استدعاني السفير الأمريكي ليحذرنى...
- ... تتحرك بفضل العشرة آلاف مليون دولار...
- ... لاورا؛ لاورا ريشير؛ عادت لتتزوج هناك...
- ... في الطائرة...
- ... التي هي ودائعنا نحن الأمريكيين اللاتين...
- ... ما من بلد بمنجى من التخريب...
- ... كيف لا، لقد قرأت ذلك في الـ Excelsior ...
- ... أقول لك: ترقص رقصاً رائعاً...
- ... روما هي المدينة الأبدية بامتياز...
- ... لكنه لا يملك فلساً واحداً...
- ... كوّنت ثروتى بصعوبة شديدة...
- ... آه منك، أنك تشعرين بأنك قديسة ملفوفة في بيضة...
- ... لماذا أدفع ضرائب لحكومة من اللصوص...؟
- ... يسمونه المومياء، مومياء كويواكان...
- ... دارلنج، إنه مصمم أزياء رائع...
- ... قروض للزراعة؟...
- ... أقول لك أنه يفشل دائماً في الـ put ...
- ... مسكينة كاتالينا...
- ... ومن عندئذ سيتحكم في نوبات الجفاف والجليد؟...
- ... لا مفر من ذلك: فدون استثمارات أمريكية...

- ... يقولون أنها حبه الكبير، لكن...
- ... مدريد، جميلة؛ أشبيلية، رائعة...
- ... لن نخرج أبداً من الحفرة...
- ... لكن مثل المكسيك...
- ... تغلبت المصالح، واخذه بالك؟...
- ... سيدة المنزل؛ لو لم تكن...
- ... أكسب أربعين سنتابو من كل بيسو...
- ... إنهم يعطونا أموالهم والـ know-how ...
- ... منذ قبل إقراضها...
- ... ومازلنا نشكو...
- ... كان ذلك منذ بضع وعشرين عاماً...
- ... موافق: زعماء محليون، وقادة قابلون للشراء، وكل ما تريد...

- ... صنع لي ديكور كل شيء بالأبيض والذهبي، مهول!
- ... لكن السياسى الجيد لا يحاول إصلاح الواقع...
- ... السيد الرئيس يشرفنى بصداقته...
- ... بل بالاستفادة منها والعمل معها...
- ... عن طريق الصفقات التى يعقدها مع خوان فيليبى، من الواضح...
- ... إنه يقوم بآلاف الأعمال الخيرية، لكنه لا يتحدث عنها أبداً...

- ... قلت له فقط: لا داعى لأن...
- ... ندين لبعضنا جميعاً بخدمات، أليس كذلك؟
- ... أعطى أى شيء للتخلص منه...
- ... قاطعنى بوضوح، مسكينة كاتالينا...

- ... ساومهم لكن على أقل من عشرة آلاف دولار...
- ... لاورا؛ أعتقد أنهم كانوا يدعونها لاورا؛ أظنها كانت جميلة جداً...

- ... لكن ماذا تريدان، الواحدة منا ضعيفة هكذا...
كان يباعدنهم، ويُقرَّبهم دُوار الرقص والمحادثات. والآن فقط،
جلس هذا الشاب ذو الابتسامة الواسعة والشعر الأشقر متربعاً بجوار
العجوز، وازن كأس الشمبانيا بيدٍ، وأمسك ذراع المقعد بالأخرى...
سأله الشاب إن كان يضايقه فقال العجوز: - لم تفعل سوى هذا طوال
الليلة، يا سنيور ثيبايوس... ولم ينظر إلى الشاب... ظل مُثَبِّتاً نظره
في مركز الصخب... ثمة قاعدة غير مكتوبة... لا يجب أن يقترب منه
المدعوون، إلا كي يمتدحوا المنزل والعشاء بتعجُّل... يجب أن يحترموا
المسافة التي يفرضها... دون حساب... أن يشكروا ضيافته مع
التسلية... المنظر والجلسة... إنه لا يعرف... واضح أن ثيبايوس
الشاب لا يعرف... أتعرف؟ أنا معجبٌ بك... بحث هو في جيب
الجاكت وأخرج علبة سجائر مجمَّدة... أشعل سيجارةً ببطء... دون أن
ينظر إلى الشاب... الذي كان يقول أن ملكاً فقط هو الذي يمكن أن
ينظر بالاحتقار الذي نظر هو به إليهم عندما... فسأله هو إن كانت
المرّة الأولى التي يحضر فيها... فأجاب الشاب أن نعم... وحموك
ألم...؟ وكيف لا... إذن... هذه القواعد وُضعت دون
استشارتي، دون أرتيميو... لم يقاوم... بعينيهِ الناعستين... ودوائر
الدخان... أدار وجهه إلى خايمي فنظر إليه الشاب دون أن يطرف له
بصر... شقاوة في نظره... حركة الشفتين والفكين... للعجوز...
للشاب... تعرَّف على نفسه، آه... أريكه، آه... بأي شيء، سنيور
ثيبايوس؟... بأي شيء ضحيَّت... لا أفهمك... لم يفهمه، قال أنه لم
يفهمه... استنشق ضحكةً من منخاره... الجرح الذي تسبَّبه خيانتا

لأنفسنا، يا صديقي... مع من يظن أنه يتحدث؟ يظن أنني أخدع نفسي...؟ قرب منه خايمي الطفاية... آه، عبرا النهر على صهوة الجياد، ذلك الصباح... هل هذا تبرير...؟ راقبت دون أن أكون مُراقباً... مؤكداً أن حماك والأشخاص الآخرين الذين تتعامل معهم... عبروا النهر، ذلك الصباح... ثروتنا مُبرّرة، فقد عملنا لنصل إليها... مكافأتنا، هيه؟... سأله إن كانا سيمضيان سوياً، حتى البحر... هل تعرف لماذا أنا فوق كل هؤلاء الناس... وأسيطر عليهم؟... قرب منه خايمي الطفاية؛ أوماً بالسيجارة المنتهية... خرج من المخاضة وصدره عار... آه، أنت إقتريت، ولم أنادك أنا... أغمض خايمي عينيه نصف إغماضة ورشف من الكأس... هل تفقد أوهامك؟... كانت هي تردّد، "يا إلهي، أنا لا أستحق هذا"، رافعة مرآتها، متسائلة هل هذا ما سيراه حين يعود... كاتالينا المسكينة... لأنني لا أخدع نفسي... سيتبيئون في الضفة الأخرى شبح أرض، شبحاً، نعم... ما رأيك في هذا الحفل؟... ترنج، ياله من ترنج رائع، تشا تشا تشا... كوكويا. كانت تقرح برائحة الموز... لا يهمنى... ضغط هو على المهمازين؛ آدار وجهه وابتسم... لوحاتي، وأنبذتي، وخزاناتي وأنا أسيطر عليها تماماً كما أسيطر عليكم... أظن...؟... تذكرت شبابك بسببه وبسبب هذه الأماكن... السلطة تصلح في ذاتها، هذا ما أعرفه، ولنيلها يجب عمل كل شيء... لكنك لم تشأ أن تقول له كم كان يعنى بالنسبة لك لأنك قد تتزعج بذلك تعاطفه... كما فعلت أنا وحموك وكل هؤلاء الذين يرقصون أمامك... إنتظرتك ذاك الصباح بابتهاج... كما سيتوجب عليك أن تفعل، إذا شئت... أن أتعاون معك، دون أرتيميو، أن أرى إن كنت تستطيع، في واحدة من شركاتك... أشار ذراع الفتى المرفوع صوب الشرق، حيث تشرق الشمس، نحو البحيرة... عموماً، يتم ترتيب هذا بطريقة أخرى...

جـرى الحـصانان بـيـطـهـ، وهـما يـنـتـزـعـان العـشـب بـحـوافـرهما، ويـهـزان عـرفـيهـما، مـثـيرين رـذاذاً مـتـناثراً.... - ... يـطـلـبـنـى حـمـوك ويـلمـح إلـى أن زـوج إبـنتـه... نـظـرا فـي عـيـون بـعضـهـما، وإبـتـسـما... - لـكنـك تـرى، لـدى مُثـل مـخـتـلـفـة... إلـى البـحـر الحـر، إلـى البـحـر المـفـتـوح، إلـى حـيـث جـرى لـورنـثـو، مـتـوقـداً، نـحو الأمـواج الـتى إرـتـطـمـت حـول خـصـره... - قـبـل الأـشـياء كـما هـي؛ صـار واقـعياً... - نـعم، هـذا هـو الأـمر. مـثـلك تـمـاماً، دـون أرـتـيـمـيو... سـأله إن كـان لـم يـفـكر أبـداً فـيـما هـو عـلى الجـانـب الأـخـر مـن البـحـر؛ الأـرض كـلـها تـشـبـه بـعضـها، البـحـر وحـده مـخـتـلـف... - مـثـلى تـمـاماً!... قـال لـه أن ثـمـة جُـزْراً... - نـاضـل فـي الثـورـة، خـاطـر بـحـيـاتـه، كـان عـلى وـشـك أن يُعـدَم رـمياً بـالرـصـاص؟.. كـان البـحـر لـه طـعم البـيرـة المـرة، ورائـحة الشـمـام، والسـفـر جـل، والتـوت... - هـه؟... - لا... لا... - سـتـبـحـر سـفـينـة خـلال عـشـرة أـيـام. حـجـزتُ تـذـكـرة... - لـقد وـصـلتُ إلـى نـهاـيـة المـأدبة، يا صـديـقى. سـارع بـجـمـع الفـتـات... - أـلم تـكن لـتـفـعـل نـفس الشـئ، يا بابا؟... - ... إلـى العـُـلا طـوال أربـعـين عـاماً لأنـنا عُمـدنا بـمـجـد تـلك... - نـعم... - ... لـكن، أنـت؟ أـتـعـتـقـد أن هـذا يُورث؟ كـيـف سـتـطـيـلون بـقـاءكم...؟ - الآن هـناك تـلك الجـبـهة. أـعـتـقـد أنـها الـوـحـيدة المـتـبـقـية... - نـعم... - سـلـطـتـنا؟... - سـأذـهـب... - أنـتم عـلـمـتـمـونا كـيـف... - أوف! وـصـلتُ مـتـأخـراً، أقـول لـك... - إنـتـظـرتـك بـيـهـجة، ذـلك الصـبـاح... - فـلـيـحـاول الآخـرون خـداعـك؛ أنا لـم أخـدع نـفـسى قـط؛ لـهـذا أنا هـنا... - عـبـرا النـهر، عـلى صـهـوة الجـيـاد... - تـعـجـل... تـوقـف... لأنـك تـتـرك نـفـسـك تـتـسـاق... سـأله إن كـانا سـيـذـهـبان سـوياً، حـتى البـحـر... - وـماـذا يـهـمـنى أنا... البـحـر الذـى يـحـرسـه تـحـليـق النـوارس المـنـخـفـض... - سـأـمـوت و سـيُـضـحـكـنى ذـلك... البـحـر الذـى أظـهـرَ فـقـط لـسانـه المـتـعـب فـوق الشـاطـئ... - ... و سـيُـضـحـكـنى أن أفـكر... صـوب الأمـواج الـتى إرـتـطـمـت حـول خـصـره... - ... الإبـقاء حـياً عـلى عـالمٍ لا يـعـرفـون

حجمه... قُرب العجوز رأسه من مسامع ثيبايوس... البحر الذى له
طعم بيرة مُرة... - هل تريد أن أعترف لك بشئ؟ ... البحر الذى له
رائحة الشام والجوافة... نقر بقوة بسبابته على كأس الشاب...
الصيادون الذين يسحبون شباكهم نحو الرمال... - ... السلطة
الحقيقية تولد دائماً من التمرد... - الإيمان؟ لا أدري. أنت أحضرتنى
إلى هنا، وعلمتني كل هذه الأشياء... - وأنت ... أنتم... بالأصابع
العشرة مفرودة، تحت السماء الغائمة، والوجه نحو البحر المفتوح... -
... وأنتم... لم يعد لديكم ما هو ضرورى...

عاود النظر نحو الصالون.

- إذن - غمغم خايمى -، هل يمكننى أن أمر لأراك... يوماً من
الأيام القادمة؟
- تحدث مع باديا . ليلة سعيدة.

دقت ساعة الصالون ثلاث مرات. تنهد العجوز وهز مقودى
الكلبين الناعسين، اللذين طرطقا آذانهما ونهضا بينما نهض هو
بصعوبة، مستنداً إلى ذراعى المقعد وتوقفت الموسيقى.
عبر الصالون بين همهمات الإمتنان ورؤوس المدعوين المائلة.
شقت ليليا طريقاً،
- بعد إذنكم...

وتناولت الذراع المتصلب. هو برأسه مرتفعة (لاورا، لاورا)؛ وهى
بنظرتها منخفضة وحذرة، قطعاً المسار المفتوح بين المدعوين، بين
المنحوتات الباذخة، والترصيعات الوافرة، والمصبوبات من الجص
والذهب، والصناديق المطعمة بالعظم والصدف، والأقفال والمزاليج،
والخزائن ذات المصارع وفتحات المفاتيح الحديدية، والمقاعد الفواحة
من الصنوبر المكسيكى، وكراسى الجوقة، والحليات العليا والأفاريز
السفلى الباروكية، ومساند المقاعد المنحنية، والدعامات المخروطة،

والأقنعة المتعددة الألوان، والمسامير البرونزية، والجلود المنقوشة،
وأقدام الموبيليا ذات المخالب والكُرات، وعباءات الكهنة ذات الخيوط
الفضيَّة، والمقاعد المكسوة بالدمقس، والأرائك المخملية، والأواني
والجرار، وأسطح الموائد المشطوفة الحافة، والأبسطة الصوفية،
واللوحات الزيتية المتشققة، تحت كريستال النجف، ودعامات السقف
الدافئة، حتى وصلا إلى أولى درجات السلم. عندها ربَّت هو على يد
ليلى وعاونته المرأة على الصعود، ممسكةً بمرفقه، مُتشبِّهة به حتى
تسندَه بشكل أفضل.

إبتسمتُ:

- ألم ترهق نفسك كثيراً؟

نقى برأسه وعاود تربيت يدها.

أنا قد استيقظتُ... مرةً أخرى... لكننى هذه المرة... نعم... في
هذه السيارة... في هذه العربة... لا... لا أدري... تجرى دون
ضجيج... هذا لا يمكن أن يكون هو الوعي الحقيقي بعد... مهما
فتحتُ عينيَّ لا أستطيع تمييزهم... الأشياء، الأشخاص... بيضتان
بيضاوان وملتمعتان تدوران أمام عينيَّ... حائط من الحليب يفصلنى
عن العالم... عن الأشياء التى يمكن لمسها وعن الأصوات الغريبة... أنا
منفصل... أموت... أنفصل... لا، إنها نوبة... نوبة يمكن أن تصيب
عجوزاً في سنّ... موتٌ لا، إنفصالٌ لا... لا أريد قول هذا... أريد أن

أسأل عنه... لكننى أقوله... لو بذلت جهداً... نعم... ها أنا أسمع الضجيج الإضافى للصفارة... إنها عربة الإسعاف... من صفارة حنجرتى ذاتها... حنجرتى الضيقة والمسدودة... تتساقط قطرات اللعاب... نحو بئر بلا قرار... الانفصال... الوصية؟... آه، لا تشغلوا بالكم... توجد ورقة مكتوبة، ومختومة، ومسجلة أمام مؤثّق... أنا لا أنسى أحداً... لماذا أنساكم، لماذا أكرهكم...؟ ألن يسعدكم التفكير فى أننى حتى اللحظة الأخيرة فكّرت فيكم لأسخر من نفسى؟... آه، يالللضحك، آه، ياللسخرية... لا... أنا أذكركم بلا مبالاة إجراء بارد... أوزّع عليكم هذه الثروة التى ستسبونها علناً إلى مجهودى... إلى دأبى... إلى إحساسى بالمسئولية... إلى مميزاتى الشخصية... إفعّلوا ذلك... إجلسوا هادئين... إنسوا أننى كسبت هذه الثروة، خاطرت بها، كسبتها... منح كل شئ مقابل لا شئ... أليس هذا حقاً؟... كيف سنُسَمّى منح كل شئ مقابل كل شئ؟... ضعوا له الاسم الذى تشاؤون... عادوا، لم يُسلموا بالهزيمة... نعم، أفكر فى هذا وأبتسم... أسخر من نفسى، أسخر منكم... أسخر من حياتى... أليس هذا إمتيازى؟... أليست هذه هى اللحظة الوحيدة لعمل ذلك؟... لم أكن أستطيع السخرية من نفسى بينما كنت أحيأ... الآن نعم... إنه إمتيازى... سأترك لكم الوصية... سأورثكم تلك الأسماء الميتة... ريخينا... توبيّاس... بايث... جونثالو... ثاجال... لاورا، لاورا... لورنثو... حتى لا تنسونى... منفصلاً... أستطيع أن أفكر فى هذا وأسائل نفسى... دون أن أدري... لأن هذه الأفكار الأخيرة... أعرف هذا... أفكر، أظاهر... تطراً غريبة عن إرادتى، آه، نعم... كأن المخ، المخ... يسأل... تصل إلى الإجابة قبل السؤال... ربما... الإثنان هما نفس الشئ... العيش هو انفصال آخر... مع ذلك الخلاسى، بجانب الكوخ والنهر... مع كاتالينا، لو كنا

قد تحدثنا ... في ذلك السجن، ذاك الفجر ... لا تعبر البحر، ما من
جُزُر، ليس حقيقياً، لقد خدعتك ... مع المعلم ... إستيبان؟ ...
سباستيان؟ ... لا أتذكر ... علمنى الكثير من الأشياء ... لا أتذكر ...
تركته ومضيتُ إلى الشمال ... آه، نعم ... نعم ... نعم ... نعم، نعم، كان
يمكن أن تكون الحياة مختلفة ... لكن هذا فقط ... مختلفة ... ليس
حياة هذا الرجل المحتضر ... لا، محتضر لا ... أقول لكم لا لا لا ...
إنها نوبة ... عجوز، نوبة ... نقاهة، هي هذا ... بل أخرى ... تخصُّ
شخصاً آخر ... مختلفة ... لكنها أيضاً منفصلة ... آى من الخداع ...
لا حياة ولا موت ... آى من الخداع ... في أرض الإنسان ... حياة
مخبوءة ... موتٌ مخبوء ... مهلة قاتلة ... بلا معنى ... يا إلهى ... آه،
هذه قد تكون آخر صفقة ... من الذى يضع يديه على كتفى؟ ...
الإيمان بالرب ... نعم، استثمارٌ جيّد، كيف لا ... من الذى يجبرنى
على الإنطراح، كأنما أردتُ أن أنهض من هنا؟ ... هل ثمة إمكانية
أخرى للإيمان تظل قائمة حتى بعد أن لا يعود المرء يؤمن بها؟ ...
الرب الرب الرب ... يكفى ترديد كلمة ألف مرة حتى تفقد كل معنى
ولا تعود سوى تسبيحة ... من المقاطع ... الجوفاء ... الرب الرب ... ما
أشد جفاف شفتى ... الرب الرب ... أضئ بصيرة من ييقنون ...
إجعلهم يفكرون فى من حين ... إلى حين ... إجعل ذكراى ... لا
تضيع ... أفكر ... لكنى لا أراهم جيداً ... لا أراهم ... رجال ونساء
يرتدون الحِداد ... تنكسر تلك البيضة السوداء ... لنظرتى وأرى ...
أنهم يواصلون الحياة ... يعودون إلى أعمالهم ... إلى أوقات
فراغهم ... وموآمراتهم ... دون أن يتذكروا ... الميّت المسكين ... الذى
يُنصتُ إلى رفوش التراب ... الرطبة ... فوق وجهه ... إلى التقدم
المتماوج ... المتماوج ... نعم ... الباذخ ... لتلك الديدان ...
حنجرتى ... تتساقط منها القطرات مثل بحر ... صوتٌ ضائع ...

يريد الإنبيعاث... الإنبيعاث... الإستمرار حياً... إكمال الحياة حيث
قطعها الآخر... الموت... لا... العود إلى البدء من البداية...
الإنبيعاث... الميلاد من جديد... الإنبيعاث... إتخاذ القرار من
جديد... الإنبيعاث... الإختيار من جديد... لا... يالثلج في
صدرى... يالأظافر... الزرقاء... ياللمعدة... المنتفخة...
ياللفثيانات... الخرائية... لا تمت دون سبب... لا... آه أيتها
العجوزان... العجوزان العاجزتان... اللتان نالتا كل... أشياء
الثروة... ورأس... التفاهة... لو كنتما على الأقل... فهمتما فيم
تفيد... كيف تُستخدم... هذه الأشياء... ولا هذا... بينما نلتُ أنا كل
شئ... أتسمعانى؟... كل شئ... ما يُشترى و... كل ما لا يُشترى...
نلت ريخينا... أتسمعانى؟... أحببتُ ريخينا... كان اسمها ريخينا...
وأحببتى... أحببتى دون نقود... تبعتنى... وهبتى حياتها... هناك
إلى أسفل... ريخينا، ريخينا... كم أحبك... كم أحبك اليوم... دون
ضرورة لأن تكونى قريبة منى... كم تقعين صدرى بهذا الرضا...
الداقئ... كم... تفرقيننى... بعطرك القديم... المنسى، ريخينا...
تذكرتك... أرايت؟... أنظري جيداً... تذكرتك من قبل... استطعتُ
تذكرك... كما كنت... كما تحبيننى... كما أحببتك في العالم... لا
يستطيع أحد أن ينتزع منا... يا ريخينا، أنت وأنا... ما أجلبه
وأحتفظ به... حامياً إياه بكلتا يدي... كما... لو كان لهباً... صغيراً
وحياً... أهديته أنتِ إلى... منحتنى إياه... منحتنى إياه... أنا كنتُ
سأنتزع... لكننى منحتك أنتِ... أى، أيتها العيون السوداء؛ أى، أيها
الجسد الداكن والفواح، أى أيتها الشفاه السوداء، أى أيها الحب
الداكن الذى لا أستطيع أن المسه، أو أسميه، أو أكرره: آه يداك يا
ريخينا... يداك فوق عنقى و... نسيانُ لقاءاتك... نسيانُ كل ما
وُجد... خارجك وخارجى... أى ريخينا... دون تفكير... دون

حديث... لأنه في الفخذين الداكنين... للوفرة خارج الزمن... آى
لكبريائى الذى لا يتكرر... كبرياء أن أكون قد أحببتك... الطقس
دون جواب... ماذا يمكن للعالم أن يقول لنا... يا ريخينا... ماذا كان
يمكنه أن يُضيف إلى هذا... أى عقل كان يمكنه أن يتحدث... إلى
جنون... محبّتنا؟... ماذا؟... أيتها الحمامة، القرنفل، اللبلاب،
الزبد، البرسيم، المفتاح، السفينة، النجمة، الشبح، الجسد: كيف
سأسميك... يا حبي... كيف سأقربك... من جديد... من أنفاسى...
كيف سأتضرع إليك... أن تسلمينى نفسك... كيف سأريّت...
خدّيك... كيف سأقبل... شحمتى أذنيك... كيف سأستشق... ما
بين ساقيك... كيف سأقول... عينيك... كيف سألمس... طعمك...
كيف سأهجر... وحدتى... أنا نفسى... لأضيع فى... وحدة...
كلينا... كيف سأردّد... أننى أحبك... كيف سأنبش... ذكراك
إنظاراً لرجوعك؟... ريخينا ريخينا... هذه الطعنة تعود، يا ريخينا،
أنا أستيقظ... من شبه النوم ذاك الذى دفعنى إليه المهدئ... أنا
أستيقظ... بالألم... فى مركز... أحشائى، ريخينا، أعطنى يدك، لا
تتركىنى، لا أودُّ الاستيقاظ دون أن أجذك بجانبى، يا حبي، لاورا، يا
إمرأتى المعبودة، يا ذكراى المخلصة، يا تتورتى القطنية، ريخينا،
تؤلمنى، رقتى التى لا تتكرر، أنفى النائثة، تؤلمنى، يا ريخينا، أنتبه إلى
أنها تؤلمنى: ريخينا، تعالى حتى أنجو مرة أخرى؛ ريخينا، بادلى مرة
أخرى حياتك بحياتى؛ ريخينا، موتى من جديد حتى أحيا أنا؛
ريخينا، أيها الجندى. ريخينا. احتضنوني. لورنشو. ليليا، لاورا.
كاتالينا. احتضنوني. لا. يالثلج فى صدرى... أيها المخ، لا تمت...
أيها العقل... أودُّ أن أعثر عليها... أودُّ... أودُّ... أيتها الأرض...
أيها البلد... أحببتك... أردت الرجوع... يا عقل اللاعقل... أردت أن
أتأمل من موضع شاهق الحياة المعاشة ولا أرى شيئاً... وإذا كنت لا

أرى شيئاً... فلماذا أموت... لماذا أموت مُتَعَذِّباً.. لماذا لا أواصل
الحياة... الحياة الميَّتة... لماذا أنتقل... من العدم الحى إلى العدم
الميَّت... يُسْتَفَدُّ... يُسْتَفَدُّ لاهثاً... نباحُ الصفارة... حفنة كلاب...
تتوقف سيارة الإسعاف... أنا مُتَعَبٌ... لا يمكن أن أكون أشدَّ تعباً...
أرض... يدخل ضوءٌ آخر إلى عيني... صوتٌ آخر...
- يُجرى الجراحة الدكتور سابينس.

عقل؟ عقل؟

تجرى النقالة على القضبان، خارج سيارة الإسعاف. عقل؟ من

يحيا؟ من يحيا؟

أنت لن يمكنك أن تكون أشدَّ تعباً؛ أشدَّ تعباً لا يمكن؛ لأنك
ستكون قد سرت كثيراً، على صهوة حصان، وعلى الأقدام، وفي
القطارات القديمة والبلد لا ينتهى أبداً. هل ستتذكرُ البلد؟ ستتذكره
وليس بلداً واحداً؛ إنه ألف بلدٍ بإسم واحد. ستعرف هذا. ستجلبُ
الصحراوات الحمراء، سهوبَ التين الشوكى والصبَّار، عالم التين
الشوكى، حزام الرواسب البركانية والأخاديد الثلجية، الجدران ذات
القمم المذهبة والكوى الحجرية، المدن المتينة البنيان، مدن الصخور
البركانية، قرى الطين النئى، ونجوع القصب، دروب الطين الأسود،
وطُرُق الجفاف، شفاء البحر، الشواطئ الكثيفة والمنسيَّة، وديان
القمح والذرة العذبة، المراعى الشمالية، بحيرات الأراضى

المنخفضة، الغابات النحيلة والسامقة، الأغصان المُحملة بالقش،
القمم البيضاء، سهول الأسفلت، موانئ الملاريا وبيوت الدعارة،
القشرة المتكلسة للصبار، الأنهار الضائعة، المنحدرة، حفائر الذهب
والفضة، الهنود دون لغةٍ مشتركة، لغة الكورا، لغة الياكي، لغة
الهويتشول، لغة البيما، لغة السيرى، لغة التشونتال، لغة التيبهوانا،
لغة الهواستيكا، لغة التوتوناكا، لغة الناهوا، لغة المايا، موسيقى الناي
والطبل، الرقصات المتقاطعة، الجيتار والماندولين، الريش، العظام
النحيلة لإقليم ميتشواكان، اللحم الممتلئ لإقليم تلاكسكالا، العيون
الصافية لسينالوا، الأسنان البيضاء لتشياپاس، صدريات النساء،
أمشاط بيراكروث، ضفائر هنود الميكستيكا، أحزمة هنود التوتثيل،
دثارات سانتا مارتا، صناعات الجلود القروية، زجاج خاليسكو؛ يُشب
واكساكا، أطلال الأفعى، أطلال الرأس السوداء، أطلال الأنف
الكبيرة، الصوامع والمحاريب، الألوان والنقوش البارزة، العقيدة
الوثنية لتونانتثينتلا وتلاكوتشاجوايا، الأسماء العتيقة لتيوتيهواكان
وياپانتلا، وتولا وأوكسمال: تجلبها وتُثقل عليك، إنها أحجارٌ مفرطة
الثقل على رجل واحد: لا تتحرك أبداً وتحملها أنت مربوطة في
عنقك: تُثقل عليك وألقت بثقلها في أحشائك... إنها بكتيرياك
العَصَوِيَّة، وطفيلياتك، وأميباك...

أرضك

ستفكرُ في أن ثمة إكتشافاً ثانياً للأرض في هذه المسيرة
الحربية، في أن قدماً تَطأ للمرة الأولى جبالاً وأخاديد هي بمثابة
قبضة مُتحدِّية للتقدم اليائس والبطئ للطريق، للسد، لشريط
السكك الحديدية وعمود التلغراف: هذه الطبيعة التي تستعصى على
الاقتسام أو السيطرة، التي تريد أن تواصل الوجود في وحدةٍ قاطعةٍ
ولم تمنح البشر سوى بضعة وديان، وبضعة أنهار، حتى يتسلوا فيها

أو على ضفافها؛ تظل هي المالكة العدائية للقمم المساء والعصية
البلوغ، للصحراء المتبسطة، للغابات وللشواطئ المهجورة؛ والبشر،
المبهورون بتلك القوة المتفطرسية، ستظل عيونهم مُحَدِّقَة فيها: إذا
كانت الطبيعة النافرة تدير ظهرها للإنسان، فإن الإنسان يدير ظهره
للبحر الواسع المنسي، الذي يتعفن في وحشيته الدافئة، ويفور
بثروات ضائعة.

ستورث الأرض

لن ترى مرة أخرى تلك الوجوه التي عرفتها في سونورا وفي
تشيهواهوا، التي رأيته يوماً نائمة، تتحمل، وفي اليوم التالي حانقة،
ملقية بنفسها في ذلك الصراع دون أسباب ودون شروط مُخَفِّفَة، في
ذلك العناق من رجال لرجال فصلهم رجال آخرون، في ذلك القول
بأنني هنا وموجود معك أنت وأنت وأنت أيضاً، بكل الأيدي وكل الوجوه
المغمَّاه: في الحب، الحب المشترك الغريب الذي يستنفذ ذاته: ستقول
هذا لنفسك، لأنك عشته ولم تفهمه وأنت تعيشه: وعند موتك فقط
ستقبله وستقول دون موارد أنك دون حتى أن تفهمه خشيتُه خلال كل
يوم من أيام سلطتك: ستخشى أن يتفجَّر من جديد ذلك الالتقاء
العاشق؛ والآن ستموت ولن تعود تخشاه لأنك لن تراه؛ لكنك ستقول
للآخرين أن يخشوه: أن يخشوا الهدوء الزائف الذي تورثهم إياه، أن
يخشوا التآلف الوهمي، الكلمات السحرية، الجشع المعترف به: أن
يخشوا هذا الجور الذي لا يدرى حتى أنه كذلك:

سيقبلون وصيتك: الاحتشام الذي إنتزعته من أجلكم، الاحتشام:
سيزجون الشكر للأزعر أرتيميو كروث لأنه جعل منهم قوماً محترمين؛
سيزجون له الشكر لأنه لم يقنع بأن يعيش ويموت في كوخ زنوج؛
سيزجون له الشكر لأنه خرج مخاطراً بحياته: سيبررون مسلكك لأنهم
لن تعود لديهم مبرراتك: لن يستطيعوا إستحضار المارك والزعماء،

مثلك، والإحتماء خلفهم لتبرير السرقة باسم الثورة وتعظيم الذات باسم تعظيم الثورة: ستفكر وستدهش: أى تبرير سيجدونه هم؟ أى عائق سيواجهونه؟ لن يفكروا في ذلك، سيستمعون بما تتركه لهم طالما أستطاعوا؛ سيحيون سعداء، سيظهرون أنهم متألون ومُمتنون - في العلن، لن تطلب أكثر من ذلك - بينما تنتظر أنت ومتر من التراب فوق جسدك؛ تنتظر، حتى تحس من جديد بحشد الأقدام فوق وجهك الميت وستقول حينئذ

- لقد عادوا. لم يُسلموا بالهزيمة

وستبتسم: ستسخر منهم، ستسخر من نفسك: إنه إمتيازك: سيفريك الحنين: سيكون هو وسيلة تجميل الماضي: ولن تفعل ذلك: ستورث الميتات اللامجدية، والأسماء الميتة، أسماء من سقطوا موتى حتى يعيش اسمك؛ أسماء الرجال الذين جردوا من ممتلكاتهم حتى يمتلك اسمك: أسماء الرجال المنسيين حتى لا ينسى اسمك أبداً:

ستورث هذا البلد؛ ستورث صحيفتك، اللمز والتملق، الضمير الذى نوّمته الخطبُ الزائفة لرجال تافهين؛ ستورث الرهونات، ستورث طبقة منبوذة، سلطة بلا عظمة، حماقة مكرّسة، طموحاً قزماً، تسوية هزلية، بلاغة متعفّنة، جُبناً دستورياً، أنانية مبتذلة؛

ستورثهم زعماءهم اللصوص، ونقاباتهم الخاضعة، وأقطاعاتهم الجديدة، واستثماراتهم الأمريكية، وعمّالهم المسجونين، ومحتكريهم وصحافتهم الضخمة، وأجراءهم، وجنودهم، وعمّالهم السريين، وودائعهم في الخارج، ومُرابيهم المدهونى الشقر، ونوابهم الخانعين، ووزراءهم المتملقين، وقطع أراضيهم السكنية الأنيقة، واحتفالاتهم السنوية والتذكارية، وبراعيئهم وقطع عجة الذرة المليئة بالديدان، وهنودهم الأميين، وعمّالهم العاطلين عن العمل، وجبالهم التى جردت

من غاباتها، ورجالهم البدينين المسلّحين بأنابيب الأوكسجين
والسندات، ورجالهم النحيلين المسلّحين بالأظافر: خذوا مكسيككم:
خذوا ميراثكم:

ستورثُ الوجوه، العذبة، الغريبة، بلا غدٍ لأنها تفعل كلَّ شئ اليوم،
وتقوله اليوم، هي الحاضر وهي في الحاضر: تقول "غداً" لأنها لا
يهمها الغد: ستكون أنت المستقبل دون أن تكونه، ستستنفد أنت نفسك
اليوم وأنت تفكر في الغد: وهم سيكونون الغد لأنهم لا يحيون إلا
اليوم:

شعبك

موتك: حيواناً تستشرف موتك، تُشدُّ موتك، تقوله، ترقصه،
ترسمه، تتذكره قبل أن تموت موتك:

أرضك

لن تموت دون أن تعود:

هذا النجع عند قدم الجبل: الذي يسكنه ثلاثمائة شخص
والذي يظهر بالكاد من خلال بضع بقع من القرميد بين الأغصان
التي، بقدر ما يغرس صخر الجبل جذوره، تبرز خشنة على السفح
الناعم الذي يرافق النهر في مساره حتى البحر القريب: مثل هلال
أخضر، سيلتهم قوس تامياها وكواتشاكوا الكوس الوجه الأبيض للبحر
في محاولة عبثية - تلتهمه فيها، بدوره، القمة الضبابية لسلسلة
الجبال، مستقرٌ وحْدُ الهضبة الهندية - للاتصال بالأرخبيل
الإستوائي ذي التماوجات الرشيقة والأجساد المحطمة: بكونه يداً
كسولة للمكسيك الجاف، غير القابل للتحوّل، الحزين، لعزلة الصخر
والتراب الحبيسة في هضبة الألتيفلانو، سيكون لهلال بيراكروث
تاريخ آخر، مربوط بخيوط ذهبية بجزر الأنتيل، وبالمحيط، وإلى
مدى أبعد، بالبحر المتوسط الذي لن تهزمه حقاً سوى دعائم

أكتاف سلسلة جبال سيرا مادي الشرقية: حيث تتتالي البراكين وترتفع الشارات الصامته للصبار الأمريكى، سيموت عالمٌ يُرسلُ في موجاتٍ متتابعةٍ زبده الحسى من مضيق البوسفور ونهود بحر إيجة، ورذاذه من العناقيد والدرافيل من سرقسطه وتونس، وصيحات العرفان العميقة من الأندلس وأبواب جبل طارق، والتحيات المتملقة للزئوج رجال البلاط ذوى الباروكات من هايتى وجامايكا، وفرق الراقصين وضاربى الطبول وأشجار الثيبا* ceibas والقراصنة والغزاة من كوبا: الأرض السوداء تمتص موجات المد: في شرفات الحديد المشغول وفي بوابات مزارع البن ستستقر الموجات البعيدة: في الأعمدة البيضاء للبوابات الريفية وفي النبرات الشبقية للأجساد والأصوات ستموت تضوُّعات الروائح: هنا ستكون ثمة حدود: بعدها ستنتصب القاعدة الجهمة للنسور والصوَّان: حدودٌ لن يهزمها أحدٌ: لا رجال إكستريمادورا وقشتالة الذين نضبت طاقتهم في التأسيس الأول ثم أخذوا ينهزمون دون أن يدروا خلال الصعود إلى الهضبة المحظورة التى تركتهم يدمِّرون ويشوِّهون مظاهرها الخارجية فقط: ضحايا، في النهاية، للجوع المركز لتماثيل التراب، للإمتصاص الأعمى للبحيرة التى ابتلعت ذهباً، وأصول، ووجوه كل الغزاة اللذين إنتهكوها؛ ولا القراصنة الذين كدَّسوا سفنهم الشراعية بالدروع التى ألقيت من قمة جبل الهنود بضحكة مُرَّة؛ ولا الرهبان الذين عبروا مسار لا مالينتشى** ليمنحوا هيئات تكريية جديدة لآلهة لا يمكن إثارة مشاعرهما، تتجسد في صخور قابلة للتدمير لكنها تسكن الهواء؛ ولا الزئوج المجلوبين إلى المزارع الإستوائية

* شجرة أمريكية إستوائية ضخمة-م

** لا مالينتشى: عشيقة ومترجمة الفاتح هرنان كورتيس. رافقته أثناء فتح المكسيك

والذين أنهكتهم الهنديات اللائي جئن للقائهم وقدمن فزوجهن
المرداء كمنفذٍ للإنتصار على الجنس الأجعد الشعر، ولا الأمراء
الذين هبطوا من سقنهم الشراعية الإمبراطورية واستسلموا
للإنخداع بالمنظر اللطيف لأشجار النخيل الملكى والثمار المفردة
النواة وصعدوا بمتاعهم المُثقل بالمخرمات واللافتدر إلى الهضبة ذات
جدران الإعدام المثقوبة بالرصاص؛ ولا حتى الزعماء المحليين ذوى
القبعات المثلثة الأركان والكتفيات الذين لقوا، في نهاية المطاف، في
الدكنة الصامتة لهضبة الألتىپلانو، الهزيمة الباعثة على اليأس
نتيجةً للتكتم، والسخرية الصماء، واللامبالاه:

ستكونُ أنت ذلك الطفل الذى يخرج إلى الأرض، ليلاقى الأرض،
يخرج من أصله، ليلاقى مصيره، اليوم حيث يُساوى الموتُ بين الأصل
والمصير ويغرس بين الإثنين، رغم كلِّ شئٍ، نصلَ الحرية:

(١٩٠٣: ١٨ يناير)

هو من استيقظ عند سماعه غمغمة الخلاسى لونيرو- آه
سكران، آه سكرن - حين بدأت كلُّ الديكة (وهى طيورٌ في حالة حِدادٍ
كانت قد سقطت في عبودية الغابة، بعد التخلّى عن حظائر الدواجن
التي كانت في حقبةٍ أخرى فخرَ هذه الضيعة لأنها كانت تتنافس مع
ديكة القتال لدى سيدِ الأقليم الكبير، منذ أكثر من نصف قرن) في
إعلان الصباح الإستوائى العاجل، الذى يُعدُّ بمثابة نهاية الليلة

بالنسبة للسنيور پدريتو، المنغمس في عريضة منفردة أخرى، هناك في شرفة البلاطات الملونة لحدود المنزل القديمة الضائعة: بلغ الغناء الثمل للسيد سقف سعف النخيل الذي كان لونيرو تحته على قدميه، يرش الأرض الترابية بحفّات من الماء من الطاسة، المجلوبة من مكان آخر، والتي كانت بطّاتها وزهراتها المرسومة تلتمع بطلاءٍ برّاق، في زمن آخر. أشعل لونيرو الموقد على الفور لتسخين إدام السمك الصغير المقلّب، بقية طعام اليوم السابق؛ وبحث في سلة الفاكهة، مُزّراً عينيه، عن الثمرات ذات القشور الأكثر إسوداداً حتى تؤكّل على الفور، قبل أن تطرى وتمتلئ بالديدان بفعل التحلل التام، شقيق الخصوبة. بعدها، بعد أن انتهى دخان اللوح الصفيح من طرد النعاس من عيون الطفل، توقف الغناء البلغمي لكن ظلت تسمع تعثرات السكر، وهي تتباعد شيئاً فشيئاً وبعدها إغلاق الباب الأخيرة، فاتحة صباح الأرق الطويل: على بطنه فوق الحشيرة العارية والملطخة لسرير الماهوجني الضخم، مشتبكاً في أحبولة الناموسية، في الفراش ذي القبة دون ملاءات، يائساً لأن احتياطي الروم قد نفذ. من قبل - تذكر لونيرو، حين كان يُربّت الرأس الشعث للطفل الذي أقترّب من النار بقميص النوم القصير، مُبدياً أولى ظلال البلوغ -، حين كانت الأرض ضخمة، كانت الأكواخ بعيدة عن المنزل ولم يكن يُعرف ما يدور فيه، حيث أن الطبّاخات البدينات والشابات الخلاسيات* اللواتي كنّ يكنسن بالمقشّات وتُشّين القمصان لم يكنّ يحملن حكاياتهن إلى العالم الآخر للرجال الذين حمّصتهم الشمس في حقول التبغ. والآن، صار كل شيء قريباً في الضيعة التي خنقها المرابون والأعداء السياسيون للسيد القديم الميت، ولم يبق سوى

* cambujas نتاج تهجين صيني وهندية حمراء أو العكس - م

المنزل الذى بلا زجاج وكُوخ لونيرو؛ وفي الأول لم يعد ثمة سوى ذكرى الخدم، التى تبقى عليها التحيلة باراكوا التى واصلت العناية بالجدّة المحبوسة في الغرفة الزرقاء في عمق المنزل؛ وفي الثانى لم يكن يحيا سوى لونيرو والطفل وكانا هما العاملين الوحيدين.

جلس الخلاسى فوق الأرض التى جرت تسويتها وقسم طبق السمك، مُفرغاً نصفه في القدر الفخارى و مبقياً النصف الآخر فوق لوح الصفيح. قدم ثمرة مانجو للطفل وقشّر هو موزةً وأكل الإثنان في صمت. وحين إنطفأت كومة الرماد الصغيرة، دخلت من الفتحة الوحيدة - التى هى بابٌ، ونافذة، وعتبة للكلاب المتشمّة، وحدٌ للنمل الأحمر الذى يمنعه من الدخول خطٌ مرسومٌ بالجير- السحابة الثقيلة للبلاية التى زرعها لونيرو منذ سنواتٍ لإخفاء طوب اللبن الكالح في الجدران وإحاطة الكوخ بشبكة هذه النضارة الليلية لأزهار أنبوية. لم يتكلّما. لكن الخلاسى والطفل كان يشعران بنفس ذلك الإمتنان البهيج لوجودهما معاً بحيث أنهما ما كانا ليقولاه أبداً، ولا حتى يعبرا عنه، أبداً، بابتسامة مشتركة، لأنهما هناك لا ليقولا أو ليبتسما، بل ليأكلا ويناما معاً وليخرجا معاً كل فجر، ساكن بلا إستثناء، ومُحمّل بالرطوبة الاستوائية ولينجزا معاً الأعمال الضرورية لقضاء الأيام وليسلما للهندية باراكوا قطع النقود التى تشتري كلّ سبت طعام الجدّة ودمجانات السنيور بدريتو. كانت جميلة تلك الزجاجات الضخمة العريضة الزرقاء التى تحجب عنها الحرارة السلة المنسوجة من القصب واليد الجلدية: وهى حلقة، ذات إستدارة قصيرة وضيقة. كان السنيور بدريتو يضعها على مدخل المنزل وكل شهر كان لونيرو يصل إلى النجع عند قدم سلسلة الجبال بالعصا الغليظة التى يستعملها في الضيعة لنقل دلاء الماء ويعود واضعاً إياها على كتفيه والدمجانات مربوطة فيها وتتأرجح، لأن البفلة التى كانت موجودة من قبل قد

ماتت. كان هذا التجع عند قدم الجبل هو الجوار الوحيد. يسكنه ثلاثمائة شخص ويظهر بالكاد من خلال بضع بُقع من القرميد بين الأغصان التي، بقدر ما يفرس صخرُ الجبل جذوره، تبرزُ خشنةً على السفح الناعم الذي يُرافقُ النهرَ في مساره حتى البحر القريب.

خرج الطفل من الكوخ وجرى عبر درب الأعشاب البرية التي تحيط بالجذوع الرمادية الناعمة لأشجار المانجو؛ وقاده المنحدر الطيني، تحت السماء التي تخفيها الزهور الحمراء والثمار الصفراء، إلى ضفة النهر حيث كان لونيرو يفتح، بضربات الساطور، فرجةً بجوار النهر - الذي يبدأ في الإتساع هنا، وما زال متلاطمًا - من أجل العمل اليومي. وصل الخلاسى ذو الذراعين الطويلتين وهو يحزم بنطلونه الخفيف، المتسع الفتحات من طرفيه، مُذكرًا بموضه بحرية ضائعة ما. تناول الطفل السروال القصير الأزرق الذي قضى الليل، وهو يجفُّ على مهل، على حلقة الحديد المشغول الصدئة التي يقترب منها الآن لونيرو. كانت بعض قطع لحاء المنجروف ترقد، مفتوحة ومُصنفرة، وفتحاتها داخل الماء. توقف لونيرو برهة، وقدماه غائصتان في السَّبَخ. باتجاه البحر، كان النهر يوسِّعُ تنفسه ويهدد كتلاً متزايدة من الأعشاب البرية ونباتات الموز. كانت أعواد الغاب تبدو أعلى من السماء، لأن هذه كانت مستوية، نابضة، واطئة. كان الإثنان يعرفان ما يجب عمله. تناول لونيرو الصنفرة وواصل تلميع قطع اللحاء، بقوة جعلت أعصاب معصمه السميكة تتراقص. جذب الطفل كرسيًا أعرج ومُسَوَّسًا ووضعها داخل الحلقة الحديدية، المرتكزة على عمودٍ محوري من الخشب. من الفتحات العشر المثقوبة في الحلقة كانت تتدلى عشر فتائل من الخيط. أدار الطفل الحلقة ثم قرفص ليشعل النار تحت الإناء: تصاعدت الفقاقيع من كثافة شمع الآس الذائب؛ دارت الحلقة؛ وأخذ الطفل يسكب الشمع في الثقوب.

- قريباً سيحل عيد التطهر - قال لونيرو وثلاثة مسامير بين أسنانه.

- متى؟

أضاءت النار الصغيرة تحت الشمس عيني الطفل الخضراوين.
- اليوم الثانى من الشهر، أيها الطفل كروث، اليوم الثانى، عندها سنبيع المزيد من الشموع، ليس فقط للقريبين منا، بل لكل الناحية. يعرفون أن أفضل الشموع تأتى من هنا.

- أتذكرُ العام الماضى.

أحياناً، كان الشمع الساخن يلسعه كالسوط؛ وكان فخذ الصبى مُبقعين بندوب صغيرة مستديرة.

- إنه اليوم الذى يبحث فيه حيوان المارموتا* عن ظله.

- وكيف تعرف هذا؟

- إنها حكاية حملها الناس من مكان آخر.

توقف لونيرو وأمسك شاكوشاً. جعدُ جبهته الداكنة.

- أيها الطفل كروث، هل تعتقد أنك أصبحت تعرف كيف تصنع

الزوارق الخفيفة؟

الآن كست وجه الصبى إتسامةً واسعةً بيضاء. وأبرزت
الإنعكاسات الخضراء للنهر ولأعواد الغاب الرطبة ذلك التشكيل
الشاحب، العظمى للوجه. وتجعد الشعر الذى صففه النهر، فوق
الجبهة العريضة، والرقبة الداكنة. كانت الشمس قد كسته بظلال
نحاسية لكن جذوره ظلت سوداء. وسرى لون الفاكهة الخضراء فى كل
ذراعيه النحيلتين وصدره الصلب، الذى صنعتة السباحة ضد التيار،
مع أسنان لامعة فى قهقهة الجسد الذى أنعشه النهر ذو القاع الملى

* la marmota : أحد القوارض ذات الأرجل القصيرة والذيل القصيرة يقوم

بالبسات الشتوى فى حفر أو أوجرة. يعنى اسمه اللاتينى فأر الجبل-م

بالأعشاب والصفاف الموحلة. - نعم أصبحتُ أعرف. فقد رأيتُ كيف تصنعها.

خفض الخلاسى عينيه الخفيضتين من تلقاء ذاتهما، الهادئتين لكنهما يقظتان. - إذا ذهب لونيرو، هل ستعرف كيف تصنع كل الأشياء؟

كفَّ الطفل عن إدارة الحلقة الحديدية. - إذا ذهب لونيرو؟
- إذا اضطرَّ للذهاب.

فكر الخلاسى أنه لا يجب أن يقول شيئاً؛ لن يقول شيئاً، سيمضى مثلما مضى ذووه، دون قول أى شئ، لأنه يعرف ويقبل المقدور ويشعر بهوّة من الأسباب والذكريات بين تلك المعرفة وذلك القبول وبين معرفة ورفض الرجال الآخرين؛ لأنه يعرف الحنين والتجوال. ورغم معرفته بأنه لا يجب أن يقول شيئاً، فقد كان يعرف أن الطفل - رفيقه الدائم - رأى بفضول، ورأسه مائلة، الرجل ذا المعطف الفراك المحبوك والمتصيّب عرقاً الذى بحث بالأمس عن لونيرو.

- أنت تعرف، بيع الشمع في القرية وصنع المزيد حين يحين عيد التطهر؛ وحمل الزجاجات الفارغة كل شهر وترك الخمر للسينور پدريتو على يابه... صنع الزوارق الخفيفة والهبوط بها جميعاً مع النهر كل ثلاثة أشهر... وبالطبع، تسليم قطع النقود الذهبية إلى باراكوا، كما تعرف، مع الاحتفاظ لنفسك بقطعة منها وصيد السمك هنا في هذا المكان...

لم تعد الفرجة الضيقة بجوار النهر تبيض بخشخشة الحلقة الصدئة ولا بضربات المطارق الناعسة للخلاسى. فقد تصاعد وشيش المياه السريعة، التى تحتجزها الخضرة، والتى تحمل ثقل القصب والجدوع الساقطة في العواصف الليلية والأعشاب المتموجة من حقول أعالي النهر. وخفقت الفراشات السوداء والصفراء، بإتجاه البحر

أيضاً . ترك الطفل ذراعيه تسقطان وساءل نظرة الخلاسى الخفيضة .
- هل ستذهب؟

- أنت لا تعرف كل حكايات هذا المكان . في زمن آخر كانت كل
الأراضى ، حتى الجبل ، مملوكة لقوم هذا المكان . ثم ضاعت . مات
السيد الجد . وجرح السيد أتاناسيو جرحاً بليغاً نتيجة خيانة وظلت
جميع الأراضى دون زرع . أو إنتقلت إلى آخرين . لم يبق سوى وتركونى
في سلام أربعة عشر عاماً . لكن كان لابد أن تحين ساعتى .
توقف لونيرو ، لأنه لم يدر كيف يكمل . شئت الحواف المفضضة
للمياه إنتباهه وطالبته عضلاته بأن يواصل العمل . منذ ثلاثة عشر
عاماً حين سلموه الطفل ، فكر أن يرسله عبر النهر ، ترعاه الفراشات ،
مثل الملك القديم في حكايات البيض ، وينتظر عودته ، قوياً وعظيماً .
لكن موت السيد أتاناسيو أتاح له الإحتفاظ بالطفل ، دون حتى أن
يتشاجر مع السنيور پدريتو ، الذى لم يكن قادراً على تشتيت إنتباهه
ولا على الجدال ، ودون أن يتشاجر مع الجدة التى كانت بالفعل تحيا
حبيسة تلك الغرفة الزرقاء ذات الستائر المخرمة والنجف الذى
يخشخش في الإعصار والتى لن تتبه أبداً لنمو الصبى على بعد أمتار
قليلة من جنوبها المطبق . نعم ، مات السيد أتاناسيو في موعد مناسب
جداً ؛ فقد كان سيأمر بقتل الطفل ؛ وقد أنقذه لونيرو . إنتقلت آخر
حقول التبغ إلى أيدي الزعيم المحلى الجديد ولم يبق لهم سوى هذا
النطاق من الضفة وأعواد الغاب والحدود القديمة للمنزل مثل وعاء
قديم مشروخ . رأى كيف إنتقل كل العمال إلى أراضى السيد الجديد
وكيف بدأ في الوصول رجال جدد ، مجلوبين من أعالي النهر للعمل في
المزروعات الجديدة وكيف تم إنتزاع الرجال من القرى والضياع
الأخرى وكان عليه هو ، لونيرو ، أن يخترع أعمال الشموع والزوارق
الخفيفة تلك ليكسب بواسطتها ما يقيم أود الجميع ويعتقد أن أحداً

لن ينتزعه من قطعة الأرض المجذبة تلك، التي هي مجرد ظفر بين النهر والمنزل المتهدم، لأن أحداً لن يُمعن النظر فيه، وهو ضائع بين الأطلال النباتية مع صبيّه الصغير. إستغرق الزعيم المحلي أربعة عشر عاماً في الإنتباه إلى وجوده، لكنه كان لابد أن ينتهي ذات يوم من تفتيشه العنيد للإقليم، حتى يعثر على آخر إبرة ضائعة في القش. ولهذا السبب كان قد قدم عصر الأمس، يخنقه المعطف الأسود ويتصبّب العرق من صدغيه، ناظر زراعة الزعيم المحلي، ليقول لونيرو أن عليه أن يذهب في الغد بالذات - اليوم - إلى ضيعة السيّد في جنوب الولاية، لأن عمال التبغ الجيدين قليلون ولأن لونيرو قضى أربعة عشر عاماً يكدح لرعاية رجل سكّير وامرأة عجوز مجنونة. وهذا كله ما لم يعرف لونيرو كيف يقصّه على الطفل كروث، فقد بدا له أنه لن يفهم. الطفل الذي لم يعرف سوى العمل بجانب النهر وطزاجة الماء قبل الغداء؛ والرحلات إلى شاطئ البحر، حيث يُهدونه الكابوريا الحية من البحر والنهر وإلى القرية القريبة، قرية الهنود حيث لا يكلمه أحد. لكن الحقيقة أن الخلاسى كان يعرف أنه إذا بدأ في جذب خيط الحكاية، فإن النسيج كله سيتفكك وسيكون عليه أن يصل إلى نقطة البداية ويفقد الطفل. وهو يحبه - هذا ما قاله لنفسه الآن الخلاسى ذو الذراعين الطويلتين، وهو متحن بجانب اللحاء المصنفر - ؛ أحبه منذ أن طردوا أخته إيسابيل كروث منها لين عليها ضرباً وسلموه الطفل وأطعمه لونيرو في الكوخ بحليب العنزة العجوز التي بقيت من ماشية ال منشاكا ورسم له في الطين تلك الحروف التي كان قد تعلمها في طفولته، حين كان خادماً لدى الفرنسيين في بيراكروث وعلمه السباحة، والتميز بين الثمار وتذوّقها، واستخدام الساطور، وصنع الشموع، وغناء أغنيات هي التي جلبها والد لونيرو من

سانتياجو دى كوبا، حين نشبت الحرب وانتقلت العائلات مع خدمها إلى بيراكروث. وهذا كل ما كان لونيرو يريد أن يعرفه عن الطفل. وربما لم يكن ضرورياً معرفة المزيد، إلا أن الطفل كان هو أيضاً يحب لونيرو ولا يريد العيش بدونه. كانت تلك الظلال الضائعة للعالم - السنيور يدريتو، والهندية باراكوا، والجدة - تتقدم الآن إلى الصدارة كأنها مُدية، لتفصله عن لونيرو. وكانوا هم من يمثلون الشئ الغريب، المنفصل عن الحياة المشتركة مع صديقه. وهذا كل ما كان الطفل يفكر فيه وكل ما يفهمه.

- إنتهبه لأن الشموع ستقصر وسيغضب القس - قال لونيرو.
هزت نسمة غريبة أطراف الشموع المعلقة؛ وأطلق ببغاء أمريكي مذعور صيحة الظهيرة.

نهض لونيرو واقفاً وخاض في النهر؛ وفي وسط التيار كانت الشبكة. غاص الخلاسى وطفأ والشبكة الصغيرة معلقة من إحدى ذراعيه. نزع الطفل سرواله وقذف نفسه في الماء. أحسن، كما لم يحسن مطلقاً من قبل، بالانتعاش في كل ثلثا جسده؛ غطس وفتح عينيه؛ كانت التماوجات البللورية السطحية، السريعة، تتدفق فوق قاع طيني أخضر. وإلى أعلى النهر، إلى الورا - فالآن ترك التيار يحملهُ، مثلُ سهم - كان ذلك المنزل الذي لم يدخله أبداً، خلال ثلاثة عشر عاماً، وفيه ذلك الرجل الذي لا يُرى إلا من بعيد وتلك المرأة التي لا يعرفها إلا بالإسم. أخرج رأسه من الماء. كان لونيرو قد شرع فعلاً في شواء السمك وفي فتح ثمرة بابايا* بساطوره.

وما أن إنقضت الظهيرة، حتى إنزلت أشعة الشمس على سقف أوراق الشجر الإستوائية، وهى تضرب، بقوة، منذ أخذت في

* Papaya : ثمرة تشبه الشمامة الصغيرة ذات لحم أصفر ولذيذ-م

الهبوط نحو المغيّب. إنها ساعة الأغصان الثابتة، حين لا يبدو حتى أن النهر يجري. تمدّد الطفل عارياً تحت النخلة الوحيدة وأحسّ بحرارة الأشعة التي أخذت تُباعد أكثر فأكثر ظلّ الجذع والسعف. بدأت الشمس مسارها النهائى؛ ورغم ذلك، بدا أن الأشعة المائلة تصعد مضيئةً، مسامّ جسده كلّ واحدٍ فواحدٍ. أضاءت قدميه أولاً، حين إتكأ على القاعدة العارية. ثم الساقين المفتوحتين وعضوه النائم، والبطن المستوية والصدر الذى إكتسب صلابته في الماء، والعنق الطويل والفك البارز، حيث بدأ الضوء يحفر وهدين عميقتين، ملتصقتين مثل سهمين مشدودين بالوجنتين الصلبتين اللتين تؤطّران صفاء العينين الضائعتين، ذلك الأصيل، في القيلولة العميقة والهادئة. نام هو وكان لونيرو، على مقربة، قد استلقى على بطنه وأخذ ينقر بأصابعه على الإناء الأسود. أخذ يملكه إيقاعٌ. لم يكن التراخى الظاهري للجسد المستلقى سوى التوتر التأملي لذراعه الراقصه، التي تتزع نغمات مُركّزة من الآنية وبدأ يغمغم، مثل كلّ أصيل، بالذاكرة المستعادة لإيقاع يتسارع رويداً رويداً، بأغنية الطفولة والحياة التي لم يعيشها، حين كان أجداده يُتوجّون أنفسهم، بجوار شجرة ثيبا* ceiba ، بقلنسوات مزينة بالأجراس ويفرّكون أذرعهم بالروم وكان ذلك الرجل جالساً على الكرسي ورأسه مغطّاه بقماش أبيض والجميع يشربون حتى ثمالة السكر الأسود مزيج الذرة والتارنج ويُعلّمون الأطفال أنهم لا يجب أن يُصفّروا بالليل:

توه....

* شجرة أمريكية استوائية ضخمة-م

بنت يى ييه...
تحب زوج... امرأة ثانية...
توه، بنت يى ييه، تحب زوج، امرأة ثانية...
توهبنت يى ييه تحب.

أخذ الإيقاعُ يتملّكه. فرد ذراعِيه ولس أطراف الأرض الرطبة
وظل ينقر فوقها بأصابعه ويلطّخ بطنه بطينها وافترّ ثغره عن
إبتسامة واسعة شققت خديه الملتصقين بالعظام العريضة:
تحبزوجامراً ثانية... إنصبّت شمسُ الأصيل فوق رأسه المستديرة
والجعداء ولم يستطع النهوض من وضعه، وهو يتصبّب عرقاً من
جبهته، ومن إبطيه، ومن بين فخذه وأخذت الأغنية تزداد صمتاً
وعمقاً. وكلما خفّت كلما أحسّ بها أكثر وكلما إلتصق بالأرض أكثر،
كأنه يضاجعها. توهبنتيبييه: أخذت تتفتح إبتسامته، وأخذ يتفتح فيه
نسيان الرجل ذى المعطف الأسود، الذى سيأتى ذلك المساء، فهو،
فعلاً ذلك المساء. وكان لونيرو ضائعاً في غنائه وفي رقصه المنطرح
الذى كان يذكرّه بالقبر، يذكرّه بالقبر الفرنسى وبالنساء المنسيات
في سجن هذا المنزل المحترق.

والى وراء، كانت أوراق الشجر ومنزل الضيعة الذى يحلم به،
بين أحلامه، الطفلُ الذى تغمره الشمس. تلك الجدران المسودة التى
أحرقته حين مر من هنا الليبراليون خلال الحملة الأخيرة ضد
الإمبراطورية، بعد موت مكسيميليانو، وعثروا على العائلة التى كانت
قد أعارت مخادعها للماريشال رئيس القوات الفرنسية وأقبية
خمرها للقوات المحافظة. وفي ضيعة كوكويا تزوّد جنود نابوليون
الثالث ليخرجوا، بالبغال المحملة بالأطعمة المحفوظة، والفاصوليا،
والتبغ، لسحق مواقع رجال عصابات خواريث في الجبل، التى كانت

تتطلق منها تلك العصابات من العصاة لتتأوش المعسكرات الفرنسية في السهل وقلاع مدن بيراكروث. وبالقرب من الضيعة، وجد الزواويون* جماعات القيثار والهآرب الذين يُغنون بالآخو ذهب إلى الحرب ولم يشأ أن يأخذنى معه وأبهجتهم لياليهم بجوار الهنديآت والخلاسيات اللآئى مضين في تلك الأرجاء تلدن مُهَجَّنِينَ شُقْرَاءَ، وخلاسيين ذوى عيون صافية وجلد أسمر، حملوا ألقاب جاردونيو وآلباريث بينما كان الواجب أن يُدْعَوْا دويوا وجارنييه. نعم، في نفس الأصل الذى بططته الحرارة، كانت العجوز لوديبينيا، الحبيسة إلى الأبد في مخدعها ذى النجف العبثى - نجفتان معلقتان من السقف الواطئ المطلق بالجير، وأخرى في الركن بجانب الفراش ذى الأعمدة المحفورة - وستائر المخرّمات المصفرة، تُمرّوح لها الهندية باراكوا التى فقدت إسمها الأصلى لتتلقّى هذا الإسم من سكان الضيعة شبه الزنوج، والذى لا يناسبها** بمنظر وجهها الجانبى الشبيه بالنسر وضمائرهما الكثّة: كانت العجوز لوديبينيا تدندن وعيناها مفتوحتان جيداً بتلك الأغنية اللعينة التى ما كانت لتتذكرها، لو إنتبهت، لكنها رغم ذلك تريد التلذذ بها، لأنها تسخر من الجنرال خوان نبوموثينو ألمونتى، الذى كان في البداية صديقاً للدار وزميلاً للمرحوم إرينيو منشاكّا، زوج لوديبينيا، وعضواً في بلاط سانتا آنا وبعدها، حين أراد مُخلّص المكسيك والحامى الكبير لآل منشاكّا - حامى حيواتهم وضياعهم - العودة من منفاه الألف وهبط من سفينته وعولج من نوبة دوسنتاريا، تتكرّ لولاءاته القديمة، وجعل الفرنسيين يعتقلونه ويعيدونه إلى السفينة من جديد: San

* Zouaves = los zuavos : مشاه فرنسيون من أصل جزائرى ومغربى يرتدون

ملابس شرقية زاهية - م

** Baracoa : يُطلق في كوبا على نوع من الغاب الطويل النحيل البالغ المرونة - م

Juan de nepomuceno, la monda . تتذكر لوديينيا الوجه الداكن لخوان نبوموثينو المونتي، ابن النساء الألف المجدورات للقس موريلوس وتزُمُ قمها المصنوع، الخالي من الأسنان، حين تتذكر المقطع الفاحش لتلك الأغنية الملعونة لأنصار خواريث الذين قتلوا الجنرال سانتا آنا إذلالاً: ... وماذا ستظن إذا جاء اللصوص، وسرقوا أمك وأنزلوا سروالها... * قرقرت لوديينيا ضاحكة وطلبت من الهندية بإشارة أن تزيد سرعة مروحة السعف. كانت الغرفة الكئيبة، المدهونة بالجير، تفوح بجو إستوائي مكتوم، مُستبدل، متكرر في هيئة برد.

كانت بقع الرطوبة الضخمة على الجدران تروق للعجوز، لأنها تجعلها تفكر في مناخات أخرى، مناخات طفولتها قبل أن تتزوج من الملازم إرينيو منشاكا وتتضمم إلى حياة ومصير الجنرال أنطونيو لويث دي سانتا آنا وتحصل بإرادته على الأراضي الخصبة بجوار النهر، وهي أراضٍ سوداء وشاسعة ملاصقة للجبل والبحر. هناك في فرنسا، جويرى جويرى جويرا، مات بنيتو خوارث، وانتهت الحرية. والآن تحولت تقطيعاتها إلى تكشيرة إستياء شققت إلى ألف قشرة مكسوة بالبودرة وجهها الذي ظلت توحدُه شبكة دقيقة من الشعيرات الدموية الزرقاء. أبعدت مخالب لوديينيا المرتجفة باراكوا بإيماءة أخرى وهزت كميتها الحريريين الأسودين وقبضتها المكسوتين بالدانتيل الممزقة. دانتيل وكريستال، لكن ليس ذلك فقط: فثمة مناضد من البلوط المشغول بأسطح من المرمر الثقيل تستقر فوقها الساعات التي تعلوها الأجراس الزجاجية، بقوائم محنية ذات كرات؛ وكراسي هزازة من

*عبارة عن أغنية سخرية من مكسميليان، الذي تولى عرش المكسيك بمساعدة سان خوان نبوموثينو المونتي، الابن غير الشرعي لموريلوس بطل الاستقلال-م

الخيزران فوق الأرضية الطوب، تغطيها فساتين القطن الثقيلة التي لم تعد تُستخدم أبداً، وألواح مشطوفة، ومسامير من البرونز، وخزانات ذات مصاريع وفتحات مفاتيح من الحديد، وصور شخصية بيضاوية لكريولين مجهولين، متصلين، مدهونين بالورنيش، لهم سواالف منقوشة وصدور عالية وأمشاط من العظم، وإطارات من الصفيح للقديسين وللمسيح طفل أتوتشا، وهذا الأخير منسوخ على القماش السميك القديم، المتآكل، الذي لا يكاد يحتفظ بالطبقة الأولى من القشرة الذهبية، والسرير المكسو بطبقة من الصفيح المفضض وله قبة وأعمدة محفورة، مستقر الجسد المستزف، عش الروائح الحبيسة والملاءات المبقعة، وانبعاجات وانتفاخات القش الذي يظهر من تمزقات الحشيرة.

لم يكن الحريق قد وصل إلى هذا المكان. ولا خير الأراضى الضائعة والإبن المقتول في كمين والطفل المولود في كوخ الزوج: لم تصل الأخبار، لكن وصلت التوقعات المسبقة.

- أيتها الهندية، أحضري إبريق ماء.

انتظرت أن تخرج باراكوا ثم إنتهكت كل القواعد، أزاحت الستائر وقطبت وجهها لتتجسس على ما يجري هناك في الخارج. كانت قد رأت ذلك الطفل المجهول ينمو؛ تجسست عليه من النافذة، من وراء الدانتيل. كانت قد رأت نفس العيون الخضراء وقرقرت من السرور لمعرفة أنها موجودة في جسد آخر فتى، هي التي تحمل ذاكرة قرن كامل منقوشة في ذهنها وفي تجاعيد وجهها طبقات من الهواء والأرض والشمس التي إختفت جميعها. لقد واصلت. لقد بقيت على قيد الحياة. أجهدها الوصول إلى النافذة؛ مشت على أربع تقريباً، وعيناها مثبتتان على ركبتها ويداها تتشبثان بفخذيها. كانت رأسها ذات الخصلات البيضاء مختفية بين كتفيها، اللذين يبدو أن أحياناً

أعلى من مجتمعتها. لكنها بقيت على قيد الحياة. ظلت هنا، تحاول من فراشها المشعث القيام بمهام الشابة الجميلة البيضاء التي فتحت أبواب كوكويا أمام الاستعراض الطويل للمطارنة الإسبانية، والتجار الفرنسيين، والمهندسين الاسكتلنديين، والبريطانيين باعة السندات، والمرابين والقراصنة الذين مروا من هنا في مسيرتهم نحو مدينة مكسيكو والفرص التي ينطوي عليها البلد الفتى، الفوضوي: بكاتدرائياته الباروكية، ومناجم ذهبه وفضته، وقصوره من الصخر البركاني والأحجار المنحوتة، وإكليروسه المساومين، وكرنفاله السياسي الأبدى وحكومته الواقعة في دين دائم، وامتيازاته الجمركية السهلة للأجنبي ذي الحديث المبطن. كانت تلك هي الأيام المجيدة في المكسيك، حين ترك آل منشাকা الضيعة في أيدي الأبن الأكبر، أتاناسيو، حتى يصبح رجلاً من خلال التعامل مع الأجراء، واللصوص، والهنود وصعدوا إلى الهضبة ليتألقوا في البلاط الوهمي لصاحب الجلالة الملكية. كيف كان يمكن أن يحيا الجنرال سانتا آنا بدون رفيقه القديم منشাকা - الذي أصبح مُقدِّماً الآن - الذي كان خبيراً بالديكة وحلّبات القتال وكان يمكنه قضاء الليل في الشراب وفي تذكر خطة كاساماتا، وحملة باراداس، وإل آلامو، وسان خاينتو، وحرب الحلوى، وحتى الهزائم أمام جيش اليانكي الغازي، التي كان القائد العام يشير إليها بضحكٍ كلبى، وهو يضرب الأرض بساقه الخشبية ويرفع كأسه ويريتُ الشعر الأسود لزهرة المكسيك، الزوجة - الطفلة التي حُملت إلى الفراش الذي مازال دافئاً من الاختلاجه الأخيرة لزوجته الأولى؟ وكانت أيام الأسى، حين تم طرد السيد من المكسيك من جانب الجماعة الليبرالية وعاد ال منشাকা إلى الضيعة ليدافعوا عما يملكون: آلاف الهكتارات التي منحها الطاغية الأعرج هاوى الديكة؛ والتي جرى تملكها دون استئذان الفلاحين الهنود الذي توجب عليهم أن يبقوا

كأجراء أو ينسحبوا إلى سفح الجبل: والتي تمت زراعتها بواسطة العمالة الزنجية الجديدة، الرخيصة، من جزر الكاريبي، والتي جرى توسيعها بفضل تقاضى الرهونات المفروضة على كل الملاك الصغار في الإقليم. أكوام التبغ المفروشة لتجف. والعربات المملوءة عن آخرها بالموز والمانجو، وقطعان الماعز التي ترعى على أولى مرتفعات السيرا مادري. وفي المركز المنزل ذو الطابق الواحد، ببرجه الملون واسطبلاته التي تدوى بالصهيل، ونزهاتهم في الزورق والعربة المكشوفة. وأتاناسيو، الإبن ذو العينين الخضراوين، المتشح بالبياض فوق الحصان الأبيض، المهدى هو أيضا من سانتا آنا، وهو يخبُّ فوق الأراضى الخصبة والسوط في قبضته، مستعداً لفرض إرادته الحاسمة، لإشباع شهيته النهمه بالفلاحات الشابات، للدفاع بعصبة الزوجين عن سلامة الأراضى ضد الغارات المتزايدة باستمرار لأنصار خوارث. يحيا المكسيك أولاً، تحيا أمتنا، وليمت الأمير الأجنبي... والأيام الأخيرة للإمبراطورية، حين أخبروا العجوز إرينيو منشاكا أن سانتا آنا قد عاد من المنفى ليعلن جمهورية جديدة: خرج العجوز في عريته المكشوفة السوداء إلى بيراكروث حيث كان ينتظره زورق في المرفأ وفوق السفينة هيرجينيا، بالليل، أرسل سانتا آنا وقراصنته الألمان إشارات أمام سان خوان دى أولوا دون أن يردَّ عليهم أحد. كانت حامية الميناء موالية للإمبراطورية وهزأت بالطاغية المعزول الذى كان يروح ويجئ فوق سطح السفينة، تحت الأعلام المثلثة، يائساً، وهو يبصق الهراء من شفتيه المكتنزتين. وانتفخت الأشرعة من جديد ولعب الصديقان القديمان الورق في قمرة القبطان اليانكى: أبحروا فوق بحر ملتهب، بطئ، لا يكاد يظهر منه خط الساحل، الضائع خلف ستار من الحرارة. من الإطار المزين للسفينة، رأت عينا الدكتاتور الحانقتين الخط الخارجى الأبيض لبلدة سيسال. وهبط الأعرج العجوز يتبعه رفيقه

القديم، وأصدر بياناً لسكان يوكاتان وعاود العيش في حلم عظمتة: كان مكسيميليانو قد حُكم عليه بالموت لتوّه في كيريتارو وكان للجمهورية الحق في الإعتماد، مرةً أخرى، على الإخلاص الوطنى لزعيمها الطبيعى والأصيل، ملكها غير المتوج. حكوا هذا للوديينيا: كيف قبض عليهم قائد سيسال، وكيف أرسلوا إلى كامبيتشى، وهناك، كيف طافوا بهم الشوارع وأيديهم في الأغلال، بين لكزات فصيل الجنود، مثل لصوص عاديين، كيف ألقوا بهم في زنزانة السجن. وكيف مات المقدم العجوز منشاكاً في ذلك الصيف دون مراحيض، المنتفخ بالمياه الملوثة، بينما أعلنت الصحف الأمريكية الشمالية أن أنصار خوارث قد أعدموا سانتا آنا، مثلما تم إعدام أمير تريستا البرئ. لا: فجثة إرينيو منشاكاً هي وحدها التى دُفنت في المقبرة المواجهة للخليج، واضعة نهاية حياةٍ من الصُدف والمراهنات، مثل حياة البلاد ذاتها وأما سانتا آنا فقد خرج من جديد إلى المنفى، وعلى وجهه التقطية الدائمة لجنون مُعد.

قال لها ذلك أتاناسيو، تذكرت العجوز لوديينيا في هذا الأصيل الحار، ومنذ ذلك الحين لم تعد تخرج من الغرفة وحملت إليها أفضل ملابسها، وشمعدان حجرة الطعام، والصناديق المطلية. وأفضل اللوحات ورنيشاً. إنتظاراً للموت الذى قدرت رأسها الرومانسية أنه وشيك، لكنه تأخر خمسة وثلاثين عاماً ضائعة، لا تُعد شيئاً بالنسبة لإمرأة في الثالثة والتسعين، وُلدت عام الإنتفاضة الأولى، حين تعالت قِقعقة العصي والحجارة في أبرشيه دولورس ووضعتها أمها في منزل أوصدت أبوابه من الرعب. كانت تقاومها الزمنية قد ضاعت ولم يكن هذا العام ١٩٠٣ بالنسبة لها سوى زمن مسروق من الموت العاجل نتيجة الأسى والذى كان يجب أن يتلو موتُ المقدم. كذلك لم يحدث، عام ٦٨، حريق المنزل، الذى توقف عند أبواب المخدع المغلق بينما

إبناها - كان هناك آخر، لم يكن أتاناسيو وحده، لكنها لم تكن تحب
سواه - يصرخان فيها أن تتجو بجلدها وهي تكوّم الكراسى والمناضد
خلف الباب وتسعل ذلك الدخان الكثيف الذي كان يتسلل من كل
الشقوق، لم تعد تريد أن ترى أحداً، إلا الهندية لإحتياجها لمن يحضر
لها الطعام ويرفو لها الثياب السوداء. وبين الجدران الأربعة فقدت
وعياها بكل شئ، إلا ما هو جوهرى: ترمّلها، والماضى، وبغته، ظهر ذلك
الطفل الذى يركض دائماً على البعد، وهو يدوس أذيال خلاسى
مجهول.

- أيتها الهندية، أحضرى إبريق ماء.

لكن بدل باراكوا، ظهر على الباب ذلك الشبح الأصفر. صرخت
لوديبينيا في صمت وتراجعت إلى عمق الفراش: انفتحت العينان
الغائرتان بفزع وبدا أن جميع قشور الوجه قد تحوّلت إلى تراب. توقف
الرجل الذى ظهر عند العتبة ومدّ يداً مرتعشة.
- أنا پدرو...

لم تفهم لوديبينيا. منعها إرتجافها من الكلام لكن ذراعيها
استطاعتا الإهتزاز، لطرد الأرواح الشريرة، لإخفاء نفسها في دوامة
من الأقمشة السوداء. بينما تقدم الشبح الشاحب وفمه مفتوح:
- هه... پدرو... هه... - قال وهو يحكّ ذقنه الملطخة والقليلة
الشعر.. پدرو...

بتلك الحركة العصبية في جفنيه. لم تفهم العجوز المشلولة ما
قاله ذلك الرجل الناعس، الذى تفرح منه رائحة العرق والكحول
الرخيص: - هه... لم يبق شئ، أتعرفين؟... كل شئ... إلى الشيطان...
والآن... - تمتم، بعويل جاف - يأخذون الزنجى؛ لكنك لا تعرفين، يا
ماما...

- أتاناسيو...

- هه... پدرو - ألقى السكير بنفسه فوق الكرسي الهزاز وباعد ما بين ساقيه، كأنه قد وصل إلى مرفأ الرحيل - يأخذون الزنجى... الذى يطعمنا... أنت وأنا...

- لا؛ خلاسى؛ خلاسى وطفل...

كانت لوديبينيا تستمع، لكنها لم تنظر إلى الشبح الذى كان قد جلس ليتحدث معها، فأى صوت يُسمع داخل الكهف المحظور لا يمكن أن يكون له جسد.

- خلاسى، إذن، وطفل... هه؟

- أحياناً يركض هناك عن بعد. لقد رأيته. وهو يجعلنى أشعر بالرضى. إنه طفل.

- جاء ناظر العمال ليبلغنى... لينتزع منى النوم في عز حرارة الشمس... يأخذون الزنجى... ماذا سنفعل؟

- يأخذون زنجياً؟ المزرعة مليئة بالزنوج، يقول المقدم أنهم أرخص ويعملون أكثر. لكن إذا كنت تحبه إلى هذا الحد، إرفع ثمنه إلى ستة ريالات.

وظلاً، تمثالين من الملح، يفكران فيما سيكونا قد أرادا قوله فيما بعد، حين سيكون قد فات الأوان، حين لن يعود الطفل بينهما. حاولت لوديبينيا أن تُقرب بصرها من الحضور الذى كانت تنكر وجوده: من سيكون، الرجل الذى قام عن قصد، اليوم فقط، بنفض التراب عن أفضل ثيابه ليخطو الخطوة المحرمة؟. نعم: الصديري الدانتيل، الذى بقعه الطحلب بفعل التخزين في جو استوائي، والبنطلون الضيق، المحبوك بإفراط، المفرط الضيق على الكرش الصغير لذلك الجسد المنهك. لم تكن الثياب العتيقة تتحمل حقيقة العرق المعتاد - التبغ والعرق - وكانت العينان الشفافتان غريبتين على كل التوكيد والأناقة اللتين تفترضهما الثياب: إنهما عينا سكير دون

خبث، غريب عن كلّ تعامل منذ أكثر من خمسة عشر عاماً. آه -
تتهدت لوديبينيا، عالية فوق فراشها المشعث، مُسلّمة في النهاية بأن
لذلك الصوت وجه ، هذا ليس أتاناسيو ، الذى كان كأنه إمتداد
ذكورى لأمه: هذا هو الأم نفسها، لكن بلحية وخصيتين - حملت
العجوز - وليس الأم، كما كانت ستكون في الذكورة، مثلما كان
أتاناسيو؛ ولهذا السبب أحببت ابناً ولم تحب الآخر - تتهدت - أحببت
الابن الذى عاش دوماً وجدوره ضارية في المكان الذى كان من
نصيبهم في الأرض ولم تحب الذى أراد، حتى في هزيمة القضية،
أن يواصل الاستمتاع، هناك إلى أعلى، في القصور، بما لم يعد ملكاً
لهم: - تيقنت -: بينما كان كل شيء ملكهم، كان لهم الحق في فرض
وجودهم على البلد بأسره: - تشككت -: حين لم يعودا يملكون شيئاً
فإن مكانهم هو داخل هذه الجدران الأربعة.

تأملت الأم والابن بعضهما، وبين الإثنين يقوم جدارٌ من الإنبعاث.
(- هل جئت لتقول لى أنت ما من أراض ولا عظمة لنا، أن آخرين
قد إستغلّونا كما قمنا نحن باستغلال الأولين، الملاك الأصليين لكل
شيء؟ هل جئت لتحكى لى ما أعرفه، في قرارة نفسى، منذ الليلة
الأولى لحياتى كزوجة؟

(- جئت بذريعة. جئت لأنتى لم أعد أريد أن أكون وحيداً.
(- ودّدت لو تذكرتك وأنت طفل، أحبيبتك عندئذ، ففى الشباب
يجب على الأم أن تحب كل أبنائها. أما في شيخوختنا فتعرف الأمور
أفضل. لا داعى لحب أى شخص دون سبب. والدم الطبيعى ليس
سبباً. السبب الوحيد هو الدم المحبّوب دون سبب.

(- أردت أن أكون قوياً، مثل أخى. لقد عاملتُ بيدٍ من حديد ذلك
الخلاسى وذلك الطفل؛ حرمتُ عليهما أن يطأ المنزل الكبير. كما كان
يفعل أتاناسيو، أتذكرين؟ لكن حينذاك كان هناك عمال كثيرون. واليوم

لم يبق سوى الخلاسى والطفل. والخلاسى سيذهب.

(- لقد صرت وحيداً. تبحث عنى كى لا تبقى وحيداً. تظننى وحيدة، أرى هذا في عينيك المتعاطفتين. أحرق، دوماً، وضعيف: لست ابنى، الذى لم يطلب تعاطفاً من أحد، بل نفس صورتي أنا وأنا زوجة شابة، الآن لا، الآن لم أعد كذلك. الآن لدى حياتى برمتها لترافقنى لئلا أعود عجوزاً. العجوز هو أنت، يامن تظن أن كل شىء قد أنتهى بشييك وسُكرك وغياب إرادتك. آه، أنا أراك، أراك، أيها المنتهك! أنت نفس الشخص الذى صعد معنا إلى العاصمة؛ نفس الشخص الذى أعتقد أن سلطتنا هي ذريعة لتبديدها على النساء والشراب وليست سبباً لتعميقها وجعلها أقوى واستخدامها كسوط؛ نفس الشخص الذى أعتقد أن سلطتنا قد إنتقلت إلينا دون أن يدفع لها ثمناً ولهذا ظن أن باستطاعته البقاء هناك إلى أعلى، دون دعمنا، حين إضطررنا نحن إلى الهبوط من جديد إلى هذه الأرض الساخنة، إلى هذا النبع لكل شىء، إلى هذا الجحيم الذى صعدنا منه والذى إضطررنا إلى الوقوع فيه مرة أخرى... إنها تفوح! ثمة رائحة أقوى من عرق الخيل ومن الفاكهة والبارود... هل توقفت لتشتم مضاجعة رجل وامرأة؟ الأرض هنا تفوح بهذه الرائحة، برائحة ملاءة حُب وأنت لم تعرف هذا أبداً... إسمع، آه، لقد ربّيتُ عليك حين وُلدت وأرضعتك وقلت أنك لى أنا، إبنى أنا، وكنت أتذكرُ فقط اللحظة التى خلقك فيها أبوك بكل عمى حب لم يكن هدفه أن يخلقك، بل أن يمنحنى المتعة: وقد بقى هذا وتلاشيت أنت... هيا أخرج، أسمع...

(- لماذا لا تتكلمين؟ حسناً... حسناً... استمرى في صمتك، فخيرٌ لى أن أراك هناك، ناظرةً إلى هكذا؛ هذا خيرٌ من ذلك الفراش العارى وليالى الأرق تلك...

(- هل تبحث عن أحد؟ وذلك الطفل هناك في الخارج، أليس

حياء؟ أظن أنني أفهمك؛ لا بد أنك تظن أنني لا أعرف أى شئ، لا أرى
أى شئ من هنا... كأننى لا أستطيع أن أشعر بأن جسداً آخر ينتمى
إلىَّ يجوب هنا، إمتداداً آخر لإرينيو وأتاناسيو واحداً آخر من آل
منشاكّا، رجلاً آخر مثلهما، هناك في الخارج، إسمع... مؤكداً أنه ينتمى
إلىَّ، وأنت لم تبحث عنه... الدم يفهم بعضه دون حاجةٍ إلى
الإقتراب...

- لونيرو - قال الطفل حين استيقظ من القيلولة ورأى أن
الخلاسى يتمددٌ، مُنهكاً، فوق الأرض الأشد رطوبة - أريد أن أدخل
المنزل الكبير.

بعدها، حين سيكون كلُّ شئ قد إنتهى، ستكسر العجوز لوديبينيا
صمتها وستخرج، مثل غراب بلا أجنحة، لتصرخ عبر طرقات أعواد
الغاب، وعيناها ضائعتان في الأعشاب ومرتفعتان، في النهاية، نحو
سلسلة الجبال، لتمدُّ ذراعيها نحو الهيئة الأدمية التى تتوقع أن
تصادفها، وقد أعشاها الليل الذى لم تتعود عليه في كهفها ذى الشموع
المشتعلة دائماً، خلف كل غصن يسوط وجهها الذى تتخلله عروق ميتة.
وستشم إقتران الأرض ذاك وستصيح بصوتها الأصم بالأسماء المنسية
وتلك التى تعلّمها حديثاً، وستعض بسُعار يديها الشاحبتين، لأن في
صدرها شئ - السنين، الذاكرة، الماضى الذى كان كلُّ حياتها - سيقول
لها أنه سيوجد ثمة هامش للحياة خارج قرن ذكرياتها: ثمة فرصة لأن
تحيا وتُحب كائنا آخر من دمها: شئ لم يمت بموت إرينيو وأتاناسيو.
لكن لوديبينيا الآن، في مواجهة السنيور پدريتو، في المخدع الذى لم
تفادره طوال خمسة وثلاثين عاماً، ستعتقد أنها المركز الذى تلتقى فيه
الذكرى والموجودات المحيطة. ربت السنيور پدريتو لحيته القليلة الشعر
وعاود الكلام، بصوت عالٍ هذه المرة:
- أمّا، أنت لا تعرفين...

جمدت نظرة العجوز صوت الإبن.

(- ماذا؟ أن شيئاً ما كان له أن يدوم؟ أن تلك القوة كانت تقوم على المظاهر الخالصة، على جور كان لابد أن يلقي حتفه على يد جور آخر؟ أن الأعداء الذين أمرنا بإعدامهم بالرصاص لنظل نحن السادة؟ أن الأعداء الذين أمر أبوك بقطع أسننتهم أو أيديهم ليظل هو السيد؟ أن الأعداء الذين إنتزع منهم أبوك أراضيتهم كي يبدأ في أن يكون هو السيد قد تحولوا ذات يوم إلى منتصرين وأضرموا النار في منزلنا؛ مرّوا ذات يوم وانتزعوا منا ما لم يكن لنا، ما إمتلكناه بفضل قوتنا وليس بفضل حقنا؟ أن أخاك رغم كل شيء رفض قبول تقليص ممتلكاته والهزيمة وظل هو أتاناسيو منشاك، ليس هناك إلى أعلى، بعيداً عن مسرح الأحداث، مثلك، بل هنا إلى أسفل، بين عبيده، مواجهاً الخطر، مفتصباً الخلاسيات والهنديات وليس مثلك، مُغويّاً النساء المستعدات؟ أن من الألف مضاجعة وحشية، لاهية، متعجلة لأخيك لابد أن يبقى برهان، واحد، واحد، على عبوره بأرضنا؟ أن من بين كل الأبناء الذين وضع بذرتهم أتاناسيو منشاك على طول ممتلكاتنا، لابد أن واحداً قد وُلد على مقربة؟ أنه في نفس اليوم الذي وُلد فيه إبنه في كوخ زنوج - كما كان لابد أن يولد، إلى أسفل، لإظهار قوة الأب مرة أخرى - كان أتاناسيو قد...)

في عيني لوديبينيا، لم يخمّن السنيور پدريتو الكلمات. فنظرة العجوز، المنبعثة من الوجه البالي، حلقت مثل موجة من المرمر فوق حرارة المخدع السائلة. لم يكن الرجل ذو الثياب المحبوكة بحاجة للإستماع إلى صوت لوديبينيا.

(- لا تلوميني على شيء، فأنا أيضاً أبوك... ودمي كان هو نفس دم أتاناسيو... لماذا، إذن، في تلك الليلة...؟ قالوا لي فقط: "الرقيب روباينا، من قوات ساننا آنا القديمة، عثر على ما كنتم قد بحثتم عنه

طويلاً، جثة المقدم منشاك، في مقبرة كامبيتشي. جندي آخر، رأى أين دفنوا أباك دون شاهد قبر، أخبر الرقيب حين أرسلوه إلى حامية الميناء. وقام الرقيب، هازئاً من قيادته، بسرقة عظام المقدم منشاك ليلاً والآن ينتهز فرصة نقله إلى خاليسكو للمرور من هنا وتسليمكم بقايا والدكم، وهو ينتظركما أنت وأخيك هذه الليلة، بعد الساعة الحادية عشرة، عند فرجة الغابة على مسافة كيلو مترين من مدخل القرية، هناك حيث كان من قبل قائم شنق الهنود المتمردين". ألم يكن هذا ماكراً جداً؟ صدق أتاناسيو الأمر مثلي تماماً؛ امتلأت عيناه بالدموع ولم يشك أبداً في الرسالة. آي، لماذا كنت قد أتيت إلى كوكويا في ذلك الموسم؟ نعم، لأن النقود بدأت تتضب مني في مكسيكو ولم يكن أتاناسيو يبخل على بشئ؛ بل إنه كان يفضل حتى أن أمضى بعيداً عن هنا، لأنه أراد أن يكون الوحيد من آل منشاك في الإقليم، حارسك الوحيد. كان هناك ذلك القمر الأحمر لأشد الفترات حرارة حين وصلنا إلى الموضع على صهوة الجياد. وهناك كان الرقيب روباينا، الذي كنا نتذكره من طفولتنا، متكئاً على جواده النورماندى. إلتمعت أسنانه مثل الأرز، مثلها مثل شواربه البيضاء. كنا نتذكره من طفولتنا. كان قد رافق دائماً الجنرال سانتا آنا وكان قد ذاع صيته كمروض للمهور؛ كان دائماً ما يضحك هكذا، كأنه هو نفسه جزءاً من نكتة هائلة. وهناك، فوق ظهر الجواد النورماندى، كان الكيس القذر الذى إنتظرناه. إحتضنه أتاناسيو فضحك الرقيب كما لم يضحك قط؛ حتى انفجر بالضحك، وعندها خرج من بين الأعشاب الرجال الأربعة، لامعين تماماً تحت القمر، لأنهم كانوا يتشعون جميعاً بالبياض. "الأرواح المباركة!" - صاح الرقيب بصوته الضاحك، "الأرواح المباركة من أجل من لم يرضوا بالخسارة

ويريدون إستعادة ما خسروه!" ثم تغيّر وجهه وتقدم هو أيضا نحو أتاناسيو. لم ينظر إلى أحد، أقسم لك؛ تقدموا ناظرين إلى أخى وحده، كأتى غير موجود؛ ولا أدري حتى كيف استطعت إمتطاء الحصان والعدو خارج تلك الدائرة المشئومة للرجال الأربعة الذين كانوا يتقدمون وسواطيرهم مُشهرة خارج أحزمتهم، بينما صاح في أتاناسيو بصوت يتراوح بين الحشجة والهدوء: "عُد، يا أخى، وتذكر ما تحمله" وأحسستُ أنا بكعب البندقية يصطدم بركبتى، لكننى لم أستطع أن أرى كيف أخذ الرجال الأربعة يقتربون من أتاناسيو وضربوه أولاً بصفحات السواطير على ساقيه ثم مزقوه إرباً، هناك تحت القمر، حتى يتم كل شئ في سكون. أى عون كنتُ سأطلبه في الضيعة، وأنا أعرف أنه قد شبع موتاً والأدهى من ذلك أنه مات بأيدي فتيان الزعيم المحلى الجديد الذى كان بحاجة إلى قتل أتاناسيو أجلاً أو عاجلاً حتى يصبح كذلك حقاً؟ ومنذ ذلك الحين، منذ الذى سيستطيع أن يعارضه؟ ولم أرد حتى أن أعرف شيئاً عن الحاجز الجديد الذى أقامه، في اليوم التالى، السيد الذى هزمنا على أرضنا. لماذا؟ وانتقل العمال إليه دون أن ينطقوا بحرف؛ فلن يكون أسوأ من أتاناسيو. وكأنما ليقولوا لى أن أظل هادئاً، قضى الفصيل الفيدرالى أسبوعاً كاملاً هناك، دون أن يتحرك، على الحدود الجديدة. كيف كان يمكنى أن أتحرك؟ وقد كان على أن أشكر لهم أنهم عفو عني. ولغرض ما، بعد مرور شهر، زار الجنرال بورفيريو ديثا المنزل الكبير الجديد للإقليم. ولم يتنازلوا حتى عن السخريّة. فمع الجسد المشوّه لأتاناسيو بعثوا إلى بعض عظام البقر، مجمعة ضخمة ذات قرون: ما كان الرقيب يحمله في حقيبته ظهره. ولم أفعل سوى أن علّقتُ تلك البندقية المحشوّة على مدخل المنزل، من يدري؟ بمثابة تكريم لأتاناسيو المسكين. حقاً في تلك الليلة... لم

يخطر ببالى أبداً أنتى كنت أحملها تحت سرجى، رغم أن كعبها كان يصطدم بركبتى، خلال ذلك العدو الطويل، يا أماء، الطويل، أقسم لك...

- لا يجب الدخول هناك أبداً - قال لونيرو ونهض من رقصة الرعب والأسى، من وداعه الصامت في آخر أصيل بجوار الطفل؛ لا بد أن الساعة هي الخامسة والنصف ولا يمكن أن يتأخر ناظر العمال.
- حاول أن تفوص في باطن الأرض - قال له بالأمس - حاول لأكثر. فلدينا ما هو أفضل من كلاب الصيد وأولئك هم كل الأشقياء الذين يفضلون أن يُسلموا أجيراً نافراً على معرفة أن أحداً قد نجا من مصيرهم.

لا: نحو الساحل كانت تنطلق أفكار لونيرو، الذى صار، في النهاية، سجين رعب وحنين. وكم رآه الطفل ضخماً حين نهض الخلاسى على قدميه وأخذ يراقب تيار النهر السريع صوب خليج المكسيك! وكم بدت شامخة أعوامه الثلاثة والثلاثون من اللحم بلون القرفة والكفين الورديين! كانت عينا لونيرو مصوبتين إلى الشاطئ وبدا جفناه ملونين بالأبيض، ليس بسبب العمر الذى يزيد على هذا النحو من صفاء نظره الجنس، بل بسبب الحنين الذى هو عمر آخر، أكثر قدماً، نحو الورا. هنالك كان الحاجز الذى يقطع مخرج النهر ويصبع ببقعة رمادية أولى حدود البحر. لكن على مسافة أبعد، كان يبدأ عالم الجُزر وبعده يمكن الوصول إلى القارة حيث يمكن لواحد مثله أن يضيع في الغابة ويقول أنه قد عاد. وإلى الورا كانت سلسلة الجبال، والهنود، والهضبة. لم يشأ النظر صوب الورا. استتشق بعمق ونظر صوب البحر كأنه ينظر صوب تعويذة للحرية والإمتلاء. نزع الطفل قيود الخجل وجرى صوب الخلاسى؛ ولم يصل عناقهُ إلا إلى ضلوع لونيرو.

- لا تذهب، يا لونيرو.

- أيها الطفل كروث، بحق الرب؛ ماذا يمكننا أن نفعل؟

ربت الخلاسى المضطرب على شعر الصبى ولم يستطع تجنب تلك السعادة، ذلك الإمتنان، تلك اللحظة التى خشى دائماً أن تكون بالغة الإيلام. رفع الطفل رأسه:

- يجب على أن أحدثهم وأقول لهم أنك لا يمكنك الذهاب...

- هناك فى الداخل؟

- نعم، فى المنزل الكبير.

- إنهم لا يريدوننا هناك، أيها الطفل كروث، لا تدخلن هناك أبداً.

تعال، هيا نواصل عملنا. لن أذهب طوال أيام كثيرة. ومن يدري فربما لن أذهب أبداً.

استقبل نهر الأصيل الصاحب جسد لونيرو الذى غطس كى يتجنب كلمات وملمس رفيقه الفتى، رفيق حياته كلها. عاد الصبى إلى عمل الشموع وعاود الإبتسام حين تظاهر لونيرو، وهو يسبح ضد التيار، بالترقيص مثل غريق، وانطلق مثل سهم وتشقلب فى الماء، وعاود الظهور وبين أسنانه عصا وبعدها، على الضفة، نفض نفسه من الماء وأصدر أصواتاً هزلية، وفي النهاية، جلس وظهره للصبى، أمام قطع اللحاء المصنفرة، وتناول الشاكوش والمسامير. كان عليه أن يفكر فى الأمر من جديد: لن يتأخر ملاحظ العمال الآن. فقد غابت الشمس خلف قمم الأشجار. قاوم لونيرو التفكير فيما يجب أن يفكر فيه؛ كان نصل المرارة يقطع سعادته، التى صارت مفقودة.

- أحضر مزيداً من الصنفرة من الكوخ - قال للصبى، متيقناً من

أن تلك هى كلمات وداعه.

كان باستطاعته الذهاب هكذا، بقميصه وبنتطونه الدائمين. لماذا

يحمل أكثر؟ الآن وقد غابت الشمس، سيقف مراقباً عند مدخل الدرب، حتى لا يقترب الرجل ذو المعطف من الكوخ.

- نعم - قالت لوديبينيا -: باراكوا تفهمنى كلَّ شئ. كيف نعيش على عمل الطفل والخلاسى. أتريد الإعراف بهذا؟ أننا نأكل بفضلها. ولا تدرى أنت ما تفعل؟

كان من الصعب فهم صوت العجوز الحقيقى؛ فمن طول إعتيادها على الغممة الوحيدة، كان ينبثق بصمت وثقل نبع كبريتى.

- ... ما كان سيفعله أبوك وأخوك: أن تخرج للدفاع عن ذلك الخلاسى وعن الطفل، أن تمنعهم من أخذه... وإذا لزم الأمر، أن تضحى بحياتك حتى لا يدوسونا... هل ستخرج أنت أم أخرج أنا، أيها المنتهك؟... أحضر الطفل إلى!... أريد الحديث معه...

لكن الطفل لم يكن يميّز الأصوات، ولا حتى الوجوه: لم يتبين سوى الظلّين. خلف ستار الدانتيل، الآن بينما لوديبينيا، بإيماءة نفاذ صبر، تأمر السنيور پدريتو بأن يشعل الشموع. إبتعد الطفل عن النافذة وبحث، سائراً على أطراف أصابعه، عن واجهة المنزل الكبير، بأعمدته المكسوة بالسناج والشرفة المنسيّة حيث تتدلى شبكة النوم التى تُستخدم خلال الإحتفالات المستوحدة. وثمة شئ آخر: فوق عارضة الباب العليا، معلقة من حلقتين صدئتين، كانت البندقية التى حملها السنيور پدريتو تحت سرجه تلك الليلة من عام ١٨٨٩ والتى أبقاها منذ ذلك الحين مُزيّنة وجاهزة، بمثابة ملاذٍ أخير لجُبْنه، عارفاً أنه لن يستخدمها أبداً.

كانت الماسورة المزدوجة تلمع أكثر من العتبة البيضاء. اجتازها الصبى: ما كانت من قبل صالة المنزل كانت قد فقدت الأرضية والسقف؛ كان الضوء الأخضر لساعات الليل الأولى يدخل مُنهماً، مضيئاً أرضاً من العشب والرماد، حيث تتق بعض الضفادع، وفي

الأركان، تجمعت مياه المطر. بعدها إنفتح الفناء الملئ بالحشائش وفي العمق أظهر بابٌ خطَّ الضوء للغرفة المسكونة. تصاعدت الأصوات الصادرة من هناك. ومن الطرف المقابل - ما تبقى من المطبخ القديم - ظهرت الهندية باراكوا، بعينين غير مُصدقتين: أخفى الطفل وجهه في عتمة الصالة. خرج إلى الشرفة واستغلَّ الطوب المكسور ليبلغ عارضة الباب العليا والبندقية. تصاعد ضجيج الأصوات. كانت تصل إليه في مزيج من الغضب الحاد والاعتذارات المغممة. وأخيراً، خرج من المخدع شبحٌ طويل: كانت أذيالُ معطف الفراك ترتطم بقوة والحداء الجلدي يُدوى فوق بلاط الدهليز. لم ينتظر الصبي فقد كان يعرف الطريق الذي ستسلكه هاتان القدمان؛ جرى والبندقية بين ذراعيه عبر الدرب المؤدى إلى الكوخ.

وكان لونيرو منتظراً، بعيداً عن المنزل الكبير وعن الكوخ، في الموضع الذي تلتقى فيه طُرُق الأرض الحمراء. لابد أنها السابعة مساءً. الآن لا يمكن أن يتأخر. تفحص إتجاهي الطريق الواسعة. لابد أن حصان ناظر العمال ذاك سيثير سحابة ضخمة من الغبار. لكن ليس ذلك الدوى البعيد، ذلك الانفجار المزدوج الذي سمعه لونيرو خلفه والذي منعه للحظة من الحركة أو التفكير.

لأن الصبي كان قد رى بين أوراق الشجر وبين يديه البندقية، خائفاً أن تبلغه الخطوات ورأى مرور الحداء الضيق، والبنطلون الرصاصي وأطراف المعطف: نفس معطف الأمس: لم يعد لديه شك، خصوصاً حين دخل ذلك الرجل الذي لا وجه له الكوخ وصاح: - لونيرو! وتبين الصبي في صوته النافذ الصبر الإنزعاج والتهديد اللذين كان قد لاحظهما بالأمس في حركات الرجل ذي المعطف الذي بحث عن الخلاسى. من كان سيبحث عن الخلاسى، إن لم يكن لأخذه بالقوة؟ وكانت البندقية ثقيلة، بقوة أطالت الحنق الصامت للطفل:

حنقُ لأنه عرف الآن أن للحياة أعداء ولم تعدْ ذلك الانسياب الذى لا ينقطع للنهر وللعمل؛ حنقُ لأنه الآن إكتشف الإنفصال. خرجت من الكوخ الساقان المكسوتان بالبنطلون، والمعطف الرصاصى اللون وصوب هو الماسورة المزدوجة إلى أعلى وضغط الزناد.

- كروث! يا بنى العزيز! - صرخ لونيرو حين إقترب من السحنة المحطمة للسنيور پدريتو، من الصديرى الملطخ بالأحمر، من الإبتسامة المفتعلة للموت المياغت - كروث!

والصبى، حين خرج مرتجفاً من بين الأوراق، لم يكن لديه سببٌ لتمييز ذلك الوجه المغمور بالدم والبارود، وجه رجل كان يراه دائماً عن بعد، شبه عار من الثياب، بدمجانة الخمر المرفوعة والفانلة المثقوبة فوق صدر أجردٍ وشاحب. لم يكن هذا هو ذاك، كما لم يكن هو السيد النبيل الذى هبط من مدينة مكسيكو، أنيقاً ومهندياً؛ من كان لونيرو يتذكره؛ كما لم يكن هو الطفل الذى هدهدته، منذ سبعين سنة، يدا لوديبينيا منشاكا: كان مجرد سحنة دون ملامح، وصديرى ملطخ بالدم، وتقطيبة حمقاء. وليس ثمة سوى زيز الحصاد. لم يتحرك لونيرو والطفل، لكن الخلاسى فهم. مات السيد على يديه. وفتحت لوديبينيا عينيها، بللت سبائبها بشفتيها وأطفأت شمعة رأس الفراش: سارت نحو النافذة، وهى تحبو تقريباً. شئٌ ما قد حدث. كانت النجفة قد عاودت الطقطقة. حدث إلى الأبد. وقد أرجفتها الطلقة المزدوجة. أنصتت إلى الأصوات الضائعة، حتى خبت وعاودت الحشرات الطنين. ليس ثمة سوى زيز الحصاد. تكوَّرت باراكوا في المطبخ؛ تركت النار تنطفئ وارتجفت وهى تفكر في أن أزمنة البارود قد عادت. كذلك لم تتحرك لوديبينيا، حتى غلبها في الصمت ذلك الغضب الحاد الذى لم يتسع له سجن المخدع فخرجت تتمثر، ضئيلة تحت السماء الليلية التى تطلُّ من كل فجوات المنزل

المحترق، دودة صغيرة بيضاء ومُجعدة تمتد ذراعيها على أمل أن تلمس هيئة أدمية عرفت طوال ثلاثة عشر عاماً أنها قريبة، لكنها الآن فقط تود أن تلمسها وتتادىها بإسمها، بدل أن تتركها تنمو في حدسها: كروث، كروث* دون اسم ولا لقب حقيقيين، عمده الخلاسيون، بمقاطع إيسابيل كروث أو كروث إيسابيل، الأم التي طردها أتاناسيو منها لاً عليها ضرباً: أول امرأة في المكان تمنحه طفلاً. تجاهلت العجوز الليل؛ إرتجفت ساقاها، لكنها أصرت على السير، على جرجرة نفسها وذراعاها مفتوحتان، مستعدة لملاقاة آخر عناق في حياتها. لكن لم يقترب سوى ضجيج الحوافر ذاك وتلك السحابة من الغبار. سوى ذلك الجواد المتصبب عرقاً والذي توقف صاهلاً حين عبرت الطريق تلك الهيئة المحدودة للوديينيا وصرخ ملاحظ العمال من فوق السرج:

- أين ذهب الطفل والزنجى، أيتها العجوز الماكرة؟ أين ذهب، قبل أن أطلق عليهما الكلاب والجنود؟

ولم تعرف لوديينيا كيف تجيب إلا بقبضة عصبية، تهزها في الليل وبلعنتها الطبيعية:

- - أيها المنتهك - قالت للوجه الذي لم تستطع رؤيته، الجالس عالياً فوق سرجه - . أيها المنتهك: كررت وزفرات الحصان قريبة من قبضتها المرفوعة.

إلتف السوط على ظهرها وسقطت لوديينيا على الأرض، بينما دار الحصان حول نفسه، وغمرها بالتراب وانطلق بعيداً عن الضيقة.

* كروث Cruz : تعنى الصليب. وقد جرت العادة في التقاليد الكاثوليكية على إطلاق لقب الصليب (كروث) على من لا يُعرف له أبٌ محدد -م

أنا أعرف أنهم يخرقون جلدَ مرفقى بتلك الإبرة؛ أصرخ قبل أن أحسَّ بأى ألم؛ إنذار ذلك الألم يسافر إلى مخيَّ قبل أن يحسَّ به جلدي... آه... كى يحذرنى من الألم الذى سأحسُّه... كى أتأهب حتى أنتبه... حتى أحس بالألم بقوة أكبر... لأن الإنتباه... يُضعف... يُحوِّلنى إلى ضحية... حين أنتبه... للقوى التى لن تستشيرنى... لن تضعنى في الاعتبار... بعد: أجهزة الألم... الأبطأ... تهزم أجهزة رد فعلى الإنعكاسى... ألم لم يُعدْ... ألم الحقنة... بل هو ذاته... أعرف... أنهم يلمسون بطنى... بحرص... البطن المنتفخة... الطريّة... الزرقاء... يلمسونها... لا أحتمل... يلمسونها... بتلك اليد المفسولة بالصابون... ذلك الإحتكاك الذى يحلق بطنى، وعانتى... لا أحتمله... أصرخ... لا بد أن أصرخ... يمسكون... ذراعى... كتفى... أصرخ أن يتركونى... أن يتركونى أموت فى سلام... لا تلمسونى... لا أحتمل أن تلمسوا... تلك المعدة الملتهبة... الحساسية... مثل عين مجروحة... لا أحتمل... لا أدرى... يوقفوننى... يسندوننى... لا تتحرك أمعائى... لا تتحرك، الآن أحسُّ بذلك، الآن أعرف ذلك... الغازات تتنفخ، لا تخرج، تشلُّ... لا تنساب... تلك السوائل التى كان يجب أن تنساب، لم تعد تنساب... تُورِّمنى... أعرف... ليست لدى حرارة... أعرف... لا أعرف إلى أين أتحرك، فمن أطلبُ العون، التوجيه، حتى أنهض وأمشى... أدفع... أدفع... لا يصل الدم... أعرف أنه لا يصل إلى حيث كان يجب أن يصل... كان يجب أن يخرج من فمى... من إستى... لا يخرج... لا يعرفون... يُخمنون...

يتحسّسون قلوبى المتسارع... يلمسون معصمى الذى لا
نبض فيه... أنثنى... أنثنى إلى اثنين... يمسوننى من إبطى...
أنعس... يمدّدوننى... أنثنى... أنعس... أقول لهم... لا بد أن أقول لهم
قبل أن أنعس... أقول لهم... لا أدري من هم... "لنعبّر النهر... على
صهوة الجياد"... أشمّ نفسى ذاته... العطن... يمدّدوننى... ينفّث
الباب... تنفتح النوافذ... أجرى... يدفعوننى... أرى السماء... أرى
الأضواء الزائفة التى تمرّ أمام بصرى... ألمس... أشمّ... أرى...
أذوق... أسمع... يحملوننى... أمرّ بجانب... بجانب... فى دهليز...
مُزَيّن... يحملوننى... أمرّ بجانب وأنا ألمس، وأشمّ، وأذوق، وأرى ،
وأشمّ المنحوتات الباذخة - الترصيعات الوافرة - المصبوبات من الجصّ
والذهب - الصناديق المطعمة بالعظم والصندف - الأقفال والمزاليج -
الخزائن ذات المصاريح وفتحات المفاتيح الحديدية - المقاعد الفوّاحة
من الصنوبر المكسيكى - كراسى الجوقة - الحلّيات العليا والأفاريز
السُّفلى الباروكية - مساند المقاعد المحنية - الدعامات المخروطة -
الأقنعة المتعدّدة الألوان - المسامير البرونزية - الجلود المنقوشة - أقدام
الموبيليا ذات المخالب والكُرّات - المقاعد المكسوّة بالدمقس - عبايات
الكهنة ذات الخيوط الفضية - الأرائك المخملية - موائد قاعات الطعام
- الأوانى والجرار - أسطح الموائد المشطوفة الحافة - الأسرة ذات
المظلات والطنافس - الأعمدة المُحرّزة - شعارات النبالة والحواف
المنقوشة - الأبسطة الصوفية - المفاتيح الحديدية - اللوحات الزيتية
المتشقّقة - أقمشة الحرير والكشمير - الأصواف والتافتاه - آنية
الكريستال والقناديل - الأطباق المرسومة يدوياً - دعامات السقف
الدافئة - هذا لن يمسّوه... هذا لن يكون ملكهم... الأجفان... يجب أن
أفتح أجفانى... إفتحوا النوافذ... أتدحرج... يداى ضخمتان...
قدمائى هائلتان... أنام... الأضواء التى تمرّ أمام جفونى المفتوحة...

أضواء السماء... إفتحوا النجوم... لا أدري...

أنت ستكون هناك، فوق أولى قمم الجبل الذي سيزداد وراءك
ارتفاعاً وتمددًا... وعند قدميك، سينحدر السفح الذي مازال ملتفًا
بالأغصان الوارفة والصرير الليلي، حتى يذوب في السهل الإستوائى،
بساط الليل الأزرق الذى سيرتفع كروياً وشاملاً كل شئ... ستتوقف
عند أول منبسطٍ من الصخور، ضائعاً في عدم الفهم المضطرب لما قد
حدث، لنهاية حياةٍ إعتقدت سراً أنها أبدية... حياة الكوخ الملتف في
شبكة أزهار الريف، حياة الإستحمام والصيد في النهر، حياة العمل
في شمع الآس، حياة صحبة الخلاسى لونيرو... لكن في مواجهة
إختلاجك الداخلى... دبوس في الذاكرة، وآخر في حدس المستقبل...
سينفتح هذا العالم الجديد لليل والجبل وسيبدأ ضوؤه الداكن في شق
طريقه في العينين، الجديدتين أيضاً والمصطبغتين بما كف عن كونه
حياة ليتحول إلى ذكرى، بطفل سينتمى الآن إلى ما لا يمكن ترويضه،
إلى ما هو غريب عن قواه الذاتية، عن إتساع الأرض... متحرراً من
حتمية موضع وميلاد... مُستعبداً لمصير آخر، هو الجديد، المجهول،
الذى يتبرعم خلف سلسلة الجبال التى تضئوها النجوم. جالساً،
مستعيداً أنفاسك، ستفتح على البانوراما الشاسعة المباشرة: سيصل
إليك ضوء السماء المحتشدة بالنجوم مُتصلاً ودائماً... ستدور الأرض

في مسارها المنتظم حول محور خاص بها حول شمس مُتسيّدة... ستدور الأرض والقمر حول نفسيهما وأحدهما حول الآخر وسيدوران كلاهما حول المجال المشترك لجاذبيتهما... ستتحرك كلُّ توابع الشمس داخل حزامها الأبيض وسيتحرك سيلُ البارود السائل في مواجهة المجموعات الخارجية، حول هذه القبة الصافية لليل الاستوائي، في الرقصة الأبدية للأصابع المتشابكة، في الحوار الكوني دون إتجاه ودون حدود... وسيواصل الضوء الخافق غمرك، أنت، والسهل، والجبل بإصرار غريب عن حركة النجمة وعن دوران الأرض، والكوكب، والنجم، والمجرة، والسديم؛ غريب عن الإحتكاكات، والتلاحمات، والحركات المرنة التي توحد وتضغط قوة العالم، والصخر، ويديك المشتبكتين تلك الليلة في أول تعجّب منذهل... ستودّ تثبيت بصرك في نجمة واحدة فقط والتقاط كلِّ ضوئها، ذلك الضوء البارد، اللامرئى مثل اللون الأرحب لضوء الشمس... لكن ذلك الضوء لا يجعل الجلد يحسّ به... ستزُرْ عينيك وفي الليل مثلما في النهار لن تستطيع رؤية اللون الحقيقي للعالم، المحظور على عيون البشر... ستتوه، شاردأ، في تأمل الضوء الأبيض الذي سيخترق حَدَقَتِكَ بإيقاعه الموزون والمتقطع... من كلِّ منابعه، سيبدأ كلُّ ضوء الكون سيره السريع والمنحنى، منطوياً حول الحضور العابر للأجرام النائمة للكون ذاته... عبر التركيز المتحرك لما هو ملموس، ستشتبك أقواس الضوء، وتتفصل وستخلق في دوامها السريع الإطار الكلي، هيكل الكون... ستحسُّ بوصول الأضواء وفي نفس الوقت... بقرب النكهات الضئيلة للجبل والسهل: الأس والپاپايا، عبق الليل والتاباتشين*، صنوبر الخشب وزنبق - الغار، الفانيليا والتيكوتيهوى**، البنفسج البرّي، الميموزا، زهرة

* tabachín : اسم شعبى لشجيرة تكثر في المكسيك-م

** tecotehue : نبات عطري.

النمر... سترها تتراجع بوضوح، وتفوص باستمرار إلى الخلفية، في
إنحسار مثير للدُّوار لمدُّ الجُزر الثلجية... أبعد باستمرار عن الإنفتاح
الأول والتفجر الأول... سيندفع الضوء نحو عينيك؛ وسيندفع في نفس
الوقت نحو الحافة الأبعد للفضاء... ستتشبُّ يدك في المستقر
الصخري وستغمض عينيك... ستعاود سماع الطنين القريب لزيز
الحصاد، وثغاء قطيع شارد... سيبدو أن كلَّ شئ يسير، في لحظة
العيون المغمضة تلك، وفي وقت واحد، إلى الأمام، وإلى الوراء، وإلى
الأرض التي تسنده... ذلك الصقر الذي يطير مُقيّداً بالإنجذاب إلى
أعمق إنعطافات نهر إقليم بيراكروث والذي سيحط بعدها على ثبات
صخرة بارزة، وسرعان ما يشرع في الطيران الذي سيقطع، في
موجات داكنة، الإصرار المتصل للنجوم... وأنت لن تحسَّ بشئ... لن
يبدو أن شيئاً يتحرك في الليل: ولا حتى الصقر سيقطع السكون...
ولن تحسَّ بالسير، والدوران، والحراك الإنهائي للكون في عينيك،
وقدميك، وعنقك الهادئة جميعاً... ستأمل الأرض النائمة... الأرض
كلها: الصخور والعروق المعدنية، وكُتل الجبل، وكثافة الريف المحروث،
وتيار النهر، والبشر والبيوت، والحيوانات والطيور، والطبقات المجهولة
للنار تحت - الأرضية، ستعارض الحركة غير القابلة للإنعكاس والتي لا
يمكن وقفها لكن هذه الأشياء لن تقاومها... ستلعب بحصاة، إنتظاراً
لوصول لونيرو والبغلة: ستلقيها في المنحدر كي تحقق دقيقة من
الحياة الخاصة بها، السريعة، الحيوية: شمساً ضئيلة تائهة، كاليدو
سكوباً سريعاً من الأضواء المزدوجة... تكاد تعادل في سرعتها سرعة
الضوء الذي يتضاد معها؛ وعلى الفور، تتحول إلى حبة ضائعة عند
قدم الجبل، بينما يتابع وميض النجوم سريانه من منبعه، بالسرعة
الكلية وغير المحسوسة... سيتوه بصرك في تلك الهاوية الجانبية التي
تدحرجت فيها الحصاة... ستسند ذقنك على كفك وسيبرز منظر

وجهك الجانبى فوق خط الأفق الليلى... ستكون أنت ذلك العنصر
الجديد فى المشهد والذى سرعان ما سيختفى ليبحث، على الجانب
الآخر من الجبل، عن المستقبل غير الأكيد لحياته... لكن الآن، هنا،
ستبدأ الحياة فى أن تصبح ماسياتى وستكف عن أن تكون مامضى...
وستموت البراءة، ليس بفعل الذنب، بل بفعل الدهشة العاشقة... على
كل هذا الإرتفاع، على كل هذا الإرتفاع، لم تكن أبداً... لم تكن قد
رأيت أبداً تقاطعات البراح... لن يعود القربُ المألوف للعالم الملتصق
بالنهر سوى بعد واحد لهذا الإتساع الهائل الذى لا يخطر على البال...
ولن تشعر بالضالة وأنت تتأمل وتتأمل، فى ذلك الإسترخاء الهادئ
لعدم اليقين، حشود السُحب النائية، والإنبساط المتماوج للأرض،
والصعود الرأسى للسماء... ستشعر إنك أفضل... منظمٌ وبعيد... لن
تعرف أنك فوق أرض جديدة، بزغت من البحر خلال الساعات
الآخيرة، بالكاد، لتلطم سلسلة جبال بأخرى وتكرمش مثل رق أطبقت
عليه اليدُ القوية للحقبة الثالثة... ستشعرُ أنك عال فوق الجبل،
متعامد على الريف، مواز لخط الأفق... وستشعرُ أنك فى الليل، فى
الزاوية الضائعة للشمس: فى الزمن... هناك فى البعيد، هل تكون تلك
المجرات، مثلما تبدو للعين المجردة، واحدةً بجوار الأخرى، أم يفصل
بينها زمنٌ لا يُحصى؟ سيدور كوكب آخر فوق رأسك وسيكون زمن
الكوكب مطابقاً لذاته: ربما يُستفدُ الدوران الداكن والنائى فى هذه
اللحظة، التى هى اليومُ الوحيد للعام الوحيد، المقياسُ الزئبقى،
المنفصل إلى الأبد عن أيام أعوامك... ذلك الزمن لن يكون الآن
زمنك، مثلما لن يكون حاضِر النجوم التى ستعاودُ أنت تأملها،
مُستشرقاً الضوء المنصرم لزمن غريب، ربما كان ميتاً... فالضوء الذى
ستراه عيناك لن يكون سوى شُبح الضوء الذى بدأ رحلته منذ سنواتٍ
عديدة، منذ قرونٍ عديدةٍ بحساب أيامك: هل ستكون تلك النجمة

ما زالت حية؟ ... ستكون حية بينما تراها عيناك ... ولن تعرف أنت إلا أنها كانت ميتة بينما تنظر إليها، إنها الليلة المستقبلية التي ينتهي فيها من الوصول إلى عينيك ذاتها - إن كان لا يزال موجوداً - الضوء الذي أنبثق فعلاً، في حاضر النجمة، حين كانت عيناك تتأملان الضوء العتيق وتحسبان أنهما تَعَمِدانه بنظرتيهما ... ميتٌ في منبعه ما سيكون حياً في حواسك ... ضائع، مُتَكَلِّسٌ، نبعُ الضوء الذي سيواصل رحلته، ولم يعد له منبعٌ، نحو عيني صبي ذات ليلة في زمن آخر ... في زمن آخر ... زمن سيمتلئ بالحياة، بالأفعال، بالأفكار، لكنه لن يكون أبداً فيضاً لا يلين بين أولى علامات الماضي وآخر علامات المستقبل ... زمن لن يوجد إلا في إعادة تركيب الذاكرة المعزولة، في تحقيق الرغبة المعزولة، ويضيع فور أن تتضرب فرصة الحياة، ويتجسّد في هذا الكائن الفريد الذي هو أنت، في طفل، قد أصبح عجوزاً محتضراً، يغازل في إحتفال غامض، هذه الليلة، الجسرات الصغيرة التي تتسلق صخور المنحدر والكواكب الضخمة التي تدور في صمت فوق العمق اللانهائي للفضاء ... لن يحدث شئ في الدقيقة الصامتة للأرض، ولقبة السماء، ولك ... ستوجد كل الأشياء، ستتحرك، وستتفصل، في نهر من التحولات التي، في تلك اللحظة، ستحلّها، وتجعلها تشيخ وتفسدها جميعاً، دون أن يرتفع صوت تحذير ... الشمس تحترق حية، والحديد يتهاوى إلى تراب، والطاقة التي بلا هدف تترسّب في الفضاء، والكتل تستنفد نفسها في الإشعاع، والأرض تبرّد موتاً ... وأنت ستتنظر خلاصياً وبهيمية حتى تعبر الجبل وتبدأ في الحياة، في ملء الوقت، في القيام بخطوات وحركات لعبة جنائزية ستتقدم فيها الحياة في نفس الوقت الذي تموت فيه الحياة؛ في القيام بخطوات وحركات رقصة جنونية سيلتهم الزمن فيها الزمن ولن يستطيع أحد أن يوقف، حياً، المسار الذي لا ينعكس للتلاشي ... الطفل، والأرض، والكون: ذات يوم،

لن يكون في الثلاثة لا ضوء، ولا حرارة، ولا حياة... لن يكون ثمة سوى الوحدة الكلية، المنسيّة، بلا إسم وبلا إنسان يُسمّيها: زمان ومكان ذائبين، مادة وطاقة... وسيكون لكل الأشياء نفسُ الأسم... لا إسم... لكن ذلك لم يحنّ بعد... فما زال البشرُ يولدون... وما زالت ستسمع الـ... "أووو" المبطوطة للونيرو وصوت السنابك فوق الصخر... وما زال قلبك سيدق بإيقاع متسارع، واعياً في النهاية بأن المغامرة المجهولة تبدأ من اليوم، بأن العالم ينفتح ويُقدم لك زمنه... أنت موجود... أنت واقف على قدميك في الجبل... أنت تجيبُ بصفير على ترديد لونيرو... سوف تحيا... سوف تكون نقطة إلتقاء وسبب النظام الكوني... فجسدك له سبب... وحياتك لها سبب... أنت الآن، وستكون، وكنت الكون متجسداً... من أجلك ستوقد المجرات وستشتعل الشمس... حتى تحبّ وتحيا وتكون... حتى تعثرُ على السرّ وتموت دون أن تستطيع مشاركة أحد فيه، لأنك لن تملكه إلا حين تُفمضُ عيناك إلى الأبد... أنت، على قدميك، كروث، ثلاثة عشر عاماً، على حافة الحياة... أنت، العينان خضروان، الذراعان نحيلتان، الشعر كسته الشمس بلون النحاس... أنت، صديق خلاسى منسى... أنت ستكونُ إسم الخلاسى... أنت ستسمع الـ "أووو" المبطوطة للونيرو... أنت تستلزم وجود كل لوحة الكون اللانهائية، التي لا قاع لها... أنت ستسمع السنابك فوق الصخر... فيك تتلامسُ النجمة والأرض... أنت ستسمع طلقة البندقية خلف صرخة لونيرو... وستسقط فوق رأسك، كأنها عادت من رحلة دون بداية ودون نهاية في الزمن، وعودُ الحب والوحدة، وعودُ الكراهية والجهد، وعودُ العنف والرقّة، وعودُ الصداقة وخيبة الأمل، وعودُ الزمن والنسيان، وعودُ البراءة والدهشة... أنت ستسمع صمت الليل، دون صرخة لونيرو، ودون صدى السنابك... في قلبك، المفتوح على الحياة، هذه الليلة؛ في قلبك المفتوح...

(١٨٨٩ : ٩ أبريل)

هو منطو على نفسه، في مركز تلك التقلصات، هو، برأسه الداكنة من الدم، مُتدلياً، معلقاً بأشدّ الخيوط رقّة: مفتوحاً على الحياة، أخيراً. أمسك لونيرو بذراعى إيسابيل كروث أو كروث إيسابيل، شقيقته؛ أغمض عينيه حتى لا يرى ما يجري بين ساقى شقيقته المفتوحتين. سألها، مُخفياً وجهه:

"- هل أحصيت الأيام؟" ولم تستطع هي الإجابة لأنها كانت تصرخ، تصرخ إلى الداخل، وشفتاها مضمومتين، وأسنانها مُطبقة وأحسّت أن الرأس قد ظهرت فعلاً، أنه قد جاء فعلاً بينما كان لونيرو يمسكها من كتفها، وحده لونيرو، بإناء الماء الذي يغلى فوق النار، والمطواة واللفافات الجاهزة وكان هو يخرج من بين ساقها، يخرج تدفعه تقلصات البطن، التي تزداد تتابعاً باستمرار وكان على لونيرو أن يُفلت كتفي كروث إيسابيل، إيسابيل كروث، ويركع بين الساقين المفتوحتين، ويتلقى تلك الرأس الرطبة، السوداء، والجسد الصغير اللزج، المربوط بكروث إيسابيل، إيسابيل كروث، الجسد الصغير المنفصل أخيراً، الذي تلقّته يدا لونيرو، الآن وقد كَفَّت المرأة عن الأنين، وتنفست، أطلقت لهاثاً ثقيلاً، وجففت براحتيها البيضاوين عرق وجهها، وبحثت، بحثت عنه، مدّت ذراعيها: قطع لونيرو الحبل السُّرى، وربط طرفه، وغسل جسده، ووجهه، وهدده، وقبله،، وأراد أن يعطيه لشقيقته لكن

إيساييل كروث، كروث إيساييل كانت تئنُ بتقلُّص جديد وكان الحذاء يقترب من الكوخ الذى تتمدد فيه المرأة فوق التربة اللينة، تحت سقف سعف النخيل، كان الحذاء يقترب ولونيرو يمسك بذلك الجسد ورأسه إلى أسفل، ويضربه براحته المفتوحة حتى يبكى، حتى يبكى بينما كان الحذاء يقترب: بكى: بكى هو وبدأ يحيا...

أنا لا أعرف... لا أعرف... هل هو أنا... هل كنت أنت هو... هل أنا ثلاثتا... أنت... أنا أحملك داخلى وسوف تموت معى... يا إلهى... هو... حملته فى داخلى وسوف يموت معى... ثلاثتا... الذين تكلموا... أنا... سأحمله فى داخلى وسيموت معى... وحيداً...

أنت لن تعودَ تعرف: لن تتعرَّف على قلبك المفتوح، هذه الليلة، قلبك المفتوح... يقولون "مشرط، مشرط"... أنا أسمع ذلك فعلاً، أنا من أظل أعرف حين لا تعودُ أنت تعرف، وقبل أن تعرف... أنا من كنت هو، سأكون أنت... أنا أسمع، فى عمق الزجاج، خلف المرأة، فى العمق،

إلى أسفل، فوقك أنت وهو... "مشرط"... يفتحونك... يكونك...
يفتحون جدران بطنك... تقطعها السكين الرفيعة، الباردة، الدقيقة...
يعثرون على ذلك السائل في بطنك... يقطعون تجويف حرقفتك...
يعثرون على تلك الحزمة من الطيات المعوية المتهيجة، المنتفخة، المتصلة
بالمساريقا الصلبة والمحتقنة بالدم... يعثرون على تلك الشريحة من
الفرغرينا الدائرية... المغموسة في سائل له رائحة عفنة... يقولون،
يكرّرون... "إحتشاء"... "إحتشاء في المساريقا"... ينظرون إلى
أمعائك المتمددة، بلون أحمر قان، شبه أسود... يقولون...
يكرّرون... "نبض"... "درجة حرارة"... "ثقب بالإبرة"... الأكل،
القضم... السائل التزيفي يطفّر من بطنك المفتوحة... يقولون،
يردّدون... "لا فائدة"... "لا فائدة"... الثلاثة... ذلك التجلط ينفصل،
سينفصل عن الدم الأسود... سيسيل، سيتوقف... توقف... صمتك...
عيناك المفتوحتان... بلا رؤية... أصابعك المثّلجة... بلا ملمس...
أظافرك السوداء، الزرقاء... فكاك المرتعشان... أرتيميو كروث...
إسم... "لا فائدة"... "قلب"... "تدليك"... "لا فائدة"... لن تعود
تعرف... حملتك بداخلي وسأموّت معك... ثلاثتا... سنموت...
أنت... تموت... أنت مت... سأموّت.

هافانا، مايو ١٩٦٠

مكسيكو، ديسمبر ١٩٦١

المشروع القومى للترجمة

ت . أحمد درويش	جون كوين	اللغة العليا (طبعة ثانية)
ت . أحمد فؤاد بليغ	ك. مانهو بانيكار	الوثنية والإسلام
ت . شوقي جلال	جورج جيمس	التراث المسروق
ت . أحمد الحضري	انجا كارييتكوفنا	كيف يتم كتابة السيناريو
ت . محمد علاء الدين منصور	إسماعيل فصيح	ثريا فى غيبوبة
ت . سعد مصلوح / وفاء كامل فايد	ميلكا إفيتش	اتجاهات البحث اللساني
ت . يوسف الأنطكي	لوسيان غولمان	العلوم الإنسانية والفلسفة
ت . مصطفى ماهر	ماكس فريش	مشعلو الحرائق
ت : محمود محمد عاشور	أنثرو س. جودي	التغيرات البيئية
ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر طلي	جيرار جينيت	خطاب الحكاية
ت . هناء عبد الفتاح	فيسوفا شيمبوريسكا	مختارات
ت . أحمد محمود	ديفيد براونستون وايرين فرانك	طريق الحرير
ت . عبد الوهاب علوب	روبرتسن سميث	ديانة الساميين
ت : حسن المودن	جان بيلمان نويل	التحليل النفسي والأنب
ت : أشرف رفيق عفيفي	إيوارد لويس سميث	الحركات الفنية
ت : لطفى عبد الوهاب / فاروق القاضي / حسين	مارتن برنال	أثينة السوداء
الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب		
ت . محمد مصطفى بدوي	فيليب لاركين	مختارات
ت : طلعت شاهين	مختارات	الشعر النسائي فى أمريكا اللاتينية
ت : نعيم عطية	جورج سفيريس	الأعمال الشعرية الكاملة
ت : يعنى طريف الخولى / بدوي عبد الفتاح	ج. ج. كراوثر	قصة العلم
ت : ماجدة العناني	صمد بهرنجي	خوخة وألف خوخة
ت . سيد أحمد على الناصري	جون أنتيس	مذكرات رحالة عن المصريين
ت . سعيد توفيق	هانز جيورج جادامر	تجلى الجميل
ت . بكر عباس	باتريك بارنر	ظلال المستقبل
ت . إبراهيم الدسوقي شتا	مولانا جلال الدين الرومي	مثنوى
ت . أحمد محمد حسين هيكل	محمد حسين هيكل	بين مصر العام
ت . نخبه	مقالات	التنوع البشرى الخلاق
ت : منى أبو سنه	جون لوك	رسالة فى التسامح
ت : بدر الديب	جيمس ب. كارس	الموت والوجود
ت : أحمد فؤاد بليغ	ك. مانهو بانيكار	الوثنية والإسلام (ط ٢)
ت . عبد الستار الطوجي / عبد الوهاب علوب	جان سوفاجيه - كلود كاين	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى
ت : مصطفى إبراهيم فهمي	ديفيد روس	الانقراض
ت . أحمد فؤاد بليغ	أ. ج. هويكنز	التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية
ت : د. حصة إبراهيم المنيف	روجر آلن	الرواية العربية

الأسطورة والحادثة	بول . ب . بيكسون	ت . خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت . حياة جاسم محمد
واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
نقد الحداثة	آلن تورين	ت . أنور مغيث
الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت . منيرة كروان
قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ملجد
عالم ماك	بنجامين باربر	ت . أحمد محمود
اللهب المزوج	توكثافيو پاث	ت . المهدي أخريف
بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت . مارلين تادرس
التراث المغفور	روبرت ج نيا - جون ف أ فاين	ت . أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاني
الإسلام فى البلقان	ه . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت . محمد يرادة وعثمانى الميود ويوسف الأشطكى
مسار الرواية الإسبانية أمريكية	داريو بيانوييا وخ . م بيناليستى	ت . محمد أبو العطا
العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت . لطفي فطيم وعادل بمرdash
الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجاتون	ت : مرسى سعد الدين
المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت . على يوسف على
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت . محمود على مكى
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت . محمود السيد ، ماهر البيوطى
مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت . محمد أبو العطا
المحبرة	كارلوس مونييث	ت . السيد السيد سهيم
التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
لذة النص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت . رمسيس عوض .
خمس مسرحيات أندلسية	نطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالتين راسبوتين	ت . أشرف الصباغ
العالم الإسلامى فى أولل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت . أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج روبريجت	ت . عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت . فؤاد مجلى
نقد استجابة القارئ	جين . ب . توميكنز	ت . حسن ناظم وعلى حاكم
صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومى
فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت . أحمد درويش
چاك لاكان وإغواء التطيل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت . عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٢	ريبيه ويليك	ت . محاهد عبد المنعم مجاهد
العولة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكوثية	رونالد روبرتسون	ت . أحمد محمود ونورا أمين
شعرية التأليف	يوريس أوسبنسكى	ت . سعيد الغانمى وناصر حلاوى
بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت . مكارم الغمرى
الجماعات المتخيلة	بيدكت أندرسن	ت . محمد طارق الشرقاوى
مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامويو	ت : محمود السيد على
مختارات	غوتفريد بن	ت . خالد المعالى
موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت . عبد الرازق بركات
طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحي يوسف شتا
مون والقلم	جلال آل أحمد	ت . ماجدة العنانى
الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت . إبراهيم النسوقى شتا
الطريق الثالث	أنتونى جيدر	ت . أحمد زايد ومحمد محيى الدين
وسم السيف	ميجل دى ترباتس	ت . محمد إبراهيم مبروك
المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت . محمد هناء عبد الفتاح
أساليب ومضامين المسرح		
الإسبانيوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
محدثات العولة	مايك فينرستون وسكوت لاش	ت . عبد الوهاب غلوب
الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت . فورية العشماوى
مختارات من المسرح الإشباني	أنطويو بويرو بايخو	ت . سرى محمد محمد عبد اللطيف
ثلاث زنيقات ووردة	قصص مختارة	ت . إيوار الخراط
هوية فرنسا	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت . إبراهيم قنديل
مساعدة العولة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت . إبراهيم فتحي
النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت . رشيد بنحو
السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإنريسي
قبر ابن عربى يليه آباء	عبد الوهاب الموب	ت . محمد بنيس
أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت . عبد الغفار مكاوى
مدخل إلى النص الجامع	جيرارچينيت	ت . عبد العزيز شبيب
الأدب الأندلسى	د . ماريا خيسوس روبيرامتى	ت . د . أشرف على دعور

صورة الفنان في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت - محمد عبد الله الجعفيدي
ثلاث دراسات عن الشعر الأنطيسي	مجموعة من النقاد	ت - محمود علي مكي
حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت - هاشم أحمد محمد
النساء في العالم النامي	حسنه بيجوم	ت - منى قطان
المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت - ريهام حسين إبراهيم
الاحتجاج الهادي	أرلين علوي ماركليود	ت - إكرام يوسف
راية التمرد	سادى پلانت	ت - أحمد حسان
مسرحيات حصاد كونجى وسكان المستنقع	ول شوينكا	ت - نسيم مجلي
غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت - سمية رمضان
امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت - نهاد أحمد سالم
المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلي أحمد	ت - منى إبراهيم ، وهالة كمال
النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت - ليس النقاش
النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنيل	ت - بإشراف/ رؤوف عباس
الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	لبنى أبو لغد	ت - نخبة من المترجمين
الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت - محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت - منيرة كروان
الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	بينل الكسندر وفنادوليا	ت - أنور محمد إبراهيم
الفجر الكاذب	جون جرائ	ت - أحمد قواد بليج
التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديشي	ت - سمحه الخولي
فعل القرامة	قولفانج إيسر	ت - عبد الوهاب علوب
إرهاب	صفاء فتحي	ت - بشير السباعي
الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت - أميرة حسن نويرة
الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أنيس جاروته	ت - محمد أبو العطا وآخرون
الشرق يصعد ثانية	أنثريه جوندر فرانك	ت - شوقي جلال
مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت - لويس بقطر
ثقافة العولة	مايك فينرستون	ت - عبد الوهاب علوب
الخوف من المرايا	طارق على	ت - طلعت الشايب
تشریح حضارة	باري ج. كيمب	ت - أحمد محمود
المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت - ماهر شفيق فريد
فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت - سحر توفيق
مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	جوزيف ماري مواريه	ت - كاميليا صبحي
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيقلينا تاروني	ت - وجيه سمعان عبد المسيح
النظرية الشعرية عند إليوت وأنتونيس	عاطف فضول	ت - أسامة إسبر
حيث يلتقي الأنهار	هربرت ميسن	ت - أمل الجبوري
اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت - نعيم عطية
الإسكندرية - تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت - حسن بيومي

LA MUERTE DE ARTEMIO CRUZ

تحتلُّ هذه الرواية مكانةً بارزةً إنتاج فوينتس الغزير والمتنوع. فقد كانت حجر الزاوية في صرح الشهرة العالمية التي نالها عن جدارة كواحد من أهم أقطاب كوكبة تجديد الكتابة الأمريكية اللاتينية في الستينات. وقد توجت هذه الشهرة بحصوله على جائزة ثريانتس - نوبل الآداب المكتوبة بالإسبانية - عام ١٩٨٧.

والرواية هي حوار مرايا، يديره فوينتس ببراعة تثير الإعجاب، بين جوانب شخصية تحتضر يتجسد فيها كل تاريخ المكسيك الحديث. نحن هنا أمام بنية سردية محكمة وغير مسبقة تطرح طموحاً بعيد المدى وتجريبيةً جسورة وإعادة إبتكار عميقة للغة وبذلك تكشف عن أبرز سمات مؤلفها: ولعه الذي يقارب الهوس بتاريخ المكسيك، الحاضر حضوراً طاغياً في كل كتاباته؛ وبراعته التقنية الهائلة التي تمنح هذه الرواية مذاقاً شديداً التفرد بين كل إبداع معاصريه.